

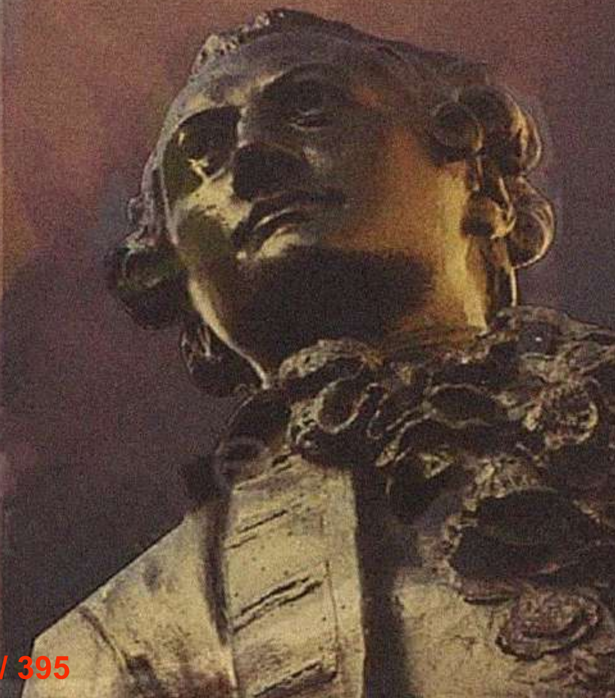
غوته و نابليون

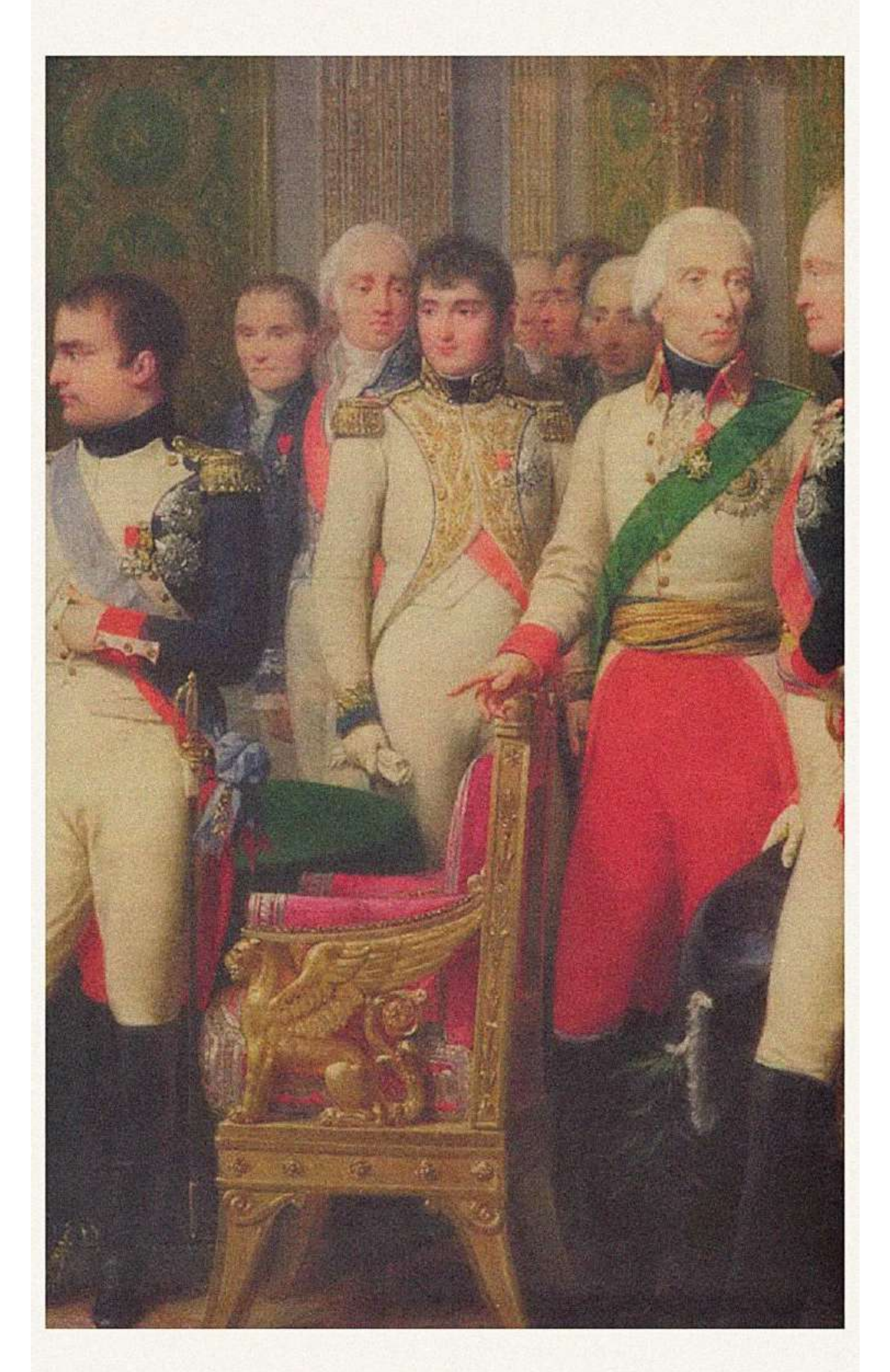
لقاء تاريخي

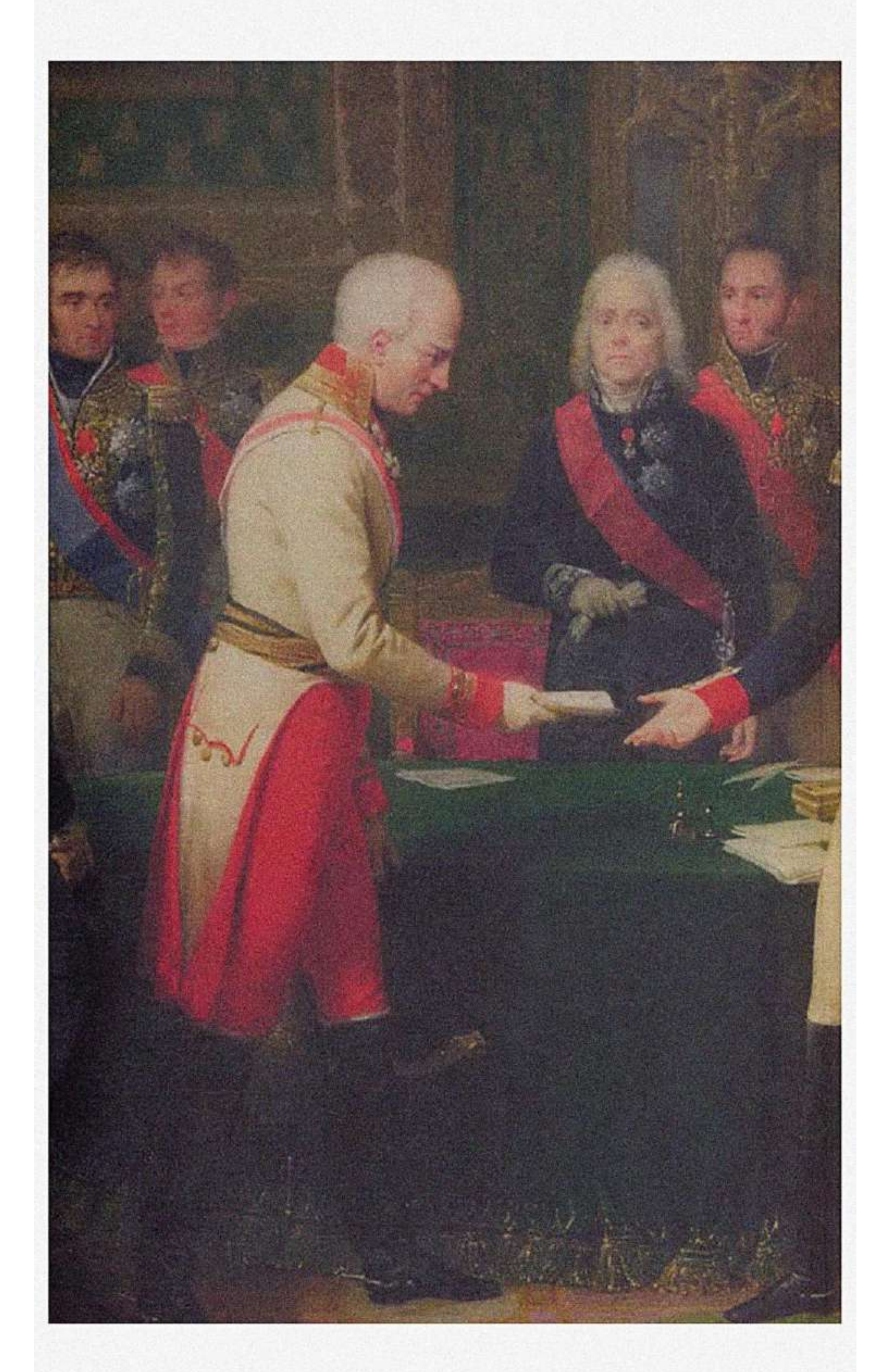
غوستاف سايبت

ترجمة: د. خليل الشيخ









غوستاف سايبت

غوته ونابليون

لقاء تاريخي



ترجمة: د. خليل الشيخ

مراجعة: مصطفى السليمان

الطبعة الأولى 1433هـ 2012م

PT2197.N2 S4512 2011
Seibt, Gustav, 1959-
[Goethe und Napoleon]
غوته ونابليون: لقاء تاريخي / تأليف غوستاف سايبت؛ ترجمة خليل الشيخ.- أبوظبي: هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، كلمة، 2011.
ص 398 ؛ 14×23 سم.
ترجمة كتاب: Goethe und Napoleon: eine historische Begegnung
تدمك: 978-9948-01-990-9
1 - Goethe, Johann Wolfgang von, 1749-1832
2 - Napoleon. I, Emperor of the French, 1769-1821
3 - نابليون، الأول، إمبراطور فرنسا، 1769-1821.
4 - فرنسا - التاريخ العسكري - ألمانيا. 5 - الأدب الألماني.
أ-شيخ، خليل.

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الألماني:
Gustav Seibt
Goethe und Napoleon



www.kalima.ae
ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 451 6515 2 971+ فاكس: 127 6433 2 971+



ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 171 6576 2 971+ فاكس: 127 6433 2 971+



مكتبة سور الازبكية
تليجرام
s://t.me/kotokha
@KOTOKHATAB



غوته ونابليون

لقاء تاريخي

المحتويات

تصدير المترجم

(1)

يتوقف هذا الكتاب الذي صدرت طبعته الأولى عام 2008 وأعيدت طباعته خمس مرات في غضون سنتين، عند اللقاء التاريخي المهم الذي وقع في إيرفورت عاصمة ولاية تورينغن في ألمانيا بين شاعر الألمان الكبير يوهان فولفجانج فون غوته (1749–1832)، وإمبراطور فرنسا نابليون بونابرت (1769–1821).

لم يكن غوستاف سايبت الناقد والمؤرخ الأدبي الألماني، أول من تناول هذا اللقاء، فقد ذكر سايبت في أدبيات كتابه الواسعة عدداً لا يستهان به من الكتب والمقالات التي تناولت هذا اللقاء في ألمانيا وفرنسا على امتداد قرنين من الزمان، وحلّل طبيعة تناول بعضها له في ثنايا كتابه وفي تذييله لهذا الكتاب. لكنّ سايبت كان يقدّم من خلال كتابه نظرة مستأنفة تحلل اللقاء من منظور نقدي معاصر لا يتوقف عند تلك اللحظة منفردة، بقَدْر ما يعرض لها في سياقها التاريخي العام وفي أبعادها الأدبية كما تتبدى في كتابات غوته ومعاصريه.

من المعروف أنّ غوته ذهب إلى هرتسوغية فايمار بدعوة من الهرتسوغ كارل أوغست عام 1775، وكان لغوته دور ثقافي مهمّ في هذه الهرتسوغية يعرض سايبت له على نحو تفصيلي وهو دور يتمثّل في الإشراف على الحياة الثقافية هناك، فقد كان غوته يشرف على المسرح في فايمار ويعقد حلقات النقاش والمناظرة مع أقرانه في جامعة يينا، ويمارس الكتابة النقدية في الصحيفة الأدبية الصادرة هناك.

لكن حياة غوته في فايمار، كما يرى سايبت، كانت بلاطيّة– أكاديمية وكانت فايمار تحتفي بتجربة غوته الجمالية والفكرية عموماً مثلما

كانت تحتفي بتجارب أدباء وفلاسفة آخرين أسهموا في بناء حركة فكرية خصبة من أمثال فيلاند (1733–1813) وهيردر (1744–1803) وشيللر(1759–1805)، أما في يينا التابعة لفايمار فقد كان يعيش كل من فيخته (1762–1814) وهيغل (1770–1830) وشيللينج (1775–1854) والأخوين شليجل (1767–1845).

غير أنّ تحولاً دراماتيكياً خطيراً وقع في حياة غوته وألمانيا عموماً بعد المعركة التي هزم فيها نابليون جيش بروسيا في الخامس عشر من تشرين الأول عام 1806، وهي المعركة التي عرفت باسم يينا وأويرشتيت وهددت مصير فايمار واضطر الهرتسوغ كارل أوغست إلى الهروب من وجه نابليون مدة من الزمن.

يتتبع سايت على نحو تاريخي دقيق ما طرأ على حياة غوته من تحولات، ويبدأ بتتبع هذه التحولات من الدائرة الصغرى إلى الدائرة الأوسع، فيفرد فصلاً مهماً لمنزل غوته في فراوين بلان يحّلل فيه على نحو متنام طبيعة هذه التحولات التي شهدها هذا المنزل.

كان غوته يشعر بالقلق والخوف جراء ما كان يشاهده وما يتنامى إلى سمعه من عقابيل هذا الاحتلال، وما نتج عنه من سلب ونهب وحرائق وفوضى صاخبة وهروب للقيادات وخاصة العسكرية منها.

ويوضح سايت أن غوته شرع منذ الأيام الأولى لدخول الفرنسيين إلى فايمار باستقبال عدد من كبار جنرالاتهم في منزله، الذين تكفلوا بحمايته والدفاع عن بيته بعد أن تعرضت منازل كثير من الشخصيات للنهب والحرق وتعرّضت النساء فيها للاغتصاب. وقد نال غوته بعض الترويع في بادئ الأمر، لكنّ الأمور عادت إلى طبيعتها بعد ذلك.

شرع غوته، مع عدد من المستشارين في بلاط فايمار، بتحمل مسؤوليات إضافية للوقوف إلى جانب الهرتسوغة لويزا زوجة كارل

أوغست الذي فر من وجه نابليون. وكانت لويزا قد استقبلت نابليون في القصر برباطة جأش بقي نابليون يشيد بها، على الرغم من أنه قال لها بقسوة وهي تستقبله: يؤسفني أيتها السيدة أنني سأقضي على زوجك!

لم يشعر غوته في بداية الاحتلال الفرنسي بالخوف على نفسه من التصفية الجسدية فحسب، بل بدأ يستشعر مثل هذا الخوف على مؤلفاته المخطوطة التي غدت، كما عبّر غوته في رسالة بعث بها إلى ناشر كتبه، شغله الشاغل في تلك الليالي النحسات. لكنّ حركة غوته في تلك الآونة على المستوى السياسي، توضح أنه كان جزءاً من سياسيّي الاسترضاء الذين يميلون إلى إقامة علاقة حسنة مع القوى الغالبة ويرفضون الدخول في صراع معها.

يمزج سايبت في تحليل خفايا هذه المرحلة بين الشخصي والعام. ففي الوقت الذي تراه يتتبع حركة غوته في بلاط فايمار مع عدد من المستشارين على المستوى السياسي، تراه يستعرض زواج غوته من كريستيانه (1765–1816) التي جاء زواجه منها كما أخبر غوته لوناً من رد الجميل، لوقوفها إلى جانبه في هذه الفترة الحرجة. ولعل من الطريف أن يشار إلى أن أوساط البلاط في فايمار فضلاً عن الطبقة الثرية قد وقفت من هذا الزواج موقفاً رافضاً، ولمّا قرر غوته أن يقدمها إلى صالون حنة شوبنهور (والدة الفيلسوف الشهير آرثر شوبنهور 1788–1860) قالت: إنه إذا كان غوته قدم لهذه المرأة اسمه، فلن أمانع في أن أقدم لها كوباً من الشاي!

(2)

في المدة الواقعة بين السابع والعشرين من أيلول والرابع عشر من تشرين الأول 1808، دعا نابليون إلى مؤتمر في إيرفورت في ألمانيا، ودعا

الملوك والهرتسوغات التابعين له لحضوره. وقد اصطحب نابليون معه عائلته وجنرالاته وشخصيات سياسية منهم السياسي تاليران الذي لعب دوراً مهماً في وقائع المؤتمر وما وراء الكواليس.

وقد طلب نابليون أن يأتي إلى المؤتمر خيرة ممثلي المسرح الفرنسي، فكان النجم الفرنسي تالما على رأس أولئك الممثلين. وكان هدف نابليون من حضور الفرقة المسرحية الفرنسية تقديم روائع التراجيديا الفرنسية لكل من فولتير وراسين وكورنيل للألمان، بغية التأثير فيهم. لذا أشرف نابليون بنفسه على البرنامج الخاص بالعروض المسرحية وتدخل في أصغر التفصيلات الخاصة بالعرض وأسلوب الإلقاء، وكان يتخذ القرار الخاص باختيار النص في الصباح ليتم عرضه مساء، وكان نابليون قد اشترط على هؤلاء الممثلين أن يحفظوا هذه النصوص المسرحية عن ظهر قلب. وكان من السهل على المشاهد أن يتبين الكيفية التي ينشد فيها الممثلون، من أجل إحداث التأثير المطلوب في الناظرين.

كانت المباحثات في إيرفورت تدور بين نابليون والقيصر الروسي الكسندر بافلوفيتش (1777–1825) الذي تولى الحكم في روسيا بعد اغتيال والده عام 1801، والذي سبق له أن عرف نابليون عندما زار باريس عام 1804.

كان نابليون يعرف أن شقيقة القيصر ماريا بافلوفنا (1786–1859) هي زوجة كارل فريدريش ولي عهد فايمار، لهذا لم يطل موقف نابليون العدائي منها، ولولا ذلك لكان مصير فايمار الهزيمة والزوال؛ لأن نابليون كان حريصاً على جذب القيصر الروسي؛ ليكون حليفاً له في مواجهة أعدائه خاصة النمسا.

كان غوته، مدير المسرح في فايمار، يتابع العروض المسرحية في إيرفورت من موقع العارف بالمسرح التراجيدي الفرنسي، وكان يجلس

في الصالة التي يجلس فيها هذان الإمبراطوران ويحرص، كما يبين سايت، على تأمل نابليون الذي بدأ إعجابه به يتعاظم. وعندما قرر نابليون والاكسندر أن يقوما بزيارة فايمار، كان على غوته أن يشارك في إعداد برنامج الزيارة الحافل.

تم اللقاء التاريخي بين غوته ونابليون في الثاني من تشرين الثاني عام 1808 على مائدة الإفطار بحضور عدد من الشخصيات السياسية والعسكرية الفرنسية.

يتتبع سايت، على نحو تاريخي دقيق، تفصيلات هذا اللقاء الذي تعددت طرق روايته، ويبين أن غوته ظل يلمح إلى تفصيلات هذا اللقاء في أحاديثه الشفوية، ولم يعمل على تدوينه إلا في عام 1820 وما بعده، وإن وجدت روايات أخرى لهذا اللقاء خاصة رواية السياسي الفرنسي تاليران.

يثبت سايت نص الحوار كما دونه أو أملاه غوته في وقت لاحق، ويقوم بتحليل جمله على نحو تفصيلي ثم يسعى لقراءة دلالاته الإجمالية، وهو تحليل نقدي عميق لا يكتفي بالنص بل يسعى لقراءة سياقاته الثقافية والسياسية المختلفة التي كثر الحديث عنها في مصادر شتى، ومن وجهات نظر متباينة.

دار الحوار حول الفن المسرحي وحول «فيرتر»، التي قرأها نابليون غير مرة ورافقته إلى مصر أثناء حملته عليها كما أخبر نابليون بنفسه. وقد أثارت انتقادات نابليون للعمل، التي وصفها غوته بالذكيّة دون أن يفصح عنها، فيضاً لا ينتهي من التأويلات. ولكن تحليل سايت يفضي إلى نتيجة ترى أن غوته، على الرغم من الهزيمة التي كانت ألمانيا تعاني منها، كان يمثل سلطة أدبية في مواجهة هذه السلطة العاتية التي كان نابليون يمثلها.

يتتبع سايت بعد ذلك لحظات المجد والسقوط في حياة نابليون ويسعى إلى قراءة حضور هاتين اللحظتين في شعر غوته وفي تفكيره عموماً. وهنا يتتبع سايت ما كتبه غوته من شعر يتصل بلحظة التألق ويتوقف عند لحظة احتفالية متصلة بزواج نابليون، ثم يناقش مسألة السقوط التراجيدي لنابليون بعد غزوه لروسيا التي سحقت جيشه.

أثارت الحرائق التي أصابت موسكو وقضت على الكثير من معالمها حزن غوته، فجعلته يكتب قصيدته «تيمور والشتاء». استوحى غوته فيها شخصية تيمورلنك في غزوه للملكة الصينية وتحدث عن القوة الحاسمة للبرد التي دمرت جيشه، وكان بذلك يصنع قناعاً للحظة المعاصرة التي لقيتها روسيا وجيش نابليون على حد سواء لكن غوته لا يساوي البتة بين تيمورلنك ونابليون، ففي قصيدته يدين غوته حماقة الروس الذين أخربوا بيوتهم بأيديهم.

يوضح سايت أن ديوان غوته الشهير «الديوان الشرقي للمؤلف الغربي»- الذي ترجمه إلى «العربية» عبد الرحمن بدوي وأعاد عبد الغفار مكاوي ترجمته- يمثل الأجواء والمناخات لما بعد النابليونية، ويبين أن قصيدة «هجرة» التي كتبها غوته بحروف لاتينية تمثل هذه الرغبة في الهروب إلى آفاق معرفية بعيداً عن أزمة اللحظة المعاصرة.

لكن علاقة غوته بنابليون التي حضرت في مسرحيته الخالدة فاوست بقيت علاقة معقدة. ففي حين بدأ غوته يميل بالتدريج إلى إدانة السياسة النابليونية التي أدت إلى تخريب السلام في أوروبا والعالم، ظل غوته محباً لشخصية نابليون، يتحدث عن عبقريتها ويذهب في ذلك مذاهب غير عقلانية.

لقد وقف هذا الكتاب عند هذه اللحظة المعقدة في التاريخ الألماني الأدبي والسياسي والعسكري ليعيد تأملها، وكان سايت يستسلم للسرد

المفعم بشعرية غوته لكنه سرعان ما كان يعود إلى الناقد الصارم المسلح بالمعرفة والقدرة على إدراك طبيعة اللحظة وما يكتنفها من تعقيد. وهو يقدّم مثالاً ناضجاً للكيفية التي تتم فيها إعادة تناول مسألة إشكالية، أعني علاقة المثقف بالسلطة عموماً وبالسلطة الغازية تحديداً من منظور نقدي كاشف.

أ.د خليل الشيخ

جامعة اليرموك

فجر 2011/5/2

جنود عند منزل غوته في فراوين بلان

فايمار 1806: تبعات عدم اللقاء مع نابليون

تعرّضت حياة غوته للخطر مرّتين، وكاد يفقد حياته في الحرب. أما اللحظة الأولى التي حملتْ خطر الموت في ثناياها، فكانت عصر معركة كانونادي فون فالمي، في العشرين من أيلول/سبتمبر عام 1792، وأما اللحظة الثانية فكانت ليلة 15/14 من تشرين الأول عام 1806، حين خسرت بروسيا معركة يينا-أويرشتيت في مواجهة جيش نابليون. وغدت هرتسوغية زاكسن-فايمار- آيزناخ ومقرّها الحكومي على وشك الانهيار.

في معركة فالمي، كان غوته نفسه هو الذي سعى إلى الخطر، فقد رافق، وهو الرجل المدني، الهرتسوغ كارل أوغست، قائد قوات الفرسان المدرّعة، والقائد الميداني لائتلاف الفرق البروسية-النمساوية لمواجهة فرنسا الثورية. وكان رأي غوته، الذي بقي يتحرّك في هذه الأسابيع، في دائرة كبار الضبّاط «أنّ على من يلتحق بإحدى الحملات الحربية أو بإحدى الفرق العسكرية المنظّمة، على وجه الخصوص، بصرف النظر عن نوعية تلك الفرقة، أن يصمد وأن لا يشعر بالخوف من الخطر؛ لأنّ ما يصيبه، سيظل مبعث فخر له على الدوام»[1]. إذن بقي غوته في طليعة الجيش الموحّد عند لقائه مع خصمه الفرنسي. وكانت المعركة تبدو وشيكة الوقوع. ثم بدأتْ عشرات القذائف تتساقط في لحظة غفلة أمامهم، لذا لجأوا إلى أرض موحلة، فتلطخت الخيول والفرسان بالوحل.

لكنّ غوته مضى بعيداً في مواجهة الخطر «سمعتُ كثيراً عن

(1) "Campagne in Frankreich" nach MA 14, S. 376 -84.

حمّى المدافع، ورغبت أن أعرف كيف يبدو الأمر في واقع الحال».
اعتلى غوته ظهر حِصنْ تمّ الاستيلاء عليه للتو، وشرع يتأمل الأسقف المهدّمة ورزم القمح المتناثرة التي تغطي أجساد الجرحى من أصحاب الإصابات الخطرة، كما تأمّل قذائف المدفعيّة التي كانت تقصف ما تبقى من سقوف. ثم اعتلى ظهر حصانه ومضى وحيداً نحو المرتفعات: «وكنت قد وصلت إلى المنطقة التي كانت القذائف تتطاير في فضائها. كان الصوت عجيباً بما يكفي، وكأنه مزيج من صوت آلة الطرد المركزي وهدير الأمواه وصفير العصافير»، غير أنّ الأرض المُشبعة بالأمطار حالت دون الرجوع، مثلما أبعدت خطر القذائف المرتدّة.

لم تُفارق هذه التجربة التي عاشها غوته ذاكرته على الإطلاق وبقي يكررها. وقد دوّنت الأميرة ماريّا باولوفنا، زوجة ولي عهد فايمار وشقيقة القيصر الروسي الاكسندر الأول في نيسان عام 1806 هذا الحدث بـ«الفرنسية» موضحة «أنّ غوته وصف ما اعتاد الناس على تسميته بحمّى المدافع»[1].

بعد تسعة أشهر قدّم غوته عرضاً تفصيلياً في تقريره الخاص بالحملة «وأنا أيضاً كنت في الحملة» الذي عرف باسم «حملة في فرنسا». إنّ عرض غوته يبيّن فنّ الوصف المُدرّب لعالم من علماء الطبيعة يجد نفسه أمام لحظة تهديد وجودية فيحرص على أن يحافظ على جسده:

«كان الوضع يبدو وكأن المرء في مكان مرتفع الحرارة، وقد اخترقتْ هذه الحرارة العالية جسده في الوقت ذاته، لدرجة صار بوسعه أن يستشعر، على الفور، ما يحيط بجسده من عناصر. أما العينان فلم تفقدا قوة الإبصار، بل ازدادتا حدّة. لكنّ الحال بدت وكأنه صار للعالم صوتٌ عنّابي اللون، يجعل الوضع والأوضاع المقابلة تبعث على القلق. أما عن

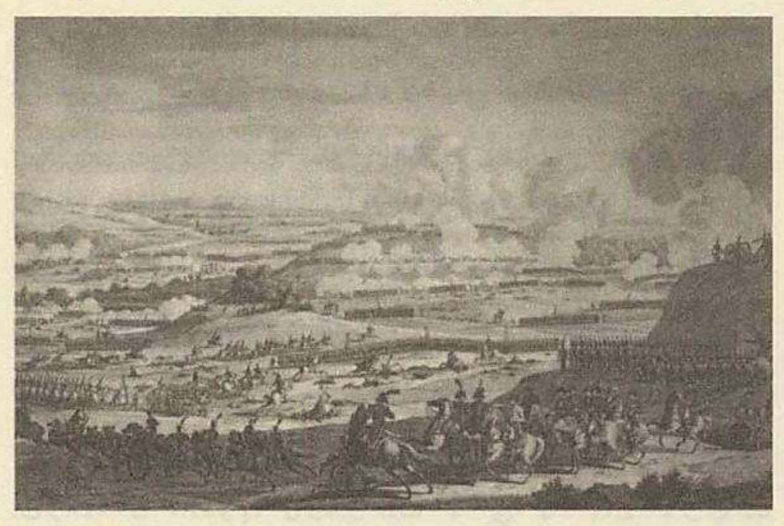
(1) GrumachVl. S. 39.

حركة الدم فلم ألحظ شيئاً، فقد بدا لي وكأنه تمّ ابتلاع كلّ شيء في حالته المتوهجّة، ومن هنا يبرز معنى تسمية هذه اللحظة بالحمّى».

غير أنّ المعركة لم تقع، فقد تبيّن عند المساء أنّ الفرنسيين قد تمكنوا من الصمود. ومنذ تلك اللحظة بدأ غوته يؤرخ لحقبة جديدة عُرفت لاحقاً بأنها تمثّل حقبة جديدة في التاريخ العالمي. «التي تستطيعون أن تقولوا، إنكم كنتم مشاركين فيها».

تحدّث غوته عن تجربته المُغامرة مع حمّى المدافع هذه للشّابات، ولم يقتصر على الأميرة روسية الأصل، فقد أفضى غوته بهذا الحديث إلى عشيقته الأخيرة أولريكة فون ليفي تسوف، وأهداها في عام 1822 كتابه «وأنا أيضاً كنتُ في الحملة» الذي كان قد خرج للتّو من المطبعة.

لكنّ اللافت للنظر أنّ غوته لم يكد يتحدّث عن تجربته الثانية مع الحرب، وهي ليلة يينا– أويرشتيت، مع أنّ اللحظتين فالمي 1792 وفايمار 1806 ترتبطان ببعضهما بعضاً ارتباطاً وثيقاً. ويمكن أن يشار في هذا السياق إلى أنّ الأحداث التي وقعت عام 1806 استطاعت أن تهزّ حياة



غوته، على نحو يفوق «حمّى المدافع» عام 1792.

بل إنّ أحداثها استطاعت أن تقود حياته، بمعنى من المعاني، إلى منعطف مختلف. إنّ جلّ ما وصل إلينا بهذا الصدد، يعود إلى الأوساط المقرّبة من غوته، وهذه الأخبار تحتاج إلى إعادة بناء.

وقع الاشتباك الأخير في معركة يينا ساعات العصر، أي عند السّاعة الرابعة تقريباً، عند المخرج الشرقي لفايمار، بالقرب من غابة صغيرة تدعى «فبيشت» عند شاطئ إليم. ثم انسحب البروسيون عبر المدن باتّجاه إيرفورت في الخامسة والنصف مساءً تقريباً، لتلحق بهم طلائع الجيوش الفرنسية. إنّ المعطيات المختصرة في يوميات غوته، تكتفي بالوقوف عند المجرى الخارجي للأحداث:

«هزيمة البروسيين عند الخامسة مساءً، تطاير قذائف المدفعيّة فوق أسقف المنازل عند السادسة والنصف، بداية المطاردة في السابعة مساءً، حرائق وأعمال سلب ونهب، ليلة مرعبة بقاء منازلنا سالمة من خلال الصمود والحظ»[1].

وقد لعب متعة الكتابة وطوفان الرسائل الذي غمر فايمار من أقصاها إلى أقصاها دوراً في إعطاء وصف تفصيلي لهذه «الليلة المرعبة» وما خلفّته من سلب ونهب وأعمال عنف. فقد قرأنا عن المطارق التي كسرت الأبواب وخلعت الأقفال وحطّمت الأثاث، وعن الأشياء الثمينة التي جرى نهبها، والمخازن التي سُرق ما فيها، والحرائق التي تمّ إشعالها، وحياة الناس التي خضعت للتهديد. وصاحب ذلك هتافات وحشية وسوء معاملة، إضافة إلى ما قيل عن وقوع الاغتصاب. لكنّ الجماعة التي كانت تعمل في المقّر الحكوميّ، كانت مكوّنة من موظفيّن ينتمون إلى ولايات مختلفة، ولم يكونوا مؤهلين بما يكفي؛ لهذا لم يستطيعوا تثمين

(1) Tb 14 Oktober 1806. S. 263 .

نماذج السلوك المنضبط وأخلاق الفروسية لدى المحتلّين الفرنسيين، خاصة عند كبار الضبّاط الذين اتسم سلوكهم بالنزاهة.

كان المدى الذي بلغته تلك التجارب واسعاً، فلم يكتف كريستوف مارتين فيلاند[1]، الذي كان قد بلغ الثالثة والسبعين بأن يُصرّح بأنه لم يسبق له أنّ رأى الحرب رأي العين من قبل وبأنه خرج بعد رؤيته لها «سليماً ومعافى تماماً»، وأنّ من قدموا إليه من «الفرسان والقنّاصة كانوا في وداعة الحملان عندما شاهدوه» وأنهم غادروا منزله يحملون ست زجاجات من النبيذ، وقد أضاف: «ففي صباح يوم الأربعاء» أي في الخامس والعشرين من تشرين الأوّل، «جاء إليّ بين السابعة والثامنة، بناءً على أوامر من الأمير مورات، جندي دركيّ شجاع ليكون حارساً لي. بعدها (جاء الماريشال نيي Ney بنفسه، ليخبرني أنّني أتمتع بالحماية الإمبراطورية المباشرة، ولأسمع منه الكلام الأكثر لطفاً ومجاملة على امتداد حياتي كلها)».[2] هنا صار في وسع أحد الفرنسيين أن يحمي كاتباً مشهوراً من جميع الشرور التي قد تلحق به.

على الجانب الآخر من المشهد، ثمة حوادث مغايرة، كما وقع مع صهر غوته. وكان كاتباً وأميناً لإحدى المكتبات ويُدعى كريستيان أوغست فولبيوس الذي اغتصبت زوجته، أو كما وقع لصديق غوته وابن بلدته الرسّام جورج ملخيور كراوس. كان كراوس في السبعين من عمره، يرأس المعهد الأميري الخاص بالمهن الحرّة، الذي كانت تتدرّب فيه على الرسم والتصميم سيدات برجوازيات وأرستقراطيات. تعرّض كراوس للسلب والنهب الذي وقع ليلة 15/14 تشرين الأول، وكان عليه

(1) (1733–1813) روائي وشاعر ومترجم ألماني من أبرز كتاب عصر التنوير، كان في فايمار في الحقبة التي كان غوته فيها هناك. ولعب أدوراً مهمةً سيشار إليها في ثنايا الكتاب: (المترجم).

(2) Wielands Briefwechsel 17.1 S. I43.

أن يقدم للجنود كلّ ما يملكه من الخمور. وعندما لم يتبق لديه ما يقدمه أساءوا معاملته ولم تقتصر إساءتهم له على الجانب الجسدي، بل إنهم قاموا بإتلاف الكثير من أعماله الفنيّة. أما منزله فقد التهمته النيران. بعدها هرب ذلك العجوز الذي صار بلا مأوى إلى القصر، ثم إلى منزل صديقه الناشر بيرتوخ. وقد مرض كراوس وعانى سوء المعاملة، معاناة كبرى، وتوفي في الخامس من تشرين الثاني، أي بعد ثلاثة أسابيع من ليلة الرعب. وكانت جنازته هي الجنازة الوحيدة التي شارك فيها غوته في أواخر عمره.

كانت مثل هذه الأحداث قابلة للوقوع، لكنّنا عندما نُلقي نظرة على هذه الحالات المنفردة من منظور شمولي، نتبيّن أنّ فايمار كانت أكثر حظّاً من يينا التي جرى ضربها بعنف وقسوة. ففي المقر الحكومي الذي كان يسكن فيه ما يقرب من 7000 نسمة، قام الجيش الفرنسي الذي بلغ تعداده ما بين 40 إلى 50 ألفاً بالسطو على تموينه وإمداداته من هناك. كان الجنود مرهقين وغاضبين إثر المعركة التي انتصروا فيها، لكنهم كانوا جياعاً وعطشى في المقام الأوّل. وقد اعتادت جيوش نابليون على احتلال المناطق دون أن تكون معتمدة على خطوط إمداد تموينية، لأنها دأبت على مصادرة ما تحتاجه من خلال المناطق التي تحتلها. ولم تكن فايمار التي تدور في فضائها رحى المعارك، مجرد مكان فحسب، بل كانت إحدى ولايتين ألمانيتين متّحدّتيْن مع بروسيا (الخصم)، –كانت ولاية براون شفايك الولاية الثانية، وهي الولاية التي ينتسب إليها القائد الأعلى للجيش– ولهذا لم يكن ثمة أمل لفايمار بالحماية. فعلى مقربة من القصر جرى إحراق خمس بنايات، وتولّد عن ذلك أعمدة دخانية ارتفعت إلى عنان السماء، وكانت أعمدة الدخان ترشد الفرق العسكرية المنتشرة إلى مكان التجمّع. وقد بلغ الاعتقاد بالناس أنّ المدينة

قد احترقت من جميع جوانبها وأنّ الخراب قادم إليها. لكن الأمر بدا مثلما كتبت حنّة شوبنهور:

«لقد أراد بنو البشر تدمير فايمار المسكينة، لكن الله كان بها رحيماً»[1]. وقد أرادت السماء الخير لها حقاً، كان الهواء في النهار ساكناً، وكانت الشمس قد اختفت بجمال وراء مدينة إيرفورت، ولم تتوسع دائرة النيران، ولم تسقط الجمرات لحسن الحظ على براميل المواد المتفجّرة التي كانت منتشرة إلى حد ما، في الشوارع الكثيرة المجاورة، التي كانت من بقايا ذخيرة الجيش البروسي المنسحب.

لقد نجت المدينة الصغيرة من كارثة محققّة. صحيح أنّ أعمال النهب والسرقة قد توقفّت رسمياً في السادس عشر من تشرين الأول لكنّ الخسائر بقيت مستمرة ومنظورة للعيان. فإلى جانب العقارات الخمسة التي احترقت في شارع القصر، جرى نهب 24 منزلاً على نحو منظّم أو تدميرها على نحو لا مسوّغ له، أو إشعال النار فيها، ومن بين تلك المنازل كان من منزل السيّدة فون شتاين[2]. كانت كبرى الخسائر تتوزّع بين الثروة والممتلكات، وقد قام أحد مؤرخي المدينة بتصنيفها على النحو الآتي:

«إلى جانب 139851 ما أخذ من نقود الرايخ، والتي جعلت الناس فقراء بين عشية وضحاها، فقد تم أخذ 3242 رأساً من الثروة الحيوانية، من بينها 109 جياد و6846 كيلاً من الذرة، و9286 قنطاراً من التبن، و40836 مكيالاً من النبيذ و25779 مكيالاً من البيرة، و8605 مكاييل من الكونياك وملابس ثمينة بقيمة 56840 مكيالاً من التالارات وفضّيات

---

(1) Johanna إلى ولدها Arthur في 19. Oktober. In Kebbel. Weimar in der Zeit der Befreiungskriege. S. 20.Schopenhauer

(2) هي شارلوتي فون شتاين (1742–1827) كانت إحدى سيدات البلاط في فايمار وكانت صديقة غوته. ويعد منزلها من المنازل الكبرى في فايمار: (المترجم).

بقيمة 21432 من التالارات وأثاث بقيمة 11250 من التالارات. وبضائع



وأقمشة بقيمة 69403 من التالارات[1]»[2].

وريثة العرش والأميرة الأولى مارّيا باولوفنا 1805

كانت الأوضاع بالنسبة لدوقيّة فايمار خصوصاً على المستوى السياسي محرجة. وثمة مقولة تنسب إلى كارل أوغست، وهو حاكم الإقليم وأحد أصدقاء غوته، يبدو أنّه قالها أثناء الانسحاب، بعد هزيمة بروسيا وكان يجلس فوق أحد الطبول، «أتمنى لو أنّني كنتُ هرتسوغ فايمار وآيزناخ على نحو مؤقت»[3]. لقد أعلن الهرتسوغ قبيل الحرب

(1) التالر عملات فضية كانت سائدة في ولايات ألمانية مختلفة بين القرنين الخامس عشر والتاسع عشر الميلاديَّين: (المترجم).

(2) Kebbel, S. 26.

(3) Tümmler, Carl August, S.159.

بوضوح، بالرغم من كل التوقعّات السلبية التي سادت الأوساط السياسية في برلين عموماً، التزامه بالحلف التقليدي الذي يربطه ببروسيا، ومع الملك فريدريش فيلهلم الثالث على وجه الخصوص، وأرسل لبروسيا كتيبة مكونّة من أكثر 700 رجل. لكنّ كارل أوغست لعب دوراً مهّماً، بوصفه قائداً للجيش البروسي، فقد قاد الطليعة التي كان عليها أن تواجه الفرنسيين قبالة وادي توريجنر، وأن تقوم بدحرهم. وعندما فشلت الخطة بسبب ما يتميّز به نابليون من سرعة، استطاع كارل أوغست أن ينسحب دون خسائر عبر جبال الألب إلى الشمال. وأن ينجو من الفوضى الصاخبة والفرار الجماعي للقيادات الحربية البروسية الأخرى. ولم يغب هذا النجاح عن نظرة نابليون الاستراتيجية الثاقبة. فقد رأى فيه عدّواً يكاد يتفوق نسبياً على جنرالات بروسيا الآخرين الذين خبر، على نحو ملموس، ما يتحلّون به من عدم كفاءة في يينا–أويرشتيت، والذي استطاع أن يتجرأ أكثر من الآخرين، الذين تغلب عليهم لهجة تورينغن والذين نادوا بحذر كي يظلّوا بعيدين عن الحرب.

وعلى كلّ حال فإنّ الأسرة المالكة في فايمار كانت تملك انتصاراً في يدها، لا يستطيع الامبراطور أن يتجاهله. فقد كان وليّ العهد كارل فريدريش قد تزوج عام 1804 الأميرة ماريّا باولوفنا، شقيقة القيصر الروسي الإكسندر الأول، التي ذكرت قبل قليل، بوصفها إحدى المستمعات لقصص غوته. ونظراً لأنّ القيصر الروسي المشار إليه، قد تحالف مع النمسا عام 1805 وبالتالي كان خصماً في معركة أوسترليتس إلى جوار تحالف بروسيا، وهو تحالف يصعب هزيمته، فقد كان على نابليون أن يأخذ ذلك بعين الاعتبار. لذا فكرّ أن يجذبه ليكون حليفاً له. من هنا امتنع نابليون عن مهاجمة ذلك الأمير بقسوة لأنه كان مقرباً من القيصر الروسي. كما أظهرت السياسة الفرنسية، عموماً، ميلاً إلى فصل

بروسيا عن جارتها ساكسونيا، وقامت في الوقت نفسه بتجذير سياسية تقوم على خلق كراهية بروسيا وقد نجحت في ذلك على ما يبدو. ولولا ذلك لكان مصير دوقية فايمار الهزيمة والزوال، كما سبق لكارل أوغست أن توقّع، وكما حدث مع هرتسوغية بروان شفايك حقيقة. ولو حدث ذلك فلن تكون فايمار الدولة الألمانية الصغيرة وحدها، التي اختفت عن الخريطة آنذاك. لقد كانت اللحظات التي تلت المعركة الخاسرة مملوءة بالتهديد والمخاطر على نحو استثنائي. وقد وجد الحاكم نفسه منفياً وغير قادر على الزحف نحو الشمال. أما الهرتسوغة الأم آماليا فقد غادرت المقر الحكومي فارّة في الرابع من تشرين الأول، في حين بدأتْ الأميرات يخدمن في الجيش البروسي. وهكذا صارت الهرتسوغة لويز، زوجة كارل أوغست، ممثلة للسلطة الشرعية مؤيّدة من الطبقة العليا في الإدارة، وقد تشكّل مجلس المستشارين السريّ من أصحاب السعادة:

«كريستيان غوت لوب فويغت[1]، وفيلهلم إرنست فون فولتسوغن[2]، مثلما كان فيه المستشار السري صاحب السعادة يوهان فولفجانج فون غوته. وكان غوته مختصّاً، في المقام الأول، بالشؤون الثقافية مثل الإشراف على مسرح البلاط والمكتبة وأخيراً وليس آخراً الإشراف على جامعة ينا وتنظيم مجموعاتها العلمية. لكنّ غوته بقي عارفاً، كما يتبدى في الرسائل المتبادلة بينه وبين زميله وصديقه الحميم فويغت، بالمسائل الخاصّة بالهرتسوغية، وكان من الطبيعي أن تكون نصائح غوته مرغوبة تماماً في هذه اللحظات الحرجة.

---

(1) (1743–1819) شاعر ألماني لعب دوراً مهماً في إدارة فايمار مع غوته قرابة أربعين عاماً وكان رئيساً للوزراء في فايمار: (المترجم).

(2) لعل المقصود هنا هو فيلهلم لودفيج فون فولتسوغن (1773–1845) لأن المشار إليه في المتن من مواليد عام 1855. إضافة إلى أن لودفيج قد عمل في فايمار وكان على صلة بغوته وشيللر: (المترجم).

في بادئ الأمر لعبت الهرتسوغة لويزا دوراً حاسماً، وبعد مدة قصيرة وبإشراف مباشر من غوته، جرى إعادة فتح قصر فايمار، ليكون ملجأ للراغبين في المساعدة. وكان من بين من تولى المساعدة شارلوتي فون شيللر، والسّيدة فون شتاين. كان الناس ينتظرون المنتصر القادر على إعداد المأوى والمأكل لهم. وقد قامت الهرتسوغة بتوجيه اللوم للجنراليْن الفرنسييْن اللذيْن كانا قد وصلا للتّو وهما رابّ وموراث، ورجتهما أن يأمرا بإيقاف عمليات النهب، مثلما طلبت منهما أن يراعيا العدل والإنصاف بخصوص ما للقيصر الألماني من امتيازات، لكنّ ذلك كلّه ذهب أدراج الرياح.

وصل نابليون، الإمبراطور الفرنسي المنتصر، عصر الخامس عشر من تشرين الأوّل إلى قصر فايمار. وقد توقف المؤرخون الوطنيّون طويلاً عند المشاهد التي دارت بينه وبين الهرتسوغة في اليوم التالي. ففي تلك المشاهد نرى –على سبيل المثال– كرامة المرأة الشجاعة، حيث تذكرّنا لويزا بسميّتها لويزا البروسية. فقد واجهتْ المنتصر بأنفة وثبات، مثلما قد لا يستطيع الرجل أن يفعل. وقد كتبتْ لشقيقها في إحدى رسائلها بـ«الفرنسية» إنّ الإمبراطور عاملها بادئ الأمر «بقدر كبير من الفظاظة». وقد أخبر شهود عيان أنّ نابليون الذي وجد على أعلى درجات القصر إحدى الأميرات تنتظره، قال مخاطباً إياها «يؤسفني أيتها السيّدة» ثم أضاف: «إنني سأقوم بالقضاء على زوجك»، ثم تركها واقفة وعاد إلى مقرّ إقامته[1].

في صباح اليوم التالي، وعند اللقاء الثاني الذي جمع بينهما، في مساء السادس عشر من تشرين الأول، بدا الإمبراطور منزعجاً لكنّه بدا مستعدّاً للحوار. ولم تشعر لويزا، حقيقة، بالخوف، ورفضت الاتهامات الموسعة

(1) Bojanowski, Louise, S. 287 f..

التي وجهها نابليون إلى زوجها، بسبب تحالفه التقليدي مع بروسيا، وبسبب تمسكه بشرفه العسكري، الذي كان يتوجب على نابليون أن يقدّره. لكنّ تهديدات نابليون التفصيلية، كانت تحمل على الاعتقاد،



أنه كان ينوي منذ البداية تدمير فايمار.

الهرتسوغة لويزا 1795

لهذا بدأ نابليون يكيل المديح لما تتحلّى به الهرتسوغة من فروسيّة وشجاعة، وقد بقي يكرّر ذلك عند كلّ مناسبة. أما مطلبه المهّم فكان يتمثل في ضرورة مثول كارل أوغست بين يديه على الفور، وفكّ عرى التحالف مع بروسيا. ولم يتحقق المطلبان؛ لأنّه لم تكن ثمّة اتصالات مع الهرتسوغ، فلم يكن أحد يعرف مقرّ إقامته على وجه التحديد. وهكذا بدأت بالنسبة لقيادة حكومة فايمار المؤقتّة لعبة حرب الأعصاب بشأن

استمرارية بقاء الهرتسوغية، وقد استمر هذا الأمر شهرين متتابعين حتى 16/15 كانون الأول 1896، عندما تم توقيع معاهدة صلح، وغَدَتْ بموجبه فايمار «دولة مستقلة» تنتمي إلى اتحاد الراين الذي يترأسه نابليون.

وقد هدّد الامبراطور بل غضب على المحيطين به بمن فيهم وزير الخارجية تاليران الذي طيّب خاطره وهدّأ من روعه. وقد طلب كارل أوغست من القيصر فيلهلم الثالث أن يأذن له بالانفصال عن التحالف البروسي، وهو ما تحقّق شكليّاً، كما يتضّح في رسائل الملك الصادرة عن مدينتي ماغدي بورغ في الحادي والعشرين وكوسترين في الرابع والعشرين من تشرين الأول. لكنّ الهرتسوغ فهم من تلك الرسائل أنّ عليه التخلص من التزاماتها تدريجياً، وأن يسعى للقاء بنابليون شخصياً.

كاد اليأس يتسرب إلى رجال الدولة في فايمار من أمثال: فوغت وغوته. ولم يقتصر عليهما، بل تعداهما إلى الشاب فريدريش فون موللر، الذي كان يومها قائماً بالأعمال وصار يعرف، في ما بعد، بـ «المستشار موللر» وهو أحد أصدقاء غوته المقرّبين. كان على موللر أن يسافر وراء نابليون الذي كان ينتقل كالعاصفة من نصر إلى نصر. فوصل موللر إلى أعماق بولندا كي يواصل مباحثات السلام، وليقوم من خلال وصفه الحيوي لمثوله بين يدي الإمبراطور الفرنسي بوضع القيادة في فايمار بين حدّي الخوف والرجاء.

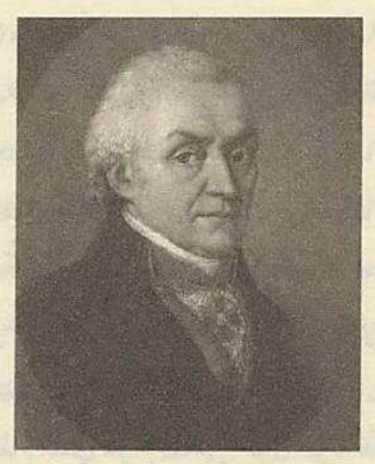
لكنّ عدم ذهاب كارل أوغست ووليّ العهد للقاء سريع مع نابليون، والمثول بين يديه كالمتسوّلين، بناءً على ضغط وإلحاح من فويغت وغوته كان يمثّل لوناً من وعي الموقف الحساس. ففي الثلاثين من تشرين الأول قابل الهرتسوغ وزير الخارجية تاليران، وبعد بداية السنة الجديدة، أي بعد مرور أسابيع على اعتراف فرنسا به «أميراً مستقلاً» عاد إلى وطنه.

ولكن ألا يُبيّن تردّد كارل أوغست. الذي نظر إليه في فايمار آنذاك بوصفه لوناً من المزاج الهستيري، على سعة أفق في المنظور السياسي؟ لهذا كتب كارل أوغست وهو في برلين في الخامس من كانون الأول إلى أعضاء المجلس الاستشاري يقول:

«إنّ وضعنا بين فرنسا وروسيا هو وضع غامض»، وأضاف «ومن غير المسموح لنا أن نعبث بهذا الوضع»[1]. وإذا كنا سنقوم بطيّ هذه الصفحة مستقبلاً، فإنّ من الضروري أن نعرف أنه لم يكن من السهل آنذاك الدخول في نظام التحالف النابليوني. وقد كتب فويغت في التاسع من تشرين الأول إلى المبعوث فون موللر يقول: «إنّ الاعتراف بكياننا السياسي الصغير، هو أمر كبير بالنسبة لنا». لقد جرى إنقاذ هذا الكيان، لكنّ الثمن المدفوع كان فادحاً، تماماً، فقد أصيبت الهرتسوغة بالفزع والصدمة، وكان على فايمار بوصفها عضواً في اتّحاد الراين، وإن كانت في واقع الأمر تابعة لسيطرة نابليون، أن لا تكتفي بتقديم فصيلة من الجنود تتكوّن من 800 رجل، فقد توجّب عليها حتى بداية عام 1808 إيواء 80 ألف جنديّ و22 ألف حصان. كما كان عليها أن تدفع 2,2 مليون فرنك، وهو يكاد يوازي دخل الهرتسوغية السنوي.

وعبر غرامات حربيّة كهذه –فإنّ البروسيين من خلال معاهدة تيليست، قد تحمّلوا أعباءً إضافية، تمثّلت في تمويل فرنسا المنتصرة، وتحمّل أعباء حروبها الضخمة. وفي الوقت ذاته، بقيت فرنسا تحتفظ بوسائل ضغط على المهزومين الذين ظلوا يحاولون عبثاً التخفيف من آثارها. وكان الوضع مثلما لخّصه فويغت عضو المجلس الاستشاري في الرابع عشر من كانون الأول، حين وصف الوضع بمرارة. فقال: «الوضع يشبه ضوءاً قادراً على إبراز الوضع المريح الخادع، لكنه يجعل الوطنّي، الذي

(1) PB 2, Nr. 500, S. 384 .



كريستيان غوت لوب فويغت 1804

عمل طويلاً للوصول إلى هذا الوضع، في غاية الحزن»[1].

كان على غوته أن يعيش ذلك كلّه وأن يشارك فيه. ومع أنه كان قد انسحب منذ مدة طويلة من الدائرة السياسيّة المقرّبة، فإنه ظل ينتمي، في النهاية، إلى القيادة الملتّفة حول الهرتسوغ. فضلاً عن كون التهديد الوجودي لهذه الدولة الصغيرة، التي ارتبط بها منذ ثلاثة عقود، يمسّه على المستوى الشخصي مباشرة، فقد اعتمد في معيشته عليها، وارتبطت حياته بها بوصفه كاتباً وعالماً إلى حد بعيد.

كما أنّ البنية التحتيّة والفكرية للهرتسوغية، كما تتمّثل في المكتبات والمجموعات العلمية والجامعة والمسرح، كانت تتوافق مع رغبات غوته وتلبّي احتياجاته. وقد جرى مراراً الحديث عن وجود توافق برجوازي-أرستقراطي لوجود غوته الكاتب في فايمار. ولعلّ من الأدّق أن نُسمّي طريقة الحياة التي كان غوته يحياها في فايمار بأنّها بلاطيّة-أكاديمية. كانت فايمار وبلاطها يدعمان الجانب الاستاطيقي، فقد كانت ثمة مناسبات وبواعث ومسارح وجمهور متذّوق لشعر غوته (ومحاضراته

(1) Geiger. Alt-Weimar. S. 115 .

العلمية المبّسطة)، فضلاً عن وجود فرص لسياسات فنيّة قابلة للنمو السريع. لقد عثر غوته، العالم والفيلولوجي، في جامعة يينا على مكانه، حيث كان بوسعه أن يتحرّر في رحابها من التزاماته الاجتماعية، وأن يعقد حلقات النقاش والمناظرة مع زملائه وأصدقائه. وأن يقوم بتنفيذ تجارب علمية مُكْلفة، وأن يجمع بين التأثير الواسع في سياسة فايمار بوصفه السياسي–العالم والتأثير في الحياة الفكرية في ألمانيا كلها بوصفه ناقداً من خلال «صحيفة يينا للأدب العام».

لكنّ هذا النظام الذي شرع يتنامى حول غوته منذ سنوات طويلة، لم يُهَدّد قبل ذلك أو بعده، مثلما تهّدد في الأسابيع التي دارت فيها رحى معركة يينا–أويرشتيت. فاليوميات والرسائل بما فيها كتاب غوته «دفاتر الأيام والسنوات» الذي استعاد فيه غوته ما حدث بعد مضيّ سنوات على وقوعه، توثّق الاهتمام المنقطع النظير، الذي أخذ يزداد يوماً إثر يوم، بل ساعة إثر ساعة. فعنوانات مثل:

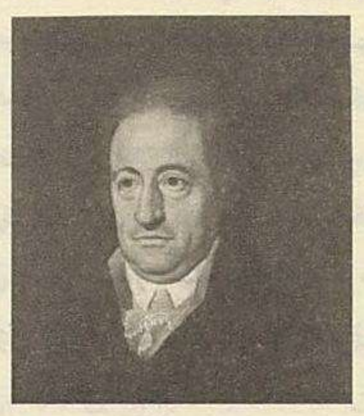
«أمسيات في الإمارة، جراء مهمّة معينة، بسبب غيابه»، و«في الإمارة من أجل الوداع»، و«مع عضو المجلس الاستشاري فويغت بسبب ظروف العصر». و«ظهراً في مدينة يندرروسلا في الحي الرئيسي». كلّها تُشير إلى ملاحظات في كتب اليوميات، تتعلّق بالفترة الواقعة بين السادس عشر والرابع والعشرين من أيلول/سبتمبر. وقد كتب غوته في «دفاتر الأيام والسنوات» الذي صدر بعد اثنتي عشرة سنة بعد ذلك يقول: «مفاوضات مُضنية» مع فويغت و«مفاوضات مختصرة مع زميرنا في الحي الرئيسي في يندرروسلا»[1]. لم يكن غوته على ما يبدو واثقاً من نتيجة المعركة. فقد نظم قبيل المعركة «أنشودة الحرب» التي افتتحها

(1) في Crumach VI. S.136 ff الأدلة الخاصة على ضخامتها موجودة عند التعليقات الموجودة في الطبعة المحققة من اليوميات.

بقوله:

«لقد وضعتُ أشيائي على لا شيء» التي يبدو أنّ فيلاندت قد استاء منها [1].

قبيل حلول المساء تمشّى غوته نحو معسكر البروسيين، حيث شاهد بعينه الفوضى العارمة. ويبدو أنّ فويغت كان هو الآخر يشعر بالهزيمة، فقد كتب في الرابع من شهر تشرين الأول إلى غوته: «إنّ الأمر كلّه واقعاً وحسابات هو مسألة حظّ خالص. ولكن ألم يكن الحظّ حتى هذه اللحظة إلى جانب الأعداء؟»



ثم أضاف محذّراً:

غوته 1806

«لكن الأمر ليس حظّاً صرفًا، فإنّ المرء يدخل الحرب بمهارة مثل لاعب الشطرنج الماهر فوق رقعة الشطرنج، ونحن –جُدُد ولنا رؤوس عدّة»[2]. وفي ضوء هذه الخلفية، فإنه لم يكن مستغرباً أن يقف غوته من مشاركة أميره في الحرب، موقف الخائف والقلق. وإلّا فما معنى

(1) Grumach VI, S. 148 (Falk, 10. 10. 1806).

(2) Goethe-Voigt, Nr. 247 (Bd. 3, S. 130).

«موجزة» التي يصف بها المفاوضات؟ إنها كلمة تدّل على «الوضوح» وتشير إلى «جوّ مشحون بالنذر».

قبل وقوع المعركة بأسبوع، كان غوته على صلة حميمة بقيادة الجيش البروسي، التي كانت يلتقي بها على المائدة كلّ أسبوع. وفي الثاني من تشرين الأول، كان على غوته أن يُخلي حجرته المعتادة في القصر لأمراء الأسرة المالكة وهي أسرة هوهن لوهي، وأن يُخلي الحجرة الثانية للقائد الأعلى للجيوش البروسية، أما بعد المعركة فقد أقام نابليون في حجرة غوته. وكان الضابط البروسي فريدريش لودفيج أوغست فون دير مارفتس، قد رسم في مذكّراته صورة لصاحب السعادة لا تهتم: «بالعالم والشاعر على الإطلاق، بقدر ما كانت تسعى لرسم الوزير. لهذا لم يبد غوته مختلفاً عن رجال الدولة الكبار وهو يرتدي زيّه الرسمي الخاص بالبلاط. كان غوته يظهر بوجه علته المساحيق، وبشعر مستعار يُغطّي رأسه، وزيّ رسمّي مطرز وسترة وبنطال أسود حريري وجوارب حريرية بيضاء، وزي مخصص للسيف. ومثلث حريري صغير، بدلاً من القبّعة التي توضع تحت الذراع».

بعد ذلك تجيء الجملة المملوءة بالخيلاء الاجتماعي والتي جعلتْ فونتاني يُحسّ بالمرارة: «لقد كان [غوته] رجلاً وسيماً وضخماً، يتفهّم كرامة الطبقة التي ينتمي إليها. على الرغم من عدم مقدرته على إظهار اللياقة الطبيعية الحرّة للرجل الوجيه»[1].

كان على غوته في تلك الأثناء أن يُحذّر ماسن باخ، الذي كان عضواً فاعلاً في أركان حرب بروسيا، من حماقة توزيع منشورات ضد نابليون. وكان لوجهة النظر تلك بواعث وجيهة:

فقد أمر نابليون قبل أسابيع عديدة، بإطلاق النار في بافاريا على بالم،

(1) Grumach VI. S. 142.

ناشر الكتب، الذي نشر مقالة معادية للفرنسيين لمؤلف مجهول عنوانها «ألمانيا في مذلّتها الأخيرة». وقد شكر ماسن باخ للمجلس الاستشاري تدخله هذا في ما بعد. وقد اعتاد غوته على أن يذهب إلى صديقه الناشر فرومان مساء، باحثاً عن الهدوء، من خلال النقاشات العلمية والرسم؛ لأنه كان يشعر بالإنهاك من النقاشات السياسية التي لا تنتهي. ونظراً لإدارة غوته العنيدة، التي لا ترضى للسياسة أن تتغلّب عليه، فقد أُعلن أن المسرح في فايمار، الذي يتولى غوته إدارته، سيقدّم في الثالث عشر من تشرين الأول، على الرغم من عدم رغبة الممثلين الكسولين، والمسرح نصف الفارغ، الذي يحتّل مقاعده ضباط بروسيون، مسرحية كوميدية بعنوان. «فانخون، عازفة القيثارة». وهكذا صار ضباط بروسيون منذ شتاء 1806/1805 يجدون مأوى لهم في منزل غوته.

لكنّ المخاوف السياسية تصاعدت في الليلة التي تلتْ المعركة، لتصل إلى تهديدات بالتصفية الجسدية. صحيح أنّ غوته لم يتحدث في يومياته عن ذلك، وكانت كلمة «فظيع» تمثل التعبير الأقسى في وصف تلك المخاوف، لكن مساعد غوته فريدريش فيلهلم ريمر، الذي كان يعمل معلّماً لأوغست ولد غوته، ويقيم بالتالي في منزل غوته، قد روى ذلك في كتابه الذي صدر عام 1841 بعنوان «أخبار عن غوته» وعرض الأخبار وهو موقن بصدقها. إنّ صدقيّة هذا التقرير تنبع من كون صاحبه وثيق الصلة بمنزل غوته، ولأنه يصدر عن شاهد عيان، ينقل ما رآه بدقة، وليس من رأى كمن سمع.

يروي هذا الكتاب تفاصيل جميلة، فعندما انسحب البروسيون وتجمعوا وراء السور الخاص بحديقة غوته أو «سور المزرعة» كما كان يُدعى. وكان ذلك السور مرتفعاً، يتجاوز طول الإنسان، لاحظ ريمر:

«لم أر أولئك الجنود، لكنّني سمعتُ صياحهم، وتمكّنت من

مشاهدة أطراف بنادقهم، وأسلحتهم الأخرى، وهي تتأرجح من خلف السور»[1]. إنّ من يرى التفصيلات بهذه الدّقة ويصفها على تلك الشاكلة جدير بالتصديق. وليس من الضروري أن نكرّر هنا، حكايات ريمر الطويلة والمعادة. بكل ما تنطوي عليه تلك الحكايات من تفصيلات أو نقوم بمقارنتها بالإشاعات والثرثرات والكلام المنمّق الذي انتشر في فايمار، فإن الوقائع الحاسمة سارت على النحو التالي:

استقبل غوته وريمر طلائع الفرسان الفرنسيين عند بوابة الحيّ أو عند منزل غوته تحديدً بالخمرة والنبيذ وأكدّا لهم أنّ البروسيّين قد لاذوا بالفرار –وهو خبر ضرروي يبيّن سعي غوته لتجنب القتال. وقد التقى غوته في هذا السياق، بواحد من معارفه النكرات وهو ابن حبيبته الفرانكفورتية أيام الشباب وتدعى ليلّي شومان، التي تزوّجت من رجل يعود إلى تورك هايم [الواقعة في وسط منطقة الشّفابن]. وكان ابنها قد صار ضابطاً في الجيش الفرنسي. ذهب غوته معه إلى القصر ومن هناك أطلق غوته الخبر الذي أخذ ينتشر والذي يقول: إنّ المارشال Ney وبعض خيّالته قد تم استدعاؤهم إلى بعض الأحياء. وهذا تدبير ذكي، صدر عن غوته في الغالب، وكان يهدف إلى حماية منزله من أعمال العنف. فلم يتجمّع في الجانب الخلفي في منزله في فراوين بلان وعائلته والخدم فحسب، بل لجأ إلى منزله الكثيرون، لأن أعمال النهب والسلب والحرائق قد بدأتْ في المدينة مثلما جاء إلى منزله طالبو الحماية من الجيران. وكانت الغرف الأمامية المطلّة على ساحة فراون بلان مهيأة لاستقبال الضيوف المنتظرين، وقد جرى إعداد مائدة عامرة للجنرال وحاشيته.

لكنّ من الضروري من أجل استيعاب عرض ريمر، أن نضع نصب

(1) Grumach VI. S. 150-154.

أعيننا المخطط الرئيسي لمنزل غوته. كان المنزل مقسّماً إلى فناء داخلي مع واجهة أمامية وإلى فناء خلفي يحوي الأجزاء الشخصية من المنزل والأخرى المخصصة للعمل. في الطابق السفلي كانت هناك غرفة الخدم وبيت الدّرج، أما في الطابق الأول فكان هناك الصالة الصفراء، وغرفتا يونوو- وأوربينو، أما في الخلف فكانت هناك غرفة كريستيانة والمطبخ، وغرفة نوم غوته، وغرفة العمل الخاصة به، ومكتبته والغرفة المخصّصة للكتابة.

رجع غوته سريعاً من القصر، لكنّ المارشال لم يأت وترك غوته ينتظر. ولم يلتقيا، كذلك، في الساعات التي تَلْت، فقد كان يوجد، في تلك الأثناء، في غرفة الخدم 16 جندياً من الإلزاسيّين، وكان ريمر يجلس يقظاً في الجزء الأمامي من المنزل ينتظر المارشال. أما غوته فانسحب إلى الجزء الخلفي من المنزل كي يستريح. لهذا فإنّ ما عاشه ريمر من تجارب، كان يدور في الجزء الأمامي من المنزل. وعندما جُنّ الليل وكانت ألسنة اللهب المتصاعدة من المنازل المحترقة بعيداً توفّر بعض الإضاءة، استقبل ريمر عند بوابة المنزل جنديين مسلّحيْن من جنود المشاة، اللذين صاحا بصوت جهوري وطلبا الدخول إلى المنزل.

في المرة الأولى غادر الجنود بعد الإشارة إلى المارشال المتوقع وصوله، وعدم قبول إقامتهم هاهنا وعندما رجعوا ثانية، وهدّدوا بتحطيم بوابة المنزل، أدخلهم ريمر وقدم لهم الخمر والطعام، فشعروا بالراحة وطلبوا أنْ يتعرفوا إلى ربّ المنزل. فسارع ريمر عندها بالذهاب إلى الجزء الخلفي من المنزل، كي ينادي غوته، القادر بما لشخصيته من وزن، على أن يُهدّئ من روعهم. يقول ريمر بالحرف الواحد:

«وقد قام بذلك دون أن يرتبك أو تبدو عليه معالم الاضطراب، (...) مع أنه لم يكن يرتدي من ملابسه إلا تنورّته الليلية، -التي كان يُطلق

عليها عابثاً– الرداء النبوي. بعد ذلك نزل الدرج، وسأل الجنود عن طلباتهم وما الذي يريدون منه، وإذا ما كانوا قد حصلوا على ما يريدون. وأخبرهم أن هذا المنزل منزل للإيواء، وأنه ينتظر الجنرال وصحبه. وقد كان لشخصيته المهيبة الآمرة ولقسمات وجهه المفعمة بالحيوية تأثير أجبرهم على احترامه، فعاد الجنود ليصبحوا فرنسيين مهذّبين، بل إنهم رفعوا كؤوسهم وطلبوا منه أن يسمح لهم أن يشربوا نَخْبه». بعد ذلك صار في وسع غوته أن ينسحب، أما الجنديان فواصلا الشرب ونعسا، ونظراً لأنّ اللوحين الخشبيّين العاريَيْن اللذين قدما لهما من أجل النوم، لم يكونا كافيين لنوم مريح، فقد صعدا إلى الأعلى واحتكرا، ما أُعدّ للجنرال من أسّرة، وعندما انبلج صباح اليوم التالي، أي في الخامس عشر من تشرين الأول، وعلم غوته بما حدث في الليلة السابقة، نزل الدرجات كالعاصفة، «وطرد الشابين من السريرين بسيفٍ كليل، فغادرا الغرفة والمنزل ببطء. وقد رأيتهما يمران بي بسرعة». أضاف ريمر. «لكنّ الأمر لم يمر دون قلق، فقد كانا يرغبان في الحصول على أدوات فضيّة، وما شابه».

كان الوضع مزعجاً على نحو استثنائي. لكنّ الأسوأ هو ما علمه ريمر عند الصباح، بعد أن قدم Ney ليسكن في المنزل. فقد تمّ وضع نقطة حراسة لتكون مسؤولة عن الراحة والنظام. وبعد الحديث الأول الذي دار بينه وبين القاطنين في المنزل. سمع ريمر «أنّه بينما كنتُ اعتقد أنّ اللصين نائمان في سريرها، فقد كانا يرغبان في التسلل من الغرفة والذهاب إلى غرفة غوته لتهديده. لكنّ زوجته طلبت النجدة من أحد من التجأوا إلى المنزل، الذي استطاع أن إنقاذ غوته من الغاصبيْن، وإبعادهما إلى الخارج، وليقوم من ثمّ بإغلاق أبواب حجرته والأبواب التي قبلها بالمفتاح».

وهنا يبدأ ريمر فقرة جديدة ثم يضيف قائلاً:

«لم يسمح غوته لأحد أن يلحظ شيئاً ممّا جرى، لكنني كنتُ منزعجاً بعض الشيء للخطر الذي أحدق به، دون معرفة وتنبّه منيّ».

لكنّ هذا الحدث الدرامي الذي وقع لغوته، سرى سريان النار في الهشيم في الأوساط المحبّة للقال والقيل في فايمار. وقد دوّن الدينماركي ج. هـ. ج. كوئز، على سبيل المثال، وهو الذي كان في فايمار آنذاك في زيارة لصديقه آدم أولن شليغر، في يومياته بتاريخ السادس عشر من تشرين الأول:

«لصوص في منزل غوته. وقد وضعوا حرابهم أمام صدره»[1]. وقد أضيف إلى الخبر الكثير، فقيل إنّ كريستيانه رمت نفسها أمام غوته، فأنقذته عندما أعطت المهاجمين بعض القطع الفضيّة اللامعة. ونظراً لأنّ اللحظة ظلت مملوءة بالتوتر، فإنّ ملاحظات غوته في يومياته التي تذكر أسماء الجنرالات الفرنسيين الذين كانوا يختلفون إلى منزله وهم: لانّس وفكتور وأوغي ريو، بقيت منشغلة بمسألة «حماية المنزل»، ففي الخامس عشر والسادس عشر من تشرين الأوّل «في المدة الزمنية الفاصلة [بين قدوم لانّس وأوغي ريو] كان القلق يتبدى في أعلى صُوَره». وثمة «جهود من أجل الحراس الشخصيين». فقد اعتاد أمراء الحرب على ألا يجيئوا إلى منزله بمفردهم، لذلك كان على غوته أنْ يهيئ أربعة أسرة في ليلة واحدة لينام عليها أربعة أشخاص -وهو أمر لا يحتاج إلى إيضاح. بعد ذلك بدأت الأمور تميل إلى الهدوء، وتوثّقت علاقة غوته بالموظفيّن الفرنسيّين، كحاكم المدينة المؤقت دونتسل والمفوض الفنيّ المتجول، الدومينيكاني فيفانت دينون، الذي سبق لغوته أن تعرّف إليه في فينيسيا عام 1790، ليقيم غوته معهم، علاقات وديّة وسياسية فاعلة.

---

(1) Crumach VI. S.155.

ولم يجد دينون المسؤول عن المجموعات الفنيّة لألمانيا المهزومة، التي ستنهب لصالح متحف نابليون المزمع إنشاؤه، في فايمار شيئاً يستحق الأخذ، وكان غوته قد كتب بعض الكلمات الحسنة عن المجموعات العلمية الموجودة في جامعة يينا.

وفي نهاية مساء الخميس الموافق للسادس عشر من تشرين الأوّل، صار بوسع غوته أن يعّد نفسه بمنجاة، وبمأمن من الأخطار. وقد عبّر عن ذلك في يومياته بقوله: «مشاركة فاعلة لبعض الشخصيات العسكرية». في اليوم التالي وصلت إلى غوته رسالة من دينتسل، حاكم المدينة، كانت تحمل الوعد بالحماية له. فقد كان دينتسل، الذي سبق له أن درس في يينا، يعرف ظروف غوته. ومنذ ذلك الوقت صارت قوات الاحتلال الفرنسية تعامل الشاعر الشهير بكياسة عالية وقد أمر دينون برسم صورة جانبية لكل من غوته وفيلاند، كي يجري سك ميداليات –بعد أسبوع واحد من المعركة! وقد كتب غوته إلى ماير الخبير الفني الخاص به:

«إنه لأمر حسن، أنّ من تغلّبوا علينا، يهتمون ببعض الشخصيات، لأنهم، عادة، لا يميزون بين الأشياء».

أصدر غوته أمره بمنع مجلة «الفردوس والجحيم» وهي مجلّة وطنية ألمانيّة كان يصدرها الأديب دانيال فالك. مثلما سبق له أن قال جملة لماسن باخ قبيل المعركة، شكلّت علامة فارقة: «إنّ المساوئ كبيرة، ويمكن لأيّ مهرّج أن يزيد من عددها»[1]. لكنّ حياة غوته سارت منذ ليلة الرابع عشر من تشرين الأول، وهي اللحظة الأشدّ إيلاماً، نحو الانحدار. لقد أسهمت تلك اللحظة، حقيقةً، في حمله على الصمت؛ فهي لم تكن لحظة الحديث عن تجربة مغامرة، كما كانت الحال في حديثه عن حمّى المدافع في معركة فالمي، بل كانت تمثل حالة من الإذلال.

---

(1) Goethe-Voigt. Bd. 3. Nr 150. S. 132 مراسلات.

«نحن نحيا! سلم منزلنا من النهب والحريق، وكأنّ معجزة أسهمت في بقائه سليماً. وقد عاشت الهرتسوغة التي تتولّى شؤون الحكم الساعات المرعبة معنا، ونحن نشكرها على بعض الأمل في الخلاص مستقبلاً، مثلما نشكرها اليوم على حفاظها على القصر. وصل الإمبراطور في الخامس عشر من تشرين الأول عام 1806».

بقي غوته يكرر هذا الكلام، سواء أكان للمتلّقي القادم من الخارج مثل نيكولاس ماير، أم للناشر كوتّا الذي ظلّ حديثه يحتوي هذه الجملة: «غريب أن تكون أيام الشؤم هذه مصحوبة بأشعّة الشمس الجميلة، وبأضوائها»[1]. إنّ الرسالة الموجهة إلى كوتّا، تبين عبر سطورها القليلة، الوضع الذي آل إليه غوته الكاتب:

«كانت أوراقي، في كلّ ليلة من الليالي النحسات، شغلي الشاغل؛ لأنّ عمليات النهب التي وقعت في البيوت الأخرى، مملوءة بالقبح والشرور، فقد جرى تمزيق كل ما في تلك البيوت وبعثرته. لهذا فإنني سأكون، بعد اجتياز هذه المرحلة، أَسرعَ في إرسال مخطوطاتي إلى الطباعة. لقد ذهبت أيام التردّد إلى غير رجعة، كما ذهبت تلك الساعات المريحة التي كنا نخدع فيها أنفسنا بالآمال، بأننا سنقوم باستكمال ما بدأنا به من محاولات، وإتمام ما كنّا قد وضعنا خطوطه العريضة»[2].

لم يسبق لغوته أن تحدث، في موضع آخر، عن تلك الليلة ونتائجها بمثل هذا الوضوح. ففي التاسع من كانون الأول، شكر غوته ناشره على المبلغ المدفوع مقدماً واعترف «إنّني كنت في أكثر اللحظات سوءاً، أسترجع روح الصداقة النبيلة لديكم، ويحدوني الأمل في لحظات العوز، بوقوفكم على أهبة الاستعداد وللمساعدة».

---

(1) WA IV. 19. Nr. 5255-57. S. 204 ft.

(2) Goethe-Cotta. Band I, S. 142.

وهذا يجعلنا نفكرّ ملياً، في طبيعة الإمكانات التي كان غوته يبني حساباته عليها في تلك اللحظات، فقد قدّر غوته أنه يعيش على ما توفرّه له كتبه من دخل مادي. وقد كتب غوته بمناسبة رأس السنة 1806/1807 إلى صديقه الصدّوق تِسْلتر في برلين مطمئناً:

«لقد استطعتُ أن أخرج من تلك الأيام النحسات، دون خسائر كبيرة». أما عندما يكتب غوته في عام 1820 في كتابه «دفاتر الأيام والسنين» عن «الويلات القاسية» التي حلّت علينا في الرابع عشر من تشرين الأوّل»، فإنّ الحديث يعود مجدداً ليحكي عن خطر «الأوراق المتطايرة على عجل» في ضوء نظرية الألوان التي كانت قد بدأت بالتشكل[1].

كان غوته يوزّع أيامه في الأوقات التي تلت الكارثة «بين القصر» نهاراً وحنّة شوبنهور مساءً». فقد كان غوته كثير الاختلاف إلى منزلها في فايمار، وكانت قد استقرت منذ مدة قريبة هناك.

كما كان غوته يتفقّد أصدقاءه وزملاءه في يينا التي عانت أكثر ممّا عانته فايمار. ففي يينا جرى إحراق أحد أحيائها، بما في ذلك عشرون منزلاً. أما المعهد النباتي التابع للجامعة، والمجموعات الخاصة بعلم المعادن، فقد عانت خسائر جسيمة. وبعد ذلك كله تحولت المدينة إلى مستشفى عسكري بشع لجرحى وقتلى المعركة، مع ما يرافق ذلك من أعباء ضاغطة من أجل توفير المواد التموينية الضرورية. فطالما لم يتم حسم مصير مسألة السيادة في فايمار، فإنّ بقاء الجامعة واستمرارها لم يكن أمراً مؤكّداً. وقد سمع الناس رأياً لنابليون يقول إنّ هناك الكثير من الجامعات في ألمانيا. لهذا تم إغلاق المعهد العالي في الرواق البروسي على الفور.

---

(1) MA 14,S. 173.(وقد صدر كتاب غوته بهذا الخصوص عام 1810) (المترجم).

جمع غوته شهادته وتجاربه وأنشطته في ملّف سماه «الوقائع الحزينة للرابع عشر من تشرين الأول 1806»[1].

إنّ إدارة هذا الملف تؤكد غير مرّة، مثلما أوضح إرنست روبرت كورتيوس في مقالة عميقة له، الدور الوجودي بله العلاجي الذي لعبه هذا الملف، وقد بين كورتيوس كيف استطاع الفهرس الأرشيفي والتنظيم الخارق لأعماله أن يساعدا غوته على استعادة توازنه مجدّداً. وهوا ما يسري على الأوقات التي كان غوته يمضيها في السهرات الاجتماعية البريئة عند السّيدة شوبنهور: فقد كانوا هناك يقومون بصناعة ورد ورقيّ ويلصقونه على المصابيح وعلى حواجز مداخن المدافئ.

وأخيراً تمكن غوته في الرابع والعشرين من تشرين الأوّل من العودة إلى عمله، فقد تولى مع ريمر تحرير الطبعة الجديدة من أعماله التي بدأت بالصدور منذ البدايات الأولى لذلك العام. إنّ زيادة الأعداد، والتصميم العالي على متابعة نشرها، كما سبق لغوته أن بيّن، هما من نتائج الأزمة في تشرين الأول 1806.

في الحادي والثلاثين من تشرين الأوّل، عادت الهرتسوغة الأم أناأماليا إلى فايمار وصار غوته منذ عودتها، يمضي وقتاً طويلاً لديها.

إننا إذا أخذنا بالاعتبار صلة غوته اليومية بالبلاط، ثم أضفنا إليها الرسائل الكثيرة اللافتة للنظر التي دبّجها وتبادلها مع فويغت والمجلس الاستشاري، وأخذنا بالحسبان تأخّر عودة الهرتسوغ، فإن ذلك سُيفضي إلى التقدير العالي للدور السياسي الحاسم الذي لعبه غوته في هذا الوقت الحرج. وفي كل الأحوال، فقد بقي غوته على معرفة دقيقة بخصوص تطور المفاوضات مع نابليون، وكانت له آراء حاسمة بهذا

(1) نشر الكتاب بما يتضمنه من تعليقات في

Goethe.Weimar und Jena im Jahre 1806 nach Goethe Privatacten". Hrsg. von . Richard und Robert Keil. Leipzig 1882

الخصوص، فقد كان يرى ضرورة أن يسافر ولي العهد للقاء الإمبراطور دون تأخير. وإذا ما استخدمنا مصطلحات القرن العشرين، توجّب علينا أن نصف غوته وفويغت بأنهما من «سياسيّي الاسترضاء» الذين يميلون إلى إقامة علاقة حسنة مع القوى المحتلّة الغالبة، وهو ما يتشابه، بالمناسبة، مع الأمير ليوبولد فريدريش فرانتس الذي عرف الاستبداد البروسي لعقد من الزمن. لذا تولد عن غوته دافع عام ظل يحدّد موقفه من السياسة النابوليونية على الإجمال: رفض الطريقة القديمة التي تقود إلى كراهية الأعداء مدفوعة بحب الوطن.

إنّ هذا الذي يبدو اليوم مقدّمة لمستقبل قومي الطابع، كان يبدو لغوته نوعاً من الإحياء الفنيّ لمواقف فكرية مغرقة في القدم، تجاوزها أساتذة ساذجون. فقد قال غوته لريمر في الثامن عشر من تشرين الثاني عام 1806.

«إنّ المجرى العام لثقافتنا وللمسيحية ذاتها، يُفضي إلى التعاطف والاتصال بالآخرين والخضوع وإلى الفضائل الاجتماعية الأخرى حيثما وُجدت. كما أن الإنسان يُسّر عندما يُضحّي بمشاعره وأحاسيسه وبالحقوق التي يمكن له أن يحتفظ بها على المستوى الطبيعي. أما مقاومة المتفوّق، ومقابلة المنتصر بعناد وجموح، لا لشيء إلا لأنّ أسلافنا اليونان واللاتين يجرون منّا مجرى الدم، دون أن ندرك عن مجريات الأمور شيئاً، فهو أمر طفولي وسخيف. هذا هو فخر الأساتذة والمهنيين والفلاحين ومن على شاكلتهم، الذين يكتفون بالسخرية من المحتل، عندما يلحق الأذى بهم». إذن لم يعد ثمة تحدّ أو خضوع، بل لون من الدهاء. فقد قرر غوته طبيعة موقفه، في اللحظات الأولى بعد وقوع الهزيمة، وكان عليه أن يبقى وفياً لهذا الموقف في السنوات العشر اللاحقة. وفي ضوء ذلك بدأت عملية رفض كلّ أنواع المقاومة بوصفها لوناً من ألوان التدمير

الذاتي. وصار التعاون لا المقاومة هو المبدأ والقاعدة. فعندما كان بقاء فايمار واستمرارها أمراً غير مؤكد، وهددّت الإدارة الفرنسية المحتلة بوصفها «قوة احتلال»، قدم غوته عضو المجلس الاستشاري للمحتل باللغتين الألمانية والفرنسية نظرة إجمالية عامة عن المرافق العلمية والفنية الموجودة في فايمار. بمعنى أنّه قدّم ملّفاً عن مجال اختصاصه، ولم يكن ما قدمه غوته عرضاً مجرّداً لمسار حياته في لحظات الأزمة، بقدر ما كان فرصة ليتحدث ببضع كلمات إيجابيّة عن الهرتسوغ ورعايته للفن ودعمه المالي لأنشطته.

في نهاية العام كتب غوته إلى تسلتر في برلين يقول:

«لم يكنْ من الضروري أن أتوّلى مهّمة القيام بالعمل العام، الذي يستطيع أن ينهض به رجال ممتازون، وقد كان بوسعي أن أبقى في صومعتي، لا أفكّر بغير المسائل التي تهمّني».

جاء هذا الكلام بمثابة ردة الفعل للأخبار التي تناقلها أصدقاؤه والتي كانت ترى أنّ من الأفضل لغوته أنْ يكون عضواً في مجلس بلدية برلين، على أن يكون ناشطاً في قمة الإدارة الذاتية البرجوازية في بروسيا المحتلّة[1]. ومع ذلك تبقى جملة غوته مستغربة في ضوء خلفيته وفي ضوء اهتمامه غير العارض بشؤون فايمار، بل إنّها تثير الشكوك.

كان غوته يشير، في الأغلب، إلى الظروف الأكثر بروزاً أيام الأزمة. التي أعقبت المعركة، فقد رفض غوته الفرصة التي سنحت له كي يقابل نابليون أو ضيعّها على كلّ حال. ففي المدة الواقعة بين الرابع عشر من تشرين الأول حتى نهايته كان غوته يذهب يومياً إلى البلاط، دالاً بذلك على مشاركته المكثفة في تقرير مصير بلاده، ولم يتخلّف عن الذهاب إلى هناك إلا يوم الخميس في السادس عشر من تشرين الأوّل. ففي ذلك

(1) MA 20.1. S.140-142.

الخميس كان على غوته أن يذهب مع فويغت وفولسوغين، زميليه في المجلس الاستشاري للمثول بين يدي مبعوث الإمبراطور، كي يؤكدوا للمحتّل ضرورة الحفاظ على الهرتسوغية واستمرارية بقائها، وكي يطالبوا بإيقاف أعمال السلب التي بقيت مستمرة حتى تلك الآونة، مثلما كان اللقاء يهدف إلى منح المشروعية للمجلس الاستشاري بوصفه ممثلاً للسلطة التنفيذية. كانت حاجة غوته للمشاركة الفاعلة في هذا اللقاء كبيرة، فقد أوحى إلى زميله فولتسوغن بضرورة كتابة رسالة مستعجلة يحملها المارشال الذي يعرفه غوته معرفة شخصية. وقد جاء فيها:

«إنّ صاحب الجلالة الإمبراطور قد تفضّل ورأى، بأن تكون فايمار نقطة تجمّع للأدب الألماني، وأذن بأن يحظى ممثلو الحكومة بشرف المشاركة في ذلك. لذا فإنهم يعربون لجلالة الإمبراطور عن احترامهم وإجلالهم ويعبّرون عن الولاء المطلق لعرشه»[1]. لم يظهر الأدب الألماني بوصفه أمراً غير مرغوب فيه في هذه اللحظة، أمام الإمبراطور، إلا من خلال غوته، وكان اسم غوته يظهر إلى جانب فيلاند وهو الوحيد الذي سيكون له اتصّال بنابليون.

لكنّ غوته اعتذر عن الذهاب. فقد كتب بطاقة بقلم الرصاص، وهو يجلس إلى جوار فويغت، جاء فيها:

«يعاودني في اللحظات المرعبة دائي القديم. اغفر لي ابتعادي، فإنني لا أكاد أدري إن كنت أستطيع أن أنحّي حتى هذه البطاقة جانباً»[2].

أخذ فويغت هذه البطاقة ووضعها في ملّف خاص به وعلّق عليها:

(1) Bojanowski, Louise, S-290.

(2) Goethe-Voigt, Bd. 3, Nr. 149, S. 132 mit Komentar S. 421. Dazu Tümmler, Goethe als Staatsmann, S. 62, Bd. 3. S. 339 sowie Steiger, Goethes Leben von Tag zu Tag, Bd. 4, S. 757.

«في السادس عشر من تشرين الأول عام 1806، وعندما أردت أن أذهب إلى نابليون مع السيّد فولتسوغن، عضو المجلس الاستشاري، رفض غوته الذهاب في اللحظات الأخيرة،على نحو رسمي، ولست أدري إن كان نابليون قد عرف ذلك، أو تم إبلاغه بالأمر قبيل مجيء غوته».

بقي التعليق على هذه الحادثة غير الاستثنائية يسير على غير منهج. فكان يُشار إلى الحالة المتوترة في منزل غوته، وكيف أنه قد أظهر في «هذه المدة الزمنية الفاصلة قلقاً كبيراً»، فضلاً عن بروز لون من الحيرة الموضوعية: فقد كان دفاع غوته عن الهرتسوغ تجاه الاتهامات العنيفة التي وجهها الإمبراطور له، مخالفاً لقناعاته الذاتية. لكنّ خاتمة ما دوّنه فويغت يوضح الفروق بين ما تراه المستشارية وما يحدث من عنف في الواقع. «لكنّ جلالته كان عطوفاً، فلم يبحث في الأسباب التفصيلية التي قادت إلى المشاركة الحماسية في الحرب البروسيّة الخاسرة»[1]. غير أنّ الشرائط الدبلوماسية التي يعيها غوته تماماً، لا يمكن أن تقود في تلك اللحظات إلى معارضته للهرتسوغ، أما عن الوضع الخطير في منزل غوته، فقد كان منزله في وضع آمن تماماً من خلال عطف الإمبراطور الحازم، الذي نزع فتيل الأزمة.

تبقى مسألة «الداء». إن هذا المصطلح ليس خاصاً بغوته وحده، بل يشمل المحيط الذي كان يعيش فيه، وهو يشير إلى المغص الكلوي الحاد الذي كان يعانيه غوته. فقد أصيب كثيراً بهذا المغص الكلوي في بدايات عام 1805، كما تبين يومياته، وأدى إلى «ليلة رديئة أو سيّئة» وإلى «يوم ضائع»[2]. وقد لاحظ فولبيوس، وهو صهر غوته، في الخامس

---

(1) PB 2, Nr. 433, S. 333.

(2) انظر: Tagebuch 3.2., 25.2., 27.2., 28.2., 25.5..

والعشرين من شباط أنّ المرض عاد إلى غوته مجدداً. و«أن مرضه هذا يعاوده في كل شهر مرّة»[1]. أما شارلوتي فون شتاين، وهي واحدة من المواظبات على حضور محاضرات غوته أيام الأربعاء، فقد كتبت في الثاني عشر من آذار: «من المؤسف أنّ مرضه الدوري كان كثيراً ما يؤدي إلى قطع تلك المحاضرات. إن معاناته مؤلمة جداً»[2].

ولم يكن ذلك الأمر مجهولاً في فايمار. فقد كتب فَالْك في آذار 1806 إلى يوهانّس فون موللر يقول:

«إنّ غوته يعاني نوبات شهرية بسبب الوريد الذهبي الذي يأخذ مساره عن طريق البول»[3]. ويقال إن غوته صرّح في كانون الثاني، قائلاً:

«إذا أراد الله، تعالى، أن يُهديني كليتين سليمتين، فيمكن أن تكونا من بين تلك التي سقطت في اوسترلتس»[4]. وقد حاول غوته عام 1806 أن يتغلب على تلك الآلام، بأن يذهب بعد سنوات طويلة للمرة الأولى إلى كارلسباد، حيث حاول أن يعالج الكليتين بالمياه المعدنية الفوّارة الحارّة، ويبدو أنه استشعر شيئاً من الراحة. والحقّ أن غوته لم يُظهر في النصف الثاني من ذلك العام سواء في يوميات أو في تقاريره أي ملاحظات عن ذلك «الداء» ما عدا ما ورد في السادس عشر من تشرين الأول. ففي نهاية العام كتب غوته إلى الهرتسوغ كارل أوغوست يقول: «أقول بارتياح إنّ [منتجع] كارلسباد قد ساعدني كثيراً، بحيث إنني لم أعان أيّ نوبة في هذا الشتاء». لكن ما تلى ذلك كان أكثر تشاؤماً...: لأنني عانيت قليلاً منذ الرابع عشر من تشرين الأول، ولا تزال بعض الآلام

(1) Grumach VI., S. 18 .

(2) Grumach VI., S. 21.

(3) Grumach VI., S. 26.

(4) Grumach VI. S. 12 (31 Januar).

الجسدية على مقربة مني، وأستطيع التعبير عنها»[1].

يبدو إيقاع هذا الكلام وكأنه لون من ألوان الاعتذار. فليس بوسع أحد، على الإطلاق، أنْ يعرف إنْ كان هذا الذي وصفه غوته لفويغت على أنه «داء»، يعني بالضرورة نوبات آلام الكلى أو أنه لون من ألوان الانزياحات التعبيرية أو أن غوته جرّاء الإرهاق الذي عاناه في تلك «الأيام المرعبة»، كان يعاني، حقيقة، هجوماً شرساً في معركة كانت تشّل قدراته. هذا أمر غير مستحيل ويمكن أن يدخل في باب الاحتمال. لكن الملاحظات غير الواضحة في الرسائل الخاصة بنهاية العام التي أرسلها غوته إلى تسلتر وكارل أوغست ليس متوافقة في إزالة تلك الشكوك، فقد قام بلون من الخديعة –مثلما اعتاد على أن ينسحب من المواقف غير المريحة، وكما كان يفعل في مراسم دفن أقرب الناس إليه.

وتبلغ هذه الشكوك ذورتها عندما يقرأ المرء الرسالة التي بعث بها غوته بتاريخ 1806/10/31 إلى شيللر الذي كان بعيداً: والتي تتأمل «وقائع رهيبة ملّحة» مضت حيث يقول: «لم تكد حالتي الصحية تتغير وأجد نفسي منذ عودتي من كارلسباد في وضع ثابت، كما أسمح لنفسي أن أتمنى».

إن هذا لا يتناسب مع الاعتذار الدرامي بقلم الرصاص الذي دوّنه غوته في السادس عشر من تشرين الأول. فهل كان غوته مريضاً في ذلك اليوم أم أنه أراد أن يتملّص من بعض الأعباء الفكرية؟ قد يكون ذلك أمراً مفهوماً. فغوته أديب ألمانيا المشهور، الذي يدري أن الإمبراطور نفسه يعرف اسمه، يتوجب عليه أن يبدو إزاء هذا الوضع مهزوماً ومتوسّلاً، ومجبراً على أن يتوقع أنّ نابليون لن يكلمه إلّا مثلما سبق له أن تكلم مع الهرتسوغة، عند درجات القصر، قبيل ذلك المساء. فمثل هذا الكلام

(1) Goethe-Carl August, Briefwechsel, Bd. 1, Nr. 345, S. 352 .

لا يُفضي إلى حوار حرّ، كالحوار الذي وقع بعد سنتين في إيرفورت، وشارك فيه اثنان من كبار عصرهما لمدة خمس عشرة دقيقة. كان غوته قلقاً على منزله، ولعله كان في وضع نفسي سيّئ، لكنه لم يكن يمتلك الرغبة، قبل كل شيء، في أن يكون في وضع كهذا، وفي كلّ الأحوال فإنّ ملاحظة هانز توملر دقيقة بخصوص «عدم القدرة» حتى لو اضطر المرء للتسليم أنّ سقوط غوته ليس نهائياً، لأنّ مصير فايمار لم يكن من بين اعتراضات غوته في خاتمة المطاف.

لقد أصبح إيقاف عمليات السلب والنهب بكلّ أشكالها مطلباً شعبياً بعد الجلوس العلني أمام حذاء الإمبراطور الفارس، وقد جرى تخليد هذه المشاهد بلوحات ملّونة.

هكذا فوّت غوته على نفسه بناء انطباع مُهّم، فعلى خلاف زميله فويغت وصديقه تسلتر، فإن غوته، الرجل الذي طاف أوروبا في خمس سنوات، لم يستطع أن يظهر للعيان. ولم يكن الفايماريون المنهزمون، بصرف النظر عن موقف الهرتسوغة المريضة، عديمي الإحساس بالانطباع الذي تركته شخصية نابليون. ولم يقتصر ذلك على القائم بالأعمال موللر، الذي كان قابلاً للإثارة، بل تعداه إلى فويغت، تلك الشخصية المتسمة بالجفاف والذي كتب إلى شاندماول بوتتجر، يقول:

«منذ أن مثلت أنا والسيد ف. فولتسوغن، بين يديه [نابليون] ارتفعت ثقتي بنفسي من خلال عينيه الجميلتين، ولن أسمح لهذه الثقة بالسقوط، من جديد، على الإطلاق»[1]، ولست أدري إن كان من حق الباحث أن يظن إنْ كانت مثل هذه الجملة، موجّهة للرقابة النابوليونية المشهورة.

---

(1) Geiger. Alt-Weimar. S. 110.

ترى هل كان غوته يشاهد الإمبراطور الفرنسي ولو عن بعد في تلك الأيام؟ إن السؤال مثير حقاً، إلى درجة يصعب معها عدم السير وراءه، ففي الخامس عشر من تشرين الأول تتحدث اليوميات: تحت عنوان «في البلاط جرّاء وصول الإمبراطور» يقتبس التعليق الذي ورد في الطبعة المحقّقة ليوميات غوته من كتاب البلاط الفايماري الذي يدوّن مجريات الأحداث اليومية ويشير إلى أنه «في حوالي الساعة الرابعة» سيصل الإمبراطور وحاشيته. إضافة إلى ألوان أخرى من الوقائع. وبعدها نقرأ: «ونظراً لاستقبال جلالة الإمبراطور، فقد لوحظ وجود السادة والسيدات خاصة كبار السادة العاملين في الخدمة الذين مشوا وراء جلالته حتى وصوله إلى الصالة، ليتفرّقوا في الطابق العلوي ويتجهوا صوب غرفهم»[1].

هذه هي الصياغة الرسمية لمشهد الدرج، سيئ الصيت، الذي هدّد فيه نابليون الهرتسوغة لويزا وتركها واقفة!

إنّ من الصعب أن نتصوّر أنْ غوته لم يكن على علم بذلك. وعلى أيّ حال، فقد ذكر الرجل في حواراته مع إيكرمان في 1830/2/10 عندما كان الهرتسوغة تُحتضر، على وجه التحديد، «قوة الإرادة التي واجهت بها نابليون». فهل كان غوته، «نظراً لقدوم الإمبراطور» إلى البلاط. يقبع في خلفيّة المشهد، بوصفه شاهداً على هذا المنظر القبيح؟ أما أنّ الرجل لم ينبس ببنت شفة بخصوص هذا الأمر، فهذا لا يُقدّم ولا يؤّخر، فإنّ غوته –كما نعلم– صمت عن أشياء كثيرة، وكان يتوجّب عليه أن يصمت بالضرورة، بسبب ما خلّفه عدم ظهوره المحرج في اليوم التالي.

إنّ يوميات غوته تستطيع أن تعدّ وجوده لوناً من ألوان الاستشارة،

---

(1) Goethe, Tagebücher III.2 (1801-1808, Kommentar), S. 881 f .

التي كان عليه أن يشارك في إعطائها قبيل قدوم الإمبراطور. ولكن لماذا لم يظهر غوته في ساعات ما بعد الظهر في خلفية المشهد وبالتالي كان من الممكن أن لا يكون اللقاء المباشر الأول بينه وبين نابليون قد حصل في إيرفورت عام 1808 بل في فايمار عام 1806؟ قام غوته في السنوات اللاحقة، كما سنبرهن، بالتخلي مراراً عن عملية تسجيل اللقاءات المباشرة مع نابليون. وفي كل الأحوال، فقد كان لظهور نابليون المقصود على نحو متعجرف في 1806/10/15، دور بارز في عدم ظهور غوته في 1806/10/16، فهل كان غوته يا تُرى، كما حاول مارفيتس أن يصوره لنا، يقف في الكواليس ويضع المساحيق على وجهه وهو يرتدي زيّ البلاط، ونابليون يخطو إلى الطابق العلوي وهو يرتدي زيّه البسيط، ويمشي مشية المنتصر؟ إنه أمر لا نستطيع أن نقررّه. ولكنه أمر يقع في دائرة الاحتمال الممكن.

وعلى كل حال فليس ثمة حادثة سياسية أخرى استطاعت أن تؤثّر في حياة غوته الشخصية على نحو مباشر، مثل عدم لقائه بنابليون من خلال المعركة التي وقعت في معركة يينا وما ترتب عليها من نتائج، فإنّ الأيام والأسابيع المأزومة بعد الرابع عشر من تشرين الأول، قد أجبرته على أن يعيد، على نحو جوهري، ترتيب أوضاعه الشخصية، وقد تزوج وقام بتنظيم أوضاعه المالية وتولدّت الطاقة الدافعة الجديرة بالملاحظة في هدفه المتمثل في الحفاظ على مخطوطاته التي كانت تجري عملية طباعتها، إضافة إلى الانتهاء من تشكيل الألوان الخاصة بها على أقل تقدير. وقد كتب غوته في السابع عشر من تشرين الأول إلى خطيب البلاط فيلهلم كريستيان غونتر يقول:

«لقد بدأتْ في هذه الأيام والليالي إحدى رغباتي القديمة بالتبلور، لهذا فإنني أريد من المجتمع أن يعترف بصديقتي الصغيرة، التي صنعت

الكثير من أجلي وعاشت معي ساعات المحنة كلها، بوصفها زوجتي».
كان غوته يرغب في أن يكون يوم الأحد الموعد المقرّر للزفاف، ويريد أن يعرف طبيعة الخطوات اللازمة التي يتوجب عليه أن يخطوها. «أرجو أن تعطي الرسول ردك، على الفور، عندما يلتقي بنا»[1]. وكان على كل من فويغت وفولتسوغن أن يعدّا طلباً من ثلاث نسخ، ودفع الرسوم لصندوق الأيتام وتسوية الأمور، كي يتم الزفاف بالسرعة التي يريدها غوته.

تمّ الزفاف قبيل ظهر الأحد في التاسع عشر من تشرين الأول في ساحة الكنيسة، واقتصر الحفل على دائرة ضيقة تماماً. وكان شاهدا الزواج ريمر وأوغست ابن غوته، الذي اندفع بتهور في تلك اللحظة المضطربة، وهو يطلق تعليقات قبيحة وغير صادقة.

لقد تم زفاف غوته تحت هدير المدافع وفي ضوء المشاعل في إحدى ساحات الكنائس، وكان على الجرحى أن يشعروا بالألم. وقد عبّرت مدبرة منزل غوته لـ «الجريدة العمومية» في الرابع والعشرين من تشرين الأول عن ذلك عندما قالت إنها «تلقت إحدى الضربات بينما كانت آلاف الشظايا تتساقط»[2]. وقد ازداد احتقار غوته للصحافة، هذا الاحتقار الذي رافقه طيلة عمره، بعد نشر مثل هذه الأخبار. وقد كانت ردة الفعل سلبيّة في المجتمع الخاص بفايمار، خاصة في الأوساط النبيلة الخاصة بزوجتي شيللر وشتاين. فقد أظهرتا امتعاضهما الكبير. لهذا صمّم غوته على أن يقدم زوجته في الصالون الخاص بحنة شوبنهور التي سبق له أن زار صالونها للمرة الأولى قبل يومين من وقوع معركة يينا وأويرشتيت، وقد كتبت السيدة يوحنة شوبنهور:

---

(1) WA IV 19, Nr. 5252, S. 197f .

(2) Frühwald, Goethes Hochzeit, S. 46

«بوصفي غريبة وامرأة مدينيّة واسعة الخبرة، قرر غوته أن يقدم لي زوجته». ثم أضافت عبارتها الشهيرة التي لا تنسى: «إذا كان غوته قد منحها اسمه، فإننا نستطيع أن نمنحها كوباً من الشاي»[1].

لكنّ السياق الذي رافق تلك الليلة الرهيبة في 1806/10/14 لم يعد مخيفاً، وإن لم يعرف عنه سوى القليل. لذا فإن غوته قد تزوج من كريستيانه ليشكرها على ما فعلته في تلك الليلة من أجل إنقاذه، ولعله فعل ذلك، لأنه كان يصعب إقناع الماريشالات الفرنسيين الذين كانوا ينامون في منزله، بأنها ربّة المنزل. صحيح أن غوته كان نادر التذكر لهذا السياق، لكنّه تذكر وحرص على توثيقه على هذا النحو:

«إنّ أحزاننا تؤرخ ابتداءً بليلة الرابع عشر من تشرين الأول».



كريستيانه 1806م

وهذا ما أفضى به غوته لصديقه كنيبل بعد الزفاف. وبذلك ظلّ غوته يحمل في ذاكرته، على امتداد حياته، تاريخ معركتي يينا وأويرشتيت، لكنّ الظروف السياسية ظلّت هي الأكثر حسماً، فقد كان الهرتسوغ

---

(1) Grumach VI. S. 166.فهناك عشرات الشواهد بهذا الشأن.

خارج البلاد، وبدا أنّ بقاء دولته مسألة مشكوك فيها. وكان في وسع غوته أنْ يصنع في أثناء ذلك الغياب لسيّده وصديقه، ما كان ينبغي أن يحول بينه وبين تنفيذه، أي ذلك الزواج غير الموفق. وإن كان عليه أن يتوّقع الفشل في تلك المهمة نظراً لحرج الأوضاع. كما أنّ ردود فعل سيدات البلاط في فايمار يبيّن مقدار الإساءة التي وجهها غوته إلى اعتبارات كثيرة، عند إقدامه على هذا الزواج. وهكذا أمسك غوته الفرصة بيديه الاثنتين واختار المسار الأقصر في الخدمة. ولم تكن ردة فعل المستشار السري الجاف فويغت تخلو من القوّة.

«إنه يعتقد أنْ كل الإعفاءات والمهمات الخاصة بالدولة قد تلاشت، عندما تمكنا من مساعدة الأيتام والمحتاجين على تناول ما يسد رمقهم عدة مرات، هكذا كنا دائماً!»[1].

«هكذا كنا دائماً»، وهو ما يشير بالضرورة إلى: أننا لم نعد كذلك، فقد وقع تحول تاريخي بعد ذلك ليضيف بعد ذلك جملة جميلة عن الصداقة: «إنّ ما تبقى لي من عمر، سيكون مهدى لهم وحدهم دون تغيير أو تبديل».

كان على الهرتسوغ أن يتدرّب على أن تُنجز بعض القضايا المهمة أثناء غيابه. وفي الوقت ذاته، كان غوته يريد تنظيم مسألة أخرى تتعلق بملكيته للمنزل الموجود في فراوين بلان. كانت الضرائب مرتفعة تماماً في ضوء المعايير الموجودة في فايمار على الرغم من الهبة الخطيّة الموثّقة التي قام الهرتسوغ عام 1794 بتسجيلها. لكنْ الأمر كان يخصّ، من قبل ومن بعد، ما يقرره مجلس الهرتسوغية. وكي يتمكن المجلس من الحصول على الضرائب، فإن المجلس كان يفرضها على امتياز صناعة البيرة. وكان المنزل الواقع في فراوين بلاتس ينتمي إلى ذلك الوضع. ثم

(1) Goethe-Voigt Bd. Nr. 151. S. 133.

صار لهذا الوضع المعقد قيمة استثنائية من خلال ما فرض على فايمار من ضرائب باهظة بعد الهزيمة، كنوع من الغرامات الحربية.

كان الوضع، بالنسبة لغوته، يعني غموضاً بشأن الملكية الخاصة بالمنزل، وهو ما يشكل بالنسبة للورثة، ابنه أوغست وزوجته كريستينا. لوناً من الكارثة، في حال وفاته. ولكن ألن يكونا بخصوص الميراث وحق الانتفاع، على الأغلب، مستفيديْن من رحمة حاكم الهرتسوغية ونواياه الطيبة؟ وما الذي سيجري لهذه القوانين المتداخلة اللعينة إذا ما انتهت هرتسوغية فايمار؟ إنّ التجارب التي اكتسبها غوته من الأيام والأسابيع التي تلت 1806/10/14 كانت تفضي إلى ضرورة إقامة علاقة واضحة تفصل بين الظروف السياسية، إلى الحد الأقصى، وحق المِلْكية المستقل.

وقد حاول غوته في بداية أيلول أن يحل هذه المشكلات، دون وجود الهرتسوغ، بالتعاون مع زميله فويغت وقد طلب أن يقوم بدفع الضرائب بوصفه مالكاً للمنزل، وطالب في الوقت ذاته، بأن يحصل بالمقابل على الإيرادات القادمة من امتياز صناعة البيرة. ويبدو أنّ تلك المشكلة لم تحل على مستوى الموظفين، لهذا كان يتوجب على غوته أن يتحدث مع الهرتسوغ بعد معاودة الاتصال للمرة الأولى بينهما عن الأزمة والمشكلات المتعلّقة بالملكية، لا عن زواجه.

تبيّن الرسالة المطولّة التي كتبها غوته إلى الهرتسوغ، بين 25 و29 كانون الأول، طبيعة المهمة الحرجة التي عبّر عنها بدقة ومهارة سيكولوجية. بدأ غوته رسالته بالتذكير بعيد ميلاد ابنه اوغست، مبيّناً أنه يصادف يوم كتابته للرسالة، ثم شرح يكمل قائلاً:

«إنّه يبدو دائماً على ما يرام، وأنا أستطيع أن أؤكد لكم يا صاحب السمّو، من بعيد، أنني عندما قرّرت في تلك اللحظة الأكثر فقداناً

للأمن، أن ارتبط على نحو قانوني، فإنني كنت أسعى لكي أمنح ولدي أباً وأمّاً، وهو ما يستحقّه منذ زمن طويل. فعندما تتفكّك الروابط كلّها، يتوجه المرء صوب الروابط المنزلية، كما أن المرء يفضل في العادة أن ينظر إلى أعماقه».

وممّا ساعد غوته في هذا السياق أنّ عشيقة الهرتسوغ الممثّلة كارولين ياغيمان، كانت قد أهدت للهرتسوغ مولوداً ذكراً، وهو ما كان غوته يضعه بالحسبان، لهذا نجد أنّ ثّمة نسمة من الزمالة الشهوانية تهبّ على سطور الرسالة عبر هذا الحدث السعيد.

في الجزء التالي من الرسالة يتيح غوته للهرتسوغ أن يلقي نظرة تأملية طويلة على الخسائر التي حصلت جرّاء الغزو الفرنسي، وما استعيد من تلك الخسائر، أي أنّ غوته كان يؤدي واجبه بوصفه المسؤول الأعلى عن المنجزات العلمية والفنية في فايمار. وقد رأى غوته:

«أن الأوضاع ليست سيئة تماماً، وأنّ الخسائر قابلة للتعويض، وأن المرء عندما يرى ما تم فقدانه، فإنه يشعر بالسعادة، على نحو مضاعف، إزاء ما تم الحفاظ عليه».

بعد هذا الكلام جاءت اللحظة المناسبة للحديث عن مشكلة المِلْكية، ففي ضوء الظروف غير الآمنة آنذاك، كان غوته يرى أن ثروة العائلة وما يملكه من عقار قد غدوا في مهّب الريح وكان يتساءل: ما الذي سيجري لعائلته «عندما يقرع صديقي هاينْ باب منزلي؟»، إنه كما يقول غوته: «سيقوم بالتعامل مع كل ما هو جوهري وأساسي في حياتي في ضوء التعليمات، وهو لن يتعامل مع تلك الأشياء المهمة بوصفها تنتمي إلى منزلي الذين أدين له بالخير، والذي يضيرني تماماً فقداني لملكيته». أي أن غوته كان يرجو أن تبقى الحال على ما هي عليه من ناحية إدارة المنزل، وهو ما يمنحه الأمان والطمأنينة:

«وسيكون بمثابة العيد لي ولمن يخصنّي، ذلك اليوم الذي نشعر فيه أنّ قواعد المنزل صارت قوية وصلبة تحت أرجلنا، بعد أن تراقصت طويلاً فوق أجسامنا، وكانت آيلة للسقوط».

وهذه جملة لا تخلو من الجرأة لأنّها لا تعيد إلى ذاكرة الهريتسوغ كارل أوغست الخطر الجسدي الذي أحاط به في معركة يينا، بل تذكرّه بالتهديد السياسي الذي يتهدّد كيان فايمار عموماً.

إنّ هذه الرسالة في مجملها تمثّل طلبات غير معقولة، وصفها فولفجانج فروفالد وهو أحد دارسي الأدب الألماني، على النحو الآتي:

«إنّ حديث غوته للهرتسوغ في رسالة واحدة عن مولد ابنه، وزفاف أحد وزرائه دون استئذان، ورجائه في أن يهبه أحد المنازل، ووصفه لما حل بفايمار من دمار، وإنقاذ ما أنقذ منها، يضعنا أمام قطعة فنية عالية التميّز»[1].

وصل ردّ الهرتسوغ كارل أوغست بخصوص عائلة غوته وطلبه في السابع من كانون الثاني 1807 قادماً من برلين. كان رد الهرتسوغ يتميّز بالصداقة الودودة وإن لم يخل من بعض البرود: «أنت حقاً شخصية ناشطة، مملوءة بالحماسة، كما أن الأمور الخاصة بمنزلك سليمة. وهذه أمور تبعث على الفرح، فاستمتع بهذا الوضع المريح! إنّ كون ملكية منزلك تخصّك وحدك، هو أمرٌ كلفّت فويغت أن يتولّى أمر العناية به»[2].

وقد كشفت مراسلات ريمر عن طبيعة تفكير غوته بعد تأكده من ملكية منزله، مع التأمل في كيفية تعاطي الهرتسوغ مع الأمر ومقارنته بموقف الشاعر غوته، لو لم ينقض يوم 14/10/ 1806 على نحو يخلو من

(1) Frühwald, Goethes Hochzeit, S. 54.

(2) المراسلات بين غوته وكارل أوغست، بخصوص إيضاح وضع الملكية الخاص بالمنزل. أشكر من كل قلبي يوهانس سالتس فيدل.

الأضرار البالغة، وقام نابليون بتنفيذ ما توعدّ به:

«إنّ مصير غوته سيكون، حتى لو أنه يفقد حياته، أكثر سوءاً من مصير سيّده الغائب. وكان ثمة أمراء سيتولون أمره ويقومون بتقديم يد العون له آجلاً أم عاجلاً. لكن غوته كان يريد الحصول على كل شيء: العقار والثروة والروائع الأدبية –وهي حصيلة عمل شاق لسنوات طويلة– وما هي الجهة التي كان سيولّي وجهه إليها كي يحصل على الحماية والدعم والأنشطة الملائمة؟» ولعل علينا أن نتذكر في هذا السياق أولاً، الحقيقة الأولية التي تتمثّل في فقدان غوته مرتبه السنوي البالغ 1900 تالر، لو انتهى كيان فايمار –آيزناخ،وهذا المرتب هو المصدر الأكثر أهميّة في معيشة غوته. لقد كلفّه هذا المنزل بعد 1806/10/14، كما أخبر زوج أخته، 2000 تالر، أي أن تكلفته فاقت مجموع دخله السنوي.

إنّ ما حصل عليه غوته من الهرتسوغ كان في الجوهر لوناً من تقليل مستوى التبعيّة أو بعبارة أخرى: الاستقلال البرجوازي بدلاً من العفو الارستقراطي. وقد سعى غوته تحت تأثير صدمة الغزو النابوليوني إلى تحديث واضح على الصعيدين الشخصي والاجتماعي لحياته دون إبطاء وعلى نحو منطقي.

فقد أضفى الطابع الشرعي على علاقته بكريستيانه، ضارباً عرض الحائط بالثوابت المهنيّة، مبيّناً علاقات المِلْكية في منزله، ليتحول بذلك إلى صاحب منزل ورب عائلة حقيقي من الطبقة البرجوازية: وكان في هذه الأثناء يتنكّر للملامح الأرستقراطية–البلاطية في وجوده. ويبدو أنّ ألمانيا كانت تعيش بالإجمال في تلك الأيام ما كان يكتبه غوته في نتاجه. فقد تم تجديد البناء الخاص بالدولة، إضافة إلى البناء القانوني والآخر الوظيفي على نحو راديكالي خالص، بمعنى أنه تمّ تبسيطه وتنظيمه. كانت الطبقة الأرستقراطية التي ضربت جذورها قد بدأت

بالهرب، كما خضعت الخريطة لإعادة ترتيب. أما في الداخل، فقد انفصل المجتمع عن الدولة، وصارت الفواصل دقيقة بينهما ومحدّدة. ووجدّ غوته نفسه، بكل ما تنطوي عليه شخصيته من وضوح في غمرة العاصفة على المستوى السياسي.

كلّ ذلك كان له تأثيره، نابليون، والإرث وتجاوز الثورة وتصديرها إلى ألمانيا. ففي تشرين الأول عام 1806 لم يكن غوته قد التقى بنابليون وجهاً لوجه بعد، مثلما سيحدث بعد عامين، حتى لو أنّ غوته، كما كان يُشاع في هذه الأجواء، كان يراقبه. ومع ذلك فإنّ هذا اللقاء الذي كاد يقع، غدا يمثل الحدث السياسي الأبرز في حياة غوته، وقد تفوّق على الهجوم المدفعي في فالمي، الذي برع غوته في الحديث عن تفصيلاته:

ففي خطابه الخاص بـ«الذكرى الأخوية لفيلاند» في عام 1813، تحدث غوته عن ذلك اليوم البالغ الأهمية الذي كنّا فيه بين الدهشة والذعر؛ لأن مصير العالم كان يتحدّد أثناء جولاتنا في المشي على الأقدام والتي كان فيلاند يستشعر السعادة في أثنائها[1].

وهذا الكلام يُعيد إلى الذاكرة الجملة الشهيرة في التقرير الخاص بفالمي التي تقول: من هذا المكان وفي هذا اليوم تبدأ مرحلة جديدة في التاريخ العالمي.

إنّ ريمر يقصد أنّ ما أبداه غوته في ليلة الرعب وما تلاه من جرأة، وهو يرتدي رداءه النبوي ويقف أمام الجنود يرجع؛ لأنّ غوته كان يتذكر لحظتها دخول المحارب الألماني إلى منطقة الشامبين– الواقعة في شمالي فرنسا– لأنه جاء الآن الدور الخاص بالألمان[2].

وهنا يستطيع ريمر أنْ يتكئ على الجملة الختامية في «الحملة في

---

(1) MA9، S.962 f.

(2) Riemer, Mitteilungen, 5. 172.

فرنسا»، حيث يتحدث غوته عن الأقدار العالمية التي بقيت تهددنا على امتداد «اثنتي عشرة سنة حتى غمرتنا المياه نفسها، بحيث صرنا لا نُرى ونحن نبتلع تلك المياه».

لقد بقي غوته يشد القوس بين 1792 و1806 «يومها فررت من التاريخ العالمي». كما كتب غوته عام 1822 إلى صديقه فريدريش روخ ليتس بخصوص تقريره المتعلّق بالحملة: «وبعد ذلك يمكن لهذا التاريخ العالمي أن يسوقنا كما تساق القطعان»[1].

إنّ التاريخ العالمي يعني هنا، مثلما يعني في مواطن كثيرة أخرى الحرب التي تمثّل الحالة الكبيرة التي تتجلّى فيها الإرادة الخارجية، وهذا يمثل النقيض التام لما ظل غوته يحلم به، طيلة حياته. وقد شكل نابليون، الذي شاهده غوته للمرة الأولى عام 1806، الأساس لمثل هذا «التاريخ العالمي». ومن الغريب أنّ نابليون جعل الحادثتين، حملة الشامبين التي وقعت عام 1792، والحرب في بروسيا مرتبطتين ببعضهما بعضاً ارتباطاً سببياً. وقد جاء في منشورات الجيش الفرنسي بتاريخ السادس من تشرين الأول عام 1808م. «لقد وصلتْ أصداء صيحات القتال إلى برلين. فمنذ شهرين ونحن نعيش حالة من التحدّي كل يوم، فلا يزال الحزب نفسه، ولا تزال الروح الخادعة ذاتها مسيطرة منذ أربع عشرة سنة، التي أوصلت البروسيين بتشجيع من القلاقل الداخلية لدينا، إلى منتصف سهول الشامبين، تزدهر في كل موسم. لقد وجدوا الهزيمة والموت والإهانة. دعونا نزحف كي يلقى الجيش البروسي المصير ذاته الذي لقيه قبل أربع عشر سنة»[2].

---

(1) 22. April 1822. MA 14. S. 764. Ähnlich in der "Anzeige von Goethe's Sämmtlichen Werke" 1816 (WA I,42, 1.S. 113).

(2) Lettow-Vorbeck. Der Krieg von 1806 und 1807. Bd. 1. S.453 Deutsche Übersetzung bei Keil. S. 17.

الاتحاد الألماني لنهر الراين:
في الطريق إلى الإمبراطور: قراءات ومناقشات وأشعار

للخادم يوهان غينسلر الذي رافق غوته وجماعة المسافرين في الرحلة الصيفية عام 1806 إلى كارلسباد دور باق في ذاكرة الألمان، وإن كان هذا الدور يخلو من الاسم. ارتبط هذا الدور بشجار وقع في المنطقة الموجودة خلف مدينة هوف، أثناء العودة إلى الوطن. سجّل غوته هذه الواقعة في يومياته في السابع من آب، فقال:

«الانشقاق بين الخادم والحوذي على المقعد أوقعنا في معاناة، تفوق مسألة انشقاق الإمبراطورية الرومانية». صار هذا القول من أكثر أقوال غوته اقتباساً لمدى يزيد على القرن، وجرى توظيفه للتدليل على ابتعاد غوته الشاعر عن عالم السياسة، وللإشارة إلى ضعف اهتمام الأمّة الألمانيّة بمصير الإمبراطورية الرومانية المقدّسة.

لكنّه جرى تصحيح هذا التفسير منذ زمن طويل، فقد كان للحادثة التي وقعت في العربة تأثيرها القويّ في غوته، الذي وجد نفسه مضطراً في اليوم التالي لوصوله إلى يينا، أن يُجبر الخادم الغضوب على الذهاب إلى الخدمة العسكرية، مثلما طلب من الشرطة أن تنهي خدمته عنده. لقد تميّز سلوك غيسلر على الدوام بالهياج والعناد والغلظة والغضب المستمّر، وظهر ذلك بوضوح أثناء الرحلة إلى كارلسباد، حيث تجلّت مزاجيته الحادة «فلم يكتف بأن يعامل رفقاء الرحلة بحقارة (...) بل إنّه أظهر أثناء رحلة العودة نواياه الشرّيرة، وحقده على الحوذي، على نحو جعلهما يتبادلان ألفاظاً عنيفة، دون أن يأخذا الوقار الأرستقراطي بعين الاعتبار، أما غيسلر، فعلى الرغم من التعليمات والتحذيرات الخاصة

بطبيعة عمله، فإنه تصرف على نحو يجعله على حافة الجنون»[1]. وقد قفز الحوذي عن مقعده في تلك الأثناء، فأخذت العربة تسير دون وجود قائد لها قدماً. ولم يكن ذلك أمراً سهلاً؛ لأنّ حادثاً كان يمكن أن يقع في تلك الأثناء.

وتبين يوميات غوته، من حيث اتفاقها مع النوع الأدبي الذي تنتمي إليه، قدرتها على مقاربة العالم الذاتي من خلال معلومات تاريخيّة واسعة، وهذا ما سيفعله كافكا في يومياته بعد قرن من الزمان، عندما أصرّ على أنْ يذهب إلى المسبح في اليوم الأوّل الذي اندلعت فيه الحرب العالمية الأولى.

لم يكن بالوسع، الحديث في تلك الشهور عن السياسة بعيدة المدى، فإنّ «خبر إعلان الاتحاد الألماني» لم يبلغ جماعة المسافرين إلا في اليوم السابق، مثيراً بذلك «التأملات والمناقشات». فعبر هذه الرابطة التي ضمت ست عشرة دولة ألمانية تابعة لفرنسا، كانت القيصرية الألمانية-الرومانية بذلك قد شارفت على نهايتها. ففي السادس من آب تنازل فرانتس الثاني عن عرشه وعن كلّ شكل من أشكال الحكم. وهي خطوة أثارت الخوف والفزع والحزن في أرجاء ألمانيا. ووجدت صداها، بعد عشرة أيام، في مراسلات فويغت-غوته. فقد كتب الوزير الفايماري: «لقد خلّف ذلك أثراً حزيناً لديَّ». وأضاف: «إذا كان الشعر والسياسة يمكن أن ينسجما، فإنّ التنازل عن [العرش] يشكل مادّة ثريّة، لأنّ جوهر الإمبراطورية الرومانيّة هو في طريقه نحو الانهيار»[2]. وقد عبّرت والدة غوته عن الأمر في رسالة مؤثّرة بعثت بها إلى ابنها، عندما تمّ حذف الإشارة إلى القيصر والرايخ من الصلاة الكنسيّة في

(1) Schleif. Goethes Diener. S. 159-161.

(2) Goethe-Voigt. Nr. 134.

فرانكفورت للمرة الأولى:

«لقد تصوّرتُ الأمر وكأنّ صديقاً عجوزاً أعياه المرض واستسلم للأطبّاء، وعجزوا عن مداواته، وصار من المؤكدّ أنّه سيقضي نحبه لكنّ المرء يُصاب بالذعر عندما يأتي البريد حاملاً خبر وفاته»[1].

لم يكن الأمر يعني لمدينة[2] مثل فرانكفورت كانت تتبع القيصر مباشرة أو المدن الثورنغيّة[3] الصغيرة إلّا مسألة رمزية. فقد كان الرايخ القديم يحمي السلطات الصغيرة والأصغر، حتى لو كانت الأسس القانونية التي تسوّغ وجودها ضعيفة، وقد غدت الخريطة الألمانيّة في حركة تغيّر دائم منذ معاهدة السلام 1801 التي اقترحت إعطاء الجانب الأيسر من شاطئ الراين لفرنسا، ومنذ القرار الرئيس لمجلس المبعوثين الإمبراطوري عام 1803 الذي سعى إلى المساواة الضرورية من خلال عَلْمنة الأبعاد الدينية في تلك الإمارات.

وعندما تمكنّ نابليون من هزيمة القيصر النمساوي في الثاني من كانون الأول عام 1805 في معركة أويسترلتس، ومعه القيصر المتحالف معه، فإنّ ذلك كان يعني أنّ نهاية الحياد البروسي بدأت تتجلّى للعيان، مع أنّ بروسيا استطاعت أن تمنح الأمان لشماليّ ألمانيا بما في ذلك هرتسوغية فايمار منذ عام 1795. فبعد تأسيس الاتحاد الألماني في كلّ من جنوب ألمانيا وغربها، وتحلّل الإمبراطورية الرومانية المقدّسة، بدأ خيار ولادة ألماني شمالي بل قيصرية بروسيّة يلوح في الأفق.

إنّ قوة التوازن في أوروبا الوسطى قد تغيّرت على نحو يصعب

---

(1) Frau Rat Goethe. Gesammelte Briefe (hrsg. von Ludwig Geiger). S. 496 (19. August 1806).

(2) يستخدم المؤلف في وصف المدينة مصطلح Reichsstadt وهي مدن كانت تتبع القيصر مباشرة (المترجم).

(3) نسبة إلى ثورنغن والتي كانت إيرفورث مركزها: (المترجم).

تقديره، كما أنّ الإطار القانوني القديم للرايخ قد تكسّر. وهذا أدّى، بالضرورة، إلى إصابة الدويلات الصغرى في وسط ألمانيا بالاضطراب. لقد أصيب غوته بشيء من هذا الاضطراب، فإنّ الحديث في يومياته عن السياسة مسألة نادرة الحدوث، إذا ما قورنتْ بأحاديثه عن السياسة في صيف عام 1806، فقد أشار غوته إلى إقامته في كارلسباد، ملتقى المجتمع الكوزموبوليتي وملتقى الدبلوماسيّة الأوروبية، ومحاولته استثمار ذلك كي يصل إلى مبتغاه.

كان غوته (يلتقي أثناء هذه الأسابيع الثلاثة بهاينريش الثامن والأمير رويس على نحو شبه يومي، وكان رويس بمثابة جنرال في النمسا، وله وضع يشاكل وضع غوته مع كارل أوغست. كانت اللقاءآت تجري في عيون المياه المعدنية الحارة وأثناء رياضة المشي وفي الملتقيات الاجتماعية، لمناقشة «السياسة» وللتعبير «بطلاقة دبلوماسية» عن البؤس الذي «يتهدّد حالتنا»[1]. وكانت الخطط الخاصّة بالثورات الشعبية والأخبار المتعلّقة بالتدريب المركزي المنظم للجيش الفرنسي تشكل موضوعات تلك الحوارات.

إنّ ما يّوضح طبيعة المزاج المتّوتر آنذاك، يتمثّل في وضع غوته الذي تشير إليه السيّدة فون شتاين في شهر كانون الثاني. فقد اعتاد غوته على أن يقتطع من محاضراته الأربعائية المخصصة للعلوم الطبيعية، التي اعتاد على أن يلقيها أمام سيّدات فايمار، ربع ساعة يتحدّث فيها عن شؤون السياسة، أو عن «معطيات اللحظة الحاضرة» وهو ما لم يكن يفعله عن طيب خاطر[2].

إنّ اضطرار غوته للحديث عن السياسة في المجتمعات الكبيرة، أمر

---

(1) Tag- und Jahreshefte, MA 14, S. 176.

(2) Grumach VI, S. 4 (8. 1. 1806).

معروف، وقراءته لما تنشره الصحف من تفصيلات، معروف كذلك، وإن تمّ ذلك على نحو غير منتظم. فقد اعتاد على أن يقلب مجلداتها السنوية، وكأنها مصادر تاريخية، وكان يفعل ذلك بنظرة نقدية فاحصة وبوعي جوهري على طبيعة تلك اللحظة.

كانت ردّة فعل غوته تتميّز بالسرعة القصوى عندما يتعلق الأمر به أو ببيئته المحيطة.

«صحف تحمل لنا ماضينا القريب»، هذا ما دوّنه غوته في الثلاثين من تشرين الأول 1806، أي بعد أسبوعين من معركة يينا. وقد احتج غوته احتجاجات قويّة غير مّرة عند ناشر كتبه كوتا Cotta الذي كان يصدر جريدة «ألجماينة تسايتونغ»، على التقارير المشّوهة التي كانت تنشرها عن فايمار، لكنّ تأثير غوته كان يتجلّى في المقام الأوّل، في الدائرة القيادية الضيّقة لدولته، مثلما بقي بوصفه يمثل شهرة أدبية هدفاً لعدد لا يحصى من الزوار، الذين ظلوا يرغبون حيثما ذهب، في اللقاء به.

استطاع غوته أن يجمع قدراً كبيراً من معلوماته وانطباعاته في تلك الأثناء. فقد تمكّن من أن يجلس قبيل المعركة على طاولة واحدة مع قائد أركان الجيش البروسي، أما بعد المعركة فقد صار منزله مأوى لخمسة ماريشالات من أكثر ماريشالات الجيش الفرنسي شهرة، فمن الشخصية الأخرى، باستثناء الدبلوماسيين، التي يمكن أن تقارن بغوته؟ إنّ الاقتراب الوظيفي من رجالات الدولة في أوروبا القديمة، ومن الوقائع وأبطالها كان يجري مع قدر كبير من حرية التصرف الذاتية المنسجمة مع طبيعة غوته التي لا تهوى الصراعات الحزبيّة السياسيّة. أما الرسائل واليوميات، فإنها تتضمن بخصوص تلك المسائل، تلميحات لا أكثر، لهذا يميل المرء إلى الاستهانة باقتراب غوته من السياسات الكبرى، لكنّ

تلك التلميحات تكفي، في كل الأحوال، لتبيّن طبيعة نشاطه الوظيفي وتوثقه.

إنّ أكثر ما يلفت النظر في يوميات غوته، هو ما دونّه في الثامن من آب عام 1806 بعد الشجار الذي جرى فوق مقعد العربة: «لقد تم تسييس كلّ شيء أثناء الرحلة، وجرى اختراع لقب جديد لنابليون والسخرية من الأمراء المنحازين، وأخيراً العثور على تأثير لتعاليم فيخته في أفعال نابليون وسلوكياته».

وقد دوّن فريدريش فيلهلم ريمر مرافق غوته «نُكتة» لا تخلو من الشعور بالفخر: «نحن نابليون، الله معي، محمّد العالم، إمبراطور فرنسا، حامي ألمانيا، منظمّ مقدّرات الكون التجريبية والمقدّر لها إلخ ..» وقد تم اختراع هذا الكلام بالاشتراك مع غوته في طريق العودة من كارلسباد وبعد أن تلّقوا خبر «تفكّك الرايخ الثالث»[1] بمعنى أنّ الحديث كان يجري عن نابليون بوصفه وحشاً أسطورياً من وحوش التاريخ العالمي، أكثر مما يجري تأمله من منظور يدع مسافة بينه وبين ما يجري. وإذا كانت عبارة «منظمّ الكون» تلمح إلى فيخته، فإنّ عبارة «المقدّر» تعود إلى القيصر أوغوستوس، الذي ينظمّ، في ضوء ما يراه لوثر، في إنجيل لوقا، «مقدّرات الكون». أما (الرسول) محمد، فهو واحد من أعظم الفاتحين في التاريخ، وهو صاحب دين وشريعة وقائد عسكري ذو رسالة. أما بخصوص حامي ألمانيا، فقد سبق لنابليون أن ادعى ذلك، قبل سنتين، أمام القيصر. أما أن الله معه، فتعني أن معه القوة الإلهية المعروفة، ليغدو نابليون في المحصّلة النهائية أكثر قوة منها. وفي هذا السياق يجري استذكار الاندماج النادر بين فيخته وكالديرون[2] الذي

(1) Grumach VI. S. 88 (8. 8. 1806).

(2) إشارة هنا إلى سيفرين كالديرون (1799–1867) وهو كاتب إسباني: (المترجم).

يتجلّى في «الأمراء المنحازين». إنّ الحديث حول نابليون في العربة قبيل مدينة يينا، مملوء بالدلالات والإيحاءآت، وكان هذا الحديث مجموعة من التداعيات والإيماءآت، أي أنه كان، على الرغم من بواعثه المعاصرة لا يقتصر على كونه حديثاً سياسياً.

لقد صار الإمبراطور الفرنسي لُعبْة في فضاء مملوء بالتداعيات التاريخيّة، وقد حاول غوته، عندما كان في مطلع العام، أثناء زيارة ترويحية من أجل ولده أوغست، عند صديقه البرليني تسلتر، أن يعتذر عن إحدى الإيماءآت الأخرى المتعلقة بالإمبراطورينْ القديم والجديد:

ليس في وسع كلّ أحد أن يقول، كما يقول نابليون: «أيّ يوم سيأتي، فإننا سنراه وننتصر فيه»[1].

تذكّر هذه العبارات الإلماحية بكلمات هيغل عن «روح العالم»، ذات الخلفيّة الإفلاطونية الحديثة، التي تتفق مع خواطر ريمر وتناسب مصطلحات فيخته في الوقت ذاته.

ولكن ما الذي كان المرء يعرفه في فايمار التقليدية قبل عام 1806 عن نابليون؟ إذا تجاوزنا مسألة قراءة الناس للصحف؟ إنّ مدى اهتمامهم بالصعود السريع للجنرال كان ضعيفاً في بادئ الأمر فتصريحات شيللر وهيردر وغوته تُحصى على أصابع اليد الواحدة، ففي الثامن عشر من برومير[2] وإنشاء القنصلية الفرنسيّة، كتب غوته في يومياته بتاريخ 1799/11/22 ملمحاً إلى الانقلاب على البرلمان:

«مساء عند شيللر. عن الحدث الجديد في سانت كلود». وقد كتب هيردر إلى كنيبل بعد ذلك بعدّة أيام: «ما الذي ستقوله للزعيم الجديد؟ إنّ لديّ آمالاً كبيرة، إذا ما واصلوا، وهم سيواصلون!»[3].

(1) WA IV, 19, S. 116 (22. 3. 1806).

(2) برومير هو الشهر الثاني من الشهور حسب تقويم الجمهورية الفرنسية: (المترجم).

(3) Herder, Briefe VIII, S. 105.

أما شيللر، فلم ترد على لسانه سوى تصريحات شفوية ينقُض بعضها بعضاً، ولعل الموقف الذي تعكسه هو الموقف الذي تحتفظ به: فقد زعم [يوهان فريدريش] كوتا صديق نابليون أن شيللر وصف بونابرت بأنه «ظاهرة سامِئة»، أما كارولين فون فولتسوغن، فقد اقتبست الجملة التالية: «ليتني كنت قادراً على أن اهتم به وحده! فكلّ ما سواه ميّت– لكنني لا أستطيع، فهذه الشخصية بالنسبة لي كريهة تماماً– ولا يمكن لأحد أن يتحصّل منها على تعبير مرح أو على طرفة واحدة»[1]. أما عن كَونْ شيللر قد تحدث عن التجربة النابوليونية في مسرحيته «فالن شتاين»، فذلك يظلّ محض افتراض.

كان مضمون العمل معروفاً لشيللر قبل نابليون بمدّة طويلة، ومسرحيّة شيللر لا تقدّم إلّا تشابهات عامّة لا أكثر ولا أقلّ. ويلفت النظر ما صرّح به غوته لشيللر على نحو مختصر في التاسع من آذار عام 1802. كان غوته يستعدّ في تلك الأثناء لكتابة «بنت طبيعيّة»، مسرحيته الثوريّة التي تقع بين أخريات أعماله.

لقد درس غوته بإعجاب شديد «الذكريات التاريخية والسياسيّة لعهد لويس السادس عشر» بقلم لويس جان سولافي التي تحكي عن حقبة تاريخيّة قريبة بكلّ ما فيها من ظلم وميل للفضائح، وتركيز كليّ على البلاط. وقد وجد غوته هنا صوراً كبيرة للثورة بوصفها حدثاً طبيعياً «في المجمل. كان المنظر الهائل للجداول والأنهار وهي تتدّفق من الأعلى، في ضوء منطق الطبيعة قادمة من القمم البعيدة والوديان الكثيرة، لتتلاقى الأمواه على نحو يتجاوز قوّة النهر الكبير ولتتسّبب في حدوث فيضان ضخم، يُهلك كل من اتفق له أن كان هناك حتى لو لم يحاول التعرّض له. إنّ المرء لا يرى في هذه التجربة المرعبة سوى

(1) Schiller, Nationalausgabe, Band 42, S. 355 f.

الطبيعة، ولا يشاهد ما يودّ الفلاسفة تسميته بالحريّة.

«ونحن نريد أن ننتظر لنرى إن كانت شخصية بونابرت قادرة على أن تمنحنا السعادة من خلال ظهورها الطاغي والباهر».

إنّ الإمبراطور القويّ لا يظهر هنا بوصفه فاعلاً مستقلاً، بل يبدو على النحو الذي وصفه يعقوب بوركهارت[1]، في ما بعد، في الجملة الخاصّة بالأمواج، التي فهمناها بوصفها تمثيلاً لتيّار تاريخي فوق شخصي، وأنّ الشخصيّة الفكريّة الخاصة «مرّوض الثورة» تقف بعيدة تماماً.

أما كريستوف مارتن فيلاند، فقد كتب في الحادي عشر من شباط عام 1798م، يقول: «أنا شديد الاهتمام ببونابرت الذي ربما لم تعرف البشرية منذ نشأتها، ثلاث شخصيات شبيهة به، إضافة إلى أن فرنسا وأوروبا ستكونان بمثابة المخلص إذا نصّبته فرنسا ديكتاتوراً مدى العمر»[2]. كان فيلاند يمثل الرأس السياسي المتفوّق بين كتاب فايمار، مثلما كان صاحب اطّلاع واسع وبصيرة، وكانت له مراكز استطلاعية في الآفاق المحايدة الحرّة في بروسيا ترقب صعود الجنرال منذ البداية، ونجد في الرسالة ذاتها عينّة من بصيرة فيلاند الثاقبة:

«إنّ الجمهورية الفرنسية [هكذا كان يسّميها] ستغدو روما الثانية، وهي لن يهدأ لها بال، حتى تتوحّد أوروبا كلّها معها، أي أنها ستستعيدها وتبتلعها». وقد صيغت هذه الأحكام بتعاطف ينطوي على أبعاد جماليّة قويّة. فقد كتب فيلاند عام 1797 يقول:

«إنّ الإمبراطور الاكسندر –بونابرت الشاب، كان يشكل بطلاً بالنسبة لي منذ القديم، و«قد غدا، من خلال صورته،

---

(1) يعقوب بوركهارت (1818–1897) سويسري المولد والوفاة، وهو مؤرخ للفنون والثقافات وذو حضور مهم في مسألة الكتابة التاريخية: (المترجم).

(2) Wielands Briefwechsel. .14. 1. S. 189 (Nr. 180).

الشخصيّة المفضلة لدّي»[1].

وقد ظلّت شواهد هذه العناية تتزايد، وهي ستدع جانباً مراحل الشك في شخصيته جانباً. إنّ الحظ السعيد الذي يتحلّى به نابليون، هو حظ أوروبا السعيد في الغالب». كما جاء في الحادي عشر من أيلول 1798[2]، هذا الحظ السعيد الذي لم يستمّر طويلاً.

إن شهرة فيلاند بوصفه كاتباً سياسياً، تعتمد على حقيقة مفادها، أنّه كان يدرك صعود نابليون ليغدو القوة الوحيدة منذ زمن مبكّر، وقد تمّ ذلك تحديداً في آذار عام 1798م، أي قبل سنة ونصف السنة من الثامن عشر من بروميير وقبل ست سنوات من الإمبراطورية وقد جرى ذلك في إطار جدل موّسع كان يدور آنذاك حول قضايا دستوريّة فرنسيّة، أوسع لها مكاناً في مجلّته «عطارد الألمانيّة الجديدة» في ثنايا سلسلة من الحوارات أطلق عليها فيلاند اسم «بيني وبينك». وقد لام فيلاند في الحوار الثاني من تلك الحوارات الجمهورية الفرنسيّة لأنّها جَعَلْت «كراهية المَلَكيّة» أمراً واجباً.

وقد انبنى جوهر المحاجّة على أنّ المَلكيّة شأنها شأن الديمقراطية لا يمكن لها أن تستّمر دون توافق في الآراء، ودون شرعية، أما الانتهاكات فهي موجودة في كلّ منهما. لكنّ الملكيّة تتميّز بدرجة عالية من الاستقرار، وبقدرتها على أن تتخلّى عن العنف الموجود في النظام الجمهوري. وقد صار بوسع القارئ أنْ يرى الثورة الفرنسية في ضوء طبعة جديدة، تنويريّة وإصلاحيّة ومحدودة، وتعكس، قدر الإمكان، لوناً من الشموليّة الدستوريّة.

كان فيلاند، يعي أنّ الملكة البروسيّة لويزا تقرأ مجلّته، ويأمل، في

---

(1) Ebda. S. 58 (Nr. 46).

(2) Ebda. S. 336 (Nt. 323).

الوقت ذاته، أن تستطيع «الحوارات» لفت نظر الملك الجديد فريدريش فيلهلم الثالث وأن تصل المجلة عبر تلك الحوارات إلى متناول يده. ونظراً لكون فيلاند قد عرف من خلال المذاهب القديمة دورة الدساتير، وقد تهيّأ من خلال دراسته للثورة الإنجليزية في القرن السابع عشر التي قامت تحت سيطرة اللورد الحامي ووصاية أحد الديكتاتوريين، فقد استطاع المراقب الألماني أن يبرهن على قدرة تنبؤية مدهشة في دقّة الاستنتاج.

لقد استخدم فيلاند المصطلح الروماني القديم «الديكتاتور» ليكون بمثابة وسيلة إنقاذ، إزاء ما تعنيه الجمهورية من تدهور في النزاع ذي «الروح الطائفية» -الذي يُفضي إلى نزاع دائم أو حرب أهليّة. إنّ العودة إلى الملكيّة غير ممكنة، طالما بقيت أسرة البوربون، لهذا كان يتوجّب البحث عن الديكتاتور.

أما التوصيف الذي يقدّمه فيلاند، فهو على النحو الآتي:

يتوجبّ على هذا الرجل، كما يدع فيلاند أحد محاوريه يصفه، أن يكون «رجلاً لطيف المعشر. ذا روح عالية جدّاً، وذا موهبة كبيرة في الحرب أو في السلم، وأن يكون ذا نشاط لا يعرف الكلل والملل، وذا ذكاء متوقّد وشخصية صلبة، وأخلاق صافية، وأن يكون بسيطاً وغير متباه بطريقة حياته، وأن يكون على الدوام سيّد نفسه (...) منفتحاً ومنغلقاً في الوقت ذاته، ناعماً وصلباً، مُجاملاً وقاسياً، رقيقاً وقويّاً (...)». ثم يضيف فيلاند:

«ويجوز له، لأسباب متنوعة وعديدة، أن لا يكون فرنسياً خالصاً، أو على الأقل أن لا ينتمي إلى العائلات الشهيرة والعريقة، وإذا كان اسمه أجنبياً، فسيكون هذا أفضل».

وهكذا يمتد هذا الكلام الذي يتوزع بين أن يكون معاصراً ورومانياً قديماً ليغطي صفحة كاملة، قبل أن يفرد فيلاند الحديث للحوار الآخر

مع صاحبه الذي كان يحاوره تحت عنوان: «إذن هو بونابرت!»[1].

استخفّ غوته بما كتبه فيلاند تحت عنوان «بيني وبينك» وسخر منه في رسالة بعثها إلى له، وعدّ الذي كتبه ثمرة لنبوءة شخص يقع سنّه بين، «من استوعبوا الدساتير تماماً، عندما لم يكن ثمّة دساتير» واقترح إلقاء محاضرة حول هذا الموضوع في فايمار بـ «حماسة معتدلة» قبل أن يتمّ حظر نشر تلك السلسلة من المقالات[2].

ويتبدّى لنا أنّ غوته قد أحاط بنبوءة فيلاند علماً ولكنها لم تستطع أن تنتزع إعجابه. وكان على غوته، بعد خمس عشرة سنة، وأثناء تأبينه فيلاند، الذي جاء في حقبة زمنيّة مضطربة، تقع بين حملة نابليون على روسيا والمذبحة الشعبية في لايبتسج، أن يدفع ضريبة إعجابه بتلك النبوءة.

إنّ ما حاول غوته أن يسّلط عليه الأضواء، هو كون آراء فيلاند مضطرة للظهور في دورية شهرية على نحو مُرتَجل. أما إشارته إلى أنّ فيلاند بذكائه «كان يتصرّف بوصفه ألمانيّاً» ومشاركاً في ما يجري حوله من أحداث» فقد كانت دفاعاً عن فيلاند نظراً لما أحاط به من سوء فهم، جرّاء ما وجّه له من اتّهامات بنقص الوطنّية، وهو في الوقت ذاته إيضاح ذاتي لرؤية المتكلم[3].

لم يجد غوته إلا في بداية عام 1804 وقتاً كافياً كي ينشغل، على نحو مفصّل، بالأوضاع الداخليّة لفرنسا وبشخصيّة الحاكم. وكانت بواعث هذا الانشغال جرّاء عرض كتابيْن، ينشغلان بالمسائل المعاصرة آنذاك، وقد نشر العرض في «جريدة الأدب العام في فيينا». كانت هذه الصحيفة تصدرت ست مرّات في الأسبوع، وقد شكّلت البديل للصحيفة التي

(1) Wieland. Politische Schriften III. S. 357 ff.

(2) An Schiller am 2. Mai 1798.

(3) MA 9. S. 957.

هاجرت إلى مدينة هاله وكانت تصدر بعنوان «جريدة الأدب العام». وقد صدرت الصحيفة في يينا بمساعدة ماليّة من الهرتسوغ كارل أوغست شخصيّاً، وتولى رئاسة تحريرها أستاذ البلاغة البروفيسور كارل أبراهام إيخشتات (من عام 1772 حتى 1848م)، لكونه كان يحظى بثقة غوته وينفّذ توجيهاته في تحرير الصحيفة وإدارتها، وبذلك غدت الصحيفة (التي كانت تختصر منذ تلك الأيام بـ JALZ) صوت فايمار على المستوى السياسي-الثقافي- وقد شارك غوته عام 1804 بقوّة في الصحيفة وأسهم في إثرائها بكتاباته. وكان كلّ ما يظهر فيها من مسائل متصلّة بالسياسة، يظلّ موضع اهتمام عضو المجلس الاستشاري السرّي. وكانت المراجعات ذات العلاقة بالمسائل الحيوية آنذاك، التي يقوم غوته نفسه بكتابتها، هي الأكثر دلالة في هذا السياق.

فالمراجعتان الخاصّتان بنابليون هما إشارتان قصيرتان: تبيّنان أنهما تصدران عن دراسة مكثفّة للكتابين اللّذيْن تمّت مراجعتهما»[1]. والمراجعتان تقدّمان انطباعاً دقيقاً عن مستوى معلومات غوته بخصوص احتلال الفرنسيّن شماليّ ألمانيا.

كان العمل الأوّل الذي تمّت عملية مراجعته في الحادي عشر من كانون الثاني عام 1804، يتضمن تقريراً تفصيلّياً عن إحدى الرحلات بعنوان: «رسائل حميمة من باريس»، وقد كتب هذا العمل بين 1802 و1803، ونشر في ثلاثة أجزاء، عرض غوته لجزءين منهما. أما مؤلف هذه الأجزاء الثلاثة فهو المؤلّف الموسيقي ورجل المسرح (يوهان فريدريش) رايشارد (1754-1814) الذي سبق له في عام 1780م أن قام بتلحين العديد من قصائد غوته، كما وضع الشارة الافتتاحية لمسرحيته «كلاوديني فون فيللا بيلّلا». وقد ارتبط مع غوته بصداقة، انفصمت عُراها منذ منتصف

---

(1) MA 6.2. S. 560 und 564.

تسعينات القرن الثامن عشر لأسباب سياسيّة؛ لأنّ رايتشارد كان من المؤمنين بالثورة الفرنسيّة. وكانت النتيجة أنّ غوته هجاه في قصائد ظهرت تحت عنوان Xenien. ويبدو أنّ عودة العلاقات بين الرجليْن عام 1801 هي التي جعلت غوته يكتب هذه المراجعة الودودة لِـ «الرسائل الحميمة». كانت تقارير ريتشارد المملوءة بالألوان عن باريس، تركزّ على حياة المجتمع المخملي فيها، وعلى ما في ذلك المجتمع من مُتع. وقد تحدّث غوته عن «الإفطار والغداء والأوبرا والتمثيل والباليه»، وكان يعرض في أثناء ذلك صورة للأجواء السياسية في حقبة نابليون، مع التركيز على رسم صورة مفصلّة لنابليون وأجواء البلاط في زمنه. ولعلّ ما أضفى على هذا الكتاب جوّاً من الكآبة المؤثّرة، يعود إلى كون الكاتب، الذي يعّد نفسه صديقاً للثورة الفرنسية، يستشعر خيبة الأمل، إضافة إلى طبيعة الموقف النقدي للمؤلف بوصفه مواطناً بروسيّاً يرى في كارل الكبير مقياساً للعظمة.

إنّ التشريفات الخاصّة بالدولة والاستعراضات وطقوس المثول بين يدي (الإمبراطور)، كلّها أمور ذات صلة بآداب القصور. أمّا نفقات الأمن التي ينبغي أن تُدفع للحفاظ على الحاكم وحمايته والجواسيس الذين ينتشرون في كل مكان ويكونون بمثابة «المصائد» في المجتمع، فإنّهم يكشفون آلية الحكم الديكتاتوري.

وقد لفت نظر ريتشارد ذلك التشابه بين نابليون وتمثال القيصر الروماني أوغست:

«إنّها الابتسامة اللطيفة الساخرة نفسها التي ترتسم على شفتي أوغست وتبقى جامدة على شفتيه، وهي الابتسامة ذاتها التي تبدو للمرء وكأنّها قد رسمت فوق شفتي نابليون»(1). لقد تأمل ريتشارد

(1) Reichardt, Vertraute Briefe, Band I, S. 370 . أما صورة نابليون فهي تظهر من S. 292-293.

نابليون بونابرت بدّقة، فرسم صورة لجسده ووجهه، كما وصف ملابسه وملامحه بدّقة. وقد عرف العالم في ما بعد هذه الصورة من خلال ما لا يُحصى من الرسوم والأوصاف، لكن ذلك الوصف كان جديداً يومها: الوقفة المحسوبة والصوت المقتضب الخالي من التعبير، والمُتعجرف، والقناعة وعدم الاكتراث بالترف والفنون الجميلة.

إنّ نابليون لا يحتفي بالتراجيديا إلّا عند كورنيل ويعود ذلك إلى «النغمات البطوليّة التي تجيء عند ذلك الشاعر في سنواته الأولى قويّة وفخمه كالفن ذاته». لهذا أحبّ نابليون في سنواته الأولى شخصيّة أوسيان لأنّ ما تتصّف به تلك الشخصيَّة من كآبة وسلوك باهت، جعلته يتعاطف معها بوضوح. «لقد ظلّ» الحُكْم وحده يشكّل شغفه وشغله الشاغل»، وقد وضحّ المراقب ذلك باختصار عندما قال: «إنّ بيته يخلو من السعادة»، ونظراً لصعوبة تنظيم حركته، نتيجة للاحتياطات الأمنيّة الخاصّة فإنّ نابليون عاش «حياة تخلو من الوحدة، كما تخلو من الصحة، ولم يكن سعيداً في منزله، كما أنّه لم يعش أبّهة الملك وحياته الحافلة بالملذّات» وكان في طريقه إلى «حياة حزينة تتسّم بالعزلة». إنّ القلق الوجودي الذي كان نابليون يعيشه، كان يتمثّل في إيقاع حياته اليومية الخاطئ، الذي جعل من الليل نهاراً. إنّ وجه الشبه بين نابليون وفريدريش الكبير الذي كان تمثاله النصفي موجوداً في مكتب نابليون، يتمثّل في أنّ لدى كل منهما إرادة حديديّة، لكنهما مختلفان بعد ذلك في تنظيم كلّ منهما ليوم العمل الخاصّ به، فقد كان ثمة فضاءآت حرّة عند الثاني للانشغال بالموسيقى والفنون والفلسفة.

وأثناء تقديم رايتشارد عرضاً للملامح الرئيسة الخاصة بالشخصية، فإنّه لا يكف عن الإشارة، في تلك الأثناء، إلى منطق اغتصاب السلطة وما يترتّب عليه من تهديدات لا تنتهي، وهو ما جعل عرض رايتشارد،

يقع خارج التحيّز المرضي. وقد أثنى غوته على وجه التحديد في عرضه للكتاب على «مقارنات رايتشارد القيّمة»، وعلى «الوصف الجيد للعديد من الشخصيات والهيئات والأشخاص المهمّين».

أما الكتاب الذي قام غوته بلفت الأنظار إليه في بداية العام –حيث ظهرت الإشارة في 1804/3/27 في الجريدة ذاتها JALZ– فقد عرضه غوته باقتباسات قليلة منه أو بقدر من الاختصار. لكنّ ذلك العرض كان غنيّاً بالمعلومات والأفكار. كان ذلك العمل المجهول يحمل عنوان: «نابليون بونابرت والشعب الفرنسي تحت حكمه» أما مكان النشر، فقد جرى إخفاؤه واكتفي بالقول «1804 Germanien»، وكان إخفاء مكان النشر تحديداً، يشير إلى المحتوى الانفجاري للكتاب. لكنّ المؤلف سرعان ما يفصح عن ذاته، فقد كان المؤلف هو البروسيّ غراف غوستاف شلاب رندورف (1750–1824) الذي عاش في باريس سنوات كثيرة.

كان شلاب رندورف قد شارك في ثورة عام 1789 في باريس، ومن ذلك الحين، وهو يعيش أخطار المعارضة، وقد ظل، على الرغم من كل ذلك، وفياً للمثل العليا لتلك الثورة.

كان الرجل، إذا صدّقنا ما ورد في سيرته التي كتبها كارل أوغست فارن هاغن، يحيا حياة ديوجينيّة في غرفته بأحد الفنادق التي كانت تكتظ بالكتب والأوراق وكان الرجل، في تلك الغرفة، يسعد بزيارة الألمان الوافدين إلى باريس، بوصفه واحداً من الذين يحيون حياة العزلة وكانت زيارتهم له، تعرفهم «بالحياة في المدينة، بوصف الرجل واحداً من المهووسين بقراءة الصحف، وكونه يمتلك معلومات وافرة، تجعله مؤهّلاً لتقييم المواقف السياسيّة الحيوية آنذاك.

أما عن مقدرته في تحويل معلوماته إلى كتاب، فإنّ الفضل يعود

في ذلك إلى صديقه رايتشارد، الذي أسهم في نشره، كما يتضح من خلال المقارنة مع «الرسائل الحميمة» الذي شارك، على نحو أو آخر، في صياغة الكتاب، لدرجة يصحّ معها السؤال عن الملكيّة الفكرية للكتاب وأين تقع. وقد استطاع كتاب «نابليون بونابرت» أن يصنع في ألمانيا، بسرعة، نوعاً من الإثارة، ليغدو واحداً من كلاسيكيات الأدبيّات الناقدة للسياسة النابوليونية –لذا كان هانس ماغنوس إنتسن بيرغر على صواب، عندما أعاد سنة 1991نشر الكتاب تحت عنوان «ضد نابليون»– هذا الكتاب الذي تزداد فاعليته كلمّا تراجعت نسبة الشتائم الشخصيّة فيه. فبعد موجز يتعلق بصعود هذا الرجل النافر، الصموت، يركز الكتاب على تحليلات غير عاطفية لنظام الحكم النابوليوني، بحيث يبدو الأمر للقارئ في بدايات القرن الواحد والعشرين، وكأنّه يتعلّق بصور قمعيّة مبكّرة لنظام ذي ملامح شموليّة.

وقد رأى شلاب رندورف بوضوح، أنه في نهاية فترة الفصل بين السلطات في الجمهورية وإلغاء المليشيات، واستقلال القضاء وحرية الصحافة، قام المجتمع الفرنسي تحت «ضغوط جديدة»، «تتفوّق على الحكومة الملكية القديمة الفاسدة على نحو واسع»[1]. ويبعث على الخوف ما يرويه المؤلف عن التصرفات الخاصّة بأمن الإمبراطور. فلم يكن نابليون يسير في الطريق التي كان قد أعلن عن نيته السير فيها، كما أنه لا يقيم طويلاً في أي مكان، كما يتبدّى للوهلة الأولى، وهو غالباً ما يرتحل بسرعة، دون أن يشعر به أحد».

إنّ توحيد نظام التعليم الذي يشمل المجتمع الفرنسي من خلال التدريب العسكري، والصحافة المُراقَبة. وخضوع المسرح للإشراف، والتعامل مع القوى الأجنبيّة وممثليها الدبلوماسيين باستعلاء، والسياسة

(1) Schlabrendorf. Anti-Napoleon. S. 130, 137, 187.

الإقليميّة الخاصة بالدولة، وقمع النكت الفرنسيّة اليوميّة المتداولة، خاصة تلك التي تحكي عن الأخطاء الشخصيّة للديكتاتور، يؤكد الغياب المطلق للحريّة –هنا يتحدث شلابرن دورف عن الميل إلى الكتمان، وعن ملامح الوجوه غير القابلة للتفسير والتي «تعجز الألسنة عن الإفصاح عن محتواها»، الذي أدّى إلى انتشار الشك المرضي بين الناس.

أثنى غوته على الكتاب، ووضحَّ أنه «لا يخلو من منهج»، ثم وضع له فهرساً خاصّاً بالمحتويات –ترى من هو المراجع الذي يتطوع ليفعل ذلك في أيامنا هذه؟ وقد أشار غوته إلى «حياد الكتابة التاريخية» في الكتاب، هذا الحياد الذي يضعه في مكانة متقدّمة». وقد تجلّت الكارثة التي كانت منطقة شماليّ ألمانيا قد توقعتها، في الوصف الحيّ للأعمال التي تخلو من الرحمة، حيث قام الجيش الفرنسي بنهب منطقة هانوفر الألمانية، دون أن يقيم الاعتبار لشيء.

إنّ كلّ من يقرأ هذا الكتاب، لاسيّما إذا قام بدراسته على نحو جوهري كما فعل غوته، فلا بد أن يخشى خطر الزحف النابوليوني الذي كان يقترب من ألمانيا بالتدريج. وكان من الطبيعي أن يجعل غوته من الكتاب واحداً من المصادر المهمّة، ففي مواجهة النزعة الفرنسية القائمة على توحيد أنماط الحياة الاجتماعية، يقتبس غوته كتاب يوستوس موزر «الخيالات الوطنية»، أما بخصوص التهديد الخاص، بألمانيا وحرّيتها، فإن غوته يقدم من باب التمثيل القيصر كارل الخامس، كما يصفه على نحو رائع المؤرّخ يوهانسن فون موللر –وهذان مؤلّفان يقدّرهما غوته تقديراً عالياً. إنّ من يتحدث هنا، وهذا ما تفصح عنه بعض الإشارات، ليس ثوريّاً، راديكاليّاً، محبّاً للآمال، بل مؤلّف أوروبي، قديم، جمهوري النزعة، يمتلك حسّ الحريّة.

وكما بقيت السياسة الخارجية غير قابلة للحسم في نظام الحكم عند نابليون، كما يتبدّى في تحليلات شلاب رند دورف، فإنَّ ثمة كتاباً سياسياً فاعلاً ظهر بعد ذلك في نهاية نيسان وبداية أيار عام 1806، وقد رآه غوته مهمّاً بما فيه الكفاية. بحيث ذكره في كتابه الذي صدر في ما بعد تحت عنوان «دفاتر الأيام والسنوات»:

ولمزيد من استيعاب السياسة المعاصرة، تمّت الإشارة إلى «غينتس بالمقابل»، والمقصود هنا هو الكتاب الخلافي وعنوانه: «شذرات من تاريخ التوازن السياسي في أوروبا»[1] قبل عدة أسابيع من نشوب معركة أوسترلتس، ثم قدّم للكتاب بعد ذلك بمقدّمة ذات صلة. ظهر الكتاب في نيسان عام 1806 عند الناشر هارت كنوخ في مدينة لايبتسج، الذي لم يجرؤ على الاعتراف بإقدامه على نشر الكتاب، لهذا كتب على صفحة الغلاف «سانت بطرس بيرغ 1806» ليكون تاريخاً لنشر الكتاب.



فريدريش فون غينتس

(1) MA 14. S. 176.

أمّا غولو مان الذي كتب سيرة غينتس، فقد عدّ الكشف عن الكاتب والناشر بمثابة دعوة لإطلاق النار. وقد كان غوته يعرف المصدر الذي جاء منه الكتاب؛ لأنّه سبق له أن تلّقى رسالة من غينتس في الخامس والعشرين من نيسان يخبره فيها بالأمر ويعدّ كتابه «نتاجاً للمصائر التي تعرّضت بلادنا لها والتي هزّت قلوبنا من الأعماق». ويرجوه أنّ يمنحه «كلمة تريحه في هذا السياق»[1].

وكان غوته قد رأى أنّ للكتاب، شكلاً ومضموناً، أبعاداً تفجيرية. لذا قام في التاسع والعشرين من نيسان بتحذير رئيس تحرير JALZ وهو إبراهام آيخشتات من الروح الحزبية الأحادية التي تسود الكتاب، والتي يمكن أن تتناسب مع رجل الدولة ورجل المجتمع، لكنها لا تتفق مع معهد «مثل معهدكم»، وهو تحذير صريح يُسّوغ عدم الإقدام على النشر في جريدة ينا الأدبية،التي دأبت على نشر مثل هذا الكلام واقتباسه»[2].

إن مقدّمة الكتاب الحماسية، تعكس بدائل اللحظة السياسية التي تنقسم بين: حكم الفرد أو «النظام الفيدرالي الأوروبي». ويعني غينتس بالمصطلح الثاني. كما حاول شرحه في بداية النص الرئيسي: «تلك النظم الدستورية المتجاورة والدول المترابطة، على نحو من الأنحاء، التي لا تَفْضُل واحدة منها الأخرى في الاستقلال، أو في الحقوق، دون اعتراضات قويّة من واحدة على الآخريات، وبالتالي دون أن يكون ثمة خطر أن تلحق الأذى بنفسها»[3]. يقوم الفصل الأوّل، بتحليل اضمحلال النظام وتأثير هذا الاضمحلال في التوازن الأوروبي، وإن

---

(1) Tagebücher 3.2, S. 817 (Kommentar zum 2.5. 1806).

(2) إن من المشكوك فيه أن تكون الرسالة ذات صلة بغينتس و«شذراته»، لكنها تبقى لي على الرغم من مكانته. WA IV. 19. S. .128. WA IV 19. 5. 503.

(3) Gentz, Fragmente, S. 1.

كان هذا التحليل السريع، لا يخلو من انتقادات موجهة لأوروبا ما قبل الثورة وما بعدها.

إنّ تقسيم بولندا قد ألحق الضرر، على نحو بالغ، بسياقات القانون الدولي في النظم القوية، التي قرّرت الموافقة، على وجه السرعة، على صرف مطالبات التعويض التي تنطوي على خطر يتمثّل في جعل عملية تقسيم البلد، غير القانونية والتي تشكّل سابقة خطيرة، أمراً اعتيادياً. بعدها جاءت الحروب الثورية ذات الطابع الإيديولوجي العنيفة التي أحلّت «ثوابت الحرية» محل القانون الدولي، وأسهمت في إضعاف أوروبا القديمة. وبذلك تكون الإشارة إلى السياق الوظيفي للسياستين الداخلية والخارجيّة قد تمّت؛ لأنّ الفقرة الرابعة من مقالة غينتس تسهب في الحديث عنها:

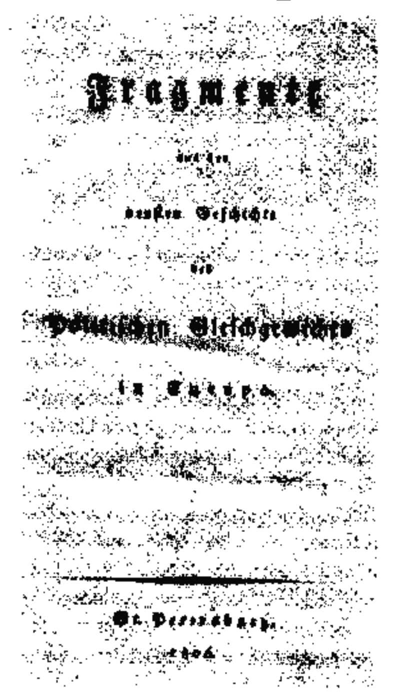
«إنّ هذه الجرأة الذكيّة والمنهجيّة التي تصل إلى القرن العشرين بحروبه الأهلية العالميّة، تصور طبيعة نظام الحكم، الثوري، النابوليوني، بوصفه خطراً يتهدّد أوروبا».

يبدأ غينتس حديثه، في واقع الأمر، بتبيان أن الدستور الداخلي للدول الأخرى في مجال الاتصالات الدولية ليس له كبير دور، خاصة في مجال القانون الدولي. ويمكن أن يكون عند انهيار النظام الداخلي انهياراً تاماً، بمثابة الواجب الأخلاقي الدافع للتدخّل -وهي نسخة قديمة لما يُسمّى في هذه الأيام «الدول الفاشلة». بعد ذلك يفترض غينتس وجود استثناء آخر:

فعندما تستطيع العلاقات الداخلية أن تمنح الحاكم كلّ هذا التفوّق، فإنّ هذا يضع توازن الدولة بمجمله موضع السؤال، بحيث يغدو دستور تلك الدولة مسألة دولية. وهنا يذكر غينتس ثلاثة أسباب: الصيغة المطلقة للحكم، وطبيعة ذلك الحكم الذي يغلب عليه الطابع العسكري،

«والتوظيف العرضي للأدوات والأشكال الثورية»[1].

وباختصار، فإنّ الأمر يتعلّق بالراديكالية الدستورية للأنظمة التي جاءت بعد الثورة النابوليونيّة ولم يذكر «الشذرات» اسم الإمبراطور إلا نادراً، تماماً كما هي الحال في كتاب شلاب رن دورف الذي ظهر قبل سنتين، لأن الأمر يتعلق بالبُنى وليس بالشخصيات.



شذرات من التاريخ الجديد للتوازن السياسي في أوروبا

مجهول المؤلف وهو من تأليف غينتس

ففي النظم الثورية، التي يقع قانون الحريات فيها بين العنف والامتيازات، فإنّ الطبيعة الخاصة للمجتمع الفرنسي تمنح الديكتاتور القدرة على الحكم المطلق، أكثر مما تستطيعه الممالك المكبّلة بالتقاليد في أوروبا القديمة: «إنّ في وسع الحاكم في هذه البلاد أن يمّد صولجانه على مساحة شاسعة، على نحو لا تستطيع أن تقف أمامه تلال أو وديان

(1) Gentz, Fragmente, S. 54-85.

أو سدود، ولا تستطيع السياجات الصغيرة أن تقف أمامه أو تمنع سيره. فهو يحكم من منتصف مملكة رتيبة، عبر مجلس وزراء بالغ القوة، لكنه مجلس يرتجف عندما يلوّح الحاكم، فالوزارة ذات آلية ماليّة مبرمجة، ذات نظام بوليسي هو الأوسع انتشاراً والأكثر معرفة، وهي ذات جيش موال للحاكم على نحو مطلق».

إنّ كتاب غينتس مملوء بالجمل المؤثّرة، المجازيّة الطابع والمتسمّة بذكاء التحليل والقدرة على التنبؤ، حيث يصف الكتاب ببصيرة نقاط الضعف في الرأي العام نحو نظام ذي نزعة تقوم على الاستفتاء. ويأمل أن ينجو أنصاره من الفوضى القادمة ومن خطر الحرب الأهليّة. ويستنتج غينتس سمات هذا النظام، وما فيه من بلبلة، من خلال الأسس العسكريّة التي يقوم عليها.

لقد جاء حاكم فرنسا إلى الحكم من خلال مجده العسكري، وهذا يعني أنّ عليه أن يواصل المغامرة «فطالما بقي مصمّماً على البقاء في سدَّة الحكم، فإنّ الحفاظ على مجده العسكري، يبقى شغله الشاغل أولاً وأخيراً. لذا فإنّه ليس في أوروبا كلها نظام آخر مثله مرتبط بقوة وعمق على نحو غير قابل للانفكاك عن المصالح العسكرية». فهذا النظام المجبر على الحرب داخليّاً وخارجيّاً، يتهّدد الدول الأوروبيّة القديمة بتصدير المبادئ الثورية، بصرف النظر عن كون تلك المبادئ التي يُراد تصديرها مطبقّة في المجتمع المحلّي.

إنّ قلب نظام الحكم، بوصفه سلاحاً خارجياً هو أداة لا تحاولها الأنظمة الملكيّة التي بُنيت على أسس تقليدية، أما بالنسبة لفرنسا نابليون، فإنه يمثل ميزة تنافسية لا تخضع للقواعد. فالعرض الحار نسبيّاً، والمتّسم بالوضوح للخصائص الثورية لدولة نابليون، يبيّن النغمة التنبوئية التي قدّم بها غينتس لـ «الشذرات» بخصوص البديل للنظام

الدولي ونظام الدولة. فهو لا يُعَدّ ذلك النظام من الجوانب القومية أمراً يبعث على الخجل فحسب، بل إنّه لا يؤمن بأهليتّه في تحقيق السلام لأنه يخلو من الحقوق والحرية والدستور المحلي والقومية الخاصّة والتقاليد. بل إنّ الملكيّة الفكرية فيه غير مضمونة؛ لأنه نظام يقوم على الهيمنة ومن الواجب التزام الصمت بخصوص القرائن الماديّة الخاصة به.

إنّ «كلمة الراحة» التي طلبها غينتس من غوته، لم تتحقق كما يبدو. لكنّه يصعب القول إن كتاب «الشذرات» الذي نما الوزير (غوته) وترعرع في إطار مقتضياته القومية في فايمار، التي جاء إليها بوصفه قارئاً ليوستوس موزر[1]، لم يترك تأثيره فيه، وإلا لما كانت ذاكرته قد احتفظت طويلاً به طيلة هذه المدة.

إنّ «الروح الحزبيّة» للكتاب التي سبق لغوته أنّ حذّر رئيس التحرير منها، كانت، في الواقع، ضد الروح الحزبية بوصفها وسيلة سياسيّة. فقد قام غينتس بالتنظير لموقف محافظ، وهذا الموقف يتلاءم، إجمالاً، مع الرؤية الثورية حتى في صياغته البلاغيّة العالية النبرة التي قدّمها في كتابه، على الرغم من ضغط الظروف من حوله. ولم يكن هذا الأمر غريباً تماماً عن الأجواء المحافظة السلميّة النزعة عند غوته.

وقد حاول غينتس أن يقنع غوته شخصياً بوجهة نظره. ففي حزيران عام 1807 التقيا في كارلسباد التي كانت تغلي بالحوارات والإشاعات والمعلومات والتي كانت على مفترق الطرق للمجتمع الأوروبي والدبلوماسية، حيث استطاع غوته في الأسبوع ذاته أنْ يعقد أواصر صداقة استمرت طويلاً بينه وبين الديبلوماسي الألماني-الفرنسي كارل فريدريش راينهارد، الذي غدا واحداً من أكثر الشخصيات الفاعلة في نظام الحكم النابلوليوني في ألمانيا. لكن غوته اكتفى بالاستماع إلى

(1) (1720-1794) هو قانوني ألماني ومنظر اجتماعي ومؤرخ شهير وتنويري: (المترجم).

غينتس، الذي كان مُسّجلاً في الاستخبارات النمساوية بوصفه واحداً من كارهي الإمبراطور الفرنسي. وقد دوّن غوته في يومياته في الثالث من آب 1807 «كنت في الصباح مع غينتس!» ثم «قام الرجل بعدها بحوار سياسي ثمّ جمالي». وكان الحوار يدور في «المقام الأول، حول آدم موللر الذي سار في طريق تشبه صديق غوته كلايست، الذي كان هو الآخر عدّواً لدوداً للفرنسيين. وقد استطاع غوته أن يتعرف أثناء هذا الحوار السياسيّ–الجمالي إلى صورة تضم مشاهد من الكتّاب الذي يعادون الفرنسيين في برلين وديرزدن. وقد افتتح الحديث كما بيّن غوته بعد ذلك في «كتاب الأيام والسنوات»، بـ «وعي متزايد ورؤية واسعة باختصار عن حوادث الحرب الماضية وباح بأفكاره على نحو خاص». وتحدث عن «وضع الجيش، ونجاح الجزّارين» وقام بإخبار غوته، وكان أول شخص يعرف ذلك، عن السلام في تلستي[1].

وقد بين غوته بوضوح رحيل غينتس في يومياته بعد مرور ثلاثة أيام. وفي الثالث من آب عام 1808، أي بعد مرور عام، وفي كارلسباد أيضاً أعار غوته رفيقة رحلاته لسنوات طويلة ماريانا فون آي بن بيرغ التي كانت تقيم في مدينة فيينا «مخطوطة غينتس عن البيان الروسي ضد إنجلترا بعد سلام تيليستي». وقد كان غوته في الخامس من آب عند السيدة آي بن بيرغ ثانية، وفي هذا إشارة واضحة إلى عدم شرعية النص غير المنشور الذي لم ترد السيدة النمساوية إعادته على ما يبدو. ويبدو أنّ الأمر يتعلّق بالنص –أو بجزء منه– الذي كان قد صيغ في مخطوط غينتس تحت عنوان: تأملات حول السؤال التالي: ما الذي سيفعله البيت النمساوي في الظروف الحاليّة ليحرّر ألمانيا من القوة

(1) MA 14. S. 188 f.

والأمن الأوروبييْن ليقول في النهاية: «إنه ليس في وسع أية دولة أوروبية في قارتنا، أن تبقى لمدة ثلاثة أشهر محافظة على مكتسباتها، من الهدوء والاستقلال، طالما لم تنل ألمانيا كامل حريتها؛ لأنّ وجودها وسط أوروبا حرّةً، يعطي الأمان في مواجهة الخطر القادم من الشرق. وبالذات الاتحاد بين فرنسا وروسيا، «وهو أكثر أنواع الائتلافات شراً على المستوى السياسي».

لكنّ غوته لم يقتنع بأقوال غينتس لا في عام 1807، ولا في عام 1808، فقد تبيّن له أنه يصنع كتاباً لا أكثر. وقد شعر غينتس بخيبة الأمل وصرح وهو يعيد تقييم شخصية غوته على المستوى السياسي، عندما أذن نجم نابليون بالأفول، مستعيداً في تلك الأثناء انطباعاته المبكرّة عن غوته: «إنّه شخص أناني يبعث على الخزي». وقد كتب غينتس في إحدى رسائله بُعَيْد مذبحة لايبتسج الشعبيّة عام 1813:

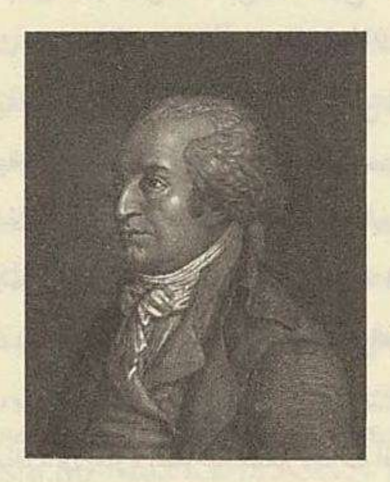
«إنني لن أنسى طبيعة الموقف الأخلاقي الذي وجدته فيه قبل يومين من معركة يينا عام 1806. إنّ من الأفضل أن يكتفي المرء بقراءة غوته أو رؤيته، أما الحديث معه فلا داعي له على الإطلاق»[1].

وقد كان غوته قد عرف كذلك، وهو ما يمكن لنا أن نضيفه إلى الأدبيات السياسية التي تلقّاها على طريقته، حتى سنة التحول في عام 1807/1806 أكثر الحجج أهميّة في الإطار الموجّه إلى نابليون ونظام حكمه وما رافق احتلالاته من عنف. مثلما تنبّه إلى جدّية التأملات المنهجية المعلّلة التي لا تصدر عن الاستياء القومي أو الكراهية الشخصية، أو تحزب المقموعين، بل تصدر عن تشخيصات استطاعت أن تقنع شخصية محافظة مثل هوفمان ذي إمارة إقطاعيّة صغيرة ذات أفق كوزموبوليتي.

وقد كان لغوته بعض التجارب في قوة الحرب الفرنسيّة، التي

(1) Grumach VI. S. 149.

لم تكن سعيدة على الرغم من أنه دخلها مع شخصيات فاعلة مثل دينتسل ودنون. وعلى الرغم من علاقات الصداقة التي كانت له. كان الهرتسوغ الحاكم لولايته قد عُزل على وجه التقريب، أما السلام الذي تمّ إنجازه فقد كان له على المستوى المالي قاسياً حد الوحشية. ولم يكن غوته، كالمعتاد، قد أفضى بآرائه في ما يتعلق بالسياسة اليومية فقد كان يضبط ذاته في هذه اللحظات. لكنّ الأكثر أهمية، والمملوء بالدلالات في هذا السيّاق، هي المناورة الأدبيّة التي نفذها غوته على الملأ في بداية عام 1807. فقد استطاع أن يوضح من خلالها، أنّ الإمبراطور الكبير لم يغب عن ناظريه، الذي صار، في ضوء الاتحاد الألماني، حامياً لفايمار. إنّ هذه المناورة، كما يمكن اختصارها للقارئ المعاصر، ببساطة من أجل إيضاحها، تتلّخص في جملة واحدة: لقد اصطّف غوته إلى جانب يوهانّس فون موللر. ومن أجل استيعاب دلالة هذا الاصطفاف، ينبغي أن نعرف ما الذي كان يوهانس فون موللر (1752–1809) يمثّله لغوته ولمعاصريه.



يوهانس فون موللر

إنّ القارئ غير المختص يعرف موللر في هذه الأيّام في المقام الأوّل من خلال النص الإذاعي الهائل لآرنوشميدت الذي كان عنوانه «موللر أوعن دماغ الحيوان». ففي ذلك العمل تمكّن شميدت أن يرسم الحالة وهي تسير من الغرابة إلى المرضيّة، لتغدو تعبيراً عن تراجيديا أصحاب الموهبة. لقد كان القارئ في عام 1800 يَعُدّ موللر السويسري أكثر مؤرّخي تلك الحقبة أهميّة بكل تأكيد، بل إنّه كان يعدّه واحداً من أكبر المؤرخين على امتداد العصور، فضلاً عن كونه عالماً وكاتباً. وقد منحه غوته نظراً لمشاركاته في الجريدة لقب ثوكيديديس[1] مختصراً. أما كتاب موللر الرئيس، فقد صدر في أربعة أجزاء تحت عنوان:

«تاريخ الاتحاد السويسري» الذي استوحى شيلر منه مسرحيته «تل» تلك المسرحية التي تصوّر الهوس السويسري من خلال ملامح تنتمي إلى النتاج المتأخّر لروسو. والتي استطاعت أن تحقق نجاحاً عند الجمهور، نظراً لما تنطوي عليه من إثارة. وقد كتب موللر، إضافة إلى ذلك، عملاً ضخماً يتناول التاريخ العالمي. وعبّر عن آرائه في السياسة اليومية وراجع الكثير من الكتب وأعدّ الكثير من الخطب التي تعد الأفضل في بابها في هذا النوع الأدبي المكتوب بالألمانية. وقد كان موللر أستاذاً للبلاغة وذا أسلوب يتميّز بلهجة منبرية قديمة مصنوعة ومتكلّفة وقد تلاشى أسلوبه هذا عند المؤرخين الألمان منذ القرن العشرين، كما كان موللر، بالإضافة إلى ذلك كلّه، كاتب رسائل شديد البراعة، يُسبغ على علاقاته حلّة رفيعة من الإثارة المثْليّة الطبقية، فقد كان في جميع مراحله يتسم بالأناقة، وكان عبير البطولة يُهبّ من بين سطوره في مراحله كلّها.

كان موللر يتمتّع بشهرة على المستوى الأوروبي. وأثناء بلوغه ذروة

---

(1) (460ق.م–395ق.م) مؤرخ إغريقي شهير، صاحب تاريخ الحرب البلوبونيزية، وهو من أوائل الذين أعطوا العوامل الاقتصادية والاجتماعية قيمة كبرى: (المترجم).

تلك الشهرة استدعاه البلاط في فينيا عام 1800، مثلما استُدعي إلى برلين عام 1804، وكانت قاعة الاستقبال الخاصة بالمملكتين تحت تصرفه، ففي برلين كان الرجل يعمل مؤرّخاً للبيت الملكي، وكان قد عمل لفترة مؤقّتة مربيّاً للأمير، وجرى تكليفه بكتابة وقائع حياة فريدريك الكبير، وأذن له الملك حصرياً باستخدام الأرشيف بحريّة تامة. وعندما كان موللر على وشك بلوغ الثلاثين استطاع أثناء زيارته سانسوشي[1] أن يكوّن انطباعه الذاتي عن فريدريك الكبير. وكان لموللر مساهمة فاعلة في الحياة الأدبية–السياسية في العاصمة البروسيّة. وقد عمل، نظراً للمبالغ الماليّة الجيّدة التي كان يتحصّل عليها، مخبراً بين بلاطات دريسدن وفيينا وسانت بطرس بيرغ، مثلما عمل مستشاراً سرياً للملك فريدريك فيلهلم الثالث.

وقد تبادل موللر مع غينتس رسائل سياسية رائعة في الفترة الحرجة التي سبقت أوسترليتس، لا تزال شعلتها العاطفية متّقدة إلى يوم الناس هذا. لكنّ غينتس، الذي كان أكثر ذكاء، لم يقتصر في تعلّمه من كتابات موللر على المسائل الأسلوبيّة، بل تعدّى ذلك إلى تزيين مقدّمات باقتباسات من كتاباته، وبالذات أجزاء ذلك الكتاب الخاص بالتاريخ السويسري. وقد أخذ غينتس من كتابات موللر تعريفه للتوازن على نحو شبه حرفي، فكتاب موللر «وصف اتّحاد الأمراء» الصادر عام 1788، يتبّدى بوضوح في «شذرات» وبالذات في ما يتعلّق بمسألة التوازن الأوروبي. وقد كتب موللر في الثامن من آيار عام 1806 إلى غينتس يقول:

«دعني أيها الصديق الأعزّ، أضمّك إلى صدري بحرارة، بعد هذه التحفة الرائعة الصادرة من روحك وقلبك معاً، والتي تتفوق على جميع المقدّمات البليغة الرائعة. لقد حصلت عليها يوم أمس عن طريق

---

(1) هو اسم المقر الصيفي سابقاً للملك فريدريك الكبير: (المترجم).

هارت نوك. وشرعت على الفور بقراءتها. وقد أدركت على الفور أنك تتحدّث معي علناً! وقد كان عليك أن تذكرني، وأن تلفت الأنظار إليّ، واتفاقنا يشهد على ذلك، أنّ ثمة أمراً ينبغي أن يعيه العالم،وهو أننا نملك تفكيراً متشابهاً، وأننا كنا شخصاً واحداً تربط بيننا أخوة تشبه أخوة السلاح في معركة مقدّسة. وما زلت إلى اليوم أعيش في نشوة من الماء الإلهي، الذي استطاع حبك الصادق أن يسقينيه»[1].

فهذا مثل حول النغمة التمجيدية، السائدة هنا، والتي تشعر نظراً لما فيها من مشاعر عالية بالحميميّة، لدرجة تسمح بتغيير ضمير الخطاب من الرسمي إلى الشخصي.

بقي موللر أثناء إقامته في برلين يتّحرك ضمن فريق الحرب الذي ظل نابليون يراقبه، على الدوام، بغضب عارم. وهو الفريق الذي لم يتوقف عن انتقاد عجز السياسة البروسيّة وعن الشعور بالمرارة لذلك. ولم يكن موللر، في رسائله التي كتبها في المدة الواقعة قبيل يينا وأوسترلتس، يخفي كراهيته لنابليون وكان يستخدم في وصفه تعبيرات مثل:

«أتيلا–بونابرت» و«الشيطان القادرة على فعل كلّ شيء» و«الشخص المبتذل» و«الوقاحة»[2]. وقد سبق لموللر أن نصح الملك بصراحة في مذكرّة رفعها له قبيل أوسترليتس بالحرب «بالسرعة القصوى وبذل الطاقة كلها من أجلها»[3]. وكان ذلك، في الواقع، يمكن أن يفضي إلى النصر لو تم التحالف مع النمسا وروسيا، وفضلاً عن ذلك فإنّ موللر لم يعتد الاختباء. فقد كان عليه، بوصفه مؤرّخاً للبلاط، أن يُلقي في كانون الثاني من كل عام خطاباً علنيّاً في الأكاديمية العلمية، أثناء الاحتفال بعيد ميلاد كارل الكبير. والخطاب لون من الكتابة التاريخية

(1) Gentz, Schriften (hrsg. von Gustav Schlesier) Vierther Teil, S. 231 f.

(2) Schib, Johannes von Müller, S.242 ff.

(3) Pape, Johannes von Müller, S. 237.

الاحتفالية تبيّن للخارج، أنّ المملكة لا تزال قويّة الأركان في مواجهة خطر الحرب القادم من الجنوب.

وهكذا كان هذا العالَم الصغير، الزريّ الهيئة، برأسه الضخم وساقيه الدقيقتين وبطنه الضامر يخترق المغتصب الفرنسي بشجاعة وفخر وقوّة وعزّة، من خلال تلميحات واضحة.

وفي عام 1805، تحدث موللر في إحدى خطبه عن «تاريخ فريدريك الثاني» قائلاً: «إنّ غزو البلاد والاستيلاء عليها ليس صعباً، قياساً إلى محاولات إغراء العقل الصلب، الذي يعطي المزيد من الأهميّة للقيم الداخلية، مقارنة بالانتشار السطحي. فبين الغَطرسة وانعدام الوجود تكمن فضيلة الوسط»[1].

وقد حذر موللر بعد ذلك بعام وهو يتحدّث عن «اضمحلال الحرّيات عند الشعوب العريقة »، قبيل نهاية التنافس بين الشعوب في إحدى الإمبراطوريات، حيث «يحتشد كل شيء في المدينة، التي تقوم بإفساد ذلك كله»، وتسقط الولايات في الوقت ذاته، لتكون النتيجة «هي تقلّص المملكة، وضعفها»[2].

لقد كان موللر ينتمي إلى جيل المؤرّخين، الذين يفيدون من معارفهم الموسوعية لدراسة حالات التماثل. ففي عام 1806 حصل موللر على مجموعة من الأقوال المأثورة ترجمها صديقه يوسف فون هامّر[3] من التركية تدور حول الجهاد، وكتب موللر مقدمة لها، حيث أثنى في تلك المقدّمة على قوّة الإيمان التي يتحلّى بها الشهداء وطلّاب السعادة الأخروية من المجاهدين، إضافة إلى قوة «الثورة المحمديّة» مع نبرات

---

(1) Müller, Sämmtliche Werke, 25.Teil, S. 89.

(2) . Ebda.S.95f

(3) إشارة إلى المستشرق النمساوي الشهير يوسف فون هامر بورغشتال (1774–1856) الذي ترجم الكثير عن العربية والتركية والفارسية، وكان لترجماته تأثير في غوته: (المترجم).

يتساءل المرء بعدها عن الوجهة التي يقصدها، وهل يعني الرجل قومه أم أعداءه. فهذا الاقتباس جيء به هنا ليكون موازياً لجملة «محمد العالم» تلك الجملة التي قارن بها كل من غوته وريمر، وهما يجلسان في العربة قبل الوصول إلى يينا، بين الرسول محمد ونابليون «لقد رأت أعيننا القوة المتهاوية أمام الحماسة المشتعلة لجيوش تكاد تكون غير مدّربة، تحت إمرة قادة لم يتدربوا على القتال ويحققوا الانتصارات»[1]. فالفرنسيون يقودون جيش الثورة الفرنسية على شاكلة أولئك المجاهدين!

وفي السابع والعشرين من شهر تشرين الأول، أي بعد أسبوعين من معركة يينا، زحف نابليون نحو برلين، بعد مسيرة مملوءة بالانتصارات من خلال مارك براند برغ التي تشكل قلب منطقة بروسيا، بينما كانت القلاع المهمة للدولة تتساقط واحدةً تلو الأخرى دون مقاومة تذكر. وكان المرء يتوقع أن يهرب موللر من مقر الإقامة، مثلما فعل غينتس قبل سنتين، عندما هرب من المناطق المحتلة التي خضعت لسيطرة الفرنسيين. لكنّ موللر لم يهرب وإن ظل يرتجف خوفاً إلى حدّ ما. وبعد ثلاثة أسابيع بدأ موللر وكأنه قد ربح الأمور المتعلّقة بالإمبراطور: بعد حوار مع نابليون في قصره الذي وضعه الإكسندر فون هومبولت[2] تحت تصرف الصديق الفرنسي الكبير. وقد كانت الدقائق الخمس والأربعون التي منحها نابليون للمؤرخ الكبير في العشرين من تشرين الثاني، أي قبل يوم واحد من إعلان النظام القارّي وقتاً متميزاً. لكنّ موللر سقط ولم تقتصر فضيحته الأدبية على برلين الوطنية وحدها.

وتبيّن رسائل موللر بعد معركة يينا، أنّه كان على الاستعداد للانقلاب، عندما استقبله الإمبراطور «إن أحداً لا يحتاج في هذه

(1) Ebda. S. 310. Aus: "Mohammeds Kriegskunst.

(2) (1769–1859) عالم طبيعة ومكتشف ألماني، سافر إلى أمريكا اللاتينية منذ وقت مبكر وكتب عن ذلك الكثير من المجلدات: (المترجم).

اللحظة إلى مؤرخ الملك الكبير، الذي بلغت أفعاله ذروة الملهاة المرّة في العصر الحاضر. فما ظل يطلقه من مزاعم ضد أوروبا، ذهب خلال سبع ساعات أدراج الرياح (...) إنّ أمنيتي هي العثور على عمل في الإمبراطورية الفرنسية». وهو ما أسر به إلى أخيه. فباريس هي الآن شبيهة بروما القديمة، فهي العاصمة الحقيقية للعالم المتحضّر (...). إنّه انشغال للروح لا مثيل له، عندما تلقي نظرة على سياق التاريخ كله من خلال أطلال أوروبا المتداعية[1]. وفيما عدا ذلك، فقد ظلّ الناس يلاقونه بالرضى والاحترام، فقد تعلّم الكثير من شجاعة الإمبراطور وسمّوه الداخلي أي أن الإمبراطور لم يكن أتّيلا[2]!

في السابعة مساء جاء موللر إلى الإمبراطور، الذي نهض من وراء طاولة فريدريك الكبير وقاد المؤرخ إلى إحدى المكتبات.

كانت الموسيقى الخلفيّة تندفع من الغرفة الخارجيّة، تصاحبها أصوات أجراس البقر. جرى الحديث حول تاريخ العالم، وقد أعجب العالم بالنظرة الشمولية والفهم الواسع للإمبراطور. في البداية دار النقاش حول التماثل بين الدستور السياسي السويسري واليوناني، لأنّ «الإنسان لم يُخلق من أجل الحقيقة الواضحة الكاملة، وليس في وسعه أن يبقى على الدوام منظمّاً. وفي وسع الإنسان أن يكون سعيداً في حالة توقّف العداءآت التي وجدت الدساتير نفسها (ومنها ألمانيا) متورطّة فيها، والتي أدت إلى إثقال كاهل الدولة من خلال الجيوش الضخمة». كما تبدت في هذا الحوار التاريخي مسائل معاصرة، فقد وضح موللر من جهته: «بأنه لم يشارك منذ فريدريك في حوار يمثل هذا

(1) أما التقرير عن حواره مع نابليون فهو:

.Müller. Briefe (hrsg. E. Bonjour). S. 328 f. ebda. 5. 332-334

(2) لعل موللر يشير إلى أتيلا الهوني (395–453) وهو أحد ملوك الأتراك القدماء، وكان واسع المملكة والقوة: (المترجم).

التنّوع». لكنّ موللر كان مضطراً، في كل الأحوال، أن يتحدث في حضور القيصر «باحترام يتناسب وطبيعة المقام ويعي التراتبيّة، فقد كان فريدريك فولتيرّي النزعة إلى حدّ ما».

أما نابليون، «فقد كان صوته أكثر صلابة وقوّة، لكنّه كان يبدو كأنّ في فمه شيئاً جاذباً يشدّ الأنظار». ولم يسمح لغير موللر بالاقتراب من الإمبراطور وهو جالس على الأريكة، بحيث لم يتمكّن أحد من الموجودين وبينهم بعض الماريشالات ووزير الخارجية تاليران أن يستمع إلى ما كان الجنرال يسرّ به إلى موللر. فكيف بوسعي أن أقول شيئاً مختلفاً؟. كان السرّ يتعلّق بالخطر القادم من الشرق. ففي التقرير الأول الذي بعث به إلى شقيقه في أقاصي سويسرا، الذي نقتبس منه كلامنا، كرّر موللر تحذير نابليون من غزوات البرابرة، التي شكلّت مملكة بروسيا إلى الآن حصناً غير كاف في مواجهتها. وبعد ذلك بعدّة أشهر عديدة، روى موللر لكارل أوغست فارن هاغن، أنّ الإمبراطور أجاب عن سؤال مفاده: ما الذي بوسعه أن يفعله إذا لم تجر عملية اغتياله، وإذا كان سيتجّه صوب تنظيم الأمور الخاصة بالجمهورية فأوضح ذلك قائلاً:

«إنّ ذلك يعني إعلان الحرب على البارثيين![1]»[2]. فالتنظيم الداخلي في ألمانيا وأوروبا، كفيل بدرء الخطر القادم من شعوب الشرق:

فوراء ضباب الحديث عن سعة الاطلاع والمجاملات، التي غمر نابليون بها العالم الشهير، كانت ثمة إشارات واضحة إلى اللحظة السياسية لا تخفى على الإطلاق. ويبدو أن ملاحظة تاليران المسمومة في مذكراته التي تقول:

إنّ نابليون قد استعدّ بعناية منقطعة النظير للحوار مع الأذكياء من

(1) البارثيون الذين يشار إليهم في مقام التعجّب ينتسبون إلى بارثيا، وهي منطقة في شمال شرقي إيران التي تعرف باسم مملكة أرسساسيد: (المترجم).

(2) Varnhagen, Denkwürdigkeiten, S.434.

الألمان، كي يتمكن من خلال المعرفة وسرعة البديهة والطرافة من التأثير عليهم، تجنح بالأمر نحو التبسيط[1].

لقد استطاع موللر أن يفوز وأن يشعر بالسرور. فلم يجر من قبل دعوة أي عالم للقاء الإمبراطور، كما كتب لأخيه. فمن خلال الاستسلام التاريخي الذي خصّ العالم به أحد الأفراد، تولّد هذا الإعجاب الشخصي: «لقد تمكن من خلال عبقريته ودماثة خلقه الصافي أن يغزوني». أما بعد مرور عام ونصف العام، فقد كتب موللر:

«لقد بدا لي وكأنّني أتأمّل أحد كبار السن، الذي يحيا من أجل الأجيال القادمة، ولم يحدث قطّ أن جرى تكريم مؤرخ على نحو يفوق ما تستطيع مادة اللقاء هذه أن تقدّمه»[2].

وسرعان ما انتشرت في أرجاء القصر في برلين، أخبار ذلك المشهد، وبدأت تأثيراته تظهر على موللر، ولم يحدث ذلك دون مساعدة ذلك المؤرخ الغامض. فظهرت نشرات عديدة وقصيرة لكنها مملوءة بالإشارات، وانتشرت في مختلف الجهات. أما الوطنيّون، فقد تذكروا بسخرية موقفه المتردد من الحرب، فغدا موللر موضع احتقارهم العميق. وقد بقيت تأثيرات موقفهم حاضرة في الكتابة التاريخية حتى القرن العشرين. مثلما بقيت حاضرة في الأذهان مسألة ترقيّه في جهاز الإدارة في الدولة البروسية. لكنّ أصدقاءه الشخصّيين أمثال: الكسندر فون هومبولت وفيخته دافعا عنه.

بقي موللر مع ذلك مؤرخ البلاط البروسي، ففي كانون الثاني عام 1807 ألقى موللر خطاباً رائعاً في الأكاديمية العلمية بمناسبة الاحتفال بميلاد فريدريك الكبير. ويمكن للمرء أن يتصوّر صعوبة الوضع الذي

(1) Talleyrand, Memoiren, Dt. Ausgabe, Band I, S. 324 f.

(2) Kirchner, Napoleons Unterredung mit Johannes von Müller, S. 115 (Sämmtliche Werke 17, S.437).

وجد موللر نفسه فيه –فلا تزال بروسيا تخوض الحرب، وإن عُدّت مهزومة، كما لا تزال العاصمة تحت الاحتلال الفرنسي، أما الخطيب فقد برهن على أنه لا يمكن الاعتماد على وطنيّته. كما أنّ خطبه السابقة لا تزال محفوظة تماماً في الذاكرة. لقد ظهر موللر في هذه الحال في التاسع والعشرين من كانون الثاني أمام جمهور يتحلّى بأعلى درجات النقد، ليلقي خطبته باللغة الفرنسية هذه المرة تحت عنوان: «عظمة فريدريك».. «لقد تساءل أحد الخطباء المتعلّمين من أبناء الأمة الألمانية، كيف ستتصّرف عندما تقوم في التاسع والعشرين من كانون الثاني عام 1807 بالحديث عن عظمة فريدريك في الأكاديمية العلمية (...) وقد استطاع هذا السؤال أن يقيّده بضع الوقت، لكنه سرعان ما كان كمن يصحو من وطأة حلم ثقيل، وهو يشعر بالسعادة؛ لأن الانشغال بهذا الشأن لن يطول كثيراً»[1].

تعود هذه السطور إلى فترة متأخرة، فقد نشرتها «جريدةّ يينا لعموم الأدب» في الثامن والعشرين من شباط في التعليق على نص الخطبة المكتوبة بـ«الفرّنسية». ولم يكن الشخص الذي راجع هذه الخطبة إلا غوته، الذي استوعب تماماً ما قام به موللر –وأعجب بالحل الذي وجده إعجاباً لا حدّ له.

كان غوته وموللر على معرفة منذ ربع قرن. كان موللر يختلف إلى فايمار بين الحين والآخر، إضافة إلى أنهما التقيا في زيورخ قبل عدة سنوات. أمّا شيللر فقد كان ينظر إلى موللر نظرة نقدية، ويراه من خلال نظرة المؤرخ المنافس، وإن كان قد منح اسمه شرف الحضور في مسرحيته تل». أعجب غوته بمعرفة موللر الموسوعية التي مكنّته من إلقاء محاضرة مرتجلة قصيرة عن كل عمل من أعماله التي نشرت مجموعة،

(1) MA9. S.565 f.

وقد قام غوته عام 1805 بمراجعة سيرة ذاتية مختصرة كتبها موللر لسلسلة كتب تحوي صوراً ذات مغزى تعليمي. ونحن نقرأ اليوم هذه المراجعة بوصفها نقطة انطلاق غوته لتأليف كتابه «شعر وحقيقة». وقد كان موللر مساعداً يتمتع بالتقدير في JALZ، وقد اختاره غوته عند إنشاء تلك الجريدة في شتاء 1804/1803 ليكون أوّل عالم أجنبي على الإطلاق، يدعى للمساعدة في تحرير الجريدة من خلال صيغة مليئة بالمجاملة. وقد تم توقيع عقد بهذا الشأن، وقد تمكن موللر حتى سنة وفاته من تزويد الجريدة باثنتين وستين مقالة مطولة، تتحدث عن الشؤون التي يتم تناولها، أكثر مما تتناول الكتب المنوي مراجعتها.

وقد رغب غوته في تقديم تقييم محدّد لملف برلين؛ لأنه كان على علم بالخطب السابقة من 1805 إلى 1806. أما بخصوص خطبته الأولى الخاصة بفريدريك فقد كتب موللر إلى غوته يقول:

«لقد كان القتل بالنسبة لي أهون من تلك اللحظة الزمنية التي ينسى المرء فيها بلا مبالاة أو بجبن ذلك الدور المدّون»[1]. وهكذا درس غوته بنظرة ثاقبة الخطاب الجديد وكان في غاية الحماسة، وبدأ في الوقت ذاته، عملية ترجمته مع ريمر إلى اللغة الألمانية التي ظهرت في الثالث والرابع من شهر آذار عام 1807 تحت عنوان «عظمة فريدريك» في الجريدة التي تصدر في كوتا. وقد استطاع الجمهور المثقف آنذاك أن يكوّن صورة عن المهمة الأكثر صعوبة، وكيف استطاع المؤرخ الشهير لتلك الحقبة أن يتغلب عليها.

وبعد مرور مائتي عام على هذه الحادثة يتوجب على المرء أن يقول: رائع! لقد استطاع موللر أن يصون كرامة بروسيا، وأن يحافظ في الوقت ذاته على كرامته، وأن يبقى في الوقت نفسه بعيداً عن التكبّر والتزلّف.

(1) Leitzmann, Goethes Beziehungen zu Johannes von Müller, S. 502.

صحيح أنه تحدّث عن فريدريك، لكنّه استطاع أن يرفع الحديث عنه إلى مستويات رفيعة، تساءل فيها عن عظمة فريدريك الكبير ودورها في حياة الشعب على الإطلاق، وبيّن أنّ أهم تأثيرات تلك العظمة تتبدّى في الاحترام الدائم لورثة العظيم؛ لأن هذه العظمة مصدر إلهام للأجيال اللاحقة. ويمكن للقارئ أن يقوم بالاطلاع على هذه الصفحات العشر العظيمة في أعمال غوته بطبعاتها المختلفة. ونكتفي هنا باقتباسين نختارهما، وكان سبق لغوته أن أبرزهما في مراجعة في الصحيفة: JALZ «يجري عند كل الشعوب تقدير الحِقْب العظيمة والرجال الاستثنائيين، ويستشعر المرء السعادة وهو يتبيّن تأثيراتهم في قسمات الوجوه وملامح الشخصية وفي البقيّة الباقية من التقاليد»:

«وهكذا ستظل بروسيا على الرغم من تبدل الأقدار واختلاف الأزمان، وطالما أنّ ثمّة إنساناً ورعاً موجوداً على قيد الحياة، يتذكر روح الملك وفضائله، وطالما بقيت بقايا من ملامح حياته، حيّة في نفوسنا بعيدة عن اليأس والقنوط. إنّ كل بطل لا بد أن ينظر إلى شعب فريدريك بقدر من التعاطف».

لقد مضى، لكنّ مجده خالد على الدهر، وذلك مشروط بالاحترام الدائم والثقة بالذات. وهكذا تمكن موللر عن طريق مثل هذه الأفكار أن يتحدث إلى المنتصرين، وكأنهم مغلوبون في الوقت ذاته. وهنا يخاطب الخطيب الراحل العظيم مباشرة:

«وسترى أنّ الاحترام الذي لا يتغيّر لاسمك موجود عند الفرنسيين الذين أحببتهم كثيراً، وعند البروسيين، الذين أنت فخرهم، وسيقوم الاحتفال بتعداد مناقبك المتميّزة، التي تجعلنا نسترجع ذكراك التي توحّد الجميع»[1].

(1) MA9. S. 578.

وقد تمكنّ غوته في مراجعته أن يلّخص من خلال جملة واحدة، ما تمكنّ موللر في خطبته من إنجازه:

«لقد تمكنّ من أن يتحدث عن الوضع الخطر بلباقة، فكانت كلماته تحمل الاحترام والمجاملة للمحظوظين والأمل والعزاء للمكروبين» أما عن التعايش المشترك بين الغالبين والمغلوبين، فيبدوا أمراً بدهياً ومهّمة صعبة للإنسانية في أوقات الحروب. وهنا ينبغي أن نتذكر في ردود فعل المعاصرين الذين اتهموا موللر بـ«الخيانة» والمؤرخين القدامى الذين قدموا خطبته بوصفها دليلاً على «اختبار للشخصية لم يستطع أن يجتازه»، إضافة إلى موافقة غوته لهم التي وصفته بـ«الكارثية»[1]. وأن نتذكر بالمقابل التفسيرات المعاصرة التي ترى في ترجمة غوته للخطاب لوناً من الخدمة الوديّة. وقد كانت فعلاً كذلك -فقد ذكر غوته في «دفاتر الأيام والسنين» أنّ موللر قاوم الترجمة بضراوة وأراد أن يدله على «بعض المواطن الجذّابة»[2]، حتى لو تبدّت من خلال «ترجمة غير مؤذية» -لكن غوته ما كان ليقوم بالخطوة الخاصة بالنشر، في غياب الانسجام في العمل الذي يقدّمه.

ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد. فقد قدم موللر الشكر جزيلاً لغوته على مساندته له وقال:

«لم يحدث أن ظهر لقائد يائس في معركة حامية الوطيس في مياه بحر إيجه التوأمان. كما ظهرا لي وأنا أضرب في متاهات القفر الفلسفي، عندما تجلت لي جريدة الصباح الرائعة في الثالث والرابع من آذار»[3].

ثم أعلن على الفور:

«يمكن للمرء أن يلحظ في جريدة الأدب في بعض الأحايين، أن

(1) Leitzmann. 5. 484 und 507.

(2) 42. MA4. S.197 f.

(3) Müller. Briefe (Bonjour). S. 338.

على شعبنا الألماني أن يتصرف على نحو مملوء بالعقلانية، وأنا أعني بذلك، أنهم يتصرفون على هذه الشاكلة، فبالحكمة والفطرة السليمة، يستطيعون الإعداد لحرية أفضل، بدلاً من أن ينتظروها من القوزاق والفراقالباق». وبذلك يكون قد تم اجتراح فكرة جديدة، وقد بقي غوته منشغلاً بها دائماً:

وكان السؤال يتمثل إن كان بالإمكان إيجاد قوة بديلة بين الفرنسيين والروس، يستطيع الألمان أن يتحالفوا معها، ويفضل أن تكون هذه القوة تنتمي إلى جيرانهم في الغرب لا في الشرق. وقد وافق غوته، على اقتراح موللر وطالبه بصراحة أن لا يتخلّى عنه:

«أرجو أن تدونوا في جريدتنا الأدبية من حين لآخر مواقفكم، في ضوء قناعاتكم، بكل إخلاص»[1].

فإذا أردنا أن نعرف مقدار ما في مراجعة غوته وترجمته للخطاب المتعلق بفريدريك من «عدم الأذى»، فإن علينا أن نقرأ ابتداءً منذ الحادي عشر من كانون الثاني عام 1807 في JALZ مراجعة تفصيلية بدأت بالظهور، حيث تحدث موللر، تحت ذريعة الحديث عن مختصر ثوكيدس، عن الاتحاد الألماني وعن العلاقات الجديدة في ألمانيا بشكل عام أي عن فرص الإصلاح والتحرر الداخلي التي تولدت عن بيان الاستقلال، الصادر عن أعضاء الاتحاد الألماني. فقد منح الإمبراطور الفرنسي، وهو المؤسس الأكبر فرصة كبيرة للألمان، للقيام بعمل جيّد، لأنه لم يحدد إلّا الخطوط العريضة. «فما قام الاتحاد بإضفاء الطابع القومي عليه، ينبغي أن يكون موضع تقدير كل ألماني، أما العيش في مثل تلك البيئات والعمل على تنظيم شؤونها، فقد تركه الاتحاد لمقدار ما يتحلّون به من حكمة». ولم يجد موللر حرجاً أن يذكّر الهرتسوغ الكبير فون

(1) 17. April 1807 (Leitzmann, S. 511).

بيرغ وكذلك المارشال مورات، بوصفهما مثالين ينبغي للحكام الجدد من الألمان الاقتداء بهما، فقد حثّ مورات كلّ أركان منطقته من أجل «المشاركة في توفير الرعاية»[1].

وقد حرصتْ صحيفة يينا الأدبيّة في تلك الأسابيع على أن تكرّس نفسها، على نحو حاسم، لدعم هذه العلاقات الجديدة وإدراكها، فقد تمّ افتتاح عام 1807 بمراجعة مفرطة في طولها لـ «دستور نابليون» مع إشارة سريعة إلى «أحداث الساعة»، فقد ورد في العمود الثامن عشر في الثالث من كانون الثاني:

«إذا كانت ألمانيا قد رأت في الإمبراطور العظيم بطلاً في الموقع الخاص به، فإن لديها الفرصة كي تعرفه مشرّعاً من خلال دستوره». كما أنّ «المُخبر» – «التي تصدر مع جريدة الأدب، بما تحتوي عليه من أخبار من أرجاء العالم الأكاديمي – أثنت في اليوم نفسه على الشجاعة غير المعروفة في العالم القديم التي استطاع المنتصر الفرنسي من خلالها، وهو مملوء بالإحساس الكلّي بالثقافة والإنسانية أن يرعى دون استثناء، المدن الألمانية الخاصة بالفنون والعلوم. ويصونها». وقد أثنت «المخبر» بعد معركة يينا مباشرة على الحماية الخاصة التي أولاها الإمبراطور نابليون لجامعة يينا»[2]. وكان للنّص المسهب الخاص بالوحدة الألمانية والمشرّع الفرنسي مجرى طويل:

وهنا نرى التأثيرات الصحفية المباشرة للمعركة التي وقعت في 14 تشرين الأول 1806، أي أننا نلمس سياسة سريّة تم إقرارها دون موافقة الهرتسوغ الغائب. أما البعد السياسي لاستراتيجية الدولة الصحفية، فتظهر في «بعض الأوراق» التي نشرها مستشار الدولة السري فويغت

(1) JALZ. Januar 1807. Spalte 121 ff. (Müller. Sämmtliche Werke. 27. Theil. S. 274 ff).

(2) JALZ. Intelligenzblatt vom 27. Oktober 1806. Spalte 801 ff.

والتي استطاع المفاوض الفايماري فريدريش موللر أن يوصلها إلى مقر القيادة النابوليونية، كما ظهر في «المخبر» بتاريخ 1807/1/3 التي سمّيت «جبل نابليون» الذي جرى فيه الاحتفال بالقرب من يينا، حيث عسكر نابليون قبل المعركة[1].

وبعد مرور تسعة أشهر فحسب، وبناء على إرادة فويغت، جرى إرسال فهرس المحاضرات الخاص بمدينة يينا، الذي يتضمن محاضرة بـ«اللاتينية» عن الجزء الأساسي القانوني الإمبراطوري، إلى الدبلوماسيين الفايماريين في باريس ليؤدي خدمة أخرى تتمثل في «تبيان أن يينا هي الأكاديمية الأولى التي تم فيها دراسة قانون نابليون»[2]. وكان هذا هو الدرس الذي خرج منه غوته من الحوار مع ريمر في تشرين الثاني 1806: التعاون لا المقاومة.

لقد أعلن غوته، بتحفّظ، للرأي العام عن تأييده لهذا النهج، لكنّ ذلك الإعلان تمّ على نحو لا لبس فيه، ومن خلال تأييده ليوهانس فون موللر، وخطابه عن فريدريك. لهذا فلم يكن من المستغرب، على الإطلاق، أن يقوم المستشار السرّي فويغت، من أجل اختبار هذه الفكرة، باستدعاء المؤرّخ ذي المكانة البارزة من برلين إلى يينا، وأن يكتب في هذا السياق في الخامس عشر من كانون الثاني عام 1807 مخاطباً القائم بالأعمال ويدعى موللر:

«إنّ (يوهانّسن فون) موللر سيكسبنا الشرف والثناء، وسيساعدنا كذلك في صياغة بعض الأفكار الأدبيّة الجيّدة. ولا يجوز لنا أن ندع هذه الشهرة العلمية تذهب سدى؛ لأنها ذات قيمة على مستوى العالم

(1) PB 2 Nr. 531 p (S. 419) Voigt an Müller, dazu JALZ Intelligenzblatt, 3. .1. 1807. Spalten 7/8.

(2) PB 2 Nr. 687 (5. 564). 3. September 1807. Die Vorlesung behandelte u.a. die transferendi ad alias civitates ratio.

أجمع[1]. أما بخصوص اعتقاد المعاصرين، بصدور الخلفيّة السياسة للدولة عن وجهة نظر غوته، فذلك ما يتبدّى في الرسالة القصيرة، المختصرة التي بعث بها الفيلسوف الألماني فيخته إلى زوجته والتي يتحدث فيها عن «موللر–غوته وآخرين من الاتحاديين الألمان»[2]. فقد ظهرت ترجمة غوته «غير المؤذية» بوصفها عملاً دبلوماسياً تمت الموافقة عليه مع زملاء «المجلس الاستشاري السريّ». في أيلول عام 1807 تلقّى موللر خطاباً يؤذن بانفصاله عن ملك بروسيا، وقد تلقى موللر الخطاب كـ«الخادم»[3]. كان موللر يريد الذهاب إلى توبنغن في بادئ الأمر، لكن نابليون سرعان ما طلبه ليكون وزيراً في الدولة النموذجية الألمانية في مملكة فست فالن التي أسسها الأخوان جيروتسي. أمضى موللر سنتين هناك في خدمة العمل التعليمي في المدارس والجامعات فضلاً عن الخطب الرنانة التي كان يلقيها هناك. توفي موللر عام 1809، وقد أبّنه غوته وصديقه كارل فريدريش راينهاراد اللذان أهديا إليه رسائلهما المملوءة بالأفكار. أما الشقاق بينه وبين صديقه فريدريش غينتس، فيعود إلى سنتين مضتا، وقد اتهم هذا الصديق موللر في عام 1806 بنقص القدرة في الإرادة السياسية، وبنزعته الجبرية التي تتملكه على المستوى التاريخي التي تنسب العدالة إلى كل شيء وإلى كل أحد. وقد كان موللر على وشك أن يتحدث عن تجربته النابوليونية من خلال رسالة إلى آدم موللر الذي أراد برغبة صارمة أن يُشوه سمعة راعيه. أما الباعث على انتهاء الصداقة، فقد وجده غينتس في المراجعة المتعلّقة بالاتحاد الألماني، خاصة في ذلك الثناء على الهرتسوغ الكبير، الذي يعده غينتس أكثر

---

(1) PB 2 Nr. 537(S. 425). Vgl. auch S.440 (Nt. 440)، حيث يرى فويغت أنّ على غوته أن «يعطي للأمر دفعة قوية» من خلال رسالة يبعث بها إلى موللر.

(2) Schib. Müller. S. 268.

(3) Ebda.S.274.

مظاهر الحقبة النابوليونية حقارة. وتعد رسالته الحاسمة إلى موللر واحدة من أكثر الوثائق الرهيبة والرائعة في تاريخ الأدب الألماني، التي يتساءل المرء وهو يقرأها، من أيّ الأمور سيعجب، فهل سيعجب من الاستبصار النفسي أم من الانحطاط الإنساني الذي دفع موللر إلى تغيير موقعه، على نحو حاسم، والانتقال من السياسي إلى الشخصي لدرجة أنّه أحب أرنو شميدت. وقد وصف غينتس كنه موللر بأنه نتاج «خطأ غريب في الطبيعة»، ثم أوجز ذلك من خلال نبرات تشير إلى خوف موللر من المثليّن: «إنّك كنت وستبقى لعبة لأيّ انطباع عابر وعرضي. ولديك الاستعداد للاعتراف بكلّ شيء، ولإجازة كلّ شيء، وللارتباط بكل شيء. وما يحدث لدى أحد من جيرانك لا يدفعك إلى كراهية عميقة أو إلى تعلّق عميق. إنّ حياتك هي استسلام دائم لا ينتهي»[1]. لكنّ الاستسلام، في الواقع، هو ما كانت تصنعه في تلك الأسابيع القلاع البروسيّة التي كانت تتساقط واحدة تلو الأخرى، دون أن يدافع عنها جنرالات فريدريك المتحجّرون. وكان الإنقاذ يتلخّص في قدوم الروس– ولكن هل كانوا أفضل من الفرنسيين؟ فما رآه موللر، وهو لا يكاد يختلف عما رآه غوته، كان يشكّل هزيمة حقيقية قاطعة لبروسيا: فقد كتب موللر في 1807/2/17 إلى شقيقته يقول:

«أنا أخذ بعين الاعتبار وضع عالمنا، بغضّ النظر عن طبيعته، من أجل أن ينتهي الوضع الحالي لهذا العالم المتصارع»، وقد كانت ثمّة مسوّغات يومها لتأمّل الحالة، فقد كانت الصحوة البروسيّة يومها التي سميت في ما بعد بـ «التمرّد الألماني» وهو ما كان يعد آنذاك أمراً غير ممكن الوقوع. ففي النزاع الأوروبي القديم بين التوازن والسيطرة انتصرت فكرة السيطرة. وقد تصرّف غوته كأنه ينتمي إلى هذا التيار، لكنه استطاع أن

(1) Briefwechsel zwischen Gentz und Müller S. 272.

يتكيّف عن طريق وسائل أدبية وصحفية مع الوضع الجديد. ويبدو أنّه كان عليه أن يتخذ القرار بعد معركة يينا مباشرة، وذلك يعود إلى فضحية صحفية مزعجة، وجد غوته نفسه متورطاً فيها في شتاء 1807/1806. فقد نشرت جريدة «الصحيفة العامة» التي كان يصدرها كوتا، ناشر غوته الجديد، عن زواجه من كريستيانة وعن اغتصاب زوجة صهره فولبيوس، إضافة إلى نشرها أخباراً غير صحيحة عن فايمار.

وقد اشتكى غوته لدى كوتا عبر رسالة مقتضبة بعثها في الخامس والعشرين من كانون الثاني عام 1806، كانت بديلاً عن أخرى غاضبة ومطوّلة لم يقم غوته بإرسالها. لكنّ غوته أرى تلك الرسالة لكارل لودفيج فيرنوف، وهو شاب مختص بالدراسات الإيطالية والجمالية وهو - الرجل الذي نقل الفضيحة التي وقعت في فايمار إلى كارل أوغست بوتيجر[1] الذي كان يعيش في دريسدن، الذي نقلها بدوره، دون كلل، إلى أحد صحفيي النميمة في فايمار التقليدية، ليعيد بوتيجر بعد ذلك نشرها في «الصحيفة العامة». فهل كان غوته يشعر أنه عندما قدم الشكوى، كان يأتمن عليها العضو الذي يأتي في الدرجة الأولى في سلسلة المعلومات؟ لكنّ غوته أوضح لفينوف، على كل حال، الأسباب التي جعلت النميمة بخصوص فايمار تأخذ هذا الطابع الفضائحي: إنّ لألمانيا شيئاً كبيراً ومقدّساً أثناء ما تشهده من اضمحلال كليّ وهو «أدبنا الذي لم تمس حرمته» وإذا كان الألمان يحافظون عليه ويرفضون التفريط فيه، فليس ذلك لمجرّد وقايته، بل «لأنّ مصير ألمانيا في هذه اللحظة مرهون به، كما أنّ علينا أن لا نفقد الاهتمام الذي منحناه له نظراً لما يتحلى به من قيمة روحية كبرى» -وهو ما أخبره فيرنوف عن موقف غوته ثانية إزاء الصحفي المغرم بالقيل والقال. وبذلك تكون الخطوط

(1) Grumash VIS. 279.

الخاصة بالسنوات اللاحقة قد رسمت: اللّين في الموقف السياسي والحفاظ على الفضاءآت الروحية بوصفها إحدى مقدسات الأمة. ومن الجليّ أن هذا هو المبدأ الذي اهتدت به «جريدة يينا للأدب العام» في مسيرتها.

وقد كان للصداقات الجديدة المهمة التي عقدها غوته في الحقبة النابوليونية دور حاسم، كصلته مع كارل فريدريش راينهارت الذي كان يعمل في خدمة الدبلوماسية الفرنسية، فقد عرفه غوته عام 1807 في كارلسباد، حيث كان راينهارد يستجمّ مع عائلته من الضغوط والتوترات جراء العمل في المفوضيّة في إمارات الدانوب الرومانية، وهو العمل الذي أسهم في إرساله إلى الأسر الروسي على نحو مؤقّت.

إنّ سيرة حياة اللاهوتي والمربي راينهارد من 1761 إلى 1837، توضح أنّه كان المصلح الشفابي الذي قدم إلى فرنسا قبل الثورة والذي بقي هناك، مؤكّداً قدرته على تغيير الأنظمة كلها أثناء عمله في خدمة الدولة، ليغدو اليد اليمنى لتاليران وليتولى –وهو أمر غريب وغير مفهوم– منصب وزير الخارجية الفرنسية عام 1799 لمدة أسبوع.

ويبدو أنّ غوته الذي كان، عملياً يتأثر بالنشطاء من البشر، اهتم بمسيرة راينهارد على نحو غير عادي، فقد التقى حتى عام 1807 بالرجل ما يزيد على أربع وعشرين مرّة، وكان يحدث أن يلتقيا في اليوم الواحد غير مرّة، وهو تبادل مكثّف، يقع في صلب اهتمامات غوته، ومما كان يبعث لديه السرور أيضاً، نظرية الألوان التي كانت تجتذب ذلك الدبلوماسي غير المنحاز، والذي كان يتابعها بدقة مهما طال الحوار. وكما كان للسياسة دور كبير كذلك. وقد كانت خلاصات غوته في «دفاتر الأيام والسنين»، على النحو التالي:

«لقد التصق الرجل البارع بي بوصفه ممثّلاً لأمّة تسبّبت في آلام

الكثيرين من البشر، ولا يتم النظر إليها من بقية العالم المتحضّر نظرة إيجابية»[1]. بمعنى أنّ هذه الصداقة القديمة الجميلة قد بدأتْ باستعراض سياسي–اجتماعي، فهناك ألمانيّان وجدا معاً لأنهما يتجاهلان التحفظّات القومية تجاه فرنسا.

في عام 1808 أصدر نابليون قراراً يقضي بتعيين راينهارد وزيراً مفوّضاً في كاسل، وليكون هناك بمثابة مراقب إمبراطوري في مملكة فستفاليا التابعة للملك جيرومي، ولعل ذلك هو أرفع المناصب الدبلوماسية التي تقلّدها راينهارد في الاتحاد الألماني على الإطلاق. ومن خلال هذه الوظيفة التقى راينهارد مع يوهانس فون موللر ونظم في ما بعد عملية تشييع جنازته ودفنه، وتبادل الرأي مع غوته بهذا الخصوص على نحو مستعجل. أما الدور الذي لعبه راينهارد بوصفه وسيطاً للرومانسية الفنيّة في الراين خاصة الأخوين بويسيري[2] واكتشافهما فن العصور الوسطى عند غوته، فهو معروف في هذه الأيام أكثر بكثير من الصلة المباشرة التي أقامها غوته مع جهاز الحكم النابوليوني في ألمانيا.

ويستطيع المرء أن يقرأ في رسائل راينهارد جمل غوته التي ترى «أنّ ألمانيا ليست سوى موقع لكل من فرنسا وروسيا». وهو يتبنّى فكرة أن يينا يمكن أن تكون «تكريماً لذكرى المعركة الكبيرة وجامعة مركزية للاتحاد الألماني». وربما تصدر جريدة أدبية نابوليونيّة–ألمانيّة! كما أنّ غوته يتمنّى لراينهارد «الأفضل في باريس الرائعة، ويحسده على منظرها» فيجيبه راينهارد: «لعل باريس تفتقدك شخصياً حتى تكتمل حقبتها العالمية المعاصرة. يا الله! لماذا أنت لست هنا؟». وقد تلقى غوته عن طريق راينهارد معلومات من بؤرة السلطة الإمبراطورية،

(1) MA 14, S. 188 ff.

(2) فنانان وناقدان من كولونيا توفيا في منتصف القرن التاسع عشر. وكانا من المنظرين للرومانسية، وعلى صلة بشليغل منظر الرومانسية الفلسفي: (المترجم).

كانت تهمّه مثل التقارير الخاصة بالمستشار موللر عن الإمبراطور التي تُشير إليها يومياته في بعض الأحيان. فمن هو الشخص القادر على تزويده بانطباعات من مصدر مباشر، وعلى نحو مقتضب مثل الحريق الذي شبّ في أوائل أيام السنة التي وقعت فيها معركة يينا: «إنّ كمية كبيرة من الاستقلال الألماني، لن تكون ملحوظةً في الصفوف الجديرة بالاحترام»[1].

لقد أحبّ راينهارد غوته، كما فعل تسالتر تماماً من قبل، لكنّ انطباعه الأولي الذي بعث به غوته إلى يوسف فون هامر الذي يتفق على نحو غريب مع ملاحظة مارفيتس بشأن معركة يينا، تبدو أكثر أهميّة، ففيها



الهرتسوغ كارل أوغست

يتبدّى أنّ غوته كان يفتقر إلى شيء من استهتار الأرستقراطيين.

كان فونتاني قد عدّ هذا السلوك لوناً من الاعتزاز بالحسب والنسب، مع أنّ راينهارد لم يكن أرستقراطياً ومع ذلك فقد كتب:

(1) Bricfwechsel Goethe-Reinhard. S. 31. 35. 40.43.45.

«كانت سلوكياته تخلو من الأناقة، وكان يبدو لي بلا حياء. ويكون غير موفّق أحياناً عندما يريد أن يكون مجاملاً، ويقع في شيء من التكلف لكنني رأيته متحمساً، وسمعت داخله يغلي، وهكذا عرفت الأسد من زئيره»[1].

وقد كان على الهرتسوغ أن يكون هو وهرتسوغيته تابعيْن في إطار الاتحاد الألماني، لهذا كان يشعر براحة أقل قياساً إلى غوته، وقد وصل في الثامن عشر من حزيران عام 1807 إلى دريسدن، ليكون في استقبال نابليون، الذي كان قد توقف أثناء عودته إلى فرنسا في تيلستي. وكان استقبال الإمبراطور له يتسم بالبرود، كما أن كارل أوغست لم يرغب في إبهار القيصر أو إثارة تعاطفه، كما فعل، على سبيل المثال، ليبولد فريدريك فرانتس في هرتسوغية أنهالت–ديساو الذي استطاع أن ينجح أمام أمراء فورليتس. أما هرتسوغ فايمار فقد أمضى، كما قال، «أيامه الأكثر إزعاجاً»، ورأى كيف أنّ نتائج العلاج التي اكتسبها أثناء إقامته في كارلسباد «قد ذهبت سدى»[2]، «كما فشل اللقاء التالي في الثالث والعشرين من حزيران: فعندما سمح نابليون بتبادل الحديث معه أثناء رحلة العودة إلى باريس، لم يكتف بالمرور عبر مدينة غوته التي كانت على نزاع مع فايمار بخصوص المركز الأول في إطار هرتسوغيات زاكسن، بل اختار الطريق التي تدور حول فايمار. وقد كانت ردة فعل الجهاز الإداري في الهرتسوغية متسماً ببطء شديد، ومتأخرة تماماً، فلم يجد نابليون أحداً من مقامه ينتظره عند الحدود، لهذا فقد رغبته في البقاء وأرسل تحياته للهرتسوغه والغضب يعتمل في صدره، وبقيت اللوحات الاحتفالية في القصر في مكانها لم تُمسّ.. لهذا

(1) Grumach VI, S. 279.

(2) Tümmler, Carl August, S. 173. PB 2 Nr. 658 (S. 532).

لم تتوافر فرصة لتقديم عريضة الشكوى المتضمنة إعفاء الهرتسوغية مما تبقى من غرامات حربية قاسية. ولم يتراجع ما كان الإمبراطور يشعر به من إزعاج لأنّ الحديث الذي دار معه منذ حمامات بوميش كان «يتميّز بقدر عالٍ من الشجاعة»، ويطالب بالحرية بقوة، كما أخبر كارل أوغست عن نفسه[1]. وقد توجّب على كارل أوغست أن يكتب إلى باريس رسالة أو اثنتين منمقتيّن، بحيث تمكن في بداية عام 1808 أن يظفر بموافقة الإمبراطور على أن يكون شبيناً في زواج حفيدته ماري، ابنة وريثة العرش –لكن وزير الخارجية الجديد شامبين غير العارف بتقاليد البلاد الأوروبية القديمة سأل الوزير المفوض الفايماري ويدعى فون فولتسوغن:

«–ولكنّ، هل تحمل الأميرة اسم نابليون؟ فأجاب الوزير المفوض:
–إنها تدعى ماريا، ولعل ذلك يعود إلى جدّتها الإمبراطورية (الروسية).
إنّ الأميرة ليس لها اسم رجل»[2].

بقيت الحياة السياسية متحجّرة وخالية من البريق، وكان عليهم أن يدافعوا عن أدائهم البائس في الفرقة العسكرية التابعة لفايمار في الحرب المستمر ضد بروسيا، حيث بلغ الهروب في تلك الفرقة أعلى النسب في الاتحاد الألماني، أما الغرامة الحربية فقد تم جمعها بقوة صارمة، مع أنه لم يكن لدى الهرتسوغية أي رصيد لدى البنوك، كما في بيتمان فرانكفورت، مثلاً، أما الديون المستحقة فقد دفعتها بعض الجمعيات الفايمارية حتى سنة 1923م. كما أنّ عقد الاتحاد الألماني الذي كان بمثابة الفرصة لتحسين العلاقات بين الدول الاتحادية، أوقع الهرتسوغية في نزاعات صعبة مع الجيران. من هنا جاء النزاع على المرتبة الأولى مع

---

(1) PB 2 Nr. 671 (S. 550).

(2) Tümmler. Gevatter Napoleon. S. 59.

غوته، وهو لم يكن ذا أبعاد رمزية فحسب، بل كان من أجل التأثير في تجمع الولايات في الإطار الاتحادي، حتى لو أنّ ذلك التجمع لم ينعقد.

لكنّ الإنجاز الكبير آنذاك، المتمثّل في إعادة بناء الإدارة. والإصلاح الداخلي لدستور الهرتسوغية جاء ببطء وآتى أكله في وقت متأخر تماماً. أما أصدقاء غوته الذين كانوا يتسنّمون ذرى القيادة في الهرتسوغية مثل: فويغت وفرايرفون فولتسوغن والمستشار موللر، فقد كانوا يجعلون الحياة صعبة ويكثرون من الشكوى. ولم تكن ثمة علاقة بين هذا المزاج الرديء والصراع العلني الجوهري بين أصدقاء فرنسا مثل فويغت –الذي كان يتقاسم موقعه مع غوته– والطرف المقابل الذي يلتف حول الهرتسوغ وحاشيته العسكرية مثل فولتسوغن. ولعله يستحق، على النقيض من المرح الظاهر الذي ظل غوته طيلة تلك السنوات يعرب عنه، أن نصغي إلى تلك الشكاوى، فهي تؤكد ضغط التحولات الجذرية التي كانت تسود ألمانيا كلّها يومذاك. فقد كتب فويغت إلى موللر عام 1807: «منذ أن غدت معطيات العالم أكبر من أن يستوعبها قوة الوجدان، ومنذ أن غدت الهموم العامة تشغلني دون أي تعاطف، بدأت أومن «أن الموت مكسب لي»»[1]. فالشعور بالأعباء التي تفوق القدرة على الاحتمال يمتزج بالشعور بالإذلال، وهي المشاعر التي كان الهرتسوغ يستشعرها في المقام الأول. وقد أُلمح إليه أن إرسال هدية إلى تاليران يمكن أن يكون لها وقعها المناسب –وقد تكون الهدية صندوقاً وعليه صورة للهرتسوغ. لكنّ الصندوق قد لا يكون محل عناية أمير بنيفنت أو تالي لاند، بصرف النظر عن قيمته، وقد يلقي به جانباً. لهذا بدأ التفكير بإرسال «وديعة» من المال تبلغ 80 ألف فرنك. وكان على موللر الذي توسّط في هذا الأمر وأكّده من خلال توصية قام

(1) PB 2 Nr. 739 (S. 611).

بإعدادها أن يتحمل السخرية المرة بخصوص «80 ألف شفيع». وأن يتحمل اتهامات الهرتسوغ بأن موللر «إذا لم يكن لديه ما يعمله. فعليه أن يفكّر بالهدايا»[1]. وأن عليه «أن يعيش حياة مستقلة لا تحظى باهتمام أحد». وهكذا رأى كارل أوغست في مواجهة تلك الاضطرابات الديبلوماسية المؤلمة «أن الهدف الأسمى في هذه الأيام، حيث يستطيع المرء أن يلقى حتفه»[2].

كان هذا الأمر لا يرقى إلى مستوى الأمير ولا يتناسب مع مبادئه، لذا لم يقبل الهرتسوغ البقاء على هذا النحو، وشعر الفرنسيون الذين كانوا يضعون الهرتسوغ المتهم تحت المراقبة بعدم الارتياح؛ لأنه كان يحيط نفسه بالضباط البروسيين المسّرحين من الخدمة، مثل البارون فون موفلينج وكلايست صديق رولي فون ليلي إنشترن، مربّي الأمير بيرنهارد الذي صار أميراً لزاكسن—فايامار. أما ما زعمه موفلينج، في ما بعد، بأنّ كارل أوغست استطاع أن يحوّل مكان إقامته إلى بؤرة ألمانية للفنون والعلوم وقد كانت من قبل كذلك، إضافة إلى أنه أراد أن يجعلها بؤرة للحريّة الألمانية، فهو في واقع الأمر، مبالغة حقيقية[3]. لكنّ مما لا شك فيه أنه أجرى من هناك اتصالات بالفصائل المعادية لنابليون، الذين لم يمسوا غوته، مع أنه لم يغير من مواقفه السياسيّة. وهكذا جرى اختيار موفلينج ليكون نموذجاً للشخصية الرئيسة في «الأنساب المختارة».

وقد قرأ غوته كتاب روهل الانتقادي عن معركة يينا بعناية، ونشرت مراجعته المطولة للكتاب عبر موفلينج في «جريدة يينا للأدب العام»، وهناك وجدت كذلك كتب المجابهة وخرائط المعركة. أما بخصوص

(1) Zum Dosenvorgang u.a.: PB Nr. Sowie S. 576. Sowie S. 558 561 und 595.

(2) 62. PB 2 S. 562.

(3) Schulze. Weimarische Berichte und Briefe. S. 101.

خط سيرها فقد استمع غوته إلى تقارير لشهود العيان، مثلما قام بزيارة لميدان المعركة غير مرّة، مصحوباً بأصحاب الاختصاص من أصدقائه أمثال كنيبل والميجر فون هاينريش، الذي كانت أفكاره بمثابة معالجة قصصيّة للمعركة. وليس هذا بمستغرب لشاعر كتب «هيرمان ودوروتيا» لكن ذلك لم يتواصل. أما بخصوص الاقتراب من جنرالات المعارضة البروسيين، الذي غدوا إصلاحيين في ما بعد، فإن هذا يتبيّن من خلال احتكاكات كثيرة، لكنها اجتماعية ودقيقة خاصة مع الضباط المتعلمين الذين كان يرغبون في لقاء غوته. وقد كان الضباط الفرنسيون المنافسون يحاولون إيجاد سبيل للقاء غوته والوصول إليه. أما إنّ غوته قد احتسى الشاي ذات مرّة مع الوزير البروسي فون شتاين عند الهرتسوغة، فهو أمر غير ذي دلالة كبرى.

وإذا أردنا أن نتحدث بوضوح، قلنا إن إقامة غوته علاقات محسوسة مع الاتحاد الألماني الجديد هو قرار عائلي تماماً؛ لأنه كان يتعلّق بمستقبل ولده أوغست. فقد كان على ذلك الفتى –على الرغم من مستواه المدرسي المتوسط– أن يواصل دراسته في الحقوق بناءً على رغبة أبيه، أما أنّ غوته كان قد فكرّ بهذه الأسئلة بوضوح، فهذا ما يكشف عنه ما دوّنه ريمر في الثالث من أيلول عام 1807: «حوار حول تدبير شؤون الحياة في الظروف السياسية المعاصرة وما الذي ينبغي أن يفعله الشاب؟ إنه ليس أكثر من السلوك الاجتماعي ممدوداً على مساحة اجتماعية واسعة، وعلى الفرنسيين الخ»[1].

(1) Grumach VI. S. 553.



أوغست في الزّي الرسمي

لقد اتسّع الأفق القومي وسار باتجاه نزعة الهيمنة الفرنسية الوحدوية. لهذا أخبر غوته أحد زائريه بأن أوغست ابنه سيذهب إلى هايدلبرغ ليكمل دراسته:

«إنه حقّاً قانون نابليون. لقد وجدتُ غوته وقد استقال من كل شيء. لقد قال ذلك الرجل العجوز وداعاً. إن من الواجب أن نساعد الجديد على البناء. فقد صار الإنسان في هذه الأيام مواطناً عالمياً. وعلى الدول أن تعيد بناء ذاتها من جديد، وعليها، في هذه الأثناء، أن تنحيّ جانباً المواقع التي لا يمكن لها أن تتغلب عليها». وهو ما حصل بالفعل. ففي نيسان عام 1808 رحل أوغست إلى فرانكفورت، حيث زار جدته هناك، على نهر النيكر، في أحد الجبال المرتفعة، كي يقوم بدراسة أحد كتب القانون المستوحاة من قانون نابليون، من أجل أن يؤهل نفسه لحياة مهنية جديدة. ومن الواضح أنّ مثل هذه الخطوة تجعل التصويت على المستقبل السياسي لا يكاد يقع. وقد كانت تلك خطوة الأب لا الابن، الذي اقترب أكثر من ذلك، فقد بدأ منذ خريف عام 1807 حملة

لمناقشة المدخل الممكن لقانون نابليون[1].

إنّ التفكير في مثل هذه السياقات الواسعة وعالمية الأبعاد والإمبريالية أسهم في حثّ غوته على المزيد من القراءة، بحيث إنّه في الأسابيع التي كان يحاول فيها تقرير مصير ابنه أوغست، كان يبدو في قمة الإثارة ومنشغلاً على نحو ملحوظ[2].

كان الأمر يدور حول ذلك العمل المجهول المؤلف الذي صدر في مدينة كوتّا تحت عنوان: «روما أو لندن. عن طبيعة المملكة العالمية القادمة» كان غوته متحمساً للموضوع، لدرجة أنّه سأل الناشر عن اسم المؤلف: «إنه لنهج يبعث على السعادة، هذا العمل المتمثّل بكتابة التاريخ العالمي، وهو عمل يستحق مؤلفه الشكر الجزيل في الوقت الحاضر؛ لأنه عمل يتطلّب القيام بالبحث عن وجهات نظر أكثر شمولاً، ولأننا حرمنا البهجة في أيامنا هذه»[3].

كان المؤلف المجهول هو الناشر البرليني فريدريش بوخ هولتس (1768–1843م) الذي كادت تطويه يد النسيان في أيامنا هذه. ينتمي بوخ هولتس إلى أعداد لا تحصى من الموهوبين الذين لم يتمكنوا من القفز إلى عالم الخالدين؛ لأنه كرّس حياته للحظة الحاضرة، وبوصفه كاتباً برجوازياً من أعداء الطبقة الأرستقراطية فإنه غدا بعد 1806 ناقداً حاداً للطبقة العليا في بروسيا بحسب كتابه الناجح «الشخصية البروسية» الصادر عام 1806 الذي يقدّم بورتريهات ساخرة ومؤلمة (ويبدو أنّ أوبريست ماسن باخ قد أسهم في الكثير من المواد في هذا الإطار). وقد قرأ غوته هذا الكتاب أيضاً.

(1) Grumach VI, S.354.

(2) Tagebuch, 15., 16., 17. Oktober, 4. November 1. und 9. Dezember 1807.

(3) Goethe an Cotta, 1. November 1807.

لكنّ بوخ هولتس كان فيلسوفاً من فلاسفة التاريخ الذين يحلّقون بالأسلوب الألماني عالياً الذي يأخذ التاريخ العالمي بأجمعه بعين الاعتبار. بعدها اكتشف بوخ هولتس سان سيمون وأوغست كونت، عالم الاجتماع الوضعي؛ لهذا عدّه بعضهم رائداً لهذا الحقل في ألمانيا.

كان بوخ هولتس في أثناء الحقبة الفرنسية متعاطفاً مع نابليون والتنظيم الجديد للراين الألماني. أما كتابه «روما ولندن»، فإنه يتضمن نظرية التاريخ الجديد التي ستجري عملية عرضها على نحو إجمالي ها هنا.

وُجدت في أوروبا منذ العصور الوسطى مملكتان عالميتان متتابعتان:

ثيوقراطية البابوات وتجارة الإنجليز. لكنّ المملكة العالمية لا تعني في هذا السياق السيادة الإقليمية داخل نظام الدولة. بقدر ما تعني العُرْف المبني على مؤسسات ذات سيادة. فعند البابوات كان الله يمثل مصدر الحكم، وكانت الكنيسة بطواقمها المؤلفة من البطاركة والقسيسين ونظامها التراتبي بمثابة الأداة، فضلاً عن القيود الأخلاقية التي يجري الالتزام بها. وكان الإنجليز يحكمون من خلال السيطرة على بحار العالم ومن خلال التوازن داخل القارة الأوروبية الذي كان يحظى بالدعم الفاعل في إنجلترا!

وهذا النظام القائم على التوازن يحول بين أصحاب النفوذ في البلاد والاقتتال في ما بينهم. أما إنجلترا التي كانت تعيش منذ مئات السنين فوق قنبلة، يسميها بوخ هولتس «نظام الاقتراض»، فإنّها استطاعت أن تحقق إرضاء جوعها غير المحدد نحو البضائع والربح عبر التوسع الإمبريالي. أما التوسع الفرنسي في القارة الأوروبية فهو، بحسب بوخ هولتس، ظاهرة ناتجة عن إبعاد فرنسا بالقوة عن البحار الدولية وتيارات التجارة العالمية.

لهذا يصف بوخ هولتس عداوة نابليون لمنظّري، فكرة التوازن —ويشير بوضوح إلى كتاب غينتس «شذرات» – بأنهم يمتلكون وعياً زائفاً، ويرتكزون على خطأ يقوم على خطابة مزخرفة تغطي على العلاقات السببيّة الحقيقية. ومثلما جرى إزالة الممالك الدولية الثيوقراطية من خلال الوعي البروتستانتي الألماني، فإن من الضروري قيام بروتستانتية جديدة ضد الإنجليز—فلماذا لا تقوم من خلال بروسيا وبالاتحاد مع فرنسا؟ لقد تمّت كتابة هذا الكلام قبل (روما ولندن) ورواه بوخ هولتس بنفسه مباشرة قبل الحرب البروسية الفرنسية في عام 1806، أي قبل معركة يينا وأوير شتيت. أما البروتستانتية التي يؤيدها نابليون والموجهة ضد الإنجليز وتجارتهم فهي بحسب، بوخ هولتس، تقود إلى مملكة عالمية وإلى نظام جديد للعالم، في ضوء مبدأ الحق تحديداً. ومبدأ الحق هذا لا ينبغي أن يعمل بوصفه سلطة عليا بل كونه سلطة قضائية تقوم بتأمين المِلْكية العامة للبحار الدولية لجميع الدول الحدودية وتحول دون السيطرة التجارية للدول المفردة عليها. ففي حين يحق للدولة المفردة أن تسيطر على اليابسة من أراضيها، تكون البحار بوصفها عنصراً سائلاً، متاحة لاستعمال الجميع. لهذا يعلن المؤلف المجهول أنه تابع للإمبراطور الفرنسي لأن هذا الإمبراطور هو من يمتلك القوة أمام ملوك المال الإنجليز (هنا تغيب الملاحظات القبيحة التي ستحضر في زمن لاحق بخصوص المتموّلين من اليهود) ولديه القدرة على أن يوزّع ثروة البحار واليابسة على نحو عادل.

إنّ ما أقدّمه هنا هو عرض مختصر لملامح نظرية «روما ولندن» التي قدّمت في ما يقرب من أربعمائة صفحة طويلة، وقد قدّمت هناك بجهد ظاهر وتفصيلات تاريخية وقرائن مادية، مصحوبة بذكاء حاد ورائع وقادر على الاستيعاب. وهو يدع كراهية الفرنسيين التي كانت

قد بلغت ذروتها على المستوى القومي آنذاك تبدو وكأنها لون من الحساسية السياسية التي لا تدري شيئاً عما يحدث. إن كتاب بوخ هولتس ينتمي إلى السياق الخاص بالسؤال عن التوازن والسيطرة التي ظلت تحدّدها النقاشات السياسية قبل الثورة على نابليون.

ومما يميّز نظرة غوته التاريخية أنّه كان يعد أمثال هذه «الافتراضات» بمثابة لون من إعادة التناول للتاريخ العالمي ويقف عندها بقدر كبير من الرضا، وبخصوص كتاب بوخ هولتس وأمثال ذلك الكتاب البالغة الكثرة، مثل «البروتستانتية» العائدة في مقابل المملكة العالمية، فقد كان في وسع غوته بوصفه أحد المؤرخين الذين يقوم منهجهم على الشك أن يوضح أبعاد هذا التصوّر النمطي، أكثر بكثير ممّا يمكن لمشروع غائيّ أن يفعل. وبالنسبة للناظر إلى موقف الدول الضعيفة، فإنّ الخطوط التاريخية العالمية، يمكنها بما تنطوي عليه من حتمية تاريخية أن تقدّم السلوى أو على حد تعبير غوته بوسعها أن تمارس لوناً من التأثير «الودود».

وفي كل الأحوال، فإنّ غوته لم يتحدّث على نحو إيجابي خالص عن أي كتاب سياسي حادّ، مع الملاحظ أن كتاب بوخ هولتس هو الكتاب الأوّل المتعاطف مع نابليون الذي يقوم غوته بقراءته.

وقد تولّدت من هذه النبذة الخاصة بهذا الكتاب، بكل ما تنطوي عليه من رأي إيجابي ودود عام 1807، الاستسلام للأمر الواقع في إطار النظام النابوليوني[1]، مثلما تولّدت الثقة بآراء الإمبراطورية المتفوّق. فقد قرأ غوته كتاب «روما ولندن» في خريف عام 1807، وفي بداية عام

---

(1) لعل كتاب «روما ولندن» لم يجد منذ غوته قارئاً مهتماً -لكن من الضروري أن ننبه إلى قارئين نموذجيين للكتاب في القرن العشرين هما: كارل شميت في كتابه «الأرض والبحر» وبيترهاك، وهو من محبي غوته ومؤيدي بونابرت. ويمكن أن تنضاف أطروحة روتغر شيفر في ماربوغ 1972 إلى هذه القائمة. وقد ذكر شنور بوخ هولتس في «الثورة والحرب الأهلية العالمية» الأمر على نحو عابر. مع الشكر لمارتين موزي باخ.

1812 كتب غوته مقطوعات عن الإمبراطورة ماري لويز، التي ستتم عملية اقتباسها من أجل إبراز اقترابها الذي لا يكاد يظهر مع التراكيب في كتاب بوخ هولت. فقد قال غوته عن نابليون:

ما الذي جعل القرون تغدو شاحبة

بحيث لا يستطيع المرء أن يراها في أجمل أضواء الروح

لقد هربت كل الأشياء المتناهية في الصغر

ولم يعد ثمة وزن لغير البحر والأرض

وقد كان البحر هو الرابح في المقام الأول

حيث تنكسّر على شاطئه الأمواج الفخورة كلّها

فمن خلال النهاية الواضحة وقوة الهيجان

يخترق البلد القوي ويسلب حقوقها كلّها.

لقد تصدّر غوته فايمار الصغيرة، في ضوء وظيفته، لكونه كان شاعر البلاط ومديراً للمسرح. وكانت «المسرحية التمهيدية في افتتاح المسرح الفايماري» التي عرضت بتاريخ التاسع عشر من أيلول عام 1807، تذكّر بمقاطع الزمن القريبة، وكارثة المعركة وغياب الحاكم وموت والدة الهرتسوغ أنا آماليا في نيسان.

ومن خلال أبيات شعرية مملوءة بالفخامة –كانت كريستيانة تستشعر أنّ غوته يتوجه بها إليها– حيث وصف غوته هذا المشهد[1] بـأنّه «مخلص ومملوء بالحيوية»، يعرض غوته لشقاء الناس:

آه. أيتّها السعادة البهيّة التعبير والتي لا تكفي أبداً

يا أيتها المظلّة الواقية ويا عش الفرح الذي يحميني

أيها اللوح الدائري! وأيتّها الدائرة الطفولية الجميلة

التي تفتّش عن الانتماء، خائفة من فقدان الأبوين

(1) Grumach VI, S. 352.

هناك ترتفع ألسنة اللهب، وتسبح المحاصيل في عذاب الاحتراق
وترتفع النار إلى عنان السماء، وتصل إلى مالكي البيوت المخلصين
تتأرجح البيوت تحت اللهيب وتنحني ثم تنهض وتنخفض
بعدها تتساقط والجمر يتوهج والدخان المملوء بالغبار يتعالى
وفي الأسفل بخار ثقيل ومؤلم وخانق
يصبغ سنوات العمر الكثيرة بالسواد
ويجعل تراب الأضرحة يعلو فوق الأنقاض[1].

أما العلاج، فينبغي أن يجيء من خلال تنامي التوافق البطريركي في المجتمع. فكلمة patriot (وطني) لا علاقة هنا لها بالوطن، بل هي ذات صلة بـ «رب المنزل» pater familie

على هذه الشاكلة يحيي كلّ قطر الأمير
وتحيّه المدن القديمة وميزانية البيت
تحيّي سيدها وأباها مملوءة بالبهجة
عندما يعود كالسادة
من أجل التعمير وإعادة البناء (...)
إنه هو الذي يدير شؤون البيت بامتياز
ويطوّر ذاته ويجعل لنفسه من خلال الاشتراك مع الآخرين
ويجابه الكائنات المبتذلة
إنه وطني، وفضائله تهبّ وتصنع شبيهاتها
وهنا تتبلور نتيجة اللعبة:
الوعي العام، إنه جزء من تكويننا
وقد زرع، بقوّة، في أمزجتنا
وليس ثمة من طريق قادر على أن يوصل هذه البرجوازيّة الوطنية

(1) MA 9. S. 235 ff. V. 37 ff., 140 ff. 195 ff.

إلى المواطن القومي المسيّس الملتزم عسكرياً بالجنديّة النظامية التي بدأت الأصوات الإصلاحية البروسيّة آنذاك تنادي بها. فقد ظل موقف غوته موالياً لسلطة الأمراء.

كانت ساعة العالم التي دقّت آنذاك، قد أتاحت الفرصة للتعرّف إلى لون من الشعر نشأ آنذاك وهو شعر يتميّز بالتحرّر والابتعاد عن المباشرة، وله خلفية صعبة يصعب فك رموزها: وتعد قصيدة «باندورا» المهرجانية الأليجورية الطابع واحدة من أكثر قصائد غوته صعوبة على الإطلاق. وقد جرى البحث فيها، دون جدوى، عن إشارات مباشرة إلى الإمبراطور الفرنسي وسياسته، وكان ذلك لوناً من التفكير الرغبي، أما بخصوص المقارنة مع بروميثيوس، فلم يكن وقت تلك المقارنة عام 1807، قد بدأ بعد. فالعلاقة المباشرة تكمن في أغنية لبروميثيوس الذي يؤدّي الخدمة العسكرية والذي استطاع السياق النابوليوني المتمثل في الحرب والنهب أن يقوده إلى الشكل الأكثر اختصاراً وقوة:

هكذا يمضي جريئاً
لمواجهة العالم
فما نُشير إليه
يغدو مِلْكاً لنا
وإذا أراد ذلك إنسان ما
صار محرّماً علينا
وإذا ما امتلك امرؤ شيئاً
استهلكه وأتى عليه
وإذا كان لدى امرؤ ما يكفي
وأراد أن يمتلك المزيد
فإنّ القافلة المتوحشة

تجعل ما لديه قاعاً صفصفاً
عندها يتدلى أحدهم من الأعلى
ويقوم بحرق المنزل
فيقوم الآخر بجمع ما يستطيع
ويولّي الأدبار.

لكن المرجعية الزمنية لا تكمن في مثل هذه الحوادث القابلة للتكرار. فقد انفصل عالم بروميثوس المقاتل والمبدع عن أخيه إبيميتوس العاقل والحالم، فالفائدة، والقتال والعنف والقانون و«إرادة الأب» تقف في جانب فـ«النار الحقيقية للرجل الحقّ هي الفعل». أما التأمّل والحلم والفن فهي للآخرين. وطالما أنّ باندورا، المانحة المفقودة، لكلّ هذه العطايا المتقلّبة ومزدوجة الدلالة لن تعود –في هذه اللحظة ينبغي للجزء الثاني غير المكتوب من مهرجان غوته أن يسير قُدماً– فسيظلّ العالم السياسيّ –الحربي الذي يسيطر عليه بروميثيوس، غير قابل للتسامي دنيويّاً.

إنّ باندورا هي البطولة المهداة لنابليون والتي ما كان لإهدائها أن يُكتب أو يُمزق، لأن فعلتها كانت عنيفة وغير مثالية. فتحت دقّات التشكيل البروميثي تتولّد أسلحة وتيجان وشارات لمدن الاحتكار العنيف، من غير حقوق أو سلام قابل للتفكير به. فالحريّة، وهي الوعد السياسي للثورة، التي لم يؤمن غوته قطّ بها، لا مجال للبحث عنها؛ لأنّ الحريّة تتجلّى في التوق الكامل، وفي المحبّة، وفي فضاء الفنّان وفي الأنواع المتفرّدة الخاصة بتكوين باندورا الذي يبدو للجميع غير قابل للّمس ويتلاشى بعيداً. إنّ العودة والتسامح الممكن يبقيان موجودين في أفق النّص. فنابليون وسياسته يمكن أن يكونا لغوته حالة تجريبيّة لأليجورية الثقافة التي تتميّز بـ«العمومية» (وهو تعبير غوته عن الشخصية الشعرية لـ «باندورا») والسكونيّة لأن مساراتها لا توصل إلى فلسفة التاريخ،

لكنها تقود بصمت إلى السياسة المشخّصة.

لكنّ تبادل الآراء على المستوى السياسي لم يكن يبعث إلاّ على القليل من الفرح في نفس غوته. بشكل عام، قياساً بالحوارات الفردية التعليمية مع المحترفين من أصحاب الاطلاع على ما يجري كالأمير رويس وغينتس أو راينهارد. وهكذا بقيت العلاقة بين الشعر والسياسة متقطّعة. من هنا بدأ غوته اهتمامه بشخصية الإمبراطور المشخّصة قبل لقاء نابليون بزمن طويل، وهذا هو ما تؤكده إشارات سريعة في يومياته ورسائله، مثلما يظهر، في المقام الأول، في ملاحظات المقرّبين المساعدين في الدوائر المقرّبة منه، التي تشكل شواهد بالغة الصدق؛ فعندما يتحدث غوته مع ريمر، فهو في الواقع يكاد يتحدث إلى نفسه، فقد كانت العلاقة تقوم على الثقة المطلقة في تلك الأيام. وتشكل الرسالة التي كتبها غوته إلى كنيبل في الثالث من كانون الثاني 1807 مثالاً يعكس وجهة النظر هذه:

«عندما يشاهد المرء مستشار الدولة موللر، القادم من برلين وهو يحمل معه وثيقة السلام، فإنّ المرء يفهم تماماً كيف استطاع هؤلاء أن يغلبوا العالم وكيف سيغلبونه. فعندما يتوقع المرء حدوث شيء في العالم، فهذا يعني أنه يتوجّب عليه أن يرى، أنّ الظاهرة بالغة الأهمية التي كانت ممكنة في التاريخ، والتي تقف على قمة تلك الظاهرة، توجب ظهور هذه الأمة بالغة التحضّر. ويمكن للمرء أن ينكر ذلك ما وسعه الإنكار ويحرم، على نفسه بذلك، النظرة الفردية الخاصة، بصرف النظر عن كيفية تكوّنها. فعندما يستمع المرء إلى الوصف الساذج للإمبراطور وصحبه، يرى المرء أن مثل ذلك لم يحدث قط، ولعله لن يحدث أبداً»[1].

(1) WA IV 19. S. 257 f.

إنّ الأمر يتجاوز المسألة السياسية هنا، فقد أصبح نابليون، عند غوته، ممثّلاً للعظمة المطلقة التي سار يراقبها بسذاجة أخلاقية تامة(1). فقد سجّل غوته في يومياته نوادر بهذه الخصوص، كما في الثاني عشر من شباط والرابع والعشرين من حزيران سنة 1807، ولنأخذ بعض الجمل التي دونها في الخامس من حزيران من عام 1807:

«كان أحد الألمان يعزّي نفسه جرّاء رجحان كفّة نابليون، بأنّ هذا العبقري ليس خالداً». وهذه الملاحظة قريبة من ملاحظة ريمر في الثامن من آب عام 1807:

«ثمّة طريقتان يمكن لمجموع المعارضة ضد نابليون أن تسلكها وتعبّر من خلالها عن موقفها وهي (ما بعد المناقشات من أجل مزيد من المعرفة) أو الوسواس». وكان غوته قد راهن في مواجهة الاحتمال الثاني في رسالة بعث بها قبل ذلك بأسبوعين بتاريخ السابع والعشرين من شهر تموز إلى تسلتر فقال:

«عندما يشتكي إنسان جرّاء ما يعانيه من محيطه وما فقده، وخوفاً لّما سيفقده، فإنني أصغي إلى ذلك بتعاطف، وأواسي بصدق. أما عندما يتحدّث الناس عن شقائهم الكليّ ويضجون بالحديث عن خسارتهم لدرجة يرون أنّ المرء لم يعد قادراً على معرفة حياته اليومية، أو ما دون ذلك، عندها يتوجّب عليّ أن أخفي عدم قدرتي على الصبر حتى لا أبدو فظاً أو أنانياً». وقد عاش المؤرخ الوطني الشاب لودن لحظة شبيهة بهذا الصمت البارد، وهو الذي حفظ الشعر الموجود في مقدمة المسرحية الافتتاحية، عن ظهر قلب، والذي وجدته كريستيانه حيوياً، والذي كان عليه أن يرتجف أمام هذا الخبر الذي نقله ريمر:

---

(1) لن تجري الإشارة إلى هذه الاقتباسات بالتتابع، لأنها موزعة طبقاً للتواريخ في مجموعة المصادر الخاصة بغروماخ وباليدميات.

«ليس لدى الفرنسيين خيال، ولو كانوا يمتلكون شيئاً منه لكان عليهم أن يقوموا بإحراق البيوت العشرين في يينا وفايمار، إذا لم تكن قد احترقت مصادفة. بل إنّه كان عليهم أن يشعلوا المدينة من جميع زواياها، ويحرقوها بجذورها وفروعها، وكان سيكون لذلك صدى مختلف في العالم» (1807/5/16) وهنا يكون في وسعنا أن نؤكد ما يقوله آدلاتن؛ لأن يوميات غوته بتاريخ السادس والعشرين من أيار، أي بعد التاريخ المشار إليه بقليل، تؤكد فكرة شبيهة:

«البيان الفرنسي الخاص بالنهب تمّ بموجب القانون الإمبراطوري العام ومن خلال النظرة العامة التي تعلن عن نفسها مع وفي ومن خلال الوسط المحيط». بمعنى أنّ المدينة تحترق وترزح تحت الآلام لأن ذلك يلاقي رغبات صيحة منادي الإمبراطور! وعلى هذه الشاكلة يبدو الجيش الفرنسي بوصفه «كائناً بشرياً لا يعرف الإرهاق أو التعب أو الخجل. أما مجموع هذا الجيش فهو عملاق ضخم قد يفقد إصبعاً هنا أو يداً أو ساقاً هناك ... إلخ، فهو مثل فيررابراسFierrabras قد يُستبدل، لكنّه لن يفقد رأسه أبداً». (ريمر: 1: 10: 1807)، ثم: لقد بحث نابليون عن الفضائل، وعندما لم يعثر عليها، حصل على القوة» (ريمر 1807/5/27). وكان قد سبق لهونش أن صرّح بالفكرة ذاتها قبل عشرة أيام:

«نظراً لأنّ العالم يشكو من الأنانية السائدة في هذه الأيام، فقد أتى نابليون من أجل أن يجعل العالم غير أناني»، ومثلما كانت تصريحات غوته بخصوص إضفاء الطابع الأخلاقي على السياسة تتميّز بالثبات، فإنّ التصريح الذي صدر في الأول من حزيران عام 1808 والبعيد تماماً في مضمونه عن أقوال غوته، يرويه ريمر: «الموائد السياسية تبيّن أن نابليون انتهى من إسبانيا، وأنه سبق له أن انتهى من روسيا وبولندا من قبل. لكنّني أظّن أن ناقديه سيؤبنونه بوصفه مقلّداً سعيداً». لقد جادل

غوته بخصوص الرَغمين السابقين كليهما: فلن ينتهي غوته من إسبانيا، أما بخصوص روسيا ومعها بولندا التي ضمها إليه، فهو لا يستطيع أن يفعل ذلك باسم الحرية والتنوير». لكن غوته كان قد شكل رأيه القائل إن «الناس الاستثنائيين مثل نابليون، يخرجون عن المقياس الأخلاقي». إنّ تأثيراتهم تشبه العوامل الطبيعية، كالنار والماء، فكل من يخرج عن الطاعة -لأن ذلك يبدو له أخلاقياً- هو غير أخلاقي في واقع الأمر» (ريمر شباط 1807).

لقد قرأ غوته في رحلته إلى فرانتس باد في الحادي والثلاثين من آب عام 1808 كتاب فيخته «خطابات إلى الأمة الألمانية». وتبين ملاحظات ريمر أنّ غوته كان منشغلاً، بالدرجة الأولى، بنظرية فيخته اللغوية التي تتحدث عن وجود شعب أصلي ألماني Urvolk:

«سيتعلم الناس اللغة بعمق واتساع لأنها من صنعهم. فعندما يحتاج أحدهم كلمة أجنبية. فإنه لا يرى على نحو سليم، حقيقةً، دلالتها. ففي حين يستعمل المرء اللفظة الأجنبية التي يكون لها في اللغة الأصلية معنى محدد وواضح ومباشر، فإنّه يجعل القارئ يقع في الالتباس من خلال غموضه الذاتي»[1]. ومع ذلك ففي وسع القارئ أن يجد في خطابات فيخته الكثير:

ففي تلك الخطابات رفض لمعظم وجهات النظر التي أثارتها الحوارات الألمانية بخصوص الأوضاع الجديدة التي أنشأتها السياسة النابوليونية والتي ظلّت سائدة حتى تلك الحقبة. لذا فإنّ فيخته «ذلك الفيلسوف القابع في برلين الذي كان يتحدث على مسمع الرقابة الفرنسية ويرفض فكرة التوازن الأوروبي، التي تغدو ممكنة، عندما تكون ألمانيا غير موحّدة وتقود أوروبا من خلال تفتتّها إلى عدم الاستقرار -على

(1) Grumach VI. S.524.

العكس من المملكة العالمية طيّبة الذكر. إنّ هذه الجمل تفترض إيقاف نزعة النهب لدى الغازي، كما أن استسلام الاتحاد الألماني الذي هو في أحسن الأحوال بمثابة «سعادة منزلية» يعطيها حاكم أجنبي «طيّب»، قاد فيخته في خاتمة المطاف إلى حتمية تلاشي كل الطموحات الارستقراطية عند شعب، لا يمكن أن يحيا إلّا من خلال خصوصيّته.

وقد رأى فيخته أنّ استمرارية الأدب واللغة الذاتيين تحت نير الاحتلال الأجنبي مسألة غير مؤكدّة. وكان يتوجب على غوته إن كان قد وصل إلى الخطاب الثاني عشر من خطابات فيخته أن يقرأ:

«إنّ الامتيازات الارستقراطية والوظيفة المقدّسة للكاتب تتميّز في مقدرته على جمع أمتّه، ليتبادل معها المشورة حول المسائل الأكثر أهميّة»، خاصة في ألمانيا الممزّقة التي لم يعد يؤكد وحدتها وتماسكها بعد انتهاء دستور الرايخ سوى اللغة والكتابة. لكنّ وظيفة الأدب هذه غدت بعد اشتراطات الاحتلال الأجنبي واهية، وعندما يتوقف الشعب عن حكم نفسه، فإنه يكون على خطأ عندما يتنازل عن لغته –وهنا يذكرّ فيخته بظلال الحركة تحت السيادة الألمانيّة»[1].

وعندما عاد غوته إلى يينا في الخامس عشر من أيلول كانت هناك «إشاعات عن وصول نابليون». وكان غوته يرجو أن تتكررّ الفرصة ثانية كي يرى عن قرب ذلك الرجل العظيم الذي شغل حياة الناس اليومية، إضافة إلى أفكارهم ومعارفهم مدة سنتين، كي يعرف آفاق المستقبل، الذي كان يحدد عمل غوته مثلما كان يحدد الكثير من أعمال معاصريه اليومية.

وفي هذا السياق ذاته، ينبغي أن يضاف أن فيلاند، صديق غوته، لم يتوقف عن الانشغال بالإمبراطور الفرنسي. لكنّ هذا المراقب حاد

(1) Fichte, Reden an die deutsche Nation (ed. Lauth). 5. 141 und 198-202.

الذكاء لم يستطع أن يكون منسجماً مع نفسه، على النحو المرجّو منه، فإذا كان نابليون سيغدو «في المقام الذي بلغه القادة العظام على مستوى المجد، على امتداد القرون، وهو أمر سيكون فخراً لكلّ الشعوب السعيدة الراغبة في حياة يسودها السلام». كما توقع فيلاند في رسالة له في التاسع والعشرين من آب عام 1807، فإنه في الأول من تموز عام 1808(1)، أيّ بعد عام صار يخشى «أنّ سبب عدم تحقيق السلام يرجع إلى كون الشخص الوحيد الذي توجد مقاليد الأمر بيده، لا يُريد للسلام أن يتحقق على هذه الأرض». بمعنى أنّ افتتانه بنابليون لم يتراجع كثيراً. وفي الرسالة ذاتها يُخبر فيلاند صديقه بوتيجر عن قراءآته التي استطاع من خلالها أن ينهي الجزء الأول من فاوست-غوته، يسطو على فكرة سبق لفريدريش شليجل أن عبّر عنها، عندما رأى أنّ «فيلهلم مايستر»، التي صدرت قبل فاوست بعشر سنوات، تمثل جزءاً رئيساً من اتجاهات العصر الحالي- إلى جانب الثورة الفرنسية، وتعاليم فيخته، وأنها ترسم ما وصل إليه المراقب المعاصر من هرم وحذر في أحكامه وهو يُعبّر عن مبادئ العصر:

«إنني أعترف، بأنني في انتظار الجزء الثاني من هذا العمل، على أحرّ من الجمر، فهو يشكّل تراجيديا متفرّدة من نوعها، تسمح للمرء أن يقول بحق، أكثر مما هي الحال بخصوص فيلهلم مايستر، إن هذا الاتجاه: لا يؤدي إلى تلاشي القرون فحسب، بل كل ما سبق له أن انقضى بين أسيخليوس وأريستوفان ومنّا نحن. أليس بوسع المرء أن يتساءل بالحق نفسه: هل يمثّل غوته في عالم الشعر ما يمثّله نابليون في عالم السياسة؟ ألا يستطيع كلاهما أن يفعل ما يريد؟». ألا يريد كل منهما تحقيق المستحيل وما هو على غير مثال ويستطيعان مع ذلك أن يتعاملا مع هذا ويقوداه

(1) Wielands Briefwechsel, Band 17.1, S. 243 f. und S. 374 f.

إلى حيث يريدان، وهو في الوقت نفسه الأكثر طبيعية؟».

لقد كتب فيلاند ذلك في لحظة، عندما لم يكن أحد في فايمار قد فكّر على الإطلاق، بأن إمبراطور فرنسا العظيم يستطيع، إذا أردنا أن نستخدم كلمات المستشار السّري فويغت الكلاسيكية–الوردية أن يتمكّن من «أن يقود عربة النصر هاهنا»[1].

(1) Geiget; Alt-Weimar, S. 123.

[illegible] رجلان
اللقاءات في إيرفورت وفايمار

كانت فترات السلام قليلة في السنوات الخمس عشرة التي استطاع نابليون أن يهدم فيها القارة الأوروبية وأن يعيد بناءها. وكانت ثمّة حرب في مكان ما من تلك القارة. وعلى الفور انصب اهتمام نابليون، بعد هزيمته لبروسيا، على وسط أوروبا، لدرجة أنّ أحداً لم يعد قادراً على الشعور بالأمان في الفضاء الواسع الذي يمتد بين الأطلسي وفايكسل Weichsel[1].

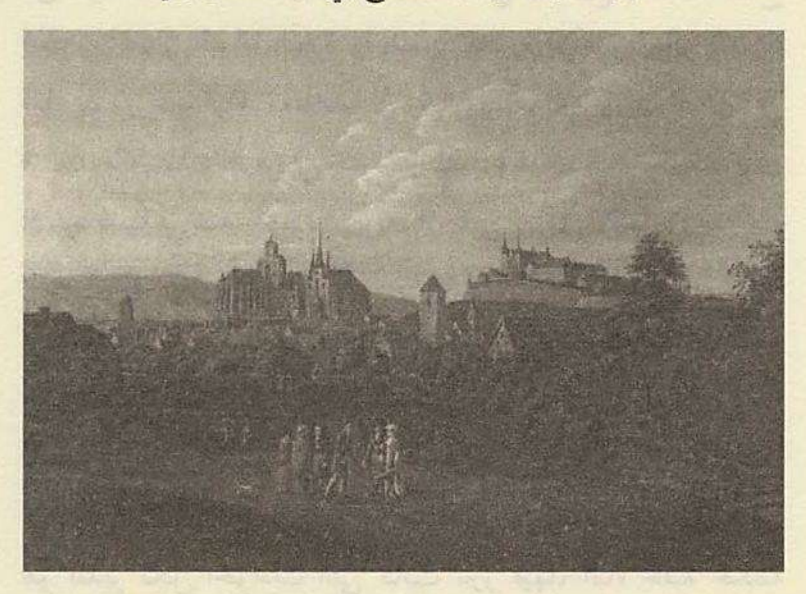
وقد تمكن نابليون في مطلع عام 1808 إثر مكيدة قبيحة داخل القصر من الإطاحة بالعائلة الإسبانية المالكة، كي يستطيع إغلاق الجناح الجنوبي الغربّي لبوابّة القّارة وليضمن محاصرة الإنجليز، وإن كان ما فعله يصدر عن كراهية متأصلة لأسرة البوربون التي ورث عرشها في فرنسا، وثلّ ذلك العرش في جنوب إيطاليا. وها هو اليوم يكره أن يرى الأسرة ذاتها في شبه الجزيرة الإيبرية، فاختفى العاهل الإسباني ومعه نجله المنهار لسنوات في السجون الفرنسية ولم نعرف شكليهما إلا من خلال رسومات غويا. وكان للأمير تاليران دورغير مشرّف، عندما لعب دور السّجان في أملاكه في مقاطعة فالنشي لوريث عرش أكثر البيوتات الملكية في أوروبا قِدَماً.

وقد كان الإمبراطور، بعد مرور ستة أشهر على هذه الوقائع الصادمة، هو المدبّر لكل الحوادث التي كانت تبرز فيها، أثناء حقبة حكمه العاصفة، أيّ فرصةٌ يجري فيها على نحو تفصيلي مناقشة إمكانية قيام مملكة عالمية على امتداد القارة الأوروبية باستثناء فرنسا. جرى ذلك في

(1) هو الاسم الجرماني لنهر الفيستولا، أطول أنهار بولندا: (المترجم).

إيرفورت الواقعة على بعد خطوات من فايمار، ولعب يوهان فولفجانج فون غوته دوراً غير هامشي.

كان مؤتمر الأمراء الذي دعا نابليون إلى انعقاده في مدينة تورينغن القديمة في 1808/10/14 مثالاً على الذروة التي وصل إليها التناقض، فقد كانت فترة الأسبوعين ونصف الأسبوع تشكل على المستوى الظاهري ذروة ما وصلت إليه الحقبة النابوليونية من تألق، فلم يسبق لقوّة الإمبراطور أن سطعت على هذه الشاكلة. أما على المستوى الباطني، أي على الصعيد الديبلوماسي، وفوق الطاولات، حيث بقيت السكرتاريا تعمل حتى ساعات الصباح الباكر، وفي أرجاء الصالونات التي ظلّ المديرون يلتقون فيها سرّاً ولكن عن طيب خاطر، ليشربوا شاي المساء، فقد ظهرت أولى بوادر التّصدع في البناء النابوليوني.



إيرفورت من جهة الشمال حوالي 1810

وهنا يتوجب علينا أن نعلن عن إعجابنا مجدداً بالنظرة السياسية الثاقبة لفيلاند الذي أدرك، على الفور، الطبيعة المزدوجة الغامضة لمؤتمر الأمراء المنعقد في إيرفورت، على الرغم من أنه لم يكن يمتلك معلومات تفصيلية بهذا الخصوص. وقد كتب قبيل نهاية المؤتمر في 1808/10/23 إلى إحدى صديقاته:

«إننا نعرف، بطبيعة الحال، ما يعرفه الناس في أرجاء المعمورة والذي يملأ صفحات الجرائد والمطبوعات، وهو أنّ مدينة إيرفورت غدتْ منذ بداية الشهر المنصرم مسرحاً لمعطيات استثنائية لهذه الحقبة العجيبة –فقد صارت ملتقى لاثنين من الأباطرة وأربعة من الملوك ولثمانية من الهرتسوغات الحاليين والسابقين، ولعدد لا يحصى من أصحاب النفوذ والكبراء الألمان والروس والفرنسيين، ليقوموا بوضع نهاية لكّل صراع يجري (...) أو هذا ما ينبغي أن يحدث في الواقع، (مع أنه لا يدري أحد في الواقع ما عدا الشخصيتين الرئيستين –ولا أستثني من ذلك الملك نفسه– ما جلّية الأمر، وما الهدف من عقد مثل هذا اللقاء الرفيع والمتميّز؟»[1].

كان الشخصان الرئيسان هما: نابليون والقيصر الروسي الأكسندر الأول، أي قيصرا الشرق والغرب. وكانت الشخصيات المتألقة والباهرة على المستوى الظاهري في مؤتمر الأمراء هم: نابليون الذي كان يسعى لخطب ود القيصر الروسي وتاليران الأعرج، أمير بنيفيت وكبير موظفي البلاط الإمبراطوري الذي تولى الإشراف سراً على كل شيء كي يظهر ميثاق الشرف الشرقي–الغربي إلى حيّز الوجود. ومع ذلك فإنّ الذين كانوا يمثلون العبء الزائد ظاهرياً، لم يكونوا كذلك على الإطلاق وهم: الملوك الألمان الأربعة، من زاكسن وبافاريا وفورتمبرع وفيستفالن

(1) Wielands Briefwechsel 17.1. S.466 f.

وأمير دالبيرغ الرئيس وهرتسوغ هيسن وهرتسوغات كلّ من: غوتا وفايمار وأمير بروسيا فيلهلم والبارون فينسنت، مبعوث قيصر النمسا. وكذا الحال في ما يخص ماريشالات نابليون الاثني عشر بألقابهم الهرتسوغية الجديدة. وبجنودهم الذين بلغ عددهم 57 ألفاً والذين تمّ اختيارهم بناء على الضخامة والوسامة. كما لم يكن نجوم فرقة المسرح الفرنسي الثلاثون، الذين كان الممثل الشهير تالما على رأسهم. وهو الممثل المفضل لدى نابليون، يمثلون عبئاً زائداً، فليلةً إثر ليلة كان يجري إحضار الديكورات الباهظة الثمن من باريس عن طريق قوافل السيارات. ومن باريس أيضاً جرى إحضار السجاد والشمعدانات والفضّة والبورسلان والمرايا والحليّ التي أحاطت بالإمبراطور الفرنسي، في حين جرى إحضار بقية الأثاث المصقول من محال بيع الأثاث في غوتا، على جناح السرعة. ففي إيرفورت التي كان يبلغ عدد سكانها 16 ألف نسمة —وهي ضعف عدد سكان فايمار التقى بريق عواصم العالم.

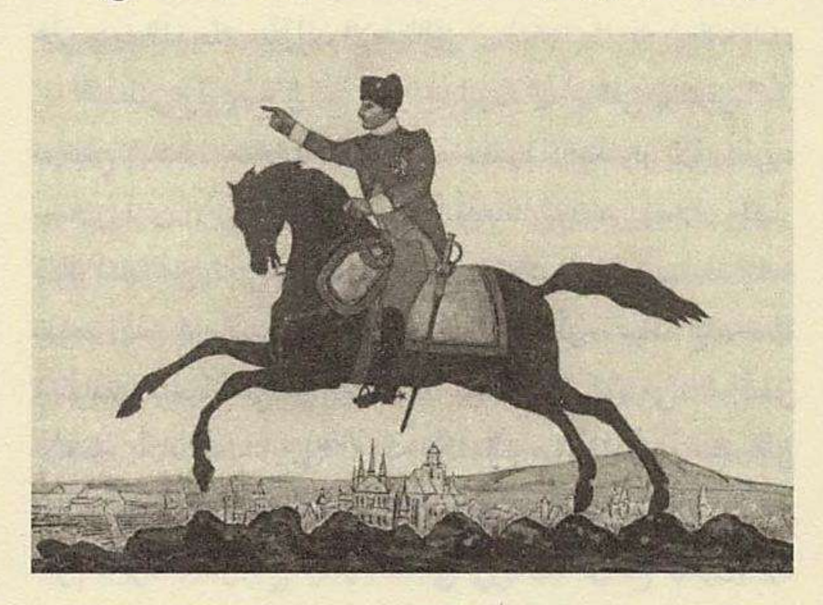
وقد كتبت كارولين سارتوريوس، التي كانت زوجة للمؤرخ جورج سارتوريوس الذي ينتمي إلى مدينة غوتنغن، والمرتبط بعلاقة صداقة مع غوته:

«إنّني أظنّ أنّه حتى في مدينة باريس ذاتها يمكن المقارنة بين أجزاء المدينة. فالأقسام التي تقع بالقرب من الساحات تبدو هناك أكثر إشراقاً. أما هنا فالفخامة والأبهة، تبدو ساطعة في شوارع هذه المدينة المتوسطة العدد والتي تنتمي إلى مدن الأقاليم. ولعله ليس من قبيل المبالغة أن يقال إنّ منظر الأزياء البرّاقة والخيول والأشرطة والنجوم، وما تتصف به الملابس والأزياء الرسمية المختلفة من أبّهة، كل ذلك يغشي العيون»[1].

وقد وصفت السيّدة سارتوريوس جموع البيوت الحكومية، حيث

(1) Goethe-Sartorius, S. 63.

يقيم نابليون بأنّها شبيهة بموج البحر، كما أنّ البيوت البرجوازية التي يأوي إليها القيصر والملوك بقيت محاطة بالفضوليين دون انقطاع.



نابليون أمام ظلال مدينة إيرفورت، 1806

كان الإنفاق الباعث على الحيرة محسوباً بدقة، فقد روى تاليران في مذكراته أن نابليون صرّح بأن «رحلتي إلى ألمانيا يجب أن تكون جميلة تماماً». وأضاف: «ينبغي أن تصاب ألمانيا من خلال الأبّهة والبذخ بالدهشة». لكنّ القيصر الروسي كان هو المقصود بذلك كلّه:

«إن على القيصر الروسي أن يُصاب بالعمى جرّاء ما أمتلكه من قوّة، وعندئذ ستجري المفاوضات بيننا بسهولة»[1]. كان ينبغي إذن التغلّب على هذا القيصر الشاب الذي كان في الحادية والثلاثين، ويتميّز بالوسامة والعاطفية من خلال الجمع بين المجاملة والترهيب. أما الألمان فسيتحركون، على رؤوس الأشهاد، ويتجهون حيث تكمن القوّة. إنّ

(1) Talleyrand, Memoiren I, S. 299 f. und 315.

هذا العمل المدبّر هو ثمرة عبادة الشخصية، التي تتجاوز كل مقاييس ثقافة البلاط السابقة تماماً، فقد كتب تاليران: «إنّ ثمة ثلاث شخصيات على وجه البسيطة يحق لهم الاحتفال:

أغسطس ولودفيج الرابع عشر ونابليون. إنّ موقعي بوصفي كبير موظفيّ البلاط، إضافة إلى أنني كنت لحظتها كاتم أسرار الإمبراطور، جعلاني أرى الأشياء من قرب. إنّ ما قُدّم لنابليون من إجلال وإكبار سواء أكان عن يقين أم اضطرار أم كذب تلاشى –ولست أجد كلمة غيرها لهذا الوصف– في عالم الوحشة. فالتملّق وعبادة الشخصيّة والمواقف المنحطّة التي تثير الاشمئزاز، تبودلت أكثر مما ينبغي»[1]. إنّ من الأهمية بمكان أن يشار إلى أنّ هذه الكلمات صدرت عن أرستقراطي فرنسي وليس عن أحد الوطنيين الألمان. فعندما تقود الأمانة تاليران كي تقوم ذاكرته باسترجاع تفصيلات هي في العادة موضع تساؤل، فإن احتفالات نابليون في إيرفورت، التي تجاوزت المعقول، ليست موضع شك في نهاية المطاف. وقد جاءت شهادة الشهود المعاصرين الآخرين قريبة من ذلك.

لقد جرت عملية الترويج لعبادة الإمبراطور عند الرأي العام على نحو منظّم، وهذا ما يتضح من خلال الرقابة على التقارير الصحفية النشطة القادمة من إيرفورت. وهنا ينبغي أن يُشار إلى أنه قد صدر مباشرة بعد مؤتمر الأمراء تقرير مفصّل في مجلدّين صغيرين، يتخذ شكل اليوميات وكان بعنوان:

«إيرفورت في ذروة بهائها في أيلول وتشرين الأوّل 1858» والكتاب يسعى كي يحيط بالوجه الخارجي البرّاق للمؤتمر. أما المؤلف فيُدعى ثيودور فرديناند كايتان أرنولد (1774–1812)، وهو أحد الفقراء

(1) Talleyrand, S.312.

الموهوبين الذين رأوا المشهد، في المقام الأول، من خلال عرض مسرحي مثير، ولم يكتف بمشاهدة الحوادث العامة في هذه الأثناء، بل كان عليه أن يشاهد العروض المسائية المسرحية المرغوبة، بل أنْ يعرف ما يجري وراء كواليس الفرقة المسرحية الفرنسية؛ لأنه أعطى المسرح جزءاً مهمّاً من عرضه، لدرجة يمكن للمرء أن يظن أنّ ثمة هيئة عامة، يصعب الموازنة بينها وبين مقعد مخصص لمشاهد في مسرح إيرفورت.

إنّ أسلوب أرنولد، الذي يقدّم إيرفورت في ذروة ألقها، يظهر ألمانيا على نحو ملحوظ، في حالة إذلال عميق، ويمكن للمرء أن يصفه، كما تحدث عنه تاليران، بأنّه متزّلف بالفعل. فعندما وصل نابليون إلى إيرفورت وحيّته الجموع التي كانت بانتظاره لساعات طويلة. فإنّه وصف ذلك بأن «الجبال القريبة والتلال، والغابات التي تقع على جانبها قد أرجعت صدى ذلك في أصوات عالية ومملوءة بالحياة». وأضاف: «وكأنّ ثمة صوتاً واحداً في الطبيعة يؤكد هذه الصداقة خاصة صوت دقات الساعات ودوّي طلقات المدافع».

أما المظهر الخارجي للإمبراطور، فقد وصفه بقوله:

«نادراً ما يُفصح الوجه عن الجلالة والكرامة والسمّو وعظمة النفس، والحكمة العميقة والرفعة وهذا ما يتجلّى في ملامح المهابة التي تتبدّى عند عاهل هذا العصر العظيم، بل لعله ملك العصور كلّها. وفوق ذلك ثّمة لون من الهدوء المقرون بالبساطة الصادقة التي تزيد من هيبة السمات الأخرى. أما عيناه، بحاجبيهما المعقودين، فإنهما تصلان إلى قرارة النفس. ومن الصعب على البسطاء أن يحتملوا نظرة هذا الرجل ومنظره الذي يهزّ الأعماق»[1].

وقد وضع سكان إيرفورت الرايات واللافتات فوق منازلهم، التي

(1) [Arnold]. Erfurt. 1. Band. S. 43f. und S. 50.

قام أرنولد بتدوينها بجلد:

«لو أنّ ثمة ابناً للآلهة لكان نابليون بالتأكيد».

«إنّ التجارة والتبادل التجاري يقودان البلاد إلى الازدهار، لكنّ نابليون وعقله يجعلان البلاد أكثر ازدهاراً».

ولم تخل بعض هذه الكتابات من السخرية من الاحتلال الفرنسي:

«لأنّه لا مال لدينا، فنحن نُهدي نابليون قلوبنا».

أو كما جاء في بيت الشعر التالي الذي يُبيّن مصير الفرد:

لو أنّ لديّ الحظ الكبير

الذي يجعلني قادراً على رؤية نابليون

لكنتُ حملتُ قَدَري معي عن طيب خاطر:

عماي وتقاعدي

لقد كان لدى سكان إيرفورت الأسباب كلّها ليشعروا بالإذلال، ويجأروا بالشكوى؛ لأنّ أحوالهم سارت على نحو سيئ في تلك السنوات. وقد جمعت خشبة مسرح تلك المدينة الجميلة، في ضوء ما دونه التاريخ الألماني لتلك السنوات، ما يستحق إلقاء نظرة عليه، وهو ما يمكن لنا أن نصنّفه بثقافة عبادة الإمبراطور دون أدنى تردّد.

كانت إيرفورت منذ عام 1664 تابعة لماينز على الصعيد الانتخابي، وكان المطارنة يحكمونها من خلال حاكمها، وقد انضمت منذ بداية القرن الثامن عشر مجموعة من البيوت البرجوازية القديمة التي استطاعت أن تلتحم مع القصر الباروكي من خلال واجهات هندسية متناظرة ذات طابع ثقيل وهو ما سمّي بالمباني الحكومية. وقد شهدت ماينز في الحقبة الأخيرة من سيادتها حكم المطران كارل ثيودور فون دالبيرغ (1744–1817)، وهو واحد من أمراء الكنيسة المتنورين والمتذوقيّن للفنون، والذي غدا، في ما بعد، أمير ماينز المنتخب، وتبوّأ منصب الرئيس

الأعلى للكنيسة الكاثولوكية في الاتحاد الألماني.

عرفت ماينز في هذه الحقبة حياة ثقافية واجتماعية رائعة، فأسبوعاً بعد أسبوع كانت تلتقي هناك مجموعات من المثقفيّن. ولم يكن غريباً أن يلتقي هناك الرحالون المشهورون وأن يكون اللقاء في منزل دالبيرغ المفتوح وأن يكون فيلاند وهيردر وشيللر وغوته من بين هؤلاء الذين كانوا يجيئون من فايمار القريبة وينامون ببساطة في ما كان يُعرف بـ«بيت الحراسة» الخاص بهرتسوغ فايمار (والذي كان يتولى حراسة الشارع الذاهب إلى إيرفورت).

كان المنزل يقع إلى جوار قصر الحاكم وبقي يعود لهرتسوغ فايمار حتى 1808. وفي حضور دالبيرغ، كانت مآدب العشاء والمناقشات تمتد طيلة الليالي، وكان يجري في قصره إبرام عقود الزواج كما جرى، على سبيل المثال، بين فيلهلم فون هومبولدت وكارولين ابنة البطريرك داخر أودن.

كانت نهاية السيادة الروحية في ألمانيا كلها وفي إيرفورت، بطبيعة الحال، عام 1801 من خلال التسامح المعتدل الذي بدأ يظهر بعد صلح لونيفيل Luneville. فقد وقع الجانب الأيسر من الراين، إثر ذلك الصلح تحت السيطرة الفرنسية، فجرى تطبيق العلمانية في الجزء المتبقي من ألمانيا، الذي كان يقع تحت سيطرة الكنيسة، كلون من التعويض. وبهذه المساومة القطرية الفظيعة –التي نصّ عليها المرسوم الرئيسي للوفد الإمبراطوري عام 1803، كانت بداية النهاية للرايخ القديم. ألحقت إيرفوت عام 1802 ببروسيا، بوصفها تعويضاً عن البلاد الواقعة خلف الراين. ولم يكن لدى البروسيين غير فرصة أربع سنوات ليقوموا بتقديم صيغ قانونية قابلة للتطبيق السريع، إضافة إلى النظام المتغطرس للخدمة العسكرية الذي لا يحظى بالشعبية. وقد استولى الفرنسيون في عام

1806، بعد معركة يينا وأويرشتيت على أراضي إيرفورت، أما في آب عام 1807، فقد جرى ما يعرف بـ«الفضاء الخاص بالإمبراطور» وقد ترتب على هذا الإعلان فرض ضرائب إضافية على مجموع المناطق الخاضعة لسيطرة نابليون المباشرة وجرت عملية إدارتها مباشرة من باريس، وكان رَيْعها يذهب إلى الدخل الشخصي المخصص للإمبراطور.

كانت إيرفورت مهمّة على المستوى الاستراتيجي، فقد كانت فيها قلعة حصينة يمكن من خلالها مراقبة هرتسوغية تورينغن وتهديد بروسيا بالتالي، لهذا كانت آمال هرتسوغية فايمار منذ 1807 في ضمّ إيرفورت لها من خلال اتحاد الراين، ضرباً من الوهم. كما أنهم لم يتمكنوا من تحقيق ذلك بعد انتهاء الحقبة الفرنسية؛ لأنه كان من البدهي أن يقوم البروسيون بضمها إلى ملكيتهم. أما بالنسبة لنابليون، فإنّ إيرفورت وفايمار تنتميان منذ عام 1807 إلى المناطق المحتلّة مع كلّ من أدور وشتيتن وكوسترين وغلوغاو وكلها، لاسيما بروسيا المهزومة، تشكل حزاماً حصيناً لألمانيا. لهذا ينبغي أن تبقى كلها في قبضته، وأن يتم من خلالها ممارسة التهديدات الفاعلة تجاه النمّسا.

إنّ مِلْكيّة نابليون الشخصية لإيرفورت كانت السبب الديبلوماسي وراء اختيارها لتكون مكاناً للقاء نابليون بالقيصر الروسي. ففي إيرفورت كان في وسع نابليون، أن يستقبل القيصر بحفاوة دونِ أن يضطره للقدوم إلى باريس. إضافة إلى أنّ إيرفورت تقع بجوار فايمار التي كان وليّ عهد هرتسوغها متزوجاً من شقيقة القيصر. لذا كان اللقاء هناك يوفّر إمكانية زيارة الجوار ويحقق التوازن من خلال ردّ الزيارة للإمبراطورين في فايمار أثناء انعقاد المؤتمر.

أما بالنسبة لأهل إيرفورت، فإنّ سيطرة الإمبراطور لم تقتصر على

الضرائب الباهظة التي كانت ترسل إلى باريس، حيث تم دفع مبلغ 410357 من التالارات بين عامي 1809 و1813، بل كان يضاف إليها أعباء عسكرية ثقيلة، فالتجوال والسكن والغذاء وإيصال الطعام وخدمات المستشفيات كانت تنوء بكاهلها على المجتمع المدني، لدرجة أنّ مجموع الَديْن تضاعف في الحقبة النابليونية ليرتفع من 4,1 مليون من التالارات إلى 7,36 مليون. وقد كان على إيرفورت أن تدفع أثناء الاحتلال الفرنسي أحد عشر مليوناً، بما في ذلك نفقات الغذاء التي كانت تمولها من خزينة المدينة، كما كان عليها أن تقوم بإنشاء مراكز لرعاية الجرحى، وأن تدفع للعاملين في البريد وفي خدمات الطرق الخاصة بتزويد الفرق العسكرية بالغذاء والأحذية والمعاطف. وكان ذلك كلّه مفيداً من خلال حرّية التجارة لأصحاب الحرف وصغار المُلّاك، وكان لوناً من توزيع الثروة من الأعلى إلى الأسفل، أما على المدى الطويل فإنّ المديونية الضخمة أثقلت إيرفورت، وألمانيا كلها بطبيعة الحال، مدّة عقد من الزمن؛ لهذا ظلّت إيرفورت تسّدد ديونها التي خلفها الاحتلال النابليوني حتى عام 1878.

وقد كان من البدهي أن تقوم إيرفورت بتغطية معظم نفقات الأبهة التي صرفت على مؤتمر الأمراء، مثل أقواس النصر الكبرى التي نصبّت احتفالاً بمقدم الإمبراطور. وقد جرى تكسير هذه الأقواس من خلال إيماءة تدّل على تحفظ الإمبراطور على وجودها، حتى لا تكون الأقواس دافعاً لإثارة انفعال القيصر. لدرجة أنّ ذلك الذليل أرنولد الذي لم يكن يتحدث إلا عن الألق والمسيرات والمسرح، لم يستطع في التقرير الذي أعدّه عن المؤتمر أن يقتبس العريضة التي تقدم بها إلى الإمبراطور وفد من مواطني إيرفورت في التاسع والعشرين من أيلول.



مبنى الحكومة في إيرفورت (مبنى ماينز الحكومي)

لا تتصل الشكوى المذكورة في العريضة بالأعباء المالية الثقيلة عموماً، بقدر ما تكشف عن الظلم السائد آنذاك: فلم يتم دفع الفوائد المتعلّقة بالسندات الحكومية منذ ثمانية عشر شهراً، كما لم تصرف رواتب التقاعد منذ ثمانية أشهر. «إنّ استنزاف الخانعين قد وصل إلى ذروته». وقد اختتمت العريضة الحديثة بالقول «إنّ الأجيال في هذه البلدة الصغيرة ستتلاشى لعقود عديدة قادمة؛ لأنّ مجموع الدخل القومي للبلدة لا يزيد على 32 ألف فرانك، وكان عليها أن تدفع خلال السنوات الاثنتين والعشرين الماضية مبلغاً ضخماً من المال يبلغ خمسة ملايين ونصف مليون من الفرنكات»[1]. وقد وعد الإمبراطور بمساعدة الحالات السيئة بين المتقاعدين، لكنّ الرجل لم يف بما وعد، وعلى خلاف ذلك فقد صار تموين الجنود يدار بوساطة المخازن العسكرية.

---

(1) [Arnold]. Erfurt, 1. Band, S. 31.

أجل، لقد بقيت الشكاوى، لهذا رأت الإدارة العسكرية الفرنسية نفسها مضطرة في السنوات التي تلت، لإنشاء مصحوب بجهاز استخباري، تجسّسي واسع الامتداد. وعندما جرى تقديم عريضة أخرى عام 1810 في باريس لم يحدث شيءأيضا، باستثناء ما جرى من اعتقال مقدميْ العريضة بعد عودتهم إلى بلدهم وصدور منع رسمي لـ«التذمر».

أثناء مؤتمر الأمراء، لم يكتف أهل فايمار بالمشاهدة المكثّفة والدهشة المتواصلة، بل كان عليهم أن يقوموا بالخدمة على نحو صحيح.

أقام نابليون في المقر الحكومي، أما هرتسوغ فايمار فقد أقام، كالمعتاد، في بيت الحراسة، أما البقية الذين بلغ مجموعهم الكلّي 54 عاملاً ورجال دولة ممن تم إحصاؤهم إلى جانب الإمبراطور والقيصر والملوك، فكانوا يتوزعون على النحو التالي: 18 من الأمراء والأميرات ممّن يتوّلون الحكم، 6 من وارثي العرش، 24 من الأمراء والوزراء -كانوا يقيمون في البيوت البرجوازية، أما القيصر فكان يقيم فوق مسطح عشبي عند تاجر يدعى تريبل، غير بعيد عن دار البلدية. وقد كان فريدريش فون موللر، وهو القائم بالأعمال الفايماري، سعيداً لأنه استطا ع أن يتقاسم مع رئيس المحكمة السابقة في بروسيا، غرفة صغيرة للنوم والعمل، مع أنّ وزير الداخلية الفرنسية ماريت كان يقيم في البيت نفسه الذي كان يقيمان فيه.

كانت الإقامة المكلفة بالنسبة لأمراء الاتحاد الألماني في مدينة إيرفورت قاسية. أما من تم نسيانه ولم توجه له الدعوة مثل ملك بافاريا، فقد أصابه الذعر، وسعى عبر كل القنوات الدبلوماسية المتاحة كي يُسمح له بالمشاركة: فقد كان التهديد يتمثل في خسارة المصلحة العامة عبر هذا الغياب. وقد استطاعت بافاريا، على كل حال، أن تبرم اتفاقيات عمل مع رغنس بيرِغ وباي رويت. وقد كان لدى الجميع ما يريدونه وما

يفعلونه. وقد عبّر المؤرخ الفرنسي ألبرت فاندال عن احتقاره الكامل للذروة التي بلغها العداء الألماني الفرنسي المتأصل، عبر واحد من أكثر التقارير الديبلوماسية تفصيلاً في المؤتمر، وقد وصفه فيه الأسراب الطنانة من الأمراء الألمان الصغار، يرافقهم المئات من حاشيتهم، ليتوقف عند عبادة الالمان للقوة[1]. لقد جاء هؤلاء مع وزرائهم وماريشالاتهم وعرباتهم وخدمهم، وكانوا يصنعون بذلك شخصيات تبعث على السخرية. وقد نقلت كارولين ساتوريوس وهي مواطنة من غوتنغن إلى شقيقها انطباعات بلاستيكية عن «حديقة الملوك» التي عرضتها فرقة المسرح الفرنسي:

«تظهر الأم أولاً أمام الحاكم (المقصود هنا هو ملك زاكسن) الذي يبدو في مظهر رديء تماماً وهو يرتدي الزي الأبيض المقوّى/ اللون الرسمي، والرجل ذو شعر قليل وضفائر طويلة، تتحرك ذيول المعطف مع حركتها، على نحو مضحك وكأنه صليب فلسطي. لكنه ينتمي الآن إلى فورتمبرغ. وقد كان على الزيّ الرسمي أن يحتفظ بتوازنه فوق الكرسي الصغير.تأمل : ذلك الجمهور المخزي الذي يثور عندما يرتفع البطن ويطلق ضحكات عالية صاخبة. وكان الملك البافاري يبدو بملامح ألمانيّة أصيلة ولياقة بروسيّة»[2].

ونادراً ما تكون المجاملات هنا مبتكرة، كما حصل مع هرتسوغ غوتا الذي تحدّث نابليون معه على المائدة؛ لأنه رآه لم يتناول طعاماً فقال له: «هل تعيش من تناول الهواء؟»، فردّ عليه الهرتسوغ وهو ينحني نحوه قائلاً: «كلا، بل أعيش على أشعة الشمس»[3].

وقد ذكر تاليران مثل هذه الملاحظات في مذكرّاته، لكنه أتى بها

(1) Vandal, S. 415.

(2) Goethe-Sartorius, S. 64.

(3) Arnold, Erfurt, 2. Band, S. 55.

ببرود وربطها بالقيمة الاسمية للقوة السياسية، وهنا ينبغي أن يضع المرء مجدّداً أمام ناظريه أنّ من يتحدث هنا ليس الأمراء والوطنية الألمانية- الفرنسية المرتبطان بعلاقة عداء: «إنّ البلاط المتألق يمنح الملوك الأقوياء صورة صادقة ومتألقة وأصيلة تكشف عظمتهم، لكنّ البلاط عند صغار الأمراء له وظيفة تتمثل بالتغطية على ضآلتهم. ثم ينتفخ كلّ شيء ويصبح مهّماً وواسع الانتشار، فالاتيكيت والنظام التراتبي والمظهر الخارجي هي هناك كلّ شيء لذا تكون المجاملات في موضعها المناسب، وكلما كانت كاملة، دلّت على صغر الحاكم. فإذا دخل إلى دولة هذا الحاكم أو إلى قصره الصغير طاغية أو فاتح، فإنه يقف أمامه صاغراً، تماماً مثلما كان موظفو البلاط يقفون أمامه أذلّاء صاغرين، وإذا كان المرء في البلاطات الكبرى يقوم بالانحناء، فإنه يرمي نفسه أرضاً في البلاطات الصغيرة ويفعل الأمير ذلك عندما يفقد القوة. إنني لم أشاهد في إيرفورت يومها رجلاً واحداً، أكرّر رجلاً واحداً، يجرؤ على أن يضع يده، دون خوف، على لَبْدَة الأسد»[1].

لم يكن نابليون في إيرفورت يكتفي بالتعبير عن الولاء، كما أنه لم يكن يرفض أن ينتشر الإذلال بقوة. فقد جعل صنائعه من الملوك إضافة إلى هرتسوغة فايمار، ينتظرونه أكثر من ساعة أمام ردهة الاستقبال، وقد تحدثت عن ذلك لشقيقها، بـ«الفرنسية» كما جرت العادة، مع كل علامات الغضب، في العاشر من تشرين الأول:

«ليس لديك فكرة عن الكيفية التي عامل نابليون بها الملوك الذين كانوا في إيرفورت». وفي تلك الأثناء أحب الإمبراطور الهرتسوغة لويز على طريقته، وشجعها على احتساء النبيذ: «اشربي على هذه

(1) Talleyrand, Memoiren I, S. 313.

الشاكلة، أوّد أنْ أسمعك وأنت تهذين»[1]. وقد رأى موفليج Muefflig وهو ضابط كان يعمل يومها في خدمة كارل أوغست في ما يقوم به نابليون، عملاً من أعمال الإذلال المقصود، وبين أنّ نابليون أثناء أحد الاستعراضات العسكرية التي أقامها على شرف القيصر الإكسندر وأخيه الأمير قسطنطين، قد طلب من بعض الجنود أن يتقدّموا إلى الإمام وأن يحكوا عما فعلوه بالروس إبان حملة عام 1807:

«كان الجندي الأول قد قتل بيده عدداً كبيراً من الروس، وأسر الكثيرين منهم، أما الجندي الثاني فقد استولى على الراية، أما الثالث فقد استولى على عدد من المدافع...»، ثم يختتم موفلينج ذكرياته بمشهد يخلو من النُبْل: «إنّ كوْن سلوك نابليون خشناً ومثيراً، أمر لا يتطلّب غير التذكير به، ويكفي أن يقال في تكريم الفرنسيين، إنّ معالم الاستنكار كانت تبدو على الكثير من الوجوه التي كانت تحيط به»[2].



الإكسندر الأوّل ونابليون في إيرفورت، 1808

(1) Bojanowski. Louise. S. 313 und S.316.

(2) Müffling. Aus meinem Leben. S. 24.

كان يجري فهم تعامل نابليون مع القيصر على أنّه لون من استراتيجية تقوم على الاحتواء والإنهاك والبلبلة، فقد كان نابليون يبالغ في الحفاوة به ويحرص في الوقت نفسه على أن يريه ما يمتلكه من قوة هائلة. وفي خضم هذا التجميل المُدبّر بعناية، كان الإمبراطور والقيصر يتحركان بأزياء عسكرية بسيطة ودالّة، دون ضفائر ومن غير تسريحات شعر كالأمراء الألمان المضحكين. وكان ذلك يتم بتنسيق مشترك بين الطرفين. فقد توقف نابليون بين فايمار وإيرفورت وقام باصطحاب الاكسندر، وقد نزل واحد عن الفرس، وغادر آخر العربة وتعانقا خارجها، وتبادلا الأخبار الأسرية ومشيا ما تبقى من مسافة معاً. ويوماً إثر يوم كان نابليون يستقبل بعد تناول طعام الإفطار الماريشالات، والوزراء والأمراء الألمان والأعيان، ضمن وفود تأتي وتغادر معاً، قبل أن يقوم الملك الألماني بتناول طعام الغداء على مائدة القيصر بعد ذلك في قصر الضيافة، ضمن دائرة ضيقّة. بعدها يذهب نابليون إلى المسرح، حيث كان قد عثر على مكان مناسب له في صالة الباليه، وحيثما حل كان الجميع يصافحونه ويعانقونه ويظهرون عاطفتهم نحوه. كان للرجلين تأثير جميل وغضٌ، فقد كان نابليون في التاسعة والثلاثين من عمره، في حين كان الاكسندر في الحادية والثلاثين، وكان مستقبل العالم يبدو كأنه يقع على عاتق الرجلين.

كان العمل، أي النقاشات والمفاوضات تبدأ ليلاً. وقد لعب ثلاثة رجال دوراً دراميأً حاسماً هم: نابليون والاكسندر وتاليران. وهذا يبيّن صعوبة الوضع الذي كان نابليون يعانيه وراء الكواليس الخاصة بهذه الحالة التي غدت بمثابة مسرح عالمي مثير للرعب.

كانت عملية الانقلاب غير الشرعي منذ بداية عام 1808 في إسبانيا تتحمل المسؤولية بالدرجة الأولى؛ لأنها كانت، على الأرجح، بمثابة

الخطأ السياسي الحاسم لنابليون على امتداد مسيرته. فقد جعلت تلك العملية من نابليون شخصية لا يمكن الوثوق بها على الإطلاق، وصار على الملوك في أوروبا أن يخافوا على عروشهم. وبدا أنّ تشخيص غينتس القائل إن السلام مع هذا الرجل غير ممكن، تشخيص سليم. وهو ما بدا عندما غادر القيصر الاكسندر بطرس بيرغ متوجهاً إلى إيرفورت. فقد استحلفته والدته، وهي تتحدث بوضوح عما حدث في إسبانيا، أن لا يذهب للقاء نابليون؛ لأنها تخشى عليه من الاعتقال، إضافة إلى أن إسبانيا، صارت منذ الصيف، مسألة عسكرية مقلقة، فقد اندلعت الحرب الشعبية الأولى في مواجهة الغزاة وفوجئ الفرنسيون بأن الإسبان لم يكترثوا بالتقدم السياسي والثقافي الذي وعدوهم به، كما عانى الجيش الفرنسي من الهزيمة السريعة أمام الجيش الإنجليزي، التي استرعت الانتباه في أوروبا كلها، وفي بروسيا بالدرجة الأولى. فقد أدرك الناس هناك، على خلاف غوته، وشاهدوا ذلك بأعينهم، أنّ المغتصب قابل للهزيمة. وقد أخذت النمسا تتزوّد بالأسلحة سراً، كما تبيّن أنّ هناك نوايا للثورة كما في رسالة صادرة عن الوزير البروسي فرايرفون شتاين كشفت الأجهزة الاستخبارية الفرنسية عنها. لهذا انتصب أمام عيني نابليون، على نحو مفاجئ، شبح الحرب على جبهتين في مكانين بعيدين هما:

سلسلة جبال البرانس، وشرق أوروبا، وكان ذلك هو الدافع الحقيقي وراء لقائه بالقيصر الروسي. فقد كان على القيصر الروسي أن يتخذ موقفاً هجومياً، إذا قرّرت النمسا شنّ حرب جديدة على فرنسا. ولم يقدّم نابليون الكثيرَ بالمقابل للقيصر، سوى فنلندا وجزء من تركيا الأوروبية. كما سبق لنابليون أن أقرّ بذلك في صلح يتلستي عام 1807، في حين كان يتوجّب على روسيّا أن توافق على دخول الهرتسوغية

الكبرى وارسو بوصفها ممثلة لبولندا التي تنهض من جديد، في الاتحاد الألماني. كانت بروسيا قد شطرت شطرين، وجرى احتلالها من خلال الغرامات الحربية الفرنسية ذات الطابع الابتزازي (التي بلغت حوالي مائة مليون فرنك) لكنّ الأمر نفُذّ على نحو غادر، فلم يكن لتلك الغرامات حدّ نهائي، وبالتالي فإن الاحتلال الفرنسي الذي يرتكز على مسألة الديون لم يكن له موعد محدّد. كان الحفاظ على بروسيا كدولة قد تمّ من أجل القيصر، أما في بولندا فإن الفرق الفرنسية كانت قد ضربت جذورها هناك. وكان التكتل النابوليوني قد بدأ ينوء، لذا لم تكن لدى القيصر الروسي أدنى مستويات الاهتمام في إضعاف النمسا، مع أنّ روسيا وأسرة الهابسبورغ سبق لهما أن تنافسا على البلقان. فإذا كان نابليون قد هزم إسبانيا في بادئ الأمر، ويريد أن يهزم النمسا ثانية، فهذا يعني أنه لن تبقى في القارة، في مواجهة فرنسا، سوى روسيا.

حاول نابليون في ظل هذه الأوضاع في صيف عام 1808 أن يخيف النمسا —فبدأ التهديد عن طريق مبعوثه غراف ميترنيخ الذي نقل تلك التهديدات إلى النمسا دون أن يتأثر أو يرف له جبين— مثلما كان نابليون سبق له أن بدأ محاولات ضمّ القيصر إلى جانبه في الخريف في إيرفورت. ونظراً لأن اللحظة كانت تتسم بالحرج على المستوى الديبلوماسي، فإنّ نابليون قد قرر العودة إلى وزير خارجيته السابق تاليران، الذي كان قد استقال من منصبه قبل عام. ونظراً لأن تاليران كان يمتلك موهبة فائقة في إدراك تقلبات السلطة، فقد تبين الأخطار التي وقع نابليون فيها نتيجة لشططه، لكنّ تاليران الذي كان قد عرف القيصر الروسي من خلال المفاوضات التي جرت في تيلستي، اقترب منه سراً وحرّضه على عدم الخضوع لنابليون والاستسلام له، وعدم التورط في إعطائه ضمانات بخصوص النمسا. وهكذا غدت إيرفورت مسرحاً يكشف عن أكثر

الحكايات جرأة ونتائج في التاريخ الديبلوماسي، ويعود نجاح تاليران إلى ما كان يمتاز به، على الأرجح، من انفتاح يتسّم بالجرأة. ففي وقت متأخر مساءً، أي عندما تكون العروض المسرحية قد انتهت والمحادثات بين القيصر والإمبراطور قد وصلت إلى خاتمتها، وبينما يكون موظفو المستشارية يواصلون عملهم بالمحاضر الخاصة بالجلسات، كان تاليران يذهب إلى صالون الأسرة فون ثورن وتاكسز، وهي شقيقة الملكة لويز البروسية.



تاليران بريشة فرانسوا غيرار

وهناك كان يلتقي القيصر الذي كان يتناول كوب شاي بنفسه، ويتصّرف كرجل عادي بسيط. وكانت تجري من ثمّ لقاءات منتظمة يستطيع أيّ مخبر سريّ أن يقوم برصدها، لكن هؤلاء الأشباح السريّن لم يكونوا يدركون مدى الخطورة المفرطة لتلك اللقاءات، ويكتفون بإخبار الإمبراطور عنها. استمع القيصر الروسي من كبير موظفي بلاط

نابليون إلى حقائق مرعبة.

«إنّ الشعب الفرنسي متحضّر، وحاكمه ليس كذلك. أما حاكم روسيا فمتحضر، لكن شعبه ليس على شاكلته، لذا فإنّ على حاكم روسيا أن يتحالف مع الشعب الفرنسي».

أو كقوله:

«إنّ فرنسا هي التي قامت باحتلال الراين والألب والبرانس. وما بقي فقد احتله نابليون، وليست فرنسا بحاجة إلى ذلك»[1].

ولم يكن ذلك سوى الوجه الآخر لحقيقة أخرى سبق لتاليران أن واجه نابليون بها، عندما وصفه الأخير جرّاء ميوعه مسوّدة الاتفاق في إيرفورت لأنها بأنه «سيظل نمساوياً إلى الأبد». فأجاب بقوله: «لحظة من فضلك يا سيدي. إنّ من الصواب أن يُقال، إنني لن كون روسيّا في أي يوم من الأيام. بل سأبقى، على الدوام، فرنسيّاً»[2]. كان الاكسندر معجباً بنصائح تاليران. وقد سمح لنفسه أن يدونها فوق ورقة ملاحظات صغيرة، ليحفظها أخيراً عن ظهر قلب. وكان على نابليون أن يكتشف، على نحو مفاجئ، عناد القيصر، عندما سمع تاليران يصيح:

«إن القيصر عنيد كالبغل، إنّه يدّعي الصّمم ولا يريد أن يفهم». وبهذا يكون الأمر قد وصل إلى ما يُسمّى باللغة الديلوماسية بـ «المشاهد الحيّة»؛ لأنّ نابليون فقد، في تلك اللحظة، سيطرته على نفسه ورمى قبّعته أرضاً وداس عليها بقدميه. ولم يكن تعليق الكسندر يخلو من «النكتة» عندما قال:

«أنت جبّار وأنا عنيد. ولا يمكن لأحد أن يصل معي من خلال ثورة الغضب إلى شيء. دعنا نتحدّث ونتناقش وإلّا فإنني سأغادر»[3].

(1) De Waresquiel. Talleyrand. S. 390.

(2) Talleyrand. Memoiren I. S. 308.

(3) Vandal. S. 434.

لقد عرفنا الكثير من هذه التفصيلات منذ عام 1891 عندما نشرت مذكرات تاليران. وإنْ كان لدى تاليران، خاصة بعد سقوط نابليون، الرغبة الكليّة في أن ينال من الإمبراطور وأن يعلي من دوره بوصفه مبعوثاً خاصاً مهتماً بالمصالح الفرنسية، ومتسماً بالنزاهة والبعد عن الظّرّفية. لكنّ المصادر الفايمرية تؤكد أنّ مذكرات تاليران تنطق بالحقيقة في جوهرها. فقبل صدور هذه المذكرات بوقت طويل، أوضح القائم بالأعمال فريدريش فون موللر، وهو أحد أصدقاء غوته، في ذكرياته عن إيرفورت ما يلي:

«ذات يوم تحدث أحدهم من الجانب الفرنسي معي بصراحة عن الهموم، وعن روح نابليون الوثابة التي لا تهدأ، خاصة مخططاته الفاجرة ضد إسبانيا والبرتغال، وعن أمنيات فرنسا في أن لا يُبدي القيصر الروسي الموافقة والاستعادة للمشاركة»[1]. إن مصدر هذا الخبر ينبغي أن يكون تاليران، الذي كان موللر قد عرفه جيّداً في أثناء المفاوضات التي وقعت في شتاء 1806/1807،إضافة إلى مبلغ الثمانين ألف فرانك سيّئ الصيت الذي أثار حفيظة فولتسوغن وكارل أوغست، لأنّ موللر استولى عليه. بعدها جرى تعيين موللر مسؤولاً عن أمن الدولة وأسرارها على المستوى الأوروبي، وهو ما جعل اتصالاته ببلاط القيصر الروسي مسألة مسّوغة تماماً. وبالنظر إلى هذا السّر، كما يروي موللر، صار من الطبيعي أن يجد طريقه من خلال كارل أوغست وهرتسوغ أولدن بيرغ إلى الاكسندر، ولذا فقد كان من الراجح أن لقاءاته مع تاليران عند الأميرة تيرزة ثورن وتاكسس لم تكن مصادفة على الإطلاق. وقد كان مستشار فايمار هذا، وهو الذي يُعدّ من معاصريه ومن الأجيال اللاحقة، أحد سياسيّ الترضية وأحد دعاة الوحدة الألمانية ممن تدربوا

---

(1) Müller. Erinnerungen aus den Kriegszeiten, S. 136.

على أيدي الفرنسيين و ممن لعبوا دوراً مفيداً في هذه الدسيسة الكبرى. وقد كانت كارولين سارتوريوس تدعوه «السيد البارون دي موليير»[1].

فقد قام موللر –كما روى تاليران بعد ذلك بكثير– بإنقاذ أوروبا من قبضة نابليون. وقد كانت فايمار، –التي كان شاعرها العظيم قد وقع في دائرة السحر النابوليوني– قد شارك سراً في عملية الإنقاذ هذه، فقد كان تاليران قد ترك لدى المراقبين في فايمار انطباعاً مُميّزاً، فقد كان «ضخماً وسميناً، له قدما حصان وساقا دجاجة»، وكان يعاني منذ طفولته الإعاقة في المشي، «كان قد سرّح شعره كالقنفذ، وتبدو جذور شعره ملونة على نحو غريب. هل هو إبليس حيّاً؟ كلا، إنه أمير بنيفيت»[2].



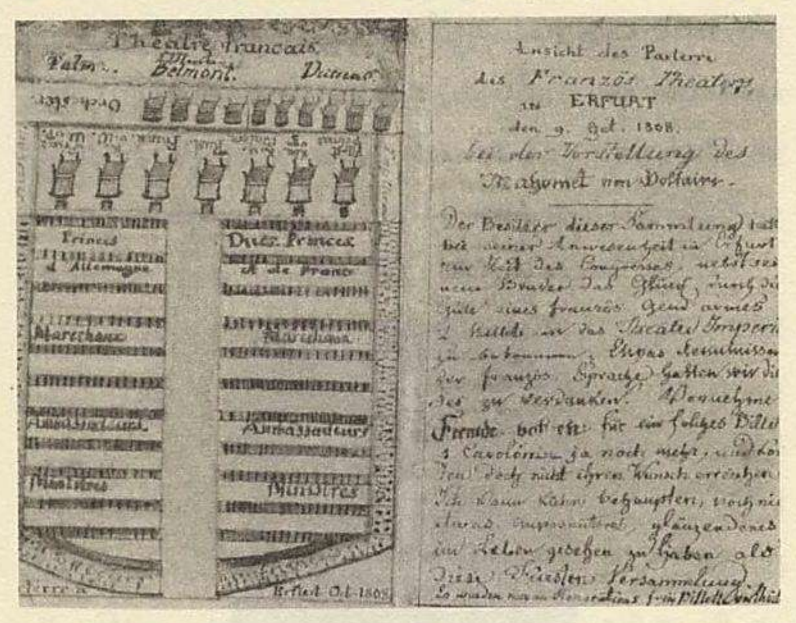
فريدريش فون موللر

وعلى الرغم من عناء القيصر، فإن نابليون حاول بكل طاقته –أثناء النزاع مع ما ينطوي عليه من نفاد صبر متأصل فيه– أنْ يحافظ على أجواء وديّة. فعندما كان القيصر عنده وأثنى على تحفة غالية الثمن، أمر

(1) Goethe-Sartorius. S. 67 f. وقد جرى الخلط هناك أثناء التعليق بينه وبين موللر.

(2) Fleischer. Napoleon. S. 121.

نابليون بأن يصنع مثلها في باريس وأن ترسل على الفور إلى بطرس برغ. وقد شارك الإكسندر في هذه اللعبة، ففي الثالث من تشرين الأول، جرى تمثيل «أوديب» لفولتير، وعندما أنشد الممثل في المشهد الأول بيت الشعر الذي يقول:



نظام الجلوس في المسرح

«إنّ صداقة الرجل الكبير هي هدية الآلهة»[1]. نهض القيصر الروسي عن كرسيّه وصافح نابليون وشدّ على يده. ونظراً لأنّ الرجلين كانا يجلسان في الصف الأمامي فوق منصة مرتفعة –وهو المكان المعتاد الذي يفضل نابليون أن يلتقي فيه بالقيصر الروسي الثقيل السّمع– شاهد المنظر جميع من كانوا في المسرح. ومع أنّ التصفيق أو إطلاق كلمات التشجيع في مثل هذا المسرح الرمزي المكتظّ ممنوع تماماً، إلا أنّ التصفيق

(1) Vielfach bezeugt. Siehe List, Napoleon I. und Erfurt, S. 31.

العفوي ملأ الأرجاء وكان ذلك وبحق، واحداً من النجاحات التي أحرزها نابليون في مؤتمر الأمراء.

ولا يزال التاريخ يتذكّر ذلك المؤتمر، ليس بسبب نتائجه الديبلوماسية الملموسة، بل بسبب ما عرفه المؤتمر من أمسيات مسرحية متميزة. لقد كانت الأبّهة العسكرية والاستعراضات والحيوية وقرع الطبول والأضواء واليافطات موجّهة للجماهير، لكنّ وسيلة نابليون الأكثر تميّزاً وأهميّة على مستوى الاتصال في إيرفورت كانت هي العروض المسرحية. ولم يقتصر نابليون، بوساطة تلك العروض في الوصول إلى «المشاهدين من الملوك»، بل استطاع أن يصل إلى الجمهور العريض من المتعلمين، كما سبق له أن وعد النجم المسرحي الشهير تالما بذلك.

كان عدد المقاعد محدوداً في صالة مسرح إيرفورت،الواقع في شارع فورتر، والذي تم بناؤه على عجل، وكان يجري في زمن دالبيرغ عرض أعمال غوته وشيللر على خشبته. لكنّ المارشال ريموسات والناس المتصليّن به (ومن بين هؤلاء الفايماري «بارون دي موليير»)، كانوا يوزعون البطاقات المجانيّة على الناس المناسبين، ولم يقتصروا على الأرستقراطيين والديبلوماسيين، بل على غيرهم من أمثال كتّاب الصحف والأدباء والعلماء، وكان غوته وفيلاند من بين هؤلاء. وكلما بقي الجدل الديبلوماسي خفيّاً تماماً، ازداد الحديث بالتفصيل والتوسّع في أرجاء العالم عن العروض المسرحية المسائية. فتقرير إيرفورت، الذي وضعه أرنولد يعد نصفه من يوميات المسرح، فقد افتخر بعد ذلك التقرير علانية باتصالاته المختلفة بالممثلين في «البروفات» المسرحية ووراء الكواليس. ولا تزال رسائل الناس ومقالات الصحف التي لا حصر لها تضع المؤرخ حتى اليوم، أمام عذاب الاختيار.

كان كل شيء هنا ذا صلة بالسياسة وهو شان يخُصّ نابليون، الذي

كان قد قرر أن يصطحب فرقة المسرح الفرنسي بكامل تجهيزاتها في هذه الرحلة الشاقة إلى ألمانيا. وكان نابليون قد أشرف بنفسه على الخطة الخاصّة بالعروض المسرحية. وتدّخل حتى في أدق التفصيلات المتعلّقة بالعرض المسرحي وأسلوب الإلقاء. وكان يتخذ القرار الخاص باختيار النص في الصباح، ويتم عرضه مساءً، لهذا فلم يكن لدى الممثلين وقت كاف كي يتواصلوا قبل العروض. لكنّ ما يجعل المهمة سهلة هو أنه كان يشترط أن يحفظ هؤلاء الممثلون كلاسيكيات الأدب الفرنسي عن ظهر قلب. وكان يجري نطق الجملة المفعمة بالدلالات من «أوديب» مصحوبة بالتشديد من على خشبة المسرح، أما التصور الذي يرى أن القيصر الروسي لم يكن مستعداً لهذا كلّه، فإنّه تصور ساذج. لقد جرى تقديم مسرح عالمي كبير هنا، ولم يقتصر التمثيل على ما يُقّدم فوق خشبة المسرح. لقد أراد نابليون أن يقدّم دروساً سياسية للجمهور الألماني وللنظّارة في أرجاء العالم، وهو ما سبق لتاليران ولكل من عملوا في بلاط نابليون أن أكدّوه دون استثناء. فالنصوص الثلاثة عشر المختارة هي كلها نصوص تراجيدية ترجع إلى عصر فرنسا الذهبي بأعمدته الثلاثة:

كورنيل وراسين وفولتير. ولم يكن بين تلك النصوص أوبرا أو تمثيلية غنائية تم تقديمها سواء للحكّام الحاضرين أو للجمهور الألماني العريض. فالأعمال المعروضة تقدّم «الأبطال العظام والأفعال العظيمة التي تبعث على الفخر. وهي، بما تنطوي عليه من شجاعة وفضائل عالية تسمو فوق البشر العاديين»[1].

تكمن في ابتعاد البلاط المبرمج عن القطع الموسيقية الخفيفة لمصلحة تعليم متقدّم استمر لأسبوعين، وتمّ تقديمه بأسلوب راق، لحظة النهاية التقريبية للجدّية البرجوازية الظاهرة بل للتعليم المتفوّق أيضاً. فقد رأى

(1) Talleyrand, Memoiren I, S. 320.

القيصر الروسي نفسه، طيلة هاتين الأسبوعين خاضعاً لتربية مسرحية ديكتاتورية، لا يستطيع الإفلات من مراقبة تفصيلاتها للحظة واحدة.

إنّ التحيّز في اختيار النصوص المسرحية التي كانت مقصورة على كورنيل وراسين، حيث جرى عرض أربع مسرحيات لكلّ منهما، يعكس شخصية نابليون وذوقه الأدبي، وقراءاته التي صرنا نعرفها من خلال الإشارات إلى تصنيف مكتبته المتنقلة خاصة في الحقبة الزمنية التي عقد فيها مؤتمر إيرفورت، فقد كلّف نابليون أمين مكتبته في السابع عشر من تموز 1808 بأنْ يُعّد له مجموعة من آلاف المجلّدات، تتضمن أربعين نصاً دينياً، وأربعين ملحمة شعرية وأربعين مسرحية، إضافة إلى ستة مجلّدات شعرية، ومائة رواية وستين عملاً تاريخياً، وست مائة مجلّد تقع في باب المذكرات التاريخية.

وقد اهتم الإمبراطور صراحة بالأعمال التراجيدية، والملاحم البطولية –كانت «أوسيان» من بينها– إضافة إلى الأعمال التاريخية الكلاسيكية القديمة. فقد كان ثمة ما يشبه القانون في العصر الباروكي يرى أنّ على الإنسان البعيد عن الحرب، أن يديم القراءة في الكتب التي تتحدث عن البطولة، وأن يقرأ، من أجل الاستجمام ،روايات عاطفية بين الحين والآخر. وكان ذلك كلّه يتصل بالإمبراطور نفسه، الذي يرى ذاته في التاريخ وبين أنداده. وهكذا صار بالوسع أن يلحظ المرء في إيرفورت، الكثير مما يلمح إلى شخصية الإمبراطور، أو يشير إلى الممارسة العملية لمشكلات حيّة.

وقد وصف تاليران، بأسلوب يقرب من الهجاء، الكيفية التي كان نابليون ينشد فيها المقطع الشعري الآتي من «سينا» لكورنيل:

إنّ جرائم الدولة التي تنسب إلى التاج

تغفرها السماء إذا تمّت بنجاح

وكلّ من يستطيع أن يفعلها هو بريء على الدوام
ويبقى كلّ ما فعله، لا يرقى إليك الشك.

وبعد ذلك يصيح نابليون:

«رائع! هذا مناسب تماماً للألمان الذين يتهمونّني بقتل هرتسوغ إنجهين Enghien .لقد قام نابليون بخطف هذا البوربوني، وأطلق عليه النار جرّاء محاولة اغتيال لم تثبت، يا لها من أخلاقيات ساذجة! إنّ على المرء أن يعلّم الألمان مصطلحات الأخلاق الرفيعة!»[1] وهكذا غدا في وسع المرء أن يكتشف أخلاقاً مناسبة في العروض المسرحية في إيرفورت. وقد تم استيعاب مسرحية راسين «متهريديت» وما تنطوي عليه من كراهية نحو روما، بوصفها لوناً من العداء للتهديدات الإنجليزية:

إنكم تخدعون أنفسكم، عندما تظنّون
أنّ هذا البلد سيبقى حبيس جدرانه
فأنا أعرف تماماً الطريق التي توصلني إلى هناك
حتى لو أنني لاقيت حتفي في أثناء المسير

وكان من السهل على المشاهدين أن يتبيّنوا الكيفية التي ينشد فيها هؤلاء الممثّلون خاصة الممثّل تالما، من أجل إحداث التأثير المطلوب. وقد تحدّث فريدريش فون موللر في مذكراته عن «الحماسة غير العادية والمبالغة في الخطابة والحركة». التي كان المستمع الألماني يلحظها مع إعجابه الكبير بما يتمتع به الممثل من لياقة وقدرة وعظمة[2]. وقد كان ذلك التناقض في أسلوب المسرح الفايمري، يمثّل الرسالة الواضحة التي يمكن للمرء أن يستشعرها.

وقد شعر فيلاند بالذهول بعد أن شاهد عرض مسرحية «محمد»،

---

(1) Ebda.S. 302.

(2) Müller. Erinnerungen. S. 134.

نتيجة للصوت الخطابي المتفرد والتجاوز في الغضب التراجيدي الذي يؤدّي الممثّلون من خلاله مشاهد المسرحية، والذي يصيب المستمع الفرنسي (باستثناءات قليلة) بالنشوة[1]، والحديث المتواصل عن المستمع لا عن المشاهد هو أمر ذو دلالة. ولم تكن المشكلة أنّ الديكورات لم تكن فاخرة، لكنّه لم يكن سوى صوت واحد، كصوت أرنولد مثلاً، الذي كان يتفاخر بنبرة عالية في الخطابة وبـ «مشاهد التقليد الكبرى» والذي ظلّ يحرص على إبراز ستارة المسرح الإمبراطورية الحقيقية، حيث «لا تبدو ها هنا البهارج المسرحية المعتادة والهتافات المسرحية والتي يراها المرء عشرات المرّات عند كريمر. فالملابس والقطع الذهبية، حقيقيّة كلّها شأنها -شأن الكثير من الأشياء الرائعة»[2]. لكنّ الأمر الحاسم تمثّل في أسلوب الخطابة وتكرار الأناشيد، خاصة تلك التي كان تالما يتلوها وهو يلوح بيديه، مثلما كان يلقي الأبيات التالية من مسرحية «إيفيغيني» لراسين وهو يقف مباشرة أمام الإمبراطور وضيفه الكبير:

الشرف يتحدّث وهو وحي بلادي

يا إلهي! إنّ حياتنا واقعة بين يدي الآلهة

لكنّ مجدنا موجود على راحات أكفنّا

فلماذا يريد كلام وحيك أنْ يعذبنا؟

نحن مثلك خالدون، فكنْ طموحنَا؟

إننا نتبع قدرنا، فدعنا نغّث الخطى إلى هناك

حيث يجعلنا الهدف السامي نسير عكس التيار.

في مثل تلك اللحظات الساحرة، كان المشاهدون في الصالة يشعرون بأنّه ليس ثمة أباطرة اثنان فحسب، بل إن هناك ثلاثة أباطرة.

---

(1) Wielands Briefwechsel. 17. S.468 f.

(2) [Arnold]. Erfurt. 1. Band. S. 83.

فقد كان تالما يثير الإعجاب ويبدو جديراً بالاحترام وكأنه ممثّل مثقّف من أولئك المهووسين الساحرين، من جهة كونه نجماً يتعذر الوصول إلى مستواه، ومن جهة كونه «فنّاناً مفكرّاً» كما سماه أرنولد غير مرّة. «إنّه رَبْعة في الطول، أما عيناه الزرقاوان فتبدوان وكأنهما ميّتتان، ومنجذبتان إلى نقطة بعينها، أما وجهه المتداعي فيكشف عن الإرهاق من أجل الفن. وهو يتحدث برزانة، وقليل التواصل مع الناس. إنّ مشيته، وملبسه ومظهره الممّل –كل ذلك يعطي صورته الكئيبة البعد التراجيدي لإحدى الآلهات، التي يبدو كأصغر أبنائها»[1].

ومع ذلك كلّه، فقد كان الإمبراطور والقيصر هما الممثلان الرئيسان، فقد كانا آخر من يدخل الصالة وأوّل من يغادرها، في حين يبقى الحضور، بمن فيهم الملوك الآخرون يشعرون بالخوف.

كانت الطبول تُقرع ثلاث مرات عندما كان الإمبراطور يدخل إلى المسرح، في حين كانت تُقرع مرة واحدة للملوك الآخرين. «وكان هذا يحدث»، كما يقول موللر، «لحظة تبديل الحرس عند رؤية الشكل الخارجي لعربة ملك فورتنبرغ، عندها يجري قرع الطبُول ثلاث مرات بعد أن يصيح الضابط الآمر بصوت غاضب: «صمتاً، كلّا، هذا ملك»[2]. وكان على الجمهور البرجوازي، أن يكون نظيفاً ويرتدي ملابس أنيقة. أما نابليون، فكان يقود القيصر بلطف كبير إلى مكانه المخصص له. وكان يجلس أثناء العرض، كما يقول أرنولد، في غاية الهدوء، وهو يضع قبعته فوق ركبته ويضع يديه فوقها وكان يصغي بانتباه، وإن كان يقضم الجوز أو اللوز في بعض الأحيان.

---

(1) Ebda.

(2) Müller, Erinnerungen, S. 135.



تالما فوق خشبة المسرح/مؤتمر الأمراء

وكان نابليون يلتفت إلى القيصر عند المواقف المهمّة في المسرحية ويتحدّث معه ببعض الألفاظ وهو يعلم أنّ الأنظار كلّها تتجه صوبه، لأنّ النظّارة خلفه كانوا يحصون كلّ حركة يقوم بها. وقد كتبت كارولين ساتوريوس:

«إنه لأمر مخيف حقيقة أن تكون موجوداً مع نابليون في صالة

واحدة». وقد سجلّت سارتوريوس بدقة كلّ التفصيلات الخاصة بملابس الرجلين البسيطة واللافتة، وتوقفت بادئ الأمر، عن مظهر نابليون:

«كانت له قدمان ناعمتان تماماً، ويدان جميلتان، وباستثناء ذلك، فلم يكن نابليون في نظري، جميل القوام. فجذعه يبدو ضخماً تماماً، مقارنة بالجزء الأسفل من جسده،. أما الرأس فيقبع فوق كتفيه على نحو لا ينسجم في علاقة سليمة مع بقية جسده. أما عن البطن فلم يكن له بطن بارز. كان أسود الشعر، وذا بشرة إيطالية خالصة، ولم يكن شكل رأسه يخلو من الجمال. أما ملامحه فليست عتيقة، لكنها تعطي الانطباع بأنها تتشابه مع جذوره. عيناه غائرتان في محجريهما ولا يكاد المرء يستطيع أن يرى نظرتيهما أو لونيهما. ذقنه بارزة أما مساحة خديه من الأنف حتى الأذن فهي من السعة على نحو لم أره عند أحد من الناس. ومع ذلك فإنّ هذا المقطع يبدو ناعماً على الرغم من الأنف المعقوف. إنْ منظره الخارجي لا يثير الإعجاب، لكنّ ثّمة جمالاً وأدباً داخل شخصيته، أما حركاته، التي كان مقتصداً فيها، فهي تتميّز باللطافة»[1].

على هذه الشاكلة وصفت هذه السيّدة الذكية والمراقبة الجيدة، التي لم تعرف بالنفاق، هذا الرجل العظيم في الأيام التي تحدث فيها مع غوته وفيلاند. فما أن يجلس الإمبراطور في مكانه حتى تبدأ الموسيقى تُعزف. لتقدم، في الغالب، جملة موسيقية لهايدن Haydn[2] ولتفتح الستارة بعد ذلك. وكان لا يتم إغلاق الستائر بين الفصول وأثناء العرض المسرحي الذي كان يمتد إلى ساعتين. لهذا كانت ثمة فرصة سانحة للنظارة لدراسة الشخصيتين الرئيستين.

(1) Goethe-Sartorius, S. 65.

(2) جوزيف هايدن (1732–1809) مؤلف موسيقي نمساوي، أسهم في تطوير السمفونية من شكلها القصير إلى شكلها المركب (المترجم).

وجد غوته نفسه في الوضع الرهيب، بمعنى أن يكون مع نابليون في صالة واحدة للمرة الأولى، وكان ذلك يوم الجمعة في الثلاثين من أيلول عام 1808. كانت الفرقة المسرحية الفرنسية تمثل مسرحية راسين «بريتا نيكوس». وكان تالما يلعب دور الإمبراطور نيرون وهو الدور الرئيس في المسرحية. كان غوته قد وصل إلى إيرفورت متأخراً عن العرض المسرحي المسائي لمسرحية «أندروماك» وهكذا قدّر لنابليون أن يشاهد «بريتا نيكوس» في مسرح نابليون السياسي، تعليمي النزعة وهي مسرحية حساسة تختلف عن مسرحية «سيّنا» التي كانت قد عرضت في الأمسية الأولى، وهي لا تظهر النعومة الإمبراطورية، بل تبيّن التحوّل إلى حاكم فاقد للشرعية وصل إلى الحكم بالقوة من خلال استبداد دموي، فعندما يقول نيرون:

«سعداء أو تعساء، يكفي أننا لا نخاف»، فإنّه يمكن للمشاهد أن يقوم بتعميم هذه الجملة.

تحكي مسرحية راسين عند نهايتها، كيف كان القتل لا يحرّك ساكناً لدى نيرون، وكيف أنّ طغيانه وصل إلى الكمال:

«ليس ثمة حاجة كي تلّون نفسك، فلن تكون شاحب اللون أو أحمر

لقد صارت عينك جامدة وغير مبالية.

وكأنّها اعتادت على القتل منذ طفولتها

كان غوته شديد الانبهار بتمثيل تالما لدور نيرون، لدرجة أن يتذكرّه في مقالة كتبها بعد مرور عشرين عاماً، كانت تحت عنوان «عن الفن والعصور القديمة» تتحدث عن المسرح الفرنسي:

«لقد كّنا شهوداً ورأينا بأنفسنا مقدار التوفيق الذي جسّد تالما من خلاله روح الديكتاتورية، كما استطاع، على نحو رائع، أن يجسّد

الروح الشريرة والمنافقة للبطش»[1].

كان ذلك جزءاً من طموح تالما في «تقديم الأبعاد العميقة في الإنسان»؛ لأنه يقدّم دراسات نفسيّة أكثر مما يعرض الأمور بأسلوب موضوعي. «فلم يكن واقعاً تحت أي لون من ألوان الضغط العاطفي لتطوير مسرحية تتحدث عن شخصية مصابة بوسواس المرض وتدور في الصحراء العربية، كي يُعبّر عن مشاعره وعواطفه في مكان يتسم بالجدب».

كان ذلك كلّه يقع في دائرة اهتمام غوته العليا، ليس لأنه كان مديراً لأحد المسارح، ولأنه كان يحاول أن ينشئ أسلوباً خطابياً كلاسيكياً، بل لأنه كان وثيق الصلة بالمسرح التراجيدي الفرنسي. فقد كان مطّلعاً بالتأكيد على «إيفغيني» لراسين، وكان قد تولى ترجمة مسرحية «محمد» –النصّ المسرحي المتصل بالصحراء، كما ترجم «تانسريدي»، وهما عملان مسرحيان لفوليتر. وفي سياق متصل بهذا العمل، قدّم غوته عرضاً مفصلاً في «الحوليات» الصادرة عام 1880 لكتاب فيلهلم فون هومبولدت «عن المسرح التراجيدي الفرنسي المعاصر» الذي يعتمد على رسائل المؤلف من مدينة باريس. وقد افتتح هومبولدت هذه الرسائل بعرض تفصيلي لفن تالما التمثيلي الذي يتجلى خصوصاً في «التعبير عن التراجيديا العالية والتّجهم واللحظات الكئيبة، حيث تنكفئ النفس على ذاتها». وقد قدّر هومبولدت فن تالما عالياً، حيث يكون الممثّل قد انفجر في لحظات عنيفة. وما أجمل ما كان عليه تالما الناعم: «فقد كان وجهه يمتلئ بالتعبيرات الناعمة والقوية، في الوقت ذاته، وهو وجه بيضاوي صغير، وهناك انحناءة صغيرة على الجبين، أنفه ناعم وعيناه ناريتان سوداوان، عريض المنكبين، ووجناته العريضة

(1) MA 18.2. S. 122.

تتدلى حول فمه، قدّه ممشوق وناعم، وساعداه العاريان، كعادة النجوم، مفتولان. أما صلبه وفخذه وقدماه فجميلات حدّ الروعة». فكل شيء كان يتسم بالعظمة هنا، روعة الأزياء وكرامة الأبطال وتعبيرات الوجه المملوءة بالتأثير، والحركات الرزينة. أما الدور الاستعراضي الذي يصفه هومبولدت هنا، فقد كان دور نيرون في «بريتانيكا» وهي المسرحية الأولى التي قُدِّر لغوته أن يراها في إيرفورت[1]. وفي هذا السياق، يمكن القول إنه يصعب وجود مراقب أفضل من غوته، لأن غوته كما يقول في كتابه «شعر وحقيقة» مثّل دور نيرون، وهو في الحادية عشرة من عمره، أثناء الاحتلال الفرنسي لألمانيا أثناء حرب السنوات السبع.

ولم يسبق لغوته في ضوء مصطلحات المسرح المعاصر المتعلّق بصالات العروض المسرحية الخاصة أن أُعطي مكاناً أسوأ من المكان الذي جلس فيه والذي كان يقع خلف الملوك ووزرائهم (وهو المكان الذي أعطي لزوجة البروفيسور سارتوريوس). وقد خلّفت يوحنا شوبنهور، وهي التي كانت حاضرة ذات مرة وصفاً لغوته في صالة العروض المسرحية: «في ملابس رسمية فخمة مملوءة بالأوسمة والنجوم، دخل وزراء من معظم الدول الأوروبية إلى الصالة (...) وكانت ملابسهم الرسمية المرصعّة بالذهب، التي تبيّن ما يتصفون به من غطرسة واضحة، تتجلى في حركاتهم، كما تنطق به ملامح وجوههم، تميز الفرنسيون عن الألمان الفاقدين لمظاهر العظمة على نحو ملحوظ (...)، فقد كانت عظمة نابليون وألقه تتجلّى على نحو متميز وتضيء وجه كل فرنسي. كان غوته يقف في وسط هؤلاء، بتعبير مكتمل عن سمّو ذاتي وكرامة متأصلة، وبملامح نبيلة، وإلى جواره يجلس فيلاند وهو شخصية جليلة»[2].

---

(1) Humboldt, Gesammelte Schriften (Leitzmann), Band 2, S. 377-382.

(2) Grumach VI, 5, 549 f.، إنّ الحديث عن الثالث من تشرين الأول هنا غير دقيق. فقد جاء فيلاند إلى إيرفورت لحضور مسرحية فولتير عن الرسول محمد في مساء التاسع من تشرين

فقبل أن يتحدث غوته مع نابليون، كان يمتلك فرصة طويلة في المسرح الفرنسي كي يتعرف إلى شخصيته و يتفرّس في الإمبراطور لأن غوته كان قد حضر، بطبيعة الحال، مسرحية فولتير «زائير» التي عرضتها فرقة المسرح الفرنسي. أما «ميتريدتس» التي عرضت في الثاني من تشرين الأول، فقد جاءت بعد المقابلة.

لم يحتشد غوته، في البداية، بعد هذه الانطباعات، فهو لم يجيء إلى إيرفورت لمصالح خاصة، بل لأن الهرتسوغ كارل أوغست استدعاه إلى هناك في التاسع والعشرين من أيلول. ويبدو أنه تلكّأ في القدوم فقد كتب غوته بعد مثوله بين يدي نابليون إلى زوجته كريستيانه، التي كانت في تلك اللحظات، في طريقها إلى فرانكفورت، يشكرها لأنها «دفعته للذهاب إلى هناك»[1]. كانت والدة غوته قد توفيت في الثالث عشر من أيلول، وكان على زوجة ابنها، بتفويض من غوته، أن تجد حلولاً في ما يخص إدارة المنزل، وتنظيم المسائل الخاصة بالميراث. لهذا لم تكن كريستيانه موجودة في أيام إيرفورت، كما أنها لم تكن حاضرة في المناسبات بوصفها زوجة غوته. ولعّل ذلك قد وفّر، بعض الإحراج الاجتماعي، على غوته؛ لأنّ منزله في إيرفورت كان ملتقى للممثلين والوزراء، يدخلون إليه ويخرجون منه، وقت يشاءون. وقد جهزّ غوته نفسه يوم التاسع والعشرين للسفر، واتجه إلى إيرفورت.

أما عن الكيفية السريعة التي تأثر غوته عبرها بهذا الألق في إيرفوت، فإنّ تقرير المؤرخ كارل لودفيج فولتمان في الأول من تشرين الأول، يحدس، طبقاً لما كان قد سمعه، أن غوته كان يحمل فكرة خلاصتها «أنّ مؤتمراً سينعقد في فايمار قبل حلول شتاء ذلك العام يضم نخبة من

الأول ليقابل الإمبراطور في صباح اليوم التالي.

(1) WA IV 20, S. 172 (4. Oktober 1808).

خيرة رجال الألمان كي يتباحثوا في واقع الثقافة الألمانية المعاصرة». أي أنه يريد أن يصنع قلادة روحيّة لمؤتمر الأمراء الأوروبيين! «ففي هذه اللحظة على وجه التحديد التي كانت ألمانيا تعاني فيها التفكك وفنونها مملوءة بالحضور الأجنبي»، كما صرّح الوطني فولتمان، فإنّه «لأمر غاية في الغرابة، أن تلتقي أواصر الثقافة والأدب في ألمانيا التي لا يمكن الحفاظ عليها في العادة، إلا من خلال وحدتنا كأمة»[1]. إنّها واقعة غريبة، هذه التي تنفرد بالحديث عنها، ولكن إذا كان فولتمان قد استمع حقاً إلى ذلك، فإنّ هذا يكشف عن أمرين:

الأوّل: أنّ غوته قد أصيب بالعمى من خلال مظاهر القوّة الواضحة لنابليون والتي كانت تبشّر بثبات النظام العالمي الجديد. وقد استجاب غوته لذلك من خلال ترتيبه لأموره في هذا الإطار هذا من جهة ومن جهة أخرى فقد ظنّ أن القوى السياسية متكافئة على نحو يسمح بالمشاركة. ولعله يمكننا في الموضع، أن نتكئ على سماع بعض الأجزاء غير المؤكدة لأحاديث وحوارات، ولكنّها، على كلّ حال، تدّل على عمق الإثارة التي تركها ذلك الصّخب على شخص بشهرة غوته فأخرجته عن طوره.

وقد وجد الهرتسوغ نفسه، منذ أن وصل إليه برنامج اللقاء بين نابليون والإكسندر من باريس، في وضع مملوء بالقلق والاضطراب. فقد كان يخشى أن تغدو فايمار في وضع لا تحسد عليه بين الإمبراطور والقيصر: فقد غدت فايمار عن طريق حماية نابليون عضواً في الاتحاد الألماني، ويمكن أن تصبح من خلال القيصر، وعن طريق شقيقته ماريا باولوفنا، زوجة وريث العرش، جزءاً من أسرته.

إنّ كلّ توتر، يمكن أن يؤدي إلى نتائج خطيرة ها هنا. وقد كتب

(1) Grumach VI. S. 533(für 30. September).

الهرتسوغ في الحادي والعشرين من أيلول إلى زوجة ابنه في بطرس بيرغ:

«من الواضح أنّ الأرواح التي تحرسنا قد انضمت إلى بعضها بعضاً. فنحن لسنا غير فصلين من فصول هؤلاء السادة. ولو أنك قمت بدراسة دقيقة لأمزجة الآلهة الهومرية وتصرفاتها، لانتهيت إلى ما أشعر به في هذه اللحظة»[1]. صورة تجمع بين السخرية من الذات والغرابة والصحّة.

اندفعت الأحداث في البداية بعيداً عن فايمار، وأثناء أداء التحية لنابليون، بدا الأمر وكأنّ قانوناً سرّياً ينبغي إنجازه، أما في المرة الثانية فبدا وكان كل شيء قد فسد. فقد أعلنت عن وصول نابليون طوابير من القوات.

كان الأمير الكبير قسطنطين، شقيق القيصر، قد وصل إلى فايمار في الرابع والعشرين من أيلول، حيث كانت زوجته وشقيقته، زوجة ولي العهد، قد عادتا. وتذكر اللوحة الخامسة والعشرون من يوميات غوته أن القيصر وصل مصحوباً بالقائم بالأعمال الفرنسي، ويضيف أنّ وريثة العرش قامت بتقديم غوته للقيصر الروسي «الذي التفت بطريقة ودودة جداً إلى فيلاند مستطلعاً». وفي السابع والعشرين من أيلول، استمع الناس منذ الصباح الباكر إلى صوت إطلاق الرصاص في إيرفورت، وهذا يعني أنّ نابليون موجود في المدينة. غادر الاكسندر المدينة، وذهب ليقابل نابليون. وكان كارل أوغست قد ذهب من قبل إلى الحدود صوب آيزناخ الواقعة خلف إيرفورت، كي يكون على أهبة الاستعداد لاستقبال نابليون على نحو لائق، لكنّه وصل متأخراً جداً، لأنّ صاحب السلطة والنفوذ كان قد طار بسنابك خيله التي ينطلق الشرر منها، فعاد كارل أوغست متألماً، وهو يأمل، أن يحظى برؤية ظل الله على الأرض، فلقي عربته التي كان يجلس فيها الديبلوماسي التابع له فريدريش فون موللر. وكانت حاشيتا الزعيمين قد اجتمعتا

(1) PB3. S.93 .

في المنطقة الواقعة بين إيرفورت وفايمار. أما الزعيمان فقد كان يركبان جواديهما ويمشيان بمحاذاة بعضهما بعضاً، ويتبادلان أطرف الأحاديث بهدوء، عن عائلتيهما، وخلفهما الأمراء بأزيائهم المرصّعة بالنجوم والماريشالات والوزراء. طلب الهرتسوغ من مولر أن «يأمر الحوذيّ أن ينعطف نحو اليسار بالسرعة القصوى؛ لأنه لا يريد لأحد أن يراه وهو يرتدي ملابس السفر، لكنّ شيئاً خطر بباله بعد عدة دقائق، فقفز من عربته وخلع معطفه وركض معي صوب القيصر الاكسندر»[1].

اعتذر الهرتسوغ للإمبراطورين فقوبل بتحية ودودة، لكنّ نابليون أبدى غير قليل من الدهشة لهذا الظهور غير الرسمي، وكان على مولر أن يقدم تفسيراً يُصّفي الأجواء. وقد كتبت الهرتسوغة لويزا، وهي تستشعر الاحتقار المتواصل لنابليون، إلى أخيها الأمير كريستيان في دارمشتات[2]. «لا أستطيع أن أقول لك كم يسرّي ذلك عني».

وكانت لويزا قد أخبرت شقيقها، عن إجراءآت مهينة قام بها الفرنسيون في إيرفورت، ففي المبنى الحكومي الذي يقيم فيه نابليون، قاموا بإغلاق النافذة للغرفة المخصّصة للتشاور مع الاكسندر والواقعة إلى جوار بيت الحراسة الفايماري خوفاً من التجسس. ولم يكن أحد يستطيع أن يرى بوضوح ما الذي يفعله الهرتسوغ كارل أوغست مع حاشيته. وعندما تم تغيير غرفة التشاور أعيد فتح النافذة.

أما عن الكيفية التي ينبغي أن تتصرف بموجبها فايمار بخصوص مؤتمر الأمراء، فقد كانت آراء جماعة مستشاري الهرتسوغ منقسمة لكنّ وجود القيصر الروسي استطاع أن يلعب دوراً مساعداً، فقد كان نابليون يتودّد له، وكان في وسعه بالتالي أن يقول كلمة إيجابية لصالح

---

(1) Müller, Erinnerungen, S. 12.

(2) Bojanowski, Louise, S. 314.

زوجة شقيقته. كان لفايمار مشكلات إقليمية مع دول الجوار وبالذات مع مملكة فست فالن التي كان يحكمها جروم Jerome شقيق نابليون. وقد جرى في تلك الآونة الحديث عن الحق القانوني في السيطرة على بلانكن هين، وكان جيروم يأمل أن يسيطر على إيرفورت والمناطق التابعة لها. وقد انتصر في نهاية المطاف الخط الذي يمثله فولتسوغن الذي كان يرى أنّ من الحكمة عدم إثقال القيصر بمشكلات فايمار البسيطة في هذه المفاوضات الخاصة بالسياسة العالمية، وأنّ على موللر أن يهتم بمصالح إيرفورت في إطار هذا الحشد الدبلوماسي للمؤتمر المنعقد على مستوى الملوك. وقد تولّى موللر هذه المهمة بقدر واضح من الحماسة. فكان ينتقل بين طاولات الوفود، ويتحاور مع تاليران ووزير الخارجية شامبين، وينظم مع الماريشال ريموسات عملية توزيع البطاقات المجانيّة للمسرح. وقد كتب موللر في اليوم الأول من المؤتمر إلى غوته يقول:

«أخبرك، وأنا في غاية السعادة، أنّ كلّ شيء يسير على نحو رائع. وصل الهرتسوغ في الساعة الحادية عشرة، وقد صحبته في الساعة الحادية عشرة والربع إلى الإمبراطور نابليون، كانوا في غاية الجمال، وكان صاحب السمو في قمة السعادة. لقد تحدث نابليون كثيراً عن سمّو الهرتسوغة وأطنب في الثناء عليها، متألّماً، في الوقت نفسه، لأنّ البلاد تعاني الكثير. بعدها أثنى الإمبراطور على المزايا العسكرية للهرتسوغ ودعاه في خاتمة المطاف ليشارك في الصيد والموائد التي تلي ذلك والتي ستقام بعد عدة أيام. لأن نابليون اعتاد أن لا يخبر عن الصيد إلا قبل يوم من الذهاب إليه»[1].

يريد نابليون أن يجيء إلى فايمار! كان ذلك هو السبب الحقيقي

---

(1) PB 3. S. 95 f. تمّ تأريخها هناك بـ 9/27. ومن الراجح أنها في 9/28، لأن من غير الممكن أن يكون الهرتسوغ قد مثل بين يديْ نابليون قبل ظهيرة 9/27 ،ولعل رسالة موللر وطلب كارل أوغست من غوته للمجيء إلى إيرفورت قد وصلا معاً في اللحظة ذاتها.

الذي أدّى بكارل أوغست إلى استدعاء غوته على وجه السرعة ليجيء إلى إيرفورت. فإذا كان ذلك جدياً، فإن هذا يعني أنّ مؤتمر إيرفوت بقضّه وقضيضه، وبما فيه من ملوك ووزراء سيأتون إلى إيرفورت من أجل «الصيد والمائدة»، على وجه التحديد وبذلك وضعت أمام فايمار الصغيرة، على نحو غير متوقع، مهمّة ضخمة وعاجلة كان عليها أن تواجهها.

كانت إمكانية إرتكاب الخطأ غير واردة على وجه التأكيد. لهذا لم يكن غريباً أن يقوم كارل أوغست باستدعاء مستشاريه المهميّن في هذه اللحظة للإحاطة بكل المسائل الخاصة بالاحتفالية وأبعادها الرمزية. أما الدوافع الأخرى التي يمكن للمرء أن يتوقعها، فإنها تتمثّل في رغبة كارل أوغست أن «يصَنع دولة» مع غوته، وأن يتزيّن بما لغوته من ألق، وأن يشجعه على الذهاب لرؤية الإنجازات المتميّزة للمسرح الفرنسي- لكنهما، على العكس من ذلك، تراجعا تماماً؛ لأنه كان يمكن التفكير في هذين الأمرين من قبل.

كلّا لقد جاء غوته إلى إيرفورت، بوصفه رمزاً سياسياً، وخبيراً في تجهيز الاحتفالات المسرحية، وكي يساعد في إيجاد حلّ لهذه المعضلة غير المتوقعة والمحفوفة بالكثير من المخاطر، فعندما يحسب المرء ما ينطوي عليه الأسبوع القادم من فعاليات تشمل: حملة صيد برّية كبرى وعشاءً احتفالياً وعرضاً مسرحياً ومباراة كرة قدم، في حين يحوي اليوم الثاني زيارة لساحة المعركة في يينا، مصحوبة بطعام الغذاء يليها صيد الأرانب في نهاية المطاف، وهذا كلّه لأكثر من اثني عشر حاكماً، إضافة إلى عربات التموين والإمداد، التي تبلغ المئات -عندما يرى المرء ذلك، لا بد أن يقرر أن الجهاز الإداري في بلاط فايمار وهم المستشارون فويغت وفولتسوغن وغوته جديرون بالإعجاب الكبير.

وقد بدا لغوته أنّ اللقاء مع نابليون غدا أمراً لا مفرّ منه. لهذا قام غوته، لمزيد من الحذر، بمعاينة نابليون وتأمّله أثناء عرض مسرحية «بريتا نيكوس»، وإن كان لم يكن قادراً على أن يتوقع كيف ستبدو عملية الاقتراب منه. لهذا اتجه غوته، بعد العرض المسرحي مباشرة، إلى صالون البارونة فون ديريكي، وهي زوجة رئيس المحكمة الذي كان موللر يقيم في منزله والذي صار يتجمّع فيه ليلة إثر ليلة، في أثناء أسبوع إيرفورت، مجتمع عالمي متنوع، يجمع بينهم العداوة لنابليون، تماماً مثل صالون ثورن وتاكسيس الذي كان يلتقي الاكسندر وتاليران في رحابه. وكان يقيم عند ريكي كذلك الوزير الفرنسي ماريت وهو شخصية وثيقة الصلة بنابليون. أبدى ماريت إعجابه بغوته على الفور، وظلّا يتحاوران طيلة المساء على نحو ودّي خالص. وعندما تم توجيه الدعوة إلى غوته، مساء اليوم التالي، للمثول بين يدي نابليون كان غوته يعتقد أنّ عليه أن يشكر للوزير توصيته، وربما كان عليه أن يشكر الماريشال لانّس الذي أقام عام 1806 في منزله في فراوين بلان وأمضى زمناً في إيرفورث. أما تاليران، فقد زعم أنّ الإمبراطور عند استعراضه قائمة أسماء الموجودين من إيرفورت وقع نظره على اسم غوته. وكيفما كان الأمر: فقبل ظهر يوم الثاني من تشرين الأول، جرى الأمر على النحو التالي:

دُعي غوته للمثول بين يدي إمبراطور فرنسا.

في اليوم السابق، أي في الأول من تشرين الأول، تكرّرت لغوته فرصة أخرى لجسّ النبض. فقد أتيحت له فرصة مرافقة ليوبولد الثالث من أنهالت من دسّاو (1740–1817) والأمير فرانتس الذي عرف بتأسيسه مملكة الحديقة Gartenreich[1] في فورلتس التي كان مقر

(1) تُعدّ هذه المملكة من أولى وأوسع الحدائق المصممة على النمط الإنجليزي في أوروبا، وقد تأسست في القرن الثامن عشر على يد ليوبولد الثالث ومساحتها 142كم2. (المترجم).

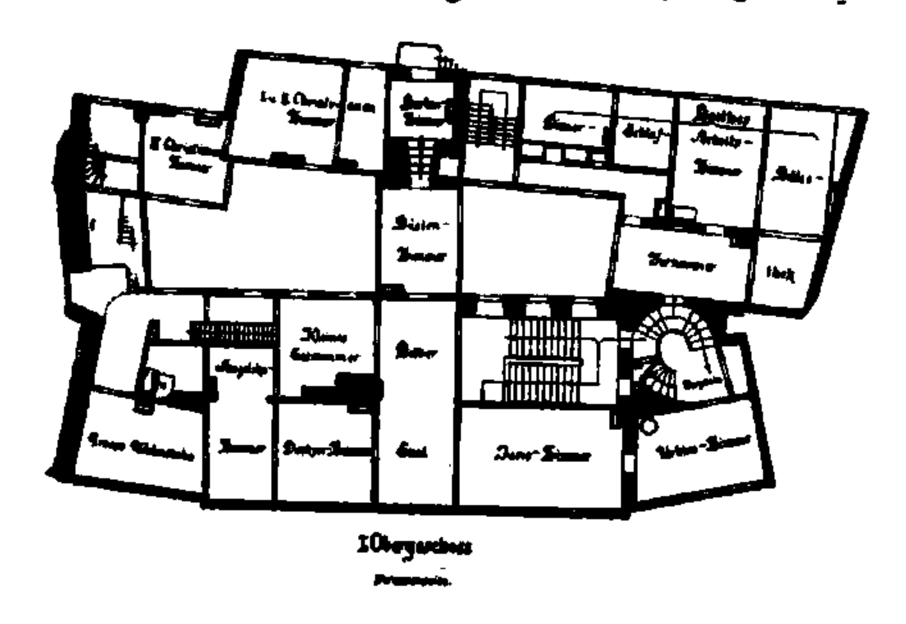
نابليون الحكومي فيها. كان الأمير فرانتس صديقاً حميماً لغوته منذ ثلاثين عاماً، عمل معه أيام رابطة الأمراء السياسية وكان عمل الأمير في الحديقة موضع إعجاب غوته الكبير، وقد أثمر ذلك كتاب غوته «الأنساب المختارة».

وقد تمكن ذلك الأمير عام 1806، وهو الناقد لبروسيا وسياستها، على النقيض من كارل أوغست، من إقامة علاقة شخصية متميّزة مع نابليون، وتم تكريمه من خلال دعوته إلى باريس للمشاركة في رحلة صيد، وتمتّ دعوته في إيرفورت كي يستقبله الإمبراطور ثم سمح له بالمثول بين يدي نابليون.

ونحن نستطيع من خلال رسالة لفيلاند كتبت بعد عشرة أيام من المقابلة، أن نعرف مجريات مرحلة ما قبل الظهر التي قضاها غوته في المقر الحكومي لنابليون في إيرفورت. فقد وصلت لفيلاند صباح العاشر من تشرين الأول، وكان قد وصلت عشية اليوم السابق، دعوة تطلب منه أن يكون في الساعة التاسعة والنصف بتصرّف البلاط، لحضور مائدة الإفطار مع صاحب الجلالة، بعد ذلك يصف فيلاند، على نحو جاف، مدة الانتظار التي زادت على ساعتين، والتي كانت تحتوي على مجموعات متنوعة من الناس ظلت تنتظر وراء الباب المغلق، حيث كان الزعيمان يجريان مفاوضات صعبة، حتى فتح الباب أخيراً. بعد ذلك تمت دعوة ستة أشخاص لتناول طعام الإفطار مع الإمبراطور، فتحلقوا جميعاً حول مائدته. «ولم يكن أسرع في تناول الطعام أَسدٌ جرى تجويعه ثلاثة أيام، فقعد ليلتهم فريسته. وعلى عجل تم إحضار ستة كؤوس من الخمر، نصفها مُزج بالماء، فافرغت». كان الإمبراطور، في ضوء ما لاحظه فيلاند، مشغولاً بمسائل أخرى «فكان يوجّه بين الحين والآخر عدداً من الأسئلة القصيرة الخالية من الأهمية إلى هذا أو ذاك وإليّ. أما

شقيقه ملك فست فالن، فكان واحداً من المحيطين به، وقد بقي في الخلف بعد أن جرى إخلاء سبيلنا»[1].

يتكرّر هذا السيناريو في ملاحظات غوته القليلة الخاصة بالأول من تشرين الأول عام 1808 والذي يقوم على شخصية تشترك في رفع الستار والمثول من ثّم بين يدي الإمبراطور في حين يغادر الآخران. فبعد عشر سنوات وفي مطلع عام 1819 على وجه التحديد، وتحت عنوان «الحوار مع نابليون» يكتب غوته: «يرفع الستارة. أمير دسّاو». أما في الموضوع الثاني الخاص بالحوار، فهناك تفصيل:



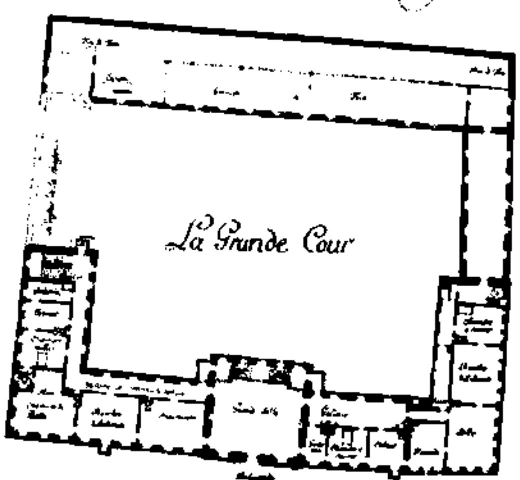
مخطط منزل غوته

«الاستقبال/ مكان الإقامة/ الدرج/ الردهة والغرفة/ الجلبة الواضحة/ المعارف والأشخاص الجدد/ خليط/ معارف قدماء وجدد/ الشاعر بوصفه نبيّاً/ إثارة الدعابة/ بقاء أمير دسّاو للمثول بين يدي الإمبراطور». لكن غوته بقي في تلك الأثناء في المنزل الذي يعود إلى

(1) . Wielands Briefwechsel 17.1., S. 469 f. (14 Oktober 1808)

هرتسوغ فايمار، الواقع إلى جوار المقر الحكومي وهو بيت الحراسة: «تجمع الكثيرون في بيت الحراسة/ عاد الأمير وحكى عن مشهد وقع بين الإمبراطور وتالما، كان يمكن أن يثير سوء التفسير والنميمة»[1]. وكل هذا يتفق مع ما سبق لغوته أن دوّنه في ملاحظاته في يومياته بتاريخ الأول من تشرين الأول سنة 1808: «إلى البندقية. هرتسوغ دسّاو يطلب الإذن بالذهاب، وكان قد تناول طعام الإفطار على مائدة نابليون واستمع إلى الحوار الذي دار بينه وبين تالما».

يتولّد من الكلمات المفتاحية المقتضبة شيء من سوء الفهم مقتضاه أنّ غوته قد يكون قضى في مقر إقامة نابليون يوماً قبل أن يتحدث معه ويقترب منه. لكنّ غوته، على كل حال، يحتفي بأمل اللقاء ثانية مع المكان الذي يعرفه عن قرب ويتحقق من هذه المعرفة منِ خلال بعض كلمات هي: الدرج والردهة والغرفة.



مخطط المقر الحكومي

(1) Unterredung mit Napoleon. FA I. Band 17. S. 377 f.

أما عن المكان القديم والأشخاص الجدد والظروف الجديدة، فيبدو للعين الناظرة عندما يظهر أمر استثنائي في طريقها وعندما يكون المزاج العام احتفالياً. ولعل من الأرجح أنّ غوته والأمير فرانتس كانا يتحدثان وهما في الطريق إلى نابليون على نحو مملوء بالحيوية، لكنّ الملاحظات التي دونّها غوته في ذكرياته تحت عنوان «الشاعر بوصفه نبياً» لا تعكس شيئاً من هذا على وجه الدقة.

إنّ توالي الوصف المكاني يصف إلى اليوم ما يعرفه الناس في إيرفوت باسم المبنى الحكومي وهو الطريق المفضي بوضوح إلى الإمبراطور: فالدرج يفضي إلى الطابق الرئيس، ثم إلى الردهة حيث يجري الانتظار، بعدها توجد الغرفة التي يستقبل فيها الإمبراطور ضيوفه. هناك دخل الأمير القادم من دسّاو، حيث كان شاهداً على الحوار الذي دار بين نابليون ثمّ الممثل الأول تالما، أما غوته فبقي ينتظر في الردهة ثم ذهب إلى هرتسوغ فايمار في المبنى المجاور، وهناك جاء الأمير فرانتس بعد مثوله بين يدي نابليون وروى ثانية ما عايشه هناك.

تناول غوته طعام الغداء في وقت متأخر من بعد ظهر يوم الأول من تشرين الأول على مائدة خليفة تاليران وزير الخارجية الباهت شامبين وعاد في المساء إلى المسرح من جديد. وفي هذا المساء كان في وسع غوته أيضاً أن يراقب الزعيمين الجالسين في الصالة بكل هدوء.

ونظراً لأننا لا نَعدُّ وجود غوته أمراً غير ممكن، عندما وصل نابليون عصر يوم الخامس عشر من تشرين الأول عام 1806، أي في اليوم التالي لمعركة يينا، إلى قصر فايمار، حيث تحدث مع الهرتسوغة لويزا حديثاً اتسمّ بالفظاظة، ونظراً لأننا نعرف أن غوته كان في مسرح إيرفوت في الثلاثين من أيلول والأول من تشرين الأول عام 1808 وأنه رافق أمير دسّاو في الأول من تشرين الأول إلى عتبة الغرفة التي مثُل فيها بين يدي

نابليون، فإن بوسعنا أن نعدّ الثاني من تشرين الأوّل، التاريخ الذي جرى فيه الحديث بينه وبين نابليون، وإن كان الأمر قد بدأ بتأمل غوته الجاف لمظهر نابليون الخارجي وكيفية ظهوره.

لم يكن يمتلك نابليون أي لون من ألوان التصّور عن ضيفه الشهير قبل أن يراه على بابه، وقد تأكد غوته من هذه الحالة لحظة دخوله تماماً إلى غرفة الإمبراطور، ففي صبيحة الثاني من تشرين الثاني، وكما حصل مع غوته في اليوم السابق، صعد غوته الدرج ثم اتجه صوب الطابق الرئيس وبعدها إلى الردهة وصولاً إلى غرفة الاستقبال في المقر الحكومي. رافق غوته فريدريش فون موللر، الذي لم يُسمح له بالدخول إلى الإمبراطور، فبقي ينتظر غوته في الردهة، تأكّد موللر من الوقت، كانت الساعة تدق العاشرة صباحاً. كان الاستقبال العام قد انتهى وتفرق الجميع. وعلينا أن نتخيل غوته في زيّ البلاط كما وصفه لنا مارفيتس أو حنّة شوبنهور: سترة محبوكة، بنطال، جوارب حريرية، المساحيق، محفظة، سيف وحذاء ذو ربّاط. في مدخل قاعة الاستقبال كان الجنرال سافاري وتاليران يقفان وحدهما، وقد جاء في اللحظة التي وصل فيها غوته الجنرال المختص بالشؤون البروسيّة دارو، وهو جامع للغرامات الحربية يتصف بالقسوة، لكنه جبان كما يعرف الناس ذلك في فايمار، وقد ترجم هوراس. كان الإمبراطور يجلس حول المائدة المستديرة التي سبق لفيلاند أن وصفها، وقد بدأ العمل الخاص بمرحلة ما قبل الظهر مع بداية الاستقبال.

طلب مني أحد رجال البلاط أن أتوقف
تفرقّت الجموع
جرى تقديمي لكّل من سافاري وتاليران
ثم دُعيت كي أتقدّم إلى الأمام
أعلن في اللحظة نفسها عن وصول دارو، الذي سمح له بالدخول

لهذا فقد ترددّت

تمت دعوتي ثانية

دخلت

كان الإمبراطور يجلس إلى مائدة مستديرة كبيرة ويتناول طعام الإفطار على يمينه تاليران وكان يجلس بعيداً عن الطاولة نسبياً، أما على يساره فيجلس دارو الذي كان يحدّثه عن شؤون الغرامات الحربية

أشار إليّ الإمبراطور بأن أتقدّم

بقيتُ واقفاً على مسافة لائقة منه

تطلع إليّ باهتمام وقال:

«أنت رجل». فانحنيت.

سألني: كم عمرك؟

– ستون عاماً

– لقد اعتنيت بنفسك جيّداً.

ينبغي أن نوقف الفيلم عند هذه اللقطة وأن تقوم بتثبيت الشخصية عند هذه النقطة؛ لأن هذا هو الطريق الأقصر والأبسط لتفسير المصادر في هذا السياق. فما الذي يمكن لنا أن نعرفه من الحوار الذي دار بين غوته ونابليون؟ لقد كان هذا موضع نقاش بين الفيلولوجيين والمؤرخيّن قبل أكثر من مائة عام. وفي ما يلي أكثر النتائج أهمية:

لم يسبق لغوته أثناء حياته أن قام بنشر شيء من حواره مع نابليون قطّ. وقد كان على غوته أن يتمكن من إيجاد المكان اللائق واللحظة المناسبة لمثل هذا العرض، وأن يفتش عن ذلك بدقّه، شريطة أن يجيء ذلك في إطار الترتيب الزمني لحياته في «دفاتر الأيام والسنوات»، الذي جاء بعد تحضير طويل ليكون بمثابة مادة تفسيرية لأعماله التي ظهرت في «الطبعة النهائية» الصادرة عام 1830. لكنّ ما ورد في الجملة الأخيرة الخاصة

بعام 1808 كان غامضاً: «إنّ التجمع الذي حدث في أيلول على مقربة منا، والذي أفضى إليه مؤتمر إيرفوت كان بالنسبة لنا على درجة كبيرة من الأهميّة، كما أنّ تأثير هذه الحقبة في ظروفي كان فاعلاً لدرجة أنّ هذه الأيام القليلة تتطلب منا عرضاً خاصاً لها»[1].

كان من الطبيعي أن تكون الظروف الخارجية للقاء غوته بنابليون عام 1808 معروفة للجميع، فقد تحدثت الصحف عن ذلك، وكان الحديث عن هذا اللقاء طيلة المؤتمر، كما أن التفصيلات والإشاعات قد انتشرت في الأحاديث والرسائل. فقد كتب غراف راينهارد في الرابع والعشرين من تشرين الثاني إلى غوته:

«كان على الإمبراطور أن يقول لك: ها هنا ثمة رجل! voila un homme وأنا أظن أنّه جدير بأن يشعر ذلك وأن يقوله».

وقد ردّ عليه غوته في الثاني من كانون الأول:

«يبدو أن الكلمة الرائعة التي استقبلني الإمبراطور بها تبدو ثقيلة الوقع عليك! وأنت تعرف أنني وثّني بكلّ ما في الكلمة من معنى، بحيث إن جملة Ecce homo (أنت رجل) قد طبّقت عليّ بمعنى مُعاكس تماماً. وبالمناسبة فإنّ لديّ كل الأسباب لكي أكون سعيداً بسذاجة سيّد العالم هذه»[2]. أمّا أن غوته كان على استعداد في الدوائر الضيقة، ليحكي، على نحو شفوي ،حواره مع القيصر، فإنّ هذا ما تبرهن عليه الرسالة التي بعث بها فون هومبولت إلى زوجته في التاسع عشر من تشرين الثاني 1808، كما تبرهن عليه يوميات فون سولبيتس بويسري في الثامن من آب 1815، التي تلخص بكلمات قليلة، ما قام غوته بكتابته بعد ذلك بزمن طويل، والذي سنتحدث عنه في ما بعد، لكن غوته كان يسعد بالأجواء

---

(1) MA 14, S. 207.

(2) Goethe-Reinhard, S. 77-79.

السرية ويهرب إلى العموميات، وكان يتوجّب على كارل أوغست أن يكون سعيداً أيضاً. وبهذا فإنّ سلوك غوته لا يختلف جوهرياً عن سلوك يوهانّس فون موللر 1806 أو فيلاند بعد محادثته مع نابليون التي جرت بعد أسبوع من مثول غوته بين يدي الإمبراطور، فليس من المنتظر أن يتم إعلان حوار غوته مع الإمبراطور على الملأ.

إنّ المحاولات التي بدأ بها غوته من أجل عرض ما حدث، تقع في الحقبة الزمنية الواقعة بعد عام 1820 وهي ذات صلة بسياق كتابه «دفاتر الأيام والسنوات». وقد أجبر الكتابُ غوته على أن يبذل فيه جهداً مكثفاً كي يتحدّث عن كل سنة من السنوات، إضافة إلى وجود مقتطفات من يومياته مرتّبة طبقاً لموضوعات بعينها. كما هو على سبيل المثال:

الجهود المسرحيّة، العلوم الطبيعية، الرحلات، الأدب.

بعد ذلك جرى تصميم مخطط في ضوء ترتيب معين (ليس مرتباً زمنيّاً على الإطلاق)، لأنّ طريقة الإملاء على الكاتب -قريبة من طريقة غوته في الصياغة.

كانت هذه الأمالي المقسّمة إلى أجزاء، قد وُضعت لتتلو نصّاً منساباً، وقد قام كلّ من ريمر وإيكرمان بمراجعتها وتدقيقها وتجهيزها للطباعة. وبالمجمل فإنّ هذه المزق من الأوارق التي تتحول في الغالب إلى موضوعات وتنقسم، بعد ذلك، إلى مجموعات من المواد، تجعل عمليات التغيير اللاحقة سهلة. فقد بدأ غوته يشتغل على الموضوعات الخاصة بعام 1808 في بداية سنة 1819، ليعود ويعمل على الموضوع في شتاء عام 1822/1823، حيث تذكر يوميات غوته في السابع والعشرين من تشرين الثاني 1812 «مؤتمر إيرفورت»، أما في الرابع والعشرين من كانون الثاني 1823 فثمة إشارة إلى «مخرجات عام 1808». وليس ثمة إشارة في هذا السياق إلى الحوار مع نابليون، فقد تم بالتأكيد إرجاؤها. ومع ذلك

فنحن نجد في ما تركه غوته لنا من آثار، ملخّصينْ مختصرينْ يتعلقان بأيام إيرفوت، يغطيان المدة الزمنية الواقعة بين منتصف أيلول حتى الرابع عشر من تشرين الأول 1808، وآخر تفصيلّي على نحو ملحوظ يتوقف عند الأول والثاني من تشرين الأول (الذي يُدعى خطأ هاهنا بأيلول). وقد تمّ توضيح أماكن النصوص التي تنتمي هذه التخطيطات إليها أثناء مرحلة الإعداد، والإملاء المتعلق بما تنطوي عليه النصوص من توصيفات.

فإذا كان غوته هو الذي تولّى إعداد ذلك، فإنّ علينا أن نصفه بأنه إنسان يستطيع أن يتحكم بذاكرته، وأنه على الأغلب، كان يقف ويتخيّل ماذا كان يملي على الكاتب الذي كان يجلس إلى الطاولة النص الرئيس، الذي كان يكتبه بقلم رشيق. إنّ هذا المخطط يشبه الرسم أو الرسوم التخطيطية للوحةٍ مكتملة تماماً. وقد كان يجري، على الأغلب، إملاء معظم تفصيلات المخطط، لأنّ غوته العجوز كان نادراً ما يعمل بيده.

إنّ المخطّطيْن أو هذا الوصف النثري لأيام إيرفورت، يبدو، في الغالب الأعم، قد تمّ تدوينه بأمانة؛ لأنّ لدينا العديد من الشهود المحايدين. تحدث فريدريش فون موللر، الذي سبق أنْ عرفناه بوصفه واحداً من أفضل دبلوماسيّي فايمار، والذي غدا، فيما بعد، مستشاراً لفايمار، وكانت له علاقة حميمة مع غوته إلى نهاية حياته -تحدث في الرابع من كانون الأوّل عام 1822 عن هذه الأمر في يومياته، مشيراً إلى أنّه كان المحفزّ لغوته على تدوينه للقاء الذي وقع بينه وبين نابليون». وقد كتب موللر بعد ذلك بعام، أي في الرابع عشر من شباط 1824، أنه تلقى من غوته بطاقة فيها الكلمات التالية:

«لقد وجهّت لي يوم أمس صفعة وراء أذني، حرمتني من النوم. فقد استيقظت في الخامسة صباحاً، ورسمت مخطّطاً لحواري مع نابليون وكعقوبة لك كونك قد أغريتني للإقدام على هذا الفعل، سأقوم بتشكيل

هذا المخطط»[1].

إنّ هذين الخبرين الصادرين عن موللر، ينتظمان في أعمال غوته التي وصلت إلينا، واللذين أملاهما غوته ولم يكتبهما. وهما ينقسمان إلى مخطّط قصير ورسم مطوّل وقد قام إيكرمان بعد وفاة غوته بدمج النصّين في نصّ واحد، ونشرهما عام 1836 في «آثار غوته المنشورة بعد وفاته». تحت عنوان «رسم تخطيطي» .وفي عام 1958 اكتشفت ليزي لوتي بلومن تال الأصول المتعلّقة بالنصّ المطوّل المعنون بـ «محادثات مع نابليون» وهو النص السائر الذي اقتبسته في الطبعة التي قامت بإعدادها وهي «طبعة هامبورغ» لكنّ بلومنتال تعتقد أنّ دمج المخططّين في نصّ واحد يعود إلى غوته نفسه. وسنعتمد في هذا الكتاب على رؤية إيرم تراوت شميدت التي قامت في «طبعة فرانكفورت» الصادرة عام 1994 بالفصل بين المخططيْن وطبعتهما منفصليْن، والفارق في هذه الحال ليس كبيراً؛ لأنّ النصيّن كليهما ينتمي إلى حقبة زمنية تقع بعد نصف عقد من وقوع الحادثة، أما الخلاصة والجوهر فهما موجودان في الرسم التخطيطي التفصيلي الخاص بيوميْ الأول والثاني من تشرين الثاني عام 1808م.

أوضح غوته أنّ إحجامه عن نشر لقائه مع نابليون ووضع هذا اللقاء في دائرة الضوء أثناء حياته، يعودان لأنّ الموضوع لا يزال حيّاً ويمكن أنْ يمسّ الصلات المؤثّرة، فقد صرح غوته في عام 1830 لفريدرك زورته قائلاً: «إنني أتجنب كلّ ما من شأنه أنْ يقود إلى أي خلاف محتمل، لتختلف الأجيال القادمة كيفما شاءت، لكننا نريد أن نعيش بسلام»[2]. ولم يكن هذا ليحول بين غوته والقيام بالعمل على حكايته. فإنّ قراره بأن يدع، في ما يخصّ الهيكل العظمي الخاص بالمخطط شيئاً ناقصاً، تختلف

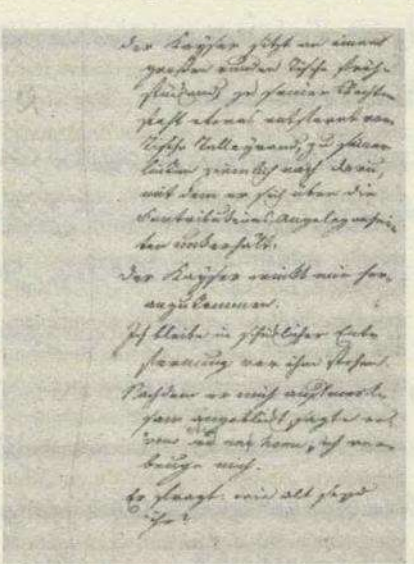
(1) Müller, Unterhaltungen mit Goethe, S. 66 und S. 113.

(2) Blumenthal, S. 270.

فقراته وتتباين، يشكل على المستوى الأدبي أمراً خطيراً —ويصعب على أحد أن يتصور أنّ غوته لم يدرك ذلك؛ لأنّ نصّ غوته الذي يعرضه لنا الموضوع الذي يجري استذكاره، يُقدَّم على شكل مادة خام، متقطّعة، مما يجعل فيه لوناً من القوة التعبيرية التي تُذكّر على المستوى الأسلوبي بأعمال غوته الأكثر أهميّة، وهو كتاب غوته «سنوات التجوال»، حيث يتجاور، على نحو مقصود، الوضوح الشّفاف إلى حوار الملامح غير الواضحة. لكنّ الوضوح الذي يصف غوته من خلاله المكان، يتجلى للعين الناظرة على نحو يكشف عن دقة ذاكرته. فلا تزال الصالة التي جرى فيها المشهد موجودة إلى اليوم. وأبعادها هي:

8,9 طولاً، 6,45 عرضاً، 3,2 ارتفاعاً.

كان المتحاوران متقاربين في الطول، فقد كان طول نابليون حوالي 169سم، وكان غوته يزيد عليه بسنتيمترين أو ثلاثة سنتيمترات.



الحوار مع نابليون

وقد كادت المحادثات تصل في جزئها الثاني إلى الحميميّة التي وصفها يوهانسّ فون موللر بحوار الكنبة، التي كانت موجودة في زاوية الصالة الصغيرة[1].

سنقوم، قبل أن تتجّه صوب المصادر الأخرى، بتحرير بطلينا من لحظة الجمود والثبات، ونواصل تأمل نصّ غوته.

لقداعتنيت بنفسك جيداً، قال نابليون لغوته بعد أن تأملّه في النظرة الأولى، وتأكّد من سنّه.

لكنّ التقرير الذي يرجع إلى عام 1824، تسير مجرياته على النحو الآتي:

لقد كتبت مسرحيات تراجيدية

فأجبتُ بما هو ضروري لا أكثر

هنا أمسك دارو بدفة الحديث، وهو الذي سبّب للألمان الكثير من الألم والمعاناة، ليقوم هنا بمجاملتهم قليلاً.

كان دارو قد دوّن بعض الملاحظات عن الأدب الألماني، كما اعتاد أن يفعل مع الآداب اللاتينية، التي ترجم عنها هوراس:

تحدّث (دارو) عنّي كنا يُحبّ رُعاتي في برلين

أن يتحدثوا عنّي. وقد تمكنّت، على أقل تقدير، أن أعرف

طريقة تفكيرهم وطبيعة مواقفهم.

ثم أضاف إلى ما قاله عني: إنني ترجمت مسرحية «فوليتر

محمّد» عن الفرنسية.

فأجاب الإمبراطور: إنّها مسرحية غير جيّدة. ثم بيّن بإسهاب ما تتّصف به المسرحية من عدم اللياقة، لدرجة أنّها تصف فاتح العالم

(1) بخصوص قياسات الحجرة أتوجه بالشكر إلى استشارية الدولة في تورينغن، أما عن طول كل من نابليون وغوته فأشكر يوهامس فيلس، بخصوص الأول وغيرهارد شوستر بخصوص الثاني.

بأوصاف غير مناسبة.

بعدها نقل الإمبراطور الحديث إلى فيرترالذي ظلّ يتمنّى لو كان بوسعه أن يطيل في درسه. وبعد أن أبدى مجموعة من الملاحظات السديدة والمتنوّعة، أشار إلى موضع بعينه وقال:

«لماذا فعلت ذلك؟، ألا يخالف ذلك طبيعة الأشياء؟» من هو ذلك الذي استطاع أن ينتشر على نحو عريض، وأن يجادل على نحو سليم تماماً.

استمعت إلى كلامه بوجه بهيج وأجبتُ وابتسامة الرضا تعلو شفتي، بأنني لا أدري إنْ كان قد سبق أن وجه لي مثل هذا المأخذ، لكنني أجده صحيحاً. وأعترف بأنني في هذا الموضع أردت أنْ أثبت أمراً غير حقيقي. ثم جلستُ وأنا أقول:

لعّل من الضروري أن نغفر للشاعر إذا استعان بخدعة يصعب اكتشافها من أجل خلق تأثيرات، يصعب عليه أن يخلقها لو أنه كان قد سلك طريقاً طبيعّياً.

بدا الإمبراطور سعيداً بما قلته، بعدها رجع إلى الحديث عن المسرح، ليتحدّث بملاحظات في غاية الأهميّة، خاصّة كيف بدا المسرح التراجيدي يمنح الانتباه الأكبر شأنه شأن القاضي الجنائي، لينصرف المسرح الفرنسي في تلك الأثناء عن الطبيعة والحقيقة، وهو ما وجده أمراً مؤثراً بعمق.

ثم تحدث بعد ذلك عن النصوص ذات الطابع القدري بشيء من الاستنكار، إنّها تنتمي إلى العصور الأكثر، إظلاماً، وما قاله: ما الذي يريده المرء من القدر في هذه الأيام، السياسة هي القدر.

كان الحوار في جزئه الأول مخصصاً بالدرجة الأولى للمسرح. وهذا الأمر غير مفاجئ في ظلال ما كان يجري في إيرفورت يومها، حيث

كان المسرح يقع في بؤرة اهتمام الرأي العام.

وكان حسناً أن يُسجل غوته، أنّ كلمات الإطراء التي قالها دارو بحقه، لا تمثّل انطباعاته الذاتية، بقدر ما تعكس ما سمعه دارو من جمعية غوته في برلين تحديداً وهي جماعة متحمسة لأدبه، تشكّلت هناك منذ مدة طويلة. أما مسرحية فولتير، التي تتحدث عن التعصّب الديني والتمسح بالدين ووحشية الحروب الدينية، فلم تحظ بإعجاب الإمبراطور؛ لأنّ تصوير حروب الرسول محمد في المسرحية على نحو سلبي، أزعج الإمبراطور، فكأنّ هذه الحال التي تبرز على نحو سلبي في المسرحية، يتحدّث عن نابليون وحروبه. أما الملاحظة السديدة التي قادت إلى الموضوع الثاني فهي كتاب «فيرتر» الذي درسه نابليون بدقّة، لدرجة أنه استطاع أن يشرح لمؤلّفه خطأه «الذي لا يتفّق مع طبيعة الأشياء»، ليقرّ غوته بذلك في نهاية الأمر. أما ما يمكن أن يعنيه ذلك، فسيكون شغلنا الشاغل في ما بعد. وأثناء سير الحوار، فإن نابليون سيعود مجدّداً إلى المسرح، كما سيعود مجدّداً إلى ثنائية «الطبيعة والحقيقة» بوصفهما قياساً على درجة قصوى من الأهمية. إنّ قيام شخص كنابليون بالتقاط موضع في «فيرتر» على هذا النحو من الدقّة وتأمل المسرح التراجيدي كأنه «قاض جنائي» يمكن أن يعني: أنه لا يريد أن يكون مُضّللاً أو مخدوعاً، بل إنه يرى من خلال الأسلوب الأدبي بما ينطوي عليه من تأثيرات وهميّة الوقائع والمصالح مصوّرة. وإلى هذا السياق ينتمي ما صرح به غوته بعد ذلك بعامين في مقالته «المسرح الفرنسي الرئيس» التي تعتمد مبدأ الوحدات الأرسطية في المسرح الفرنسي.

«إنّ الفرنسي يُريد (أزمة) فحسب. فكلمة نابليون الثاقبة هذه تعني، أنّ الأمّة تعودت على العرض البسيط الذي يُقدّم على خشبة المسرح

والذي يتصف بالسهولة والانغلاق».[1]. أما القاضي الجنائي فإنه يكشف، في النهاية، البناء الأساسي الذي تقوم عليه جماليات المسرح الكلاسيكي. وخلاصة لهذا الحوار الذي ظلّ يتكئ على مسألتي الفن والحقيقة، برزت مسألة الهجوم على المسرح القدري. ولم يكن الأمر خاصّاً بمسرحية تتكئ على نمط معيّن، تستطيع بما تنطوي عليه من إشارات ومعجزات ومواقف مفاجئة وتغيير للشخوص والعودة إلى الماضي أن تجعل المتفرج يحبس أنفاسه، بقدر ما يقوم على الأسطوري، الذي تسيّره الآلهة، التي تقوم بجرّ الأجيال اللاحقة إلى الهاوية في التراجيديا الإغريقية وتنظر إلى العميان من البشر بوصفهم كرات من القوى العليا: «ما الذي يريده المرء من القدر في هذه الأيام؟» أضاف نابليون: «إن السياسة هي القدر» وبذلك يكون الموضوع قد أُختتم وكأنّه نُقل إلى ذُرى عليا.

إنّ السياسة هي حقل أنواع الواقعية كلّها، التي تتفّق مع «طبيعة الأشياء»، ومع كلّ «حقيقة» رزينة بقي نابليون، غالباً ما يفتقدها في المسرح، كما أنّ السياسة هي، بطبيعة الحال، من اختصاص الحاكم الذي يحاور أحد كتّاب المسرح. كان نابليون يتصّرف هنا، بوصفه تجسيداً للواقع الذي ينبغي أن يدور المسرح حوله، لكنّ الأحداث السياسية الجارية في تلك اللحظة، استطاعت أن توقف مجرى الحديث. فقد كان على الإمبراطور أن يلتفت إلى ارتباطاته اليومية، فترك الشاعر مدة طويلة مع ذاته وأفكاره.

التفت ثانية نحو دارو وتحدث معه عن شؤون الغرامات، فتراجعت قليلاً إلى الخلف، كي أظل في تلك الزاوية الصغيرة، التي عشت فيها عاماً ساعات سعيدة وأخرى مريرة قبل ما يزيد على ثلاثين عاماً. في

(1) Grumach VI. S. 540. MA 18.2. S. 122.

تلك اللحظة توافر لي الوقت كي ألحظ أنه كان على يميني، أمام الباب، بيرتهير وسافاري وشخص آخر. أما تاليران فقد ابتعد، في حين أعلن عن وصول الماريشال سولت.

دخل هذا الرجل الضخم ذو الشعر الكثيف إلى الصالة، فسأله الإمبراطور مُمازحاً حول بعض الحوادث غير المريحة في بولندا، فصار لدي الوقت كي أتأمّل في الغرفة، وأفكّر في الماضي.

كانت الخلفيات القديمة لا تزال موجودة.

لكنّ الصور المعلقة على الجدران قد اختفت.

كانت هنا صورة الهرتسوغة أمالي معلّقة، وكانت ترتدي زيّاً خاصاً للرقص وفي يدها نصف قناع، كما تلاشت الصور الأخرى الخاصة بالمقرّ الحكومي وأفراد الأسرة».

إنّ هذه الفقرة من تخطيطات غوته توقظ الانطباع العميق، بوجود وضوح شفّاف أثناء عملية التذكرّ. فالفكرة الرئيسة تجد نفسها محاصرة من المتحدثين على المستوى المكاني، والإدراك البَصَري.

تراجع غوته إلى الخلف ووصل إلى زاوية صالة الاستقبال –الموجودة إلى اليوم– كي يبقى هناك. وبهذا صرنا نعرف أنّ الطاولة المستديرة الخاصة بالإمبراطور الذي تبدأ منذ مدخل الصالة، تقف في النصف الغربي للصالة. لقد انتقلت محادثات القيصر إلى الموضوعات الحربية، كما تبدو من خبرة غوته في السنتين الأخيرتين في ضوء ما هو متداول في فايمار: كالغرامات الحربية والعبء الضخم الذي خلفّته الحقبة النابوليونية. أما الأحداث غير المريحة في بولندا، فقد كانت بحسب معرفتنا، تدور حول القلاقل التي أثارها الفلاحون والتي أزعجت نابليون، كما وقع في إسبانيا. وقد كان لتلك الأحداث أهميّة كبرى في لحظة التفاوض مع القيصر. لكنّ ظلالاً من الرزانة أخذت تلقي بنفسها على المشهد.

فالجنرالات يسيطرون عليه، وعلينا أن نتخيّل الأزياء الرسمية، وقد اختفى تاليران. أما غوته فهو يقرأ ماضيه الشخصي في بقايا تجهيزات المنزل القديمة التي جُلب بعضها من باريس، أو جرى تصنيع بعضها مثل السجاد وقطع الأثاث مؤخراً في غوتا، كما أخذ يتذكر أيام الاحتفالات في هذا المقر الحكومي Kurmainzische Statthalterei أيام دالبيرغ. وفي استخدام آسر من الإيجاز يظهر الماضي المتلاشي على شكل لحظة تذكر، تبدو من خلال الصورة الغائبة لهرتسوغة فايمار آنّا أماليا، والدة كارل أوغست التي كانت ترتدي ثياب الرقص مع نصف قناع، أي تبدو في هيئة كرنفالية مرحة. فالشاعر، الذي يقف في مواجهة أعظم رجال عصره، كان يجد الفرصة لنظراته الاسترجاعية السريعة والممتدّة لتغطّي نصف حياته. بما أنطوت عليه من ساعات حلوة ومريرة.

إنّ مرحلة الاستراحة هذه في هذا الوضع المتوّتر، تشكل أكثر اللحظات حركيّة في نصّ غوته هذا.

أما نهاية الحوار، فإنه يبدأ بتوقف واضح:

وقف الإمبراطور، واتجه نحوي وفصلني، عبر حركة تتسم بالمناورة، بعيداً عن بقية الذين أقف بينهم.

وأثناء ما كان يدير ظهره لكل واحد منهم، وهو يتحدث معي بصوت معتدل سأل: إن كنتُ متزوجاً ولدي أطفال، وما الأشياء التي تَهُمّني. كما سألني أيضاً عن علاقتي ببيت الإمارة، وسألني عن الهرتسوغة أماليا، والأمير والأميرة فاجبته على نحو طبيعي. كان يبدو سعيداً وقد قام بترجمة ذلك إلى لغته على نحو قريب، ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

نهض نابليون من على طاولته المستديرة واتجه نحو غوته، الذي يتنبه ثانية في تقريره إلى الوضوح المكاني. ونظراً لأنّ تاليران قد غادر الصالة وحضر سولت. فقد صار إلى جانب القيصر خمس شخصيات إضافة

إلى غوته. أربع شخصيات من ذوي الرتب العسكرية هم: دارو وبيرت هير وسافاري وسولت إضافة إلى موظف البلاط السمين.

كانت الشخصيات الخمس التي استقُبلت تقف في صف واحد من اليسار إلى اليمين -نحن نتخيّل خط سير نظرات غوته من باب صالة الاستقبال إلى الخارج وصولاً إلى طاولة الإمبراطور. لقد وجد غوته نفسه في أقصى اليسار في الزاوية، حيث كان دارو يصطف مباشرة إلى جواره وهو الذي كان قد دخل معه، وتحدث للإمبراطور عنه.

اقترب نابليون من غوته وفصله عن المجموعة وخفض من طبقة صوته. كان نابليون يعد الأسئلة التي وجهها لغوته سرّية وحرجة، لا يجوز أن يسمعها الآخرون. ونحن نستطيع أن نظّن، أن نابليون كان يقصد من ورائها إلى هدف عملي، وقد بقي تقرير غوته يتسم بالعمومية في هذه النقطة، وباستثناء «الطريقة القوية» التي ترجم من خلالها نابليون إجابات غوته، فإن ثمة اشتباها في نيته الواضحة. أي نية؟ هناك المزيد من ذلك. فالتقرير ينتهي بنوع من الوصف العام. فنابليون يظهر، عموماً، مرناً وحيوياً وشخصية تكاد تكون زئبقية. أما التعاطف مع زواره فيبدو واضحاً. لهذا ترك نابليون غوته يظهر في مظهر الاحترام في البلاط دون إذعان.

ويتوجب عليّ في هذا الإطار أن ألاحظ عموماً أنني كنت طيلة المحادثة معجباً بتنوع قدرته على التعبير، لأنني نادراً ما رأيته لا يتحرك، فهو إما أن تراه مطرقاً برأسه مفكرّاً، أو يقول: أجل. أو يقول: هذا حَسَنٌ أو شيء مشابه، ولا يجوز لي أن أنسى، إبداء ملاحظة أنه عندما كان يتحدّث، كان يضيف في العادة: ما الذي يقوله السيد غوت عن هذا؟ وقد انتهزت الفرصة لأسأل، عن طريق الايماءة، موظف البلاط

إن كنت أستطيع الاستئذان؟ فأعطاني الموافقة لهذا فإنني لم أتردّد في الاستئذان على الفور.

إنّ العرض بأكمله يبدو على الرغم من إيجازه، في غاية الوضوح والثراء، فهذه الساعة المحدودة من الزمن، استطاعت أن تعطي لموللر، ذلك الجالس في الممرّ بانتظار غوته، مادّة في ذكرياته عن ذلك المثول. خاصة عندما تتذكر ذلك الانقطاع بسبب دراو وسالوت، ووداع تاليران.

استطاع هذا الانقطاع أن يقسم الحوار إلى مرحلتين واضحتين على مستوى المضمون.

أمّا المرحلة الأولى فتدور حول الأدب وعلاقته بالحقيقة، والثانية، وهي أقصر قليلاً فتدور حول الظروف الشخصية لغوته وعائلته وعلاقته بالبلاط في فايمار. فالوضوح المكاني وتدفق الذكريات يؤكدان موثوقية عرض غوته. وقد كان السؤال المملوء بالحيوية الذي كان نابليون، كما في جاء في التقرير، ينهي مداخلاته به Que>n dit Mr Goet (ما الذي يقوله السيد غوت عن ذلك؟!) يعكس طريقة الكتابة في ضوء الصوتيات الفرنسية، حيث ينقص حرف (e) من اسم Goethe. ولعلنا نسمح لأنفسنا أن نتخيّل أنّ غوته وهو يملي ذلك في الرابع عشر من شباط عام 1824، كان يحاول أن يقلّد صوت نابليون. فهذا النص قادر على أن يقنع المؤرخ بل القاضي الجنائي.

إنّ هذا قد يستدعي إلقاء نظرة على المصادر الأخرى، التي نقلت مثل هذا الحوار؛ لأنّ ثمة نقطتين غير واضحتين هنا:

فما الذي وجده نابليون في «فيرتر» مما يحتاج إلى إيضاح على وجه التحديد، ومن الذي كان وراء استطلاعاته عن ظروف غوته الشخصية؟

إنّ جُلّ ما عرف من الحوار مع نابليون في الثاني من تشرين الثاني 1808 يعود على نحوٍ مباشر أو غير مباشر إلى غوته. فإذا كان غوته لم ينشر هذا الحوار أثناء حياته، وليس ثمة في أي رسالة سرية عرض مطول لهذا الحوار -كما في رسالة يوهانس فون موللر إلى أخيه سنة 1806- فإنّ غوته لم يدخر وسعاً في الإشارة إلى هذا الحوار في أحاديثه ورسائله. لذا فإن الشاهد الأول على المستوى الزمني المبكر، ينتمي إلى الدائرة المباشرة القريبة من غوته. ففي الأيام الأخيرة لمؤتمر إيرفورت، ألّف فريدريش فون موللر، باللغة الفرنسية وبناءً على طلب من تاليران، «مذكرات» مختصرة حول محادثات نابليون مع كلّ من غوته وفيلاند». وقد وجدت مخطوطة هذا العمل بين تركة موللر. وهذا العمل ذو نبرة صوتية عالية ودبلوماسية شديدة التفاني، لكنه قليل الجدوى على المستوى الموضوعي.

فهو يزعم أنّ المحادثات قد دارت «حول النقاط المهّمة في التاريخ والأدب»، كما دارت حول «فيرتر»، التي قرأها، الامبراطور، حسب قوله، سبع مرّات؛ لذلك كان قادراً على الحكم عليها على نحوٍ متميز، سواء في تفصيلاتها أم في بنائها الكلي(1). أمّا العرض الذي قدّمه موللر في وقت لاحق، في أربعينيات القرن التاسع عشر تحديداً، فهو لون من الاشتغال السردي على ما قدمه غوته عام 1836 من تخطيط، سبق لموللر أن حثّ غوته على تدوينه.

أمّا أن موللر، على النقيض مما قاله غوته بصراحة، كما سبق أن كتب في رسالة بعث بها عام 1808 إلى راينهارد، اعتماداً على شهادة مدوّنة بأنّ نابليون قال: هنا رجل بدلاً من أنت رجل، وأنّه كان يشعر بالحرج

---

(1) Suphan, Napoleons Unterhaltungen mit Goethe, S. 20-23. Grumach VI, S. 542.

منذ بداية الحوار إلى نهايته، فهو لون من التدخل الذي يكاد يصعب فهمه: فمن صيحة الدهشة يجيء الاعتراف العظيم. لكنّ موللر لا يستطيع أن يتوقف عن كونه دبلوماسيّاً. فلعله سمع من غوته بعد انتهاء اللقاء، أو بعد ذلك، أمراً أو آخر، فقراءة نابليون سبع مرات للكتاب، التي يتحدث عنها موللر في مذكراته أيضاً، يمكن أن تكون صدرت عن غوته—فأيّ كاتب لا يفرح لمثل هذا الكلام؟

توجد في «ذكريات» موللر كذلك معلومتان إضافيتان جديرتان بالتصديق. فقد طلب نابليون من غوته، بناء على الحديث، أن يكتب عملاً مسرحياً عن يوليوس قيصر، وأن يجيء إلى باريس. «إنّ ذلك العمل التراجيدي هو بمثابة مدرسة للملوك والشعوب، إنه الذورة التي يستطيع الشاعر بلوغها. إنّ عليك، على سبيل المثال، أن تصف موت القيصر بما يستحقه من تكريم شامل، وعلى نحو يفوق ما كتبه فولتير. ولعل هذا يمكن أن يشكّل المهمّة الأجمل لحياتك. إنّ علينا أن نُري العالم كيف كان القيصر سيجعل العالم يغدو أكثر سعادة، وكيف كانت الأمور ستبدو مختلفة على نحو جذري، لو أنه أعطي المزيد من الوقت، كي يقوم بتنفيذ مخططاته النبيلة. تعالَ إلى باريس، فهناك توجد رؤية أكثر رحابة للعالم، وهناك ستجد مادة غنية لأشعارك»[1]. لقد أكدّ غوته نفسه تحفيز الأمبراطور له للكتابة عن يوليوس قيصر، وإن كان ذلك قد وقع في فايمار في السادس من تشرين الأول، في الحوار الثاني مع نابليون وهو ما سنعود إليه لاحقاً. كما أن دعوة الإمبراطور لنابليون للقدوم إلى باريس، هو أمر قابل للتصوّر[2] وممكنّ الحدوث في الجزء

(1) Müller, Erinnerungen, S. 139.

(2) في الخامس عشر من تشرين الأول كتب غوته إلى سلفيا تسيغي زار «لقد دُعيت بإلحاح من أجل القدوم إلى باريس» ويمكن أن يتفق ذلك مع زيارة تالما لمنزل غوته الذي دعاه للقدوم إلى هناك ليستمتع بما ناله من شهرة. فهل فعل تالما ذلك بتكليف من نابليون؟

الثاني من الحوار، أي في الجزء السرّي الذي قام المخطّط الذي وضعه غوته بالتعبير عنه على نحو غير واضح. أما إجابات غوته عن الأسئلة الخاصة بوضعه الشخصي، وطريقة نابليون «الحاسمة» فإنها تشير ان إلى أنّه في حين كان أحدهما يلحّ، كان الثاني يتهرّب. وفي كل الأحوال فإن نابليون منح غوته من خلال هذا الحوار الفرصة، كي يظلّ غير مقيّد. فعندما أملى غوته مخططه هذا عام 1824، كان الهرتسوغ كارل أوغست لا يزال حيّاً، وكان لدى غوته الأسباب كلّها، كي يظل مبتعداً عن الأضواء. أما بالنسبة لنابليون، فقد كان مثل هذا الطلب يخلو من المغامرة، فقد كانت دعوته سَتُلّبي في أحسن الأحوال، وعندها فإنه سيكون فخوراً بقرب واحد من كبار الأدباء الألمان، بعد أن صنع من يوهانّس فون موللر وزيراً في كاسل.

ففي عام 1807، قام نابليون في أحد الكتب التذكارية بالتساؤل عما إذا كان من الأجدى أن يكون المرء شاعر البلاط أو شاعر الإمبراطور. صحيح أنه بقي يتشكّك في جدوى ان تطلب من فن معيّن، على نحو علني، أن يقوم بما يستطيع كل أحد أن يقَوم به؛ لأنّ من يمتلك ذائقة لا يحتاج إلى أدوات، لكنّه تذكر أوسمة التكريم التي تمنح للأدباء المعاصرين وتساءل: «لماذا لا يشارك، مثلاً، بعض الأدباء في المسرح الفرنسي تحت ألقاب شرّفية؟ ولماذا لا يتم منحهم التقاعد في ضوء تلك الألقاب، والتشاور معهم حول الأعمال التي سيجري تقديمها. إنّ هذا لن يكون سبباً في أيّ لون من الإزعاج»[1].عقود استشارية للأدباء: على هذا النحو الجاد كان الإمبراطور يجيب عن تلك الأسئلة.

أمّا الأحجية الأكثر تعقيداً في الحوار، فتتعّلق بـ «فيرتر». فما هو الموضع يا ترى الذي عابه نابليون بوصفه لا يتفّق مع طبيعة الأشياء؟

(1) Correspondance de travail. S. 191 (19. April 1807).

تأتي إجابة موللر عن هذا السؤال ماديّة تماماً. فالإمبراطور كان يتمنّى أن يجد في «بعض المواطن مزجاً بين دوافع الطموحات الجريحة والحب الجارف». «وهذا لا يتفق مع طبائع الأشياء ويضعف تصور القارئ القائم على التأثير الساحق للحب على فيرتر. لماذا فعلت هذا؟»[1]. يتضح كيف أنّ موللر اشتغل على صياغات غوته ثم قام بإكمالها، لكنّ الحل الذي قدّمه كان لا يقع في دائرة المحتمل على الإطلاق، ويتناقض مع ألفاظ غوته في مخططّه؛ لأن الحديث كان هناك يدور حول «خدعة». وقد استطاع غوته أن يستخرج دعابة من ذلك، تتمثل في أنه أخفى الأسئلة الخاصة بفيرتر طيلة حياته.

وقبل أن يقوم غوته بتدوين حواره مع نابليون بأربعة أسابيع، تحاور مع إيكرمان حول هذا الأمر الذي أشار عليه بما كان نابليون يقصده في كلامه، فقد بين إيكرمان أنّ الموطن المقصود هو «حيث قامت لوتي بإرسال المسدسات، دون أن تنبس بكلمة واحدة ضد ألبرت». عندئذٍ أجابه غوته قائلاً من غير أن يبوح بالسّر: «إنّ ملاحظتك مثل ملاحظاته سليمة أيضاً» [2]. وقد أشار غوته إلى خبر غريب يتمثّل في قوله: إنّ الإمبراطور «جعله يضحك» وهو ما كتبه غوته إلى زوجته في السادس عشر من تشرين الأول 1808 وكرّره عام 1815 في حديثه مع سوليبس بويسيري، دون أن يوضح، في المرتيّن، مناسبة ذلك[3].

لكنّ المخططّ الخاص بالحوار يذكر أثناء الحديث عن اللوم الموجه إلى «فيرتر» «الابتسامة القانعة» التي وافق عبرها غوته على صحة النقد الموجه لكتابه، وبهذا فإننا نستطيع أن نعتمد على هذه الفكاهة في هذه المرحلة من الحوار.

---

(1) Müller. Erinnerungen. S. 138.

(2) Eckermann. Gespräche. 2. Januar 1824. Grumach VI. S.549.

(3) Grumach VI. S. 536 und 5. 548.

«لماذا فعلت هذا؟» إنّ الأحجية تكبر وتتنامى من خلال ضحكة غوته.

لقد كان فيلهلم فون هومبولت، في ما يخصّ هذه الأخبار، واحداً من أفضل الشهود أثناء حياته. كان هومبولت يجمع بين الدقّة والكفاءة، فقد كان قادراً، مثلاً، بعد سماعه محاضرتين ألقاهما غوته عام 1823، أن يُقدّم في رسالة بعث بها إلى زوجته، وصفاً وتحليلاً مكتملاً لقصيدة غوته، الطويلة والمعقّدة «مرثية مارين بيدر»، كما يستحق اهتماماً خاصّاً كذلك، ذلك الحوار الذي بعث به كذلك إلى زوجته والذي أجراه مع غوته في التاسع من تشرين الثاني 1808، فهومبولت هو أحد القلّة الذي زوّدهم غوته بتقرير مفصل، إلى حد ما، عن لقائه بنابليون، فقد كتب هومبولت «كان لغوته لقاء مطول بالإمبراطور الفرنسي» ثم أضاف:

«وقد كانت آلام فيرتر والمسرح الفرنسي موضوعين رئيسّين في الحوار الذي شهده ذلك اللقاء، وقد عاب الإمبراطور موضعاً محدداً في آلام فيرتر، غاب عن جميع القرّاء، بحسب تأكيدات غوته. وهذا الموضع (الذي لم يرد غوته أن يشير إليه على وجه التحديد) هو أحد المواضع التي يلتقي فيها نسيج الحكاية الحقيقية بالخيال. وقد لاحظ الإمبراطور ذلك بسهولة. أما المسرح الفرنسي، فإنّ الإمبراطور يعرفه معرفة تفصيلية ممتازة أثناء الحكم على اتساق الشخصيات وفي المقارنة بين الموتيفات التاريخية والأدبية. أما الذي أعجب غوته به على الوجه الأقوى، فيتمثل في أنّ نابليون لم يَعبْ أمراً أدبياً، دون أن يكون قادراً على أن يقترح البديل الذي يتوجّب أن يحّل محله»[1].

ويستطيع المرء أنّ يُميّز. دون كبير جهد، الموضوع الرئيس في الجزء

(1) Grumach VI. S. 547.

الأول من الحوار الذي دار حول الطبيعة الحقيقية للأدب، من الموضوع الثاني الذي يبدو أنّ غوته لم يتحدث إلى هومبولت عنه. أما بخصوص الأدب فإن الإمبراطور تحدث على نحو لا يخلو من الحذلقة عن الصحّة والصدقية وهو ما قاده بعمق نحو مسائل الصنعة. لهذا عاب الإمبراطور الفجوة بين الحكاية والخيال في فيرتر او ما يمكن أن نُعبّر عنه: بموقف السارد من المسرود Erzaehlhaltung دون أن يكون لذلك صلة بالمحتوى. وقد بقيت هذه الفجوة في الطبعة المنقّحة التي صدرت عام 1786. فقرب النهاية وبعد سلسلة من الرسائل التي تنتهي بتصوير تطوّر شغف البطل الرئيس بـ «لوتي»، عارضاً ذلك أمام القارئ، يظهر «ناشر» من الكواليس يزعم أنّ لديه في ما يخصّ الأيام الأخيرة بالانتحار» أخباراً دقيقة من أفواه أولئك الذين عرفوا حكايته». لكنّ هذا الخيال الوثائقي ما يلبث أن ينكسر في أحد المواضع، فعندما يأتي للسارد وهو يتمشّى وحيداً في يوم شتائي صوت من أعماقه خاص بأمور فيرتر التي لم يكن يعرفها من قبل أبداً، كما يحدث عندما يدور الحديث عن «استيائه الخفيّ من زوجته (لوثي)»، أو عندما يقول:

«أجل، أجل يقول لنفسه، وهو يصرّ على أسنانه خلسة». فالتقرير الوثائقي هنا يتجاهل في هذه النقطة المشاهد الداخليّة الحيّة:

«إنّ الطقس الرائق يستطيع، على الأقل، أن يكون له تأثير على وجدانه الكدر. فإنّ نفسه ترزح تحت قوة ضغط ثقيلة، والصور الحزينة استقرت داخله، ولم يعد وجدانه يعرف الحركة إلّا من خلال الانتقال من أفكار مؤلمة إلى أخرى».

هذه ملاحظات لا يمكن لطرف ثالث بعد موت البطل، أن يظفر بها على الإطلاق. لهذا مال آرثر هنكل إلى الظن –اعتماداً على مقالة قديمة كانت قد نشرت عام 1931 في «أوراق بايرويتية» – أنّ اعتراض نابليون،

في غالب الظن، يبرز في هذه العاصفة من المشاعر التي لا يكاد المرء يُحسّ بها في هذه الرواية الكارثية المتسارعة. وإن كان ليس من المنطقي عدم إنكار الانكسار في الخيال[1]. وهذا يمكن أن يشكّل في واقع الأمر، ملاحظة تنتمي إلى «الفضاء الجنائي» كما يجري عندما تتم عملية فحص أقوال الشاهد على نحو تفصيلي دقيق. وهو ما يمكن أن ينطبق على صياغة غوته الخاصة بـ «الخدعة التي ليس من السهل اكتشافها» والتي قام بها لإحداث مزيد من التأثير، ولسنا قادرين على أن نقرر فيما إذا كان هذا اللوم الماكر هو الباعث وراء ما يتجاوز «الابتسامة القانعة»، والذي قاد غوته، كما يقول، إلى الضحك. لكننا عرفنا، كما شهد بذلك إيكرمان أنّ غوته في تلك السن المقدّمة، ظل يفخر أنه قرأ أن نابليون في أثناء حملته العسكرية على مصر، كان يصطحب معه «فيرتر» في مكتبته الميدانية[2].

وقد خطر لنابليون بعد انتهاء الحملة الفرنسية على مصر أن يكتب مفتتح رواية «كليسون وأويجيني» Clisson und Engenie التي وصلنا منها اثنتا عشرة صفحة، وهي رواية شهوانية، تعتمد على الغيرة، ويمكن للقارئ أن يجد في نبرتها العاطفية–المزاجية وجهاً من وجه تلقي فيرتر. وهذه المحاولة يمكن أن تقود الشخص ذاتّي التعلّم والمهتم بالأدب إلى إلقاء نظرة دقيقة فاحصة على التقنيات الأسلوبية في رواية غوته[3].

(1) Henkel, "Warum habt ihr das gethan?" sowie Prüringer, Der "Fehler" in Goethes "Werther".

(2) لقد دار الشك كذلك حول طبعة هنكل، فقد جادل فاغن كنشت في كتاب غوته السنوي صفحة 206 وما بعدها أن يكون نابليون قد أخذ معه الطبعة الثانية التي صدرت عام 1797 إلى مصر مع أن الأمر معقول وهو لم يحل لنا هذه المسألة. ثم تحدث عن «الخطأ البنيوي» الذي يتمثل في (الطبعتين) في رسالة الوزير التي لم يستطع فيرتر الحصول عليها نظراً لذهابه. فالناشر المُتخيّل لا يستطيع بالتالي الحصول على هذه الرسالة، لأنها كانت ضمن ما تركه فيرتر بعد إقدامه على الانتحار.

(3) Napoleon Bonaparte, Clisson und Eugénie. Zweisprsichige Ausgabe. München 1969.

إنّ كل هذه المناقشات النقدية للمصادر مرّت دون إشارة واحدة إلى مذكرات تاليران. وكنا قد عرفنا من غوته عن حضور تاليران الجزء الأول من الحوار بين نابليون وغوته، كما سبق لنا أن ذكرنا أنّ تاليران عرف عن حديث الإمبراطور الأدبي من خلال التقرير Tischvorlage الذي طلب من مولّلر إعداده. وقد زعم تاليران أنه تناول العشاء مع غوته بعد انتهاء مثوله بين يدي نابليون، وأنّ نابليون قد شرع على الفور، في تدوين الجزء الأول من هذا الحوار. لكنّ أحداً لا يستطيع أن يتحدّث عن تناول غوته للعشاء مع تاليران في تلك الليلة ولا في يوم تال بعيد. تتحدث يوميات غوته بصراحة عن «وجبة الطعام عند الهرتسوغ» في الثاني من تشرين الثاني، أي بعد انتهاء مثوله بين يدي الإمبراطور وتذكر المشاركين: «أميرة تاكسس Taxis وهرتسوغة هيلد بورغ هاوسن». وطبقاً لتاليران، فإنّ نابليون لا بدّ أن يكون قد طلب من غوته أن يحضر «مساء اليوم» مسرحية راسين «إيفغيني»، لكنّ المسرحية التي جرى عرضها ذلك اليوم كانت «ميت هرديتس» التي كان نابليون قد شاهدها من قبل. وتستمر قائمة التناقض، وعلى من يهتم بالتفصيلات أن يدرس كتاب لودفيج غايغر «فايمار-العتيقة» الصادر عام 1897م[1]. أما موضوعة -فيرتر فإنّ تقرير تاليران لا يذكرها على الإطلاق مع أنّه سبق لرجل الدولة الفرنسي هذا، في سياق أحاديث شفاهية، أن تحدث عن الأمر لطرف ثالث.

وبهذا نصل إلى نتيجة مفادها، أنّ الروايات في ذكريات تاليران غير مؤكدّة، فقد فُقِد الجزء الأكبر من المخطوط الأصلي، لكنّ المقارنة بين الفقرات التي وصلت إلينا في المخطوط والنصّ المطبوع، تبيّن الاشتغال الواسع على التفصيلات التي تصبغ النص بالرؤية المعادية لنابليون، على

(1) S. 133-134.

خلاف ما كان ينبغي أن يكون. وهذا قد دعا واحداً يؤمن بشرعية آل البوربون ليعيد النظر في الكتاب الذي دُوّن بعد عام 1815 والذي تم نشره عام 1891م.

إنّ إعادة إنتاج الحوار مع نابليون، كانت تعكس الاهتمام بتسليط أضواء غير محبّبة على نابليون يبدو فيها متعجرفاً وصاحب فضل. لكنّ ذكريات تاليران تبين أنّ الفكرة الرئيسة للحوار كانت ترتبط بالحديث عن الأدب المسرحي، الذي كان نابليون مطلعاً على مسائله بعمق» إنّ أحداً لا يوّد أن يتحدث عن تزوير في هذا المقام، لكنّ من الممكن أنّ شيئاً من أحاديث الإمبراطور مع الألمان في حوارات أخرى قد تم نقلها إلى هنا، لكنّ ما يقوله شاهد العيان تاليران بخصوص تفصيلات الحوار، غير ذي صلة، لأنه كان قد خرج مبكرّاً من الحوار، ملتزماً الصمت. وهذا ما يسري، لسوء الحظ، على مسألة سياسية، أراد هذا الفرنسي، صاحب المقام الرفيع، التهوين من شأنها أعني علاقة غوته بهرتسوغ فايمار وزوجته، لاسيما أنّ هذه الفكرة تحضر في الجزء الثاني من الحوار، الذي كان تاليران، في ضوء معلومات غوته التي لا مجال فيها للخطأ، قد غادر الصالة.

إنّ كلام نابليون الوديّ عن الهرتسوغة لويز، أمر ممكن، لأنه تعود على أن يفعل ذلك مراراً وتكراراً بلون من المباهاة. أما أن يكون قد قال لغوته: «إنّ الهرتسوغ قد تصرف طويلاً على نحو سيئ، لكنّه تحسن قليلاً».

وأن يكون غوته قد أجابه:

«إنّ وضعه رديء، أما تحسّنه فقد جاء قويّاً نوعاً ما، لكنني لست قاضياً في مثل هذه الأمور، فهو يرعى الفنانين والعلماء، لهذا كان

عليهم أن يثنوا عليه»[1] –فهذا ما يصعب اتخاذ قرار بشأنه. لكنّ غوته، كان على ما يبدو، قد قال في سنة 1806 للمؤرّخ الشاب لودن: «ليس كل شيء قد حدث في الواقع، من هذا الذي يقدم لنا بوصفه تاريخاً، أما ما حدث في الواقع، فإنه لم يحدث، كما تمّ عرضه لنا»[2]. فهذا الوعي المتشائم قد صبغ أخباره الذاتية التي تؤكدها كلّ الظروف الخارجية لهذا اللقاء، والذي يضفي عليها هذا الوعي صدقية إضافية.

إنّ تاليران لم يكن كاذباً ولا مزّوراً، لكنّه يتصرف في ضوء أصول اللياقة مع الدقّة التاريخية، التي وضعها لخدمة هدف كبير، وهذا الهدف يتمثّل في إبراز خصائص نابليون، وليس في تصوير غوته.

كانت المفاوضات بين نابليون والقيصر قد قطعت أشواطاً حثيثة لدرجة أنهما طلبا في بداية شهر تشرين الثاني من وزير خارجيتيهما، شامبين ورومان تسوف إعداد الأوراق التي تتضمن الحلول الوسط. وفي الوقت نفسه كان الملوك يستمتعون عند هرتسوغ فايمار، لكنّ أياماً مرهقة عاشها غوته في الثاني والثالث من تشرين الثاني، عندما عاد إلى إيرفورت ثانية كي يتمكّن من مشاهدة «ميتهريديتس» و«زائير». أما في الرابع من تشرين الثاني فكان غوته يتفاوض مع مدير قصر نابليون ويدعى ريموسات بخصوص عروض المسرح الفرنسي الذي سيجيء إلى فايمار؛ لأن نابليون لم يكن يقبل أن يهدر أي فرصة، كي يقوم بإعادة تنظيم أوروبا من خلال البعد التعليمي للمسرح التراجيدي. وقد عاد غوته عصر ذلك اليوم إلى فايمار، حيث التقى في اليوم التالي مدير فرقة المسرح الفرنسي، أجينكورت، الذي نظم غوته معه مسرح القصر في فايمار من أجل العرض المسرحي. ويبدو أنه لم يتوقف عن مراده، جراء

(1) Grumach VI. S. 544.

(2) Grumach VI. S. 144 ff., Gespräch mit Luden 1806.

احتجاجات المعنيين بالأمر من الممثلين في فايمار الذين رفضوا العمل مع بوصفهم حمولة زائدة.

نُصب أمام القصر في فايمار، بوتقة يتصاعد الدخان منها، تحيط بها مسلّة كتب عليها اسما الزعيمين. لكنّ الأمر المُحرج، كان تزيين جبل نابليون في يينا (جبل فندوكنولن سابقاً) الذي يوجد أمام نقطة الانطلاق لمعركة يينا التي وقعت عام 1806، حيث سيتناول نابليون هناك طعام الإفطار ويقوم بتقديم شرح مفصل للقيصر عن الانتصار الذي حققّه. وقد تقرّر بناء معبد صغير دوريسّي الطابع dorischer Tempel[1] من الخشب والقماش، ذي أربعة أعمدة مع كتابات منقوشة فوق الحلي المعمارية. وقد قام كلّ من فويغت وغوته بوضع الأفكار، أما الأستاذ آريخ شتيتث في يينا، رئيس تحرير الجريدة الأدبية، فقد تولى صياغة الشعارات. ثم أضيف إلى الحروف المكبّرة السنة التي تشير إلى عام 1808، وكانت الكلمات اللاتينية تعلن عن نفسها بحروفها المذّهبة. وقد قام المستشار فويغت، المتضلّع من الأوزان والذي كان ينظم الشعر في أوقات الفراغ، بنظم الشعارات اللاتينية في بيتين شعريين موزنيين بالألمانية:

تورينغن، هذه المنطقة العريقة، تتوحد مع آلهة الأرض

الشعوب التي تشعر بالذهول، ترتبط بحب جديد من خلالكم.

ولم يجر، على نحو مقصود، التذكير بالمعركة التي حقق الإمبراطور فيها انتصاراً، بل جرى التذكير بحضور «آلهة الأرض» ليشمل القيصر الروسي. أما تورينغن فهي تشمل إيرفورت الفرنسيّة. وفايمار ويينا معاً وكان الأمل يتصاعد: إنّ انسجام الشعوب، سلام. وقد كانت الرسالة

---

(1) يعود الطابع الدوريسي هذا إلى اليونان ويتكون من أعمدة كلاسيكية ونظام معماري محدد: (المترجم)

التي ابتكرها المستشاران إنسانية في شكلها ومضمونها: فالمعبد يوناني واللغة لاتينية والإيقاع كلاسيكي، والنداء سلمي. كانت تلك الكلمات الأنسب، فهي متحالفة مع نابليون، تعبر عن صلة القربى مع القيصر، وتبدو عاجزة عن فعل شيء، ويصعب أن تجدها إلا في بلاط يتجه في خط سيره نحو فن جميل.

إنّ وجود المنعكس الكتابي الذي تقرأه في المناقشات الخاصة بتوازن القوى البديلة أو بخصوص القوى أو المملكة العالمية، الذي سبق لغوته أن اتبّعه في السنوات السابقة، كان ينبغي أن يؤتي أكله لا محالة في ضوء منطق الحال.

كان غوته أثناء الاستعدادات لأيّام فايمار، أكثر حماسة من الضابط البروسي موفلينج الذي كان يشارك في الاستعدادت بوصفه مشرفاً على المجريات العامة وممثلاً لكارل أوغست. كان موفلينج يشعر بالغضب جراء تعالي الماريشال الفرنسي دوروس الذي كان يتولى إخباره برغبات الإمبراطور، كان نابليون يريد رحلتي صيد وحفل عشاء وحفلاً موسيقياً ومسرحاً وباليه. رأى موفلينج أنّ ترتيب المائدة غير مناسب، كما أنه فوجئ بالمسرحية التي وقع الاختيار عليها، فقد تمّ اختيار مسرحية فولتير، «اغتيال يوليوس قيصر»[1]، ولم يكن ثمة إحراج يفوق ذلك، فقد جرى تصنيف هذه المسرحية التي تحكي عن اغتيال بروتوس للقيصر ضمن المسرحيات التي يحظر تمثيلها. إضافة إلى ذلك فقد سبق لنابليون أن أعلن أنّ احتفالات فايمار، التي تمثّل الذروة الاجتماعية لمؤتمر الأمراء قد أقيمت لتكريم الهرتسوغة لويزا. لهذا فقد وجد موفلينج أنّه لا يوجد في ذخائر المسرح الفرنسي مسرحية غير ملائمة «تفوق تلك المسرحية

---

(1) Müller, Vision einer Zeitenwende, S. 52.

في سياق تكريم إحدى السيدات»[1].

مرّ كل شيء بسلام وقام الجهاز الإداري في فايمار بما هو مطلوب منه دون مشكلات تذكر. وقد اصطاد الإمبراطور والقيصر والملوك الأربعة أثناء ذلك الطقس الخريفي المشرق، سبعة وأربعين غزالاً، وخمسة من الأيائل. وخمسة أرانب وثعلباً. وقد سمح للفضوليين برؤية ذلك المشهد عن بعد. وقد شوهد نابليون في قصر فايمار وهو يقف وسط هؤلاء الزعماء بوصفه يمثّل رأس أوروبا في حفل الغداء الذي كان يضم حوالي مائة وخمسين شخصية. وقد جسد عصر ذلك اليوم في فايمار التمثيل الأكثر وضوحاً للقوة التي كان نابليون يتحلّى بها، فقد كان الجميع يجلسون على موائد منفصلة تتحّلق كلّها حوله، فقد كان القيصر وكل الملوك والأمراء التابعين ممّن صنعتهم قوة نابليون يلتفون حوله، أما في نهاية الموائد التي كانت على شكل حدوة الحصان فقد كان يجلس كلّ من كارل أوغست ونجله، ولي العهد، وكما كان يجلس هناك ممثلو بافاريا وزاكسن فورتمبرغ وفست فالن وأودلن بيرغ ومكلينبرغ وأمير من بروسيا والأمر الكبير قسطنطين والهرتسوغة لويزا وابنتها وتاليران أمير بنيفيت. وبالإضافة إلى هؤلاء كان يجلس دالبيرغ، الذي كان آخر ممثّل للسيادة الروحية الألمانيّة، قبل أن يجتاحها نابليون، والذي اشترك مع نابليون في نقاش تاريخي حول دستور الرايخ الخاص بالمملكة الرومانية المقدسة أو ما يسمى Goldene Bulle. وقد ظهر، أنّ خليفة الأمير المنتخب لماينز لا يذكر السنة على وجه التحديد، في حين يعرف الإمبراطور الفرنسي أن ذلك يعود إلى سنة 1356م. وكان نابليون لا يكفّ عن التذكير بأنّه اكتسب معلوماته الواسعة عندما كان ضابطاً

---

(1) Müffling, Aus meinem Leben, S. 27 .

في سلاح المدفعية[1]. ففي تلك الأثناء تمكن من قراءة عدد ضخم من الكتب والاحتفاظ بها.

توجه نابليون بعد ذلك إلى المسرح وهو بناية، كما بيّن غوته، سبق للمدفعية الفرنسية أن أصابتها بقذائفها ليلة الرابع عشر من تشرين الأول 1806، حيث جرى عرض المسرحية الفرنسية «موت القيصر»، التي غفا نابليون أثناء تمثيلها عدة مرات ليقول في نهاية العرض للهرتسوغة لويزا التي كانت تجلس إلى جواره: هذا «القيصر» غريب التكوين! إنها نصّ مسرحي جمهوري! لكنني آمل، أنّ لا يكون لها هنا أيّ تأثير»[2]. فمسرحية فولتير، هي في واقع الأمر، غير مؤذية على الإطلاق، فالمسرحية كما أكدّ فريدريش غوندولف هي «ميلودراما ذات شخصيات تاريخية وعالمية»[3]. وليست، بالتأكيد، لوناً من ألوان التمجيد لاغتيال بروتس للقيصر؛ لأنّ بروتوس علم قبل أن يقدم على اغتيال القيصر أنّه ابن غير شرعي لهذا الذي يكرهه، وكان عليه بعد تتويج الديكتاتور الطموح أنْ يختار بين اغتيال الأب والبطولة الجمهورية، لهذا فقد تمت الإشارة إلى ما فعله من جريمة اغتيال بوصفه غير جريمة، أما الممثل الفرنسي تالما الذي كان يمثّل دور بروتس، فقد كان قادراً على تجسيد دور مملوء على نحو عاطفي بصراع الضمير. أما القيصر فقد ظهر بسبب ما يتمتّع به من تساهل، غير قادر على مواجهة القتلة مواجهة عنيفة. وقد بيّن موللر أن تالما استطاع أن يتفوق على نفسه، وفي نهاية الفصل الأول يرد القيصر على بروتس الذي يُحذّره من الأعيان:

لقد كنت سأقوم بمعاقبتهم، لو كنتُ أخشاهم

فلا تُسدِ إليّ مثل هذه النصيحة، ولا تعلّمني كراهيتهم

---

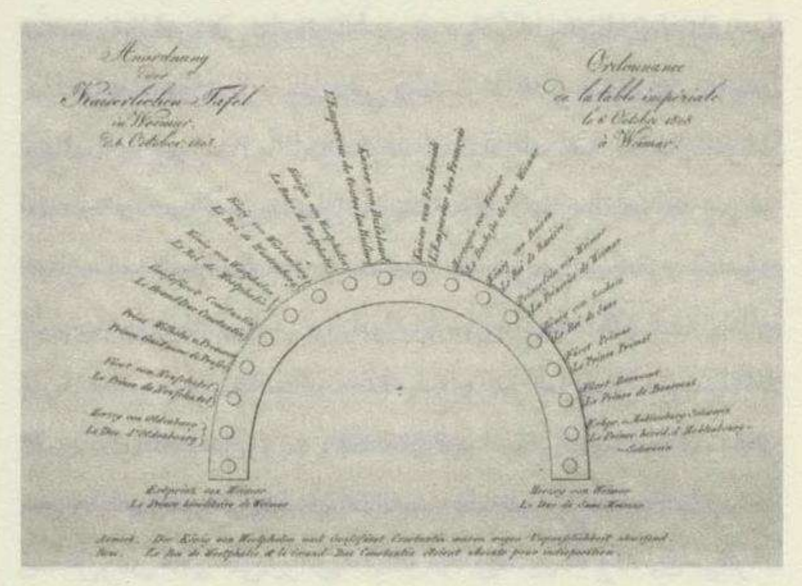
(1) Vandal, S. 444.

(2) Bojanowski, Louise, S. 315.

(3) Gundolf, Caesar, S. 219.

فأنا أعرف كيف أقاتل، كيف أنتصر، ولا أعرف كيف أعاقب
فلا تدعوني أسمع شيئاً على الإطلاق عن الارتياب والتأثر-
فلعّل العالم المهزوم يجعل مني سيّده عن طيب خاطر.

لقد كان ذلك «بمثابة الشرارة الكهربائية التي استطاعت أن تمسّ النظّارة كلّهم. ولم يكن أحد يرغب في البقاء دون أن تمسّه تلك الشرارة»[1]. أمّا عدم وقوع محاولة لاغتيال نابليون في فايمار، فذلك يعود لأنّ الوطنيين الذين كانوا يريدون إطلاق النار عليه، تراجعوا لأنهم خافوا أن تصيب طلقاتهم الأمير البروسي فيلهلم، الذي كان مسافراً مع نابليون.



ترتيب المائدة النابوليونية

تمكن غوته من أن ينأى بنفسه عن أمسيات المسرح في فايمار. بعيداً عن هذا الاتجاه أو ذاك، وبقي رزيناً. وبعد ذلك بقليل قام بتلخيص انطباعاته المسرحية لريمر على نحو مهني:

(1) Müller; Erinnerungen, S. 143.

«إن المسرح الفرنسي وطاقم التمثيل الفرنسي، لا يكاد ان يتجاوز ان الواقع الفرنسي، إلا قليلاً. إنّه حركة متوازنة».

لكنّ غوته وجد أنّ الانطباع العام للحركة يكمن في تنوعها، أمّا أولئك الرجال الذين يرتدون ملابس غير رسميّة في «اغتيال القيصر»، فقد وجدهم في غاية الأهميّة ويثيرون الإعجاب، لكنّ غوته لا يتفّق مع الأحكام التي تشكو من المبالغة والرتابة في الخطابة في المسرح الفرنسي. إنه يعترف هنا بنمط قومي مختلف مؤسّس في طريق حياة غربية:

فـ«الجندي الأكثر وقاحة سيتصرّف على هذه الشاكلة ويتحدث على هذا النحو، لكنّه لن يتصرف بهذه الطريقة المناسبة، التي ليست يابسة أو خشبّية» فـ «المسرح الفرنسي يقدّم النقيض بأسلوب فرنسي للمسرح الألماني الذي يقدم موقفه بأسلوبه الخاص. فالمسرح الألماني يقدم حالات وأوضاعاً مؤلمة مصحوبة بالصفاء، أما الفرنسي فإنه يتصّف بالقسوة»[1].

بعد العرض المسرحي تمّ الرجوع إلى القصر مروراً بشوارع فايمار المضاءة بالمشاعل، حيث قاعة البالية الكبرى، التي تُقام فيها ذروة الاحتفالات بمؤتمر الأمراء. كان نابليون يتحرّك هنا على طريقته وهو يرتدي زيّ الصيد البسيط، ويسعى كي تقوم السيدات، بالثناء عليه، بطريقة تنقصها الذكاء.

لم يكن للإمبراطور أصدقاء في حفلات الرقص التي تقام في البلاط، لهذا كان يمضي جلّ الوقت في الأحاديث خاصة مع الكتاب الألمان خصوصاً كريستوف مارتين فيلاند وغوته.

ولعل ذلك يعود، كما تتوقع الهرتسوغة لويزا، إلى ما يعرفه الإمبراطور من اتساع تأثير هؤلاء المثقفين الألمان في الرأي العام، وإلى

(1) Grumach VI, S. 563.

كون الصحف تتحدث عما يتحلّى به نابليون من طيبة وقوة ملاحظة[1].

لكنّ الانطباع الذي تركته الرسالة الرائعة التي كتبها فيلاند عن لقائه بنابليون كان مختلفاً. فهذه الرسالة تصّور الإمبراطور بحيويته وفرحه في أن يكون محاضراً، لدرجة أن تاليران لم يضطر، كما يروي في مذكراته، إلا لتعديل بسيط كي يصنع من البرغي رسماً كاريكاتورياً. لكنّ نابليون لم يكن يُحسن الحدث. إذا لم تكن لديه رغبة، وقد كانت علاقته بفيلاند، المتّصف بالنزاهة المطلقة، تخلو من أيّ ادّعاء. فقد كان نابليون يحرص على أن يبدو في مواجهة الكتاب الألمان الطاعنين في السّن، بوصفه ضابط مدفعية، محبّاً للاطلاع، واسع المعرفة، لا يتقن غير التاريخ العالمي والاطلاع على أعمال المؤرخين اليونان.

لقد استطاع نابليون أن يلمح فيلاند في إحدى مقصورات المسرح، لكنه افتقده في قاعة الباليه، فجرى إحضاره في عربات البلاط وسرعان ما ظهر في صالة الرقص في زيه المعتاد، القلنسوة على الرأس، دون مساحيق على الوجه، وبلا سيف، بحذائه القماشي (كان يرتدي ملابسه على نحو مناسب).

قامت الهرتسوغة بتقديم فيلاند للإمبراطور:

«لقد جاملني بعذوبة كبيرة، وهو يركّز نظره، في الوقت نفسه، في عينيّ. ويكاد يصعب على رجل فانٍ أن تكون لديه الموهبة لكي يتأمل شخصاً ويخترقه وأن يتخلّص منه– كما اعتيد أن يقال– من النظرة الأولى، على النحو الذي يقوم به نابليون. فقد استطاع أن يرى، على الرغم مما أتمتّع به من شهرة، أنني رجل متقدم في العمر، بسيط وقنوع. ونظراً لأنه –كما يبدو– يريد أن يحتفظ بانطباع حَسن على الدوام، فقد تحوّل في لحظات ليبدو في هيئة قادرة على تنفيذ نواياه نحوي.

(1) Bojanowski, Louise. S. 315.

إنني لم أر في حياتي رجلاً بسيطاً وناعماً وقنوعاً. لقد كان يتحدث معي وكأنّني صديق قديم يتحدث إلى نظيره -على نحو لم يتح لواحد مثلي- مدة ساعة ونصف الساعة لدهشة الحاضرين كلّهم».



صالة الاحتفالات في قصر فايمار

كان فيلاند، غير المتمكن من «الفرنسية» مشافهة، يشعر بالسعادة؛ لأن الإمبراطور تحمل وحده عبء الحديث:

«كانت الساعة تقترب من الثانية عشرة، حيث بدأت أشعر بأنني غير قادر على المزيد من البقاء واقفاً. لذا فقد تجرّأتُ على فعل يصعب على أيّ ألماني أو فرنسي القيام به: فقد رجوت جلالته أن يخلي سبيلي؛ لأنني لم أعد امتلك من القوة ما يسمح لي بالوقوف، وقد تقبل ذلك برضى وقال بصوت ودود وقسمات وجه لطيفة: هيا بنا الآن. يمكنك الذهاب، ليلة سعيدة»[1]. وقد كان نابليون يتكئ أثناء الحديث على أحد

---

(1) Wielands Briefwechsel, 17.1, S. 467 f.

الأعمدة بارتخاء، وكان يقف إلى جواره ملك زاكسن.

لم يبح فيلاند، شأنه شأن غوته، بمضمون الحوار، لكنّه أكدّ أنّ الإمبراطور قد تحدث معه بصوت خفيض تماماً، لدرجة أنّ الذين يقفون على مسافة محترمة من رجال البلاط والقائمين بالأعمال لم يستطيعوا أن يستمعوا إلى كلمة واحدة مما قال، ولم يكن بمقدورهم نشر إشاعات عما سمعوه.

لقد سبق لنا أن سمعنا عن طريق يوهانّس فون موللر بلقاء الأريكة مع نابليون. لكنّ فيلاند صرّح لكاتب سيرته يوهان غوتفريد غروبر، في وقت لاحق، بأن ما قاله موللر والذي صار يعرف فجأة باسم تقرير موللر، يدّل على أنّ صاحبه كان يسترق السمع. وقد اعتمد تاليران ثانية على هذا التقرير أثناء تصويره الساخر، فقد كان الأمر يتصّل، كما في الحديث مع موللر، بالتاريخ واليونان والرومان. ويتصّل بذلك أنّ المسرحية المشار إليها قد سمّت نابليون بالقيصر Cäser وجعلته واحداً من أعظم الرؤوس في تاريخ العالم إذا لم يقم بخطأ لا يغتفر فـ«القيصر كان يعرف الناس منذ القديم معرفة دقيقة خاصة أولئك الذين أسهموا جزئياً في صناعته، ولذا كان يتوجّب عليهم أن يقوم بصناعتهم على نحو جزئي كذلك»[1]. ولسنا ندري إن كان تاليران واحداً من هؤلاء.

كان نابليون يثني، كما هو متوقع، على الرومان، في حين كان قليل الاحترام لليونان بجمهورياتهم الصغيرة المشاكسة. بعد ذلك وصل إلى موضوع يشغله على الدوام، لدرجة أنّ تاليران، في مذكراته، قد وجد ذلك باعثاً على التأوهات المملّة: «تاسيتوس Tacitus. لقد اتهم تاسيتوس القيصر، في ضوء تقرير موللر، بأنّه لم يكن يستوعب بما يكفي بواعث الحركات والأحداث ولم يكن لديه وعي بأسرار الأفعال وسياقاتها». أما

(1) تتكرر هذه الاقتباسات عند كل من:

Wahl, Wieland und Napoleon, S. 30-34. Vgl. auch Starnes, Wieland, Leben und Werk 3 S. 301 ff. sowie Wieland, Politische Schriften III, S. 605 ff.

الإمبراطور فقد رأى «أنّ تاسيتوس مصّور ماهر، فهو يمتلك موهبة لونية جريئة ومغرية، لكنّ التاريخ لا يتسامح مع الخداع وعليه أن يكشف عن ذلك ولا يكتفي بالحوار من خلال لوحات مفاجئة».

وهي ملاحظة عميقة، لا تنفي أنّ القيصر الفرنسي Cäser تحدث بوصفه أحد المعنيين:

فإذا كان تاسيتوس يقّدم لوحات ليتمكّن عبرها من تطوير الأحداث، فإنّ السياسي نابليون يتأمل المعطيات الخارجية ذات الصلة بالإمبراطور. وهذا يتفّق في الفكرة العامة مع حديث نابليون مع غوته، الذي دار حول الطبيعة الحقيقية للشعر التي يطلبها كذلك من التاريخ. وقد صرّح نابليون بفكرة أخرى، ظّلت قريبة من وجدانه، مثلما بقي يكررها، وقد عرفناها هي الأخرى عن طريق يوهانّس فون موللر، إنّ المسيحية ليست إلّا رد فعل للروح اليونانية يقف في مواجهة الغزو الروماني. فـ«اليونان التي هُزمتْ أمام القوّة الفظّة، استطاعت أن تظفر بالسيادة الروحية، التي تمكنّت عبرها أن ترعى وتطوّر الجوهر النبيل الذي أرسلته السماء للحفاظ على سعادة البشرية لما وراء البحار» إنّها فكرة شبيهة بأفكار نيتشه!



فيلاند في أثناء حديثه مع نابليون

وقد وجّه نابليون لغوته بعض الكلمات للمرة الثانية، إنّ يوميات غوته تخلو من أي كلمة مفتاحية بهذا الخصوص، لكن من الأهمية بمكان ما نعرفه عن هذا الأمر. فقد دوّن غوته، في ما بعد، أنّ الدعوة وُجّهت له «كي يعيد كتابة بروتس بمعنى مختلف». وقد روى موللر، الذي كان شاهداً موثوقاً في هذه الليلة، أنّ الإمبراطور قد كررّ غير مرّة، بأنّ التراجيديا الجيدة شبيهة بالمدرسة الكريمة التي يتوجّب على رجل الدولة أن يختلف إليها، والتي ينبغي أن تكون، بمعنى من المعاني، فوق التاريخ»[1]. فلعل نابليون، عندما قرر أن تعرض مسرحية «اغتيال القيصر» في فايمار الذي كان مفاجئاً لمفولينج وآخرين، وهو الذي لا يمكن أن تفوته ما تنطوي عليه المسرحية من أبعاد موغلة في العاطفية، كان يفكرّ بغوته في المقام الأول.

فقد شكلت الفرصة التي اتيحت لنابليون، والتي التقى من خلالها بأكثر الكتاب الألمان أهمية، والتي شهدت حواراً مهنياً عن الأدب والواقع، وأفضت إلى إعادة كتابة مسرحية جديدة عن يوليوس قيصر، لحظات مثيرة بالنسبة له. أما الدور الذي كان نابليون يضعه نصب عينيه فهو كبير: فقد كان يضع الكاتب التراجيدي بمنزلة المؤدّب للسياسي.

أي يوم كان يوم السادس من تشرين الأول عام 1801؟! لقد رأى هذا اليوم نابليون في عظمة سلطانه، لكنه شاهده يدير حواراً بسيطاً مع كاتب ألماني يرتدي ثيابا سوداء. وفي اللحظة التي كانت تعرض مسرحية اغتيال يوليوس قيصر على خشبة المسرح، كان ثمة بعض الطلبة الوطنيين، يفكرون في تلك الأثناء في اغتياله. وقد ذكرّ الإمبراطور من حوله من الملوك الألمان الذين كانوا يتجمعون لتناول الطعام بأصله، يوم كان جندياً صغيراً، وكان يأمل أن يقوم الشاعر الألماني الكبير بإعادة كتابة «بروتس».

(1) Grumach VI. S. 554 und S. 558.

طال المساء، ولكنه لم يطل فقط على الكثيرين الذين كانوا يتناولون طعامهم ببطء يفوق بطء الإمبراطور، والذين لم يتمكنوا من الحصول على الكثير من الطعام. عند الواحدة بعد منتصف الليل انسحب نابليون إلى غرف الهرتسوغة لويزا. وقد استلقى تاليران برجله العرجاء على الكنبة ورجا موللر أن يدون كل شيء.

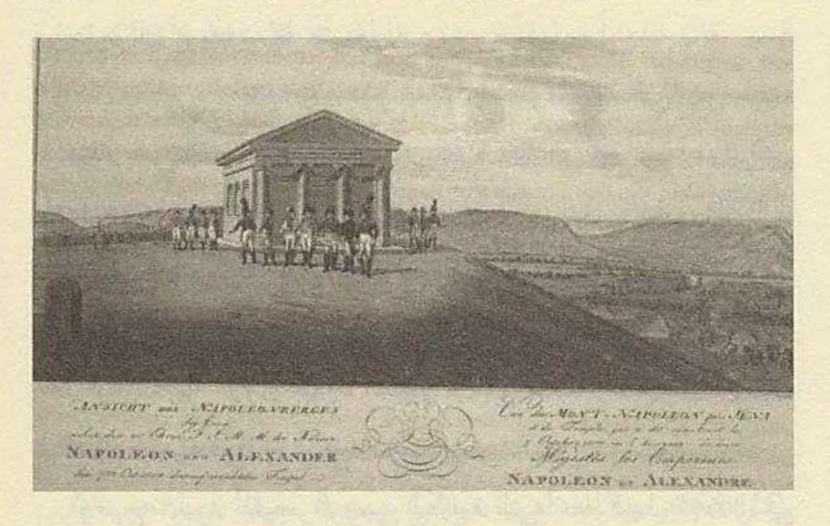
كان القصر في فايمار فسيحاً وجديداً وعصرياً. وقد أثنى ريموسات، المسؤول عن القصر، على تجهيزاته بنظرة خبيرة، أي أنّ الجهود التي بذلها غوته مع المهندس المعماري هاينريش غينتس (شقيق الكاتب فريدريش غينتس) قد آتت أكلها.

مرّت الأيام اللاحقة على نحو رائع، فقد استيقظ الناس في ضوء أحد أيام تشرين الأول شديد السطوع على المعبد الصغير الذي كان غوته قد صممّه فوق جبل فند كنولن في يينا.

أوضح نابليون للقيصر الروسي الكيفية التي انتصر فيها عام 1806 في المعركة، تلى ذلك تناول طعام الإفطار أمام أنظار الفضوليين من سكان يينا، مقابل الخيمة المؤقتة تحت القمة. تبع ذلك صيد الأرانب في أبولدا Apolda. وقد أعطى ذلك لتاليران وموفلينج وكثيرين المسوغ ليشعروا بسخط عارم، فقد بدا الأمر وكأن ذلك الإمبراطور سمح باللهو فوق عظام آلاف الذين سقطوا في المعركة.

كان كارل أوغست واحداً من الذين تحركوا في وقت مبكر من صباح ذلك اليوم، فهو لم يكتف بالمشاركة في الصيد، بل قام بتحديد منطقته وقد كان على الكتابة التاريخية القومية أن تبرهن بدقة على أنّ «صيد الأرانب في أبولدا» يقع مكانياً خلف ساحة المعركة. وكان ذلك حقيقة، فقد جاء الأجنبيّ من خلال هذه التظاهرة الرياضية إلى حافة ساحة المعركة عموماً، حتى بقي في المكان مذاق غير طيب.

عند الظهر انقلب «الفيضان الملكي» كما سماه غوته وعاد إلى إيرفورت. وعند المساء جرى عرض مسرحية تراجيدية أخرى هي مسرحية «هوراس» للمسرحي الفرنسي كورنيل. أما غوته، فقد بقي في فايمار، واستثمر اليوم من أجل إجراء مباحثات سياسية تفصيلية.



الملوك فوق جبل نابليون في يينا 1808

(مع المعبد الصغير الذي صمّمه غوته)

كان قد انضّم كلّ من ماريث وسكرتيره إلى فراوين بلان، كما وصل لانسّ إلى هناك أيضاً وهو الذي سبق لغوته أن عرفه عام 1806م. دار الحديث عن الحملة الإسبانية الوشيكة الوقوع، وبذلك يكون قد جرى مسّ نقطة نازفة لدى نابليون على نحو قويّ. كما أصيبت فايمار هي الأخرى جرّاء ذلك إصابة مؤلمة: فقد كان يتوجّب نقل حصة الهرتسوغية إلى كاتالونيا عبر جبال البرانس، حيث سبق أن قتل 580 من أبناء تورينغن عام 1810، ليس في المعارك الطاحنة في حرب العصابات بل في خلال المناخ غير المعتاد الذي كانت ترتفع درجة الحرارة فيه نهاراً

إلى درجة كبيرة، وتنخفض ليلاً إلى حدّ كبير. فهل كان غوته يرجو الرأفة؟ إذا كان هذا هو قصده، فإنه ظّل غير قادر على تحقيق النجاح.

كان الإرهاق، ليلة السابع من تشرين الأول قد بلغ من غوته مبلغه، لدرجة أنه نام في منزل السيّدة فون شتاين:

«عندما كنت بمفردي مع شيللر على الطاولة، وكنا نضحك على الكيفية التي كان الممثلون الكوميديون الفرنسيون يخطبون بها في مسرحية يوليوس قيصر، جاء غوته إليّ وهو يقول:

أعوذ بالله، ضع الكتاب جانباً، ثم استلقى ونام بعمق، لدرجة أنّه قام بالشخير ... لقد ذهب شريكي الآخر. بعد ذلك اقترحت عليه أن يطلب المساعدة، وقد اعتذر لأنه لم يستطع أن يحكي له جرّاء التعب، ثم ذهب»[1].

ظلّت العُروض التراجيديّة في إيرفورت تتوالى ليلة إثر ليلة، وقد شاهد فيلاند في التاسع من أيلول مسرحية فولتير «محمد» التي عدّها نابليون في حواره مع غوته مسرحية «غير لائقة». ولعّل ذلك يعود، على الأغلب، إلى جنون العظمة الذي حاولت المسرحية أن تبرزه، كما يزعم تاليران،. وثمّة إشارة أخرى تتمثّل في تناول غوته الطعام ثانية في معية الملوك في إيرفورت، أما العمل الذي شغل به لمرة واحدة والذي شوهد في نسخة أصلية فلم يكن صحيحاً. فلم تكن الحقيقة التاريخية على هذا المستوى من الميلودرامية، لكنّه يمكن الاعتقاد بأن «تالما قد نطق بالأبيات الشعرية بكل تأكيد (ونحن نقتبس هنا قراءة غوته).

لحظات الوفاة متشابهة، لكنّ لحظات الميلاد مختلفة
والفضائل تجعل كل شيء يبدو مختلفاً
لكنّ ثمة أشباحاً تفضّلها السماء

---

(1) GrumachVI, S. 561.

وهي في حدّ ذاتها كل شيء ولا شيء
لأن الأسلاف، وليس العالم، هم المذنبون[1].

في اليوم التالي كان الجميع، خاصة الفرنسيين، في ردهة نابليون، وكانوا يهتمون بفيلاند العجوز ويحاولون أن يجعلوا الوقت الطويل يبدو قصيراً، ثم «دخلوا بالتدريج» وقد كان فيلاند مثل «أصحاب السمو والسعادة والألمان الجديرين بالثناء»[2].

كانت المفاوضات، في غضون تلك الأثناء، بين نابليون والقيصر الروسي تسير إلى نهايتها. أما نتائجها فكانت هزيلة، فقد جرى إطلاق يد روسيا في فنلندا وأعطيت الوعود بمنطقتي الفلاخاي ومولدوفا Walachei und Moldavien، كما استمرّ المشروع طويل الأمد الخاص بالتوسع الروسي غرباً وجنوباً، مع ضمان استمرارية بقاء الإمبراطورية العثمانية. وقد أقرّ القيصر الروسي بالتنظيم الجديد لإيطاليا. خاصة إزاحة نابليون أسرة البوربون واحتلال الفاتيكان. وقد أراد الزعيمان أن يتوجّها برسالة إلى ملك إنجلترا ليعرضا عليه السلام، ويطلبا منه الموافقة على الانقلاب الإسباني –وهي آمال غير واقعية. وقد جرى تحديد التعويضات التي ينبغي على بروسيا دفعها، وحددّت بـ 130 مليون فرانك، وبذلك غدا انسحاب القوات الفرنسية من بقية أراضي بروسيا يقع في دائرة المنظور.

لكنّ نابليون لم يحصل بخصوص المسألة الحاسمة بالنمسا، على شيء. فلم ينضمّ القيصر إلى الضغوط التي كان يمارسها نابليون على مملكة الهابسبورغ، وطمأن القيصر النمساوي في السرّ. وهذا يعني أنه لم يعد لدى نابليون دعم مؤكد في حربه المقبلة على إسبانيا في فصل

---

(1) . Talleyrand, Memoiren I, S. 321 ff

(2) Wielands Briefwechsel, 17.1, S. 468 f.

الشتاء. وبهذا يكون تاليران قد ربح، فقد كان المنتصر الحقيقي في لقاء إيرفورت.

وقد استطاع تاليران، بمهارة، أنْ يوقف جميع أنواع التقدّم في مسألة أخرى تتّصل بأفكار نابليون عن الزواج. فلم يتمكن نابليون من إنجاب أطفال من زوجته جوزفين. وكانت مملكته تقوم عليه وحده، وكان يكفي أن تصيبه رصاصة طائشة في إحدى المعارك كي تنهار أساسات تلك المملكة. فكان نابليون على الدوام يريد وريثاً له. وقد سنحت له الفرصة كي يربط بيته بإحدى البيوتات الحاكمة في أوروبا وأن يؤسس لصلات ثابتة معها، لذا فكرّ نابليون في أن يتزوج من إحدى شقيقات القيصر الروسي. لكنّ التحقيقات السرية التي كلّف تاليران بها، ذهبت أدراج الرياح، فالأميرة الكبرى التي كانت محطّ تفكير نابليون تزوجت في أولدن بيرغ، وبدلاً من ذلك حصل تاليران على تصريح من القيصر يسمح له بالزواج من ابنة عمتّه، وريثة الهرتسوغية فاحشة الثراء، في كورلاند، وهي تنتمي إلى الأسرة الحاكمة. واستناداً إلى هذه الصلة ظلت أسرة تاليران-بريغورد حتى عام 1945م، تحكم المنطقة الواسعة في شليزن وبولندا.

بعد عدة شهور، بدأ نابليون يكتشف طبيعة اللعبة التي لعبها تاليران في إيرفورت، لنصل من ثَمّ إلى المشهد الشهير الذي خاطب الإمبراطور فيه تاليران، موظف البلاط الكبير، بوصفه «قطعة قاذورات في جوربه الحريري». وقد زعم خادم نابليون الدائم أنّ نابليون تعود على أن يرى كابوساً في نومه أثناء انعقاد مؤتمر إيرفورت: فقد كان ثمة دبّ يأتي إليه ويفتح صدره ثم يقوم بتمزيق قلبه. وعندما رافق الإمبراطور القيصر الروسي في الشارع الموصل إلى فايمار ليودّعه، رأى قافلة طويلة من راكبي الخيول وراءه.

إذن فإنّ إيرفورت، وهو أمر لا يعيه سوى من كان هناك، لم تستطع أن تضع حدّاً لعصر الحروب.

أعدّ البلاطُ في فايمار، في وداع القيصر العائد إلى وطنه، احتفالاً ضخماً، يحتوي على حفلات رقص في يومي الرابع والخامس عشر من تشرين الأول. وقد شارك غوته في الإعداد لهذا كلّه، بل إنّه ذهب في الليلة الثانية إلى الحفلة الراقصة، أمّا في الخامس عشر من تشرين الأول فقد تناول غوته الطعام في القصر، وتباحث مع الهرتسوغ أثناء ذلك المشهد عن «طبيعة الخطوة التالية». وكانت ثمة بواعث تشير إلى إمكانية أن يكون المرء سعيداً. فقد قوي وضع فايمار في إطار النظام العالمي قياساً إلى كونها هرتسوغية صغيرة.

لقد حظيتْ فايمار بزيارة عطوفة من الإمبراطور والقيصر، إضافة إلى أنّ ثروة فايمار، المتمثّلة في أدبائها، لعبت دوراً بارزاً في هذا الصدد، وقد نشرت الصحف، وصولاً إلى باريس، أخبار اللقاء بين نابليون وكل من غوته وفيلاند. وكان هذا لصالح الإمبراطور، ولم يكن بأقل فائدة لهرتسوغية زاكسن وفايمار. أما كارل أوغست، فقد تصرّف بمهارة، فاقترابه النوعي من القيصر الروسي كان يمثّل لوناً من الضمان إزاء حالات التغيير في المستقبل، وهي حالات لم تكد تخطر ببال غوته آنذاك. وقد استطاعت الأوسمة توكيد الدور الثقافي لفايمار، فقد منح نابليون كُلّاً من غوته وفيلاند وسام جوقة الشرف، كما منحهما القيصر الروسي وسام سانت آن. وقد نتج عن الأوسمة وعلبها الثمينة اتجاهات متباينة، ومع ذلك فقد كانت تلك الأوسمة أمراً متميّزاً، بصرف النظر عن كون الوسام الذي منحه القيصر الروسي لفيلاند من الطبقة الثانية، وهو ما قوبل في فايمار بشيء من الاستياء. لكنّ الفرحة الطفولية جراء هذا التكريم كانت واضحة فلم يسبق أن قام الألمان بتكريم من لديهم

من كتّاب على هذا النحو الذي يضعهم على مستوى واحد مع رجال الدولة وقوّاد الحزب. فقد كتب فيلاند إلى موللر: «إنّ الإشارة التي تبيّن أنّ أعظم رجل على امتداد العصور يظن بي خيراً، يجعل هذا الوسام بالنسبة لي لا يقدر بثمن». وقد كانت الرسالة التي كتبها ماريث، والتي تلقّاها فيلاند في الوقت ذاته، هي أجمل الرسائل»[1]. ونحن نعرف أنّ مثل هذه الوفرة عند فيلاند، ليست لوناً من البراعة في المجاملة، فقد كان الرجل يستطيع أن يفعل شيئاً مختلفاً كليّة. وقد كتب غوته إلى ماريت، يطلب منه أن يكون مترجمه لدى الإمبراطور لأنه غير قادر على التعبير عن مشاعره[2]. وقد تلقت كريستيانه وهي في فرانكفورت النبأ السعيد بخصوص الوسامين «وستجدينني مرصعاً بالنجوم والأوسمة آملاً أن تظلي، كالعادة، تحيطينني بالحب والرعاية»[3].

وقد كان نابليون قد قام بتكريم يينر بورغر، ووعده بتقديم دعم مالي للميزانية من أجل إزالة أضرار عام 1806. وقد وصل الدعم المالي حقيقة قبل الحملة على روسيا، وكان غوته وفيلاند قد انسحبا من اللجنة الخاصة بتوزيع تلك المساعدة.

كان المزاج في فراوين بلان يمثّل خليطاً من المشاعر. فقد كان الزوجان سارتوريوس يزوران غوته في تلك الأثناء. ونظراً لأنّ زوجته كريستيانه لم تعد بعد، فقد طلب غوته من السيدة كارولين سارتوريوس أن تتولى مهام سيّدة المنزل في تلك الأثناء، وأن تتولّي إكرام كبار الضيوف.

ففي اليومين اللذين تمّ فيهما تسليم المغلّفات الضخمة التي تحوي الأوسمة والتي حملها رسول الإمبراطور، كان الممثّل تالما قد وصل إلى منزل غوته برفقة زوجته. وقد استطاعت كارولين سارتوريوس أن تترك

(1) . Wielands Briefwechsel 17.1, 5. 473
(2) WA IV, 20, S. 180 f.
(3) Ebda. S. 180.

في تلك الساعات المملوءة بالحيوية، بعض أجمل الصفحات التي كتبت عن غوته، فهذه «المرأة الضئيلة الطيبة» كما وصفها زوجها. أصابتها الدهشة من أناقة منزل غوته البسيطة وما يستشعره المرء من راحة فيه، ومن الزيّ الباهظ الثمن الذي كان النجم الباريسي تالما يرتديه، والذي سبق لريمر أن بين في يومياته أنه كان مرصعاً بالماس.

إلى جوار ذلك وصلت إلينا معلومات مهمة:

ففي أحاديث المجاملة التي قامت بين كلّ من الممثّل وغوته، تبيّن أنّ غوته «ليس متمكناً من (الفرنسية)، لكنّ روحه تستطيع أن تشق طريقها إلى اللغة التي يعرفها إلى حد ما وأن تقبض بيسر عليها». وعندما صار الحديث جديّاً وبدأ يتحدّث عن «فيرتر» التي كان تالما يتمنّى تحويلها إلى عمل درامي، بدأ غوته يتحدث بالألمانية ويقول:

«إنني لا أكتب، في العادة، عملاً كهذا وأنا أشعر بالراحة». ثم قال بـ«الفرنسية» دون أن يلتفت إلى سار توريوس:

«أرجو أن تترجم ذلك لأصدقائنا أيها السيّد».

في تلك الأيام، قرأ غوته لضيوفه «السوناتا» التي نظمها قبل مدة قصيرة، مثلما قرأ عليهم بعض قصائده الساخرة التي استدرت دموع الضحك من عيني كارولين. أجل لقد أحبته. وعندما بدأ تالما وزوجته، في إنشاد مقاطع من يوليوس قيصر وعطيل وديزدمونة «دخل غوته وهو يرتدي زي البلاط ويتزيّن بالنجوم والوشاح وهو يقول: لقد جئت لأريكم هذا ولأسألكم إذا كنتم تريدون اعتمادي؟ ... لقد كان يبدو في تلك الملابس أكثر شباباً وجمالاً، لدرجة أنني أمسكت برقبته وصحت: يا صاحب السعادة، إنّ مقاومتك أمر صعب، لكنني آمل أنّك لا تريد لي أن أشقى»[1].

---

(1) Grumach VI. S. 568-570.

في الأسابيع التي تلتْ جاء وقت الرسائل بالنسبة لغوته، فمقارنة مع الغزارة التي أشارت إليها رسائل كلّ من يوهانّس فون مولّلر وفيلاند بخصوص حوارهما مع الإمبراطور، بقي غوته متحفظاً، فقد كتب غوته في الثلاثين من تشرين الأول إلى تسلتر:

«لقد تمكنتَ أنْ تذكرَ بنا، في صحف هذا الشهر، على نحو واسع، فأن يعايش المرء الأحداث شخصياً هو أمر عظيم القيمة. وقد قدّر لي أن أدرك التأثير الإيجابي لهذه المجموعة النادرة. فقد كان إمبراطور فرنسا يخصنّي بمودّته وأظهر ذلك بوضوح تام. وقد قام كلّ من الإمبراطور والقيصر بتكريمي بالنجوم والأوسمة، وهو ما كنا نريد أن نشكره عليه بكل تواضع».



كارولين سارتوريوس

كما كان القرار الذي اتخّذ بشأن بروسيا مهّماً لغوته:

«كم أتمنى أن تجد أنت ومواطني بلدك الراحة والاطمئنان في هذه الحقبة، لأن آلامكم وصلت في هذه الأيام إلى حدّ يفوق الاحتمال»[1].

كانت التقارير التفصيلية تصل إلى السيدة فون أيبن بيرغ في فيينا ،وكان

(1) WAIV 20. S. 193 f.

غوته هو الذي أوصى بنشر الكتاب الضخم بحجم 50,5×33,5سم في حلّة باذخة في دار نشر بيرتوخ، ليرصد وقائع احتفالات فايمار، وقد اختار اللون النحاسي للكتاب[1].

وقد كتب غوته عن الممثّل الفرنسي باختصار ووصفه بأنه «ممثل قدير في الفن الذي تضطرب فيه الأفكار: لقد أردت أن أقول إنني لم أستطع إلّا من خلال معجزة كبرى أن استخرج الخطأ من هذه التراجيديات الفرنسية وأن أقوم بإطفاء جمرته، لهذا فإنّ للعالم الحق في أن تبقى لديه الأسباب كي يصاب بالدهشة، لما تبقى»[2].

وقد سعى غوته للاهتمام بالمسرحيات المنشورة الخاصة بأيام إيرفورت. وقد أوصت سيدةُ المجتمع الثريّة إيين بيرغ غوته بالكتاب الذي تقلّب صفحاته أثناء احتساء الشاي، أما بالنسبة لأوغست، فقد حدّد المتملّق أرنولد الأمر على النحو التالي:

«ظهر إلى حيّز الوجود، بخصوص اللقاء الذي وقع بين الإمبراطور والملوك، كتاب يخلو من الذوق تماماً. ولعلّي أصفه لك بعد انتهاء عيد الميلاد الذي تقوم أمي بالتحضير له»[3].

وقد أبدى كوتّا Cotta ناشر كتب غوته فضولاً نحو الحوار الذي دار بين غوته والإمبراطور، يتضّمن الرغبة في عرض موجز للطموحات السياسية التي كان أتباع نابليون يرغبون فيها.

«لم تكن ثمة مسألة تعنيني بين المعطيات المهمّة التي كانت تجري هناك أكثر من المحادثات التي أجريتموها سعادتكم مع نابليون. أنا لا أود أن أهنئكم على ما أحرزتموه من تكريم، بل إنني أهنّئ أوروبا كلّها. التي حظيت بعناية نابليون حتى ينتهي من تنفيذ مخططاته كلّها، وليتمكّن من إقناع غير المؤمنين بأن لديه هدفاً ساسياً

---

(1) وصف الاحتفالات التي تمّت بحضور صاحبي الجلالة القيصر الاكسندر ونابليون وملوك آخرين في فايمار وينا في السادس والسابع من شهر تشرين الأول 18080 التي أقامها صاحب السعادة الهرتسوغ كارل أوغست. (ظهر عام 1808 في فايمار).

(2) WA IV ،20 .S ‎.f 233 ‎(12,4. 1808).

(3) 8o. Goethe-August (5. Dezember). وقد جرى التساهي خطأً في التعليق.

يتجاوز غزو البلاد، وأنّه عبر هذا الفعل يسمو إلى الذُرى المكرّمة في كل مكان، وأنه يريد أن يبرهن بوضوح على الروح الطفولية التي يملكها بين جنبيه». وقد سبق لنا أن رأينا شخصاً مطلّعاً مثل تاليران، لم يعد يرغب في تحقيق مثل تلك الطموحات. أما غوته فقد كانت لديه رؤية سياسية محدّدة لم يتحدّث عنها قطّ، إذا لم يضع المرء ما كتب على المعبد الصغير فوق جبل نابليون، في الحسبان. وقد أجاب غوته عن تساؤل كوتا على نحو شخصي وليس على نحو سياسي عندما قال:

«إنّني أريد أن أعترف برضا، فأنا لم أعرف أثناء حياتي لحظة أكثر فرحاً أو سمّواً من وقوفي أمام الإمبراطور الفرنسي، على النحو الذي وقفت فيه تحديداً. ودون أن أسمح لنفسي بالدخول في تفصيلات الحوار، فإنني أستطيع أن أقول إنه لم يسبق لشخصية في هذا الموقع السياسي أن تقبلتني ومنحتني ثقتها الخاصّة، إذا جاز لي أن استخدم هذا التعبير، ولم تُعبّر عن موقفها على نحو غامض، وأنّه، في ضوء رغبتي الداخلية، قام بتوديعي بلطف، وأكمل حوارنا في فايمار بالروحيّة ذاتها، لدرجة أنني صرت أؤمن في تلك الأوقات الاستثنائية بأنني حيثما سألتقي به، فإنني سأجده ذلك السيّد الودود والعطوف»[1]. إذن لقد كان الأمر استثنائياً. لقدكان غوته يشعر بالفرح لأنّه كان يقف نداً للإمبراطور، وهو أمر لم يكن ممكناً في فايمار عام 1806. فهل كان حوار نابليون مع غوته ذا دلالات متعددة؟ في الواقع لقد تمكّن نابليون أن يظهر في بادئ الأمر بوصفه ناقداً متحذلقاً للأدب وصناعته، ورجلاً فطناً، يهوى الفنون ويتوقّف عندما تواجه تناقضات منطقيّة، إضافة إلى قيامه بدعوته إلى باريس صراحة، بشكل أو بآخر، وتكليفه بإعادة كتابة موضوع «بروتوس» وهي مادة ذات طابع سياسي مفيد، وكتابة تراجيديا الإمبراطورية من خلال اغتيال بروتوس لوليّ نعمته —وهما اقتراحان لم يوافق غوته عليهما.

---

(1) Goethe-Cotta (hrsg. von Dorothea Kuhn). S. 186 f. (16. November und 2. Dezember 1808).

Goethe

Monsieur le Grand Chancelier,

Depuis l'époque où Sa Majesté l'Empereur et Roi étonna le monde par ses hauts faits, je me sentois pressé d'avouer hautement la vénération profonde que ses grandes qualités m'inspiroient.

Aujourd'hui que Sa Majesté Impériale et Royale daigne me distinguer en me décorant de Son Ordre je me sens très heureux de continuer par devoir et par reconnoissance ce que j'avois commencé par l'impulsion du sentiment.

رسالة الشكر التي بعث بها غوته إلى لاسي بيده، المستشار الكبير لوسام جوقة الشرف

En avant mettre mes tres respectueux
homages au pied du Throne, Votre
Excellence voudra bien suppleer a tout
ce que je ne pourrois exprimer que
tres faiblement.

Flatté d'avoir recu ce Gage precieux
des mains de Votre Excellence je
La prie d'agréer et mes treshumbles
remercimens et l'assurance de la
haute consideration avec la quelle
j'ai l'honneur d'etre

de Votre Excellence

Weimar
ce 12 Novembre
1808.

le treshumble et tresobeissant
Serviteur
de Goethe

لقد بقي الذاتيّ. كان غوته يشعر بخصوص الفوضى المقبلة أنه تحت رعاية الإمبراطور وهو شعور ليس بسيطاً بعدما عاشه غوته من تجارب عام 1806، وإن كانت القاعدة البرجوازية الصلبة قد تلقت لوناً من الدعم من خلال حماية قويّة –في إطار تطور الإمبراطورية العظمى، هذا التطور الذي أعطاه نابليون في تلك السنوات ملامح إقطاعية.

كان في وسع غوته أن يعي أنّ الوسام الذي قلّده نابليون له يمثّل رسالة حماية فاعلة تحميه أثناء تغيّر الأحوال؛ لأن غوته لم يكن يرغب في أن تتكرر لحظة الشعور بالعجز ليلة الرابع عشر من تشرين الأول عام 1806. لقد تمكن الوسام أن يشفي الجرح تماماً. لكنّ غوته لم يكن يعني ذلك فحسب، فإنّ جوهر تلك الرسالة التي قُصدت أن تكون غامضة تماماً، يكمن في «الاستحسان» الذي منحه الإمبراطور بوصفه الأعلى والأرفع لغوته، مصحوباً بـ«الثقة» ومع ما يدّل على أنّ جوهر غوته «يبدو متّسقاً معه». إنّ عظيم تلك المرحلة وما وصل إليه من مرتبة في كتب التاريخ العالمي، تلك الكتب التي كانت تدرس حياة غوته مراراً وتكراراً على نحو عرضي، لن تكون في المستقبل على تلك الشاكلة، فقد اعترف نابليون بغوته بوصفه نداً له، خلال فنّه كلّه ومن قول نابليون له: «أنت رجل»، وهي اللحظة التي تمثل لحظة الإدراك المفاجئ لشخصيته.

إنني لم أقم باقتباس أقوال لكلّ من مارفيتس ورابنهارد وحنة شوبنهور وكارولين سارتوريوس عن شخصية غوته وحضوره غير مرة، لغير ما هدف، فعلى القارئ أن يفهم هذه الاقتباسات بوصفها لوناً من الاستعداد لملاحظة نابليون الدقيقة. إن ثمة عملاً آخر مواز يُعبّر عن صيحة الإعجاب التي أطلقها نابليون، وقد دوّن هذا العمل في حقبة زمنية غير بعيدة عن المخطوط الذي دوّن فيه غوته حكاية «المحادثات»:

وهذا العمل يجيء في إطار تقرير حربي في الكتاب الذي يحمل عنوان «حملة عسكرية في فرنسا» عام 1792 والذي ألفه غوته عام 1822. فقبيل نهاية الكتاب يحكي غوته عن ضابط بروسي، لم ينظر إلى غوته، كما فعل نابليون، بوصفه عبقرية أدبية بل بوصفه رجلاً يمتع العين بروعة بنيانه الجسدي:

لقد تعود الناس على أن يصفوه على الدوام بأنّه:

ذو عقل بديع. والعباقرة ينبغي أن يكونوا ضئيلي البنية وهُزالى ومرضى وغير نظيفين. هذا ما كنت أزعجه به، فهو لا يؤمن بأنه يمكن للأحمق أن يكون لمصلحة أحد، وهو فوق ذلك بصحة جيدة، وقوي وذو كفاءة عالية، لكنه يُسّر بي لأنه وجد رجلاً، يفتُش عن شيء ما ولهذا فإنه يَعُدّه عبقرياً. إنه يشعر بالفرح ويتمنّى أن نبقى على الدوام نشعر بالسعادة معاً»[1].

كتب غوته ذلك عندما كان يشعر بالعاطفة الملتهبة التي فجّرتها أولريكي فون ليفتسوف، ابنة السابعة عشرة، في أعماق غوته الذي أهداها نسخة من ذلك الكتاب. ونحن نستطيع، في هذا المقام، أن نجد دافعاً جعل مقابلة نابليون لغوته تتجاوز مساحة القاعة التي تمّ فيها ذلك اللقاء. فإن عبارة نابليون «أنت رجل» تشكل هي الأخرى تعارضاً مع ثقافة عبادة الشخصيّة القويّة والطارئة التي عرضت في إيرفورت للرأي العام وأهل منطقة السار، والتي انعكست في التقرير «المبتذل» لأرنولد. وكما سبق لغوته عام 1806 أن قام بتحويل علاقاته المنزلية والبلاطية إلى أخرى برجوازية، فإنه تماثل في هذه اللحظة الخاصة بلقائه مع نابليون مع روح العصر. فإنّ صاحب «المنزلة العليا» الذي اعترف

(1) Dazu Gustav Seibt, Nachwort zu “Auch ich in der Champagne!”. München 2007.

به وتقبّله لم يكن من أصحاب الرتب العليا، شأنه شأن كثير من الأمراء الذين كان غوته على صلة بهم. إن هذا الذي قفز من ضابط في سلاح المدفعية ليغدو إمبراطوراً، كان إنساناً استثنائياً. وقد وجد في غوته قريناً له. فالإمبراطور الذي حملته عربة النصر إلى ثورينغن ليلتقي بقيصر آخر هناك، استطاع أن يلتقي هناك بعبقرية أخرى.

لقد وصل إلينا كمّ ضخم من الحوارات الخاصة بشهر تشرين الأول عام 1808، التي قام فالك بتدوينها، ويميل المرء إلى الاعتقاد بأنّ تلك الحوارات المملوءة بالأخطاء الكتابية والتي لم تجر عملية إعدادها على المستوى الأدبي، شأنها شأن الكثير من الحوارات التي جرت إعادة كتابتها والتي صارت مبتذلة، هي من تدوين فالك نفسه. ففي تلك الكتابات يقارن غوته بين نابليون واليهود «الذين يتحركون في أرجاء العالم ومعهم حجر الفلاسفة الذي يستطيعون من خلاله أن يميزوا بكل هدوء بين الذهب والفضة والنحاس. ثم يقول:

«لا تظنوا أنكم أكثر حكمة منه، فإنّه يتبع في كل مرّة هدفه الذاتي —وهو يزيح جانباً كلّ ما يعوق حركة سيره— حتى لو كان هذا الذي يعيقه ابنه الذي من صُلبه».

إنّ هذا الكلام هو نوع من التلميح الذي لا لبس فيه إلى مسرحية فولتير «يوليوس قيصر»، الذي لن يقوم نابليون بتكرير أخطائه. بعدها يتحدّث غوته، بنبرة غاضبة عن الموضوعية الباردة التي تجلّت في صوت نابليون عندما «بدا وكأنّه قائد أوركسترا قدير، يمنح كلّ عاشق عندما يمسك بأداته الموسيقية، الأفضلية من غير حب أو كراهية، وعلى نحو يسمح باستثمار طاقاته لصالح الأوركسترا». لذا فإن المرء لا يحصل على ميزات ولا يصاب بأضرار عندما يكون موضع حب نابليون أو كراهيته:

«فهو لم يكن يحب هرتسوغ فايمار بكل تأكيد، دون ان يستشعر الرجل من ذلك أي نوع من أنواع الضرر».

كان نابليون يقود العالم مثل مدير المسرح. ثم يتابع غوته إيضاح ذلك:

«لقد وجد (غوته) على نحو مطّرد أن نابليون مشاكس مثل بالمر Palmer، ومدّع مثل إنين d'Enghien الذي يطلق العيار الناري في مقدّمة الرأس حتى يصاب الجمهور الذي لا يستطيع الانتظار بالذعر ويشغب على منجزات العبقري».

إن فكرة الحياد المتسامي في الوسائل والغايات تبدو متفاوتة في مائدة النقاش هذه. فنابليون كما ينقل فالك عن غوته:

«يقاتل الظروف المحيطة والقرون الفاسدة من خلال شعب فاسد، فدعونا نثني بسرور عليه وعلى أوروبا؛ لأنه على الرغم مما يمتلكه من خطط عالمية، لم يصبح فاسداً»[1].

لم يكن هذا تعبيراً عن مزاج عابر، فالمقارنة بين نابليون وقائد الأوركسترا ومدير المسرح -هنا يتذكر المرء الصورة التي وردت فيها رسالة غوته التي بعثها إلى مارينا فون إيين بيرع، والتي رأى فيها أخطاء المسرح الفرنسي شبيهة بالصاعقة التي تنفجر- والإشارة إلى الجمهور المشاغب الذي لا يستطيع احتمال الزمن، كلّ ذلك يشير إليه الكتاب، وبعد يومين من اللقاء الذي جمع غوته مع نابليون قال غوته لريمر: «لقد كاد أن يناقش معي التفصيلات كلّها»[2].

---

(1) Grumach VI. S. 566 f.

(2) Grumach VI. S. 552.

«سيّدي الإمبراطور»
الشاعر في الإمبراطورية

كان غوته يرتدي الوشاح الذي منحه نابليون له بكلّ أريحية، وهي مسألة كانت تجري في فايمار مجرى الأمثال، كما كتب فيلهلم فون هومبولت في بداية عام 1809: «تعود غوته على أن يتحدث عن نابليون بـ(سيّدي الإمبراطور)»[1] وكانت الأميرة الفايمارية كارولين قد شكت في أيلول عام 1811 من «تعلق غوته بذلك الشريط الأحمر». وقد سبق لغوته أن آثر أن يتم إرسال هذا الوسام بما ينطوي عليه من سمات فنية من خلال بريد مدينة لايبتسج الآمن؛ لأنّ البريد من فرنسا إلى ألمانيا لم يكن آمناً تماماً[2].

تبيّن لغوته في اليوم السابع عشر من تشرين الأول عام 1808، أي بعد زيارة كارولين سارتوريوس لمنزله في فراوين بلانس، بالتزامن مع زيارة الزوجين تالما، عدم معرفته باللغة الفرنسية بما فيه الكفاية؛ لهذا قام طبقاً لسجلات الإعارة في مكتبة فايمار، باستعارة كتاب «قواعد اللغة الفرنسية الجديدة لغايات الاستخدامات العمليّة»[3].

كان غوته يفكرّ في تلك اللحظات، شأنه شأن الكثيرين، بالألمان والفرنسيين، ويبدو معجباً بالثقافة التي لا حدود لها عند الفرنسيين. وقد صرّح آنذاك بفكرة ظلّ يعيد اقتباسها في ما بعد، نظراً لعدم وجود ألمانيا واحدة ولوجود عدد كبير من هذه الألمانيات: يتوجب على الألمان شأنهم شأن اليهود، أن يتوزعوا في جميع أرجاء العالم «من أجل تطوير

(1) Bode II. S.421.

(2) Ebda.S.527.

(3) Keudell-Bulling. Goethe als Benutzer der Weiniarer Bibliothek. Nr. 531..

الخير، المركوز فيهم، تطويراً مطلقاً وجعله لصالح الشعوب»[1]. فهل كان غوته يفكّر في الالتفات إلى ذاته وتلبية دعوة نابليون بالذهاب إلى باريس؟ في تلك اللحظات التي كان غوته يتحدث فيها عن نابليون بوصفه حامياً له، وصلت علاقته بكارل أوغست في شتاء 1809/1808 إلى نقطة حرجة. كان السبب أمراً تافهاً –فقد وافق الهرتسوغ بتحريض من صديقته كارولين ياغي مان على أن تصبح الأخيرة مغنية الأوبرا الأولى، وهو موقف ظلّ معلّقاً فوق رأس غوته. غير أن هذه المرحلة التي عُرفت باسم «أزمة المسرح» تنامت لتغدو لوناً من التوتر الذي استمر عدة أسابيع ولم ينته إلا بعد إعادة توصيف محدد لمهمات غوته بوصفه مديراً للمسرح.

ويمكن للمرء أن يتساءل عما إذا كان عناد كارل أوغست في هذا الشأن ذا صلة بتماهي غوته مع نابليون، فقد كان على الهرتسوغ أن يبرهن بوضوح من هو سيّد المكان، مثلما أراد أن يضع لجماليات العبقرية الإمبراطورية حدوداً أميرية–منزلية.

على المستوى السياسي بقيت الأجواء ملبّدة، فقد خاب أمل من كان يظن أنّ السلام سيحل بعد مؤتمر الأمراء في إيرفوت. فقد استمر القتال في إسبانيا وصار واضحاً أنّ بداية 1809 ستشهد بداية حرب كبيرة جديدة بين نابليون والنمسا. وفي الأسابيع التي كان غوته يتجوّل فيها وهو يرتدي الوشاح ويصف «إمبراطوره» ،كان كارل أوغست يكتب في الرسائل التي كان يرسلها ا إلى ماريا باولوفنا، وهي زوجة ابنه التي كانت تقيم لحظتها في بطرس بيرغ، أنّه يرى عملية إزاحته رأي العين. فقد كتب الهرتسوغ: أنّ الإشاعات التي ينشرها الفرنسيون تقول إنهم يريدون أن يعلوا من شأن شمال المانيا، وإنني سأكون على

(1) Grumach VI, S. 605.

رأس هذا النظام. وهو دليل واضح على نواياهم لإزاحته؛ لأنهم في العادة يخطّطون لما ينوون أن يقوموا به هنا[1].

لقد كانت الرقابة في اتحاد دول الراين فاعلة، إلى الحد الذي جعل الهرتسوغة تقول ساخرة في رسائلها، إننا سنعود إلى عصر البرابرة مجدداً، لأن المرء لا يستطيع، وهو في الشمال، أن يعرف ماذا يدور في الجنوب[2]. فقد كان القائم بالأعمال الفرنسي لمنطقة الراين يفرض إجراءآت رقابية صارمة، وكان كارل أوغست يرى ضرورة أن يعرف الناس ذلك.

«إنّ أيّ كاتب في صحيفة يقوم بنشر مقالة في صحيفة يحررها لا تتوافق مع المصالح السياسية للراعي السامي أو الولايات الكونفدرالية يعد ذلك بمثابة (فقدان الامتياز) بمعنى أن امتياز جريدته قد ألغي»[3]. فعندما بدأت الحرب مع النمسا في الربيع، جاء التحذير الواضح «بمنع كلّ الحوارات والتقارير الخاصة بأوضاع الحرب الدائرة، وكذا في ما يخصّ السياسات الخاصة بالحرب مثل نشر الأخبار وإذاعتها، تحديداً»[4].

أصابت هذه الإجراءآت الحربية من خلال حركة الفرق الحربية وإقامتها هرتسوغ فايمار في الصميم، ففي نيسان أقام بيرنادوت –صهر نابليون– عند غوته وفي تموز اندفع صوب ملك فست فالن –نتيجة الخوف من مقاومة بروسية بقيادة الميجر شيل، التي كان يمكن التعامل معها، والتوصل عن طريق كارل أوغست بسهولة إلى حل وسط بشأنها– مثلما سبق لأوغست أن أعلن عن خشيته في شهر شباط من خلال التزامات المعاهدة: أنّه يتوجّب على الأمير بيرنهارد، لسوء حظ

(1) PB3. Nr. 69(17.2. 1809).

(2) PB3. Nr. 67 (9. 2. 1809).

(3) PB3. Nr. 68 (16. 2. 1809) .

(4) PB3. Nr. 79(13.6. 1809).

والديه، أنْ يقاتل إلى جانب الفرنسيين، كما أنّ حصة فايمار من الجنود سيتم تجديدها.

إنّ يوميات غوته ورسائله، خاصة إلى فويغت –حافلة بأخبار الحرب والمعلومات التي أوردتها الصحف وبتحليل الخرائط، حتى غدا صديقه(كارل فريدريش) راينهارد مصدراً للمعلومات. فهل كان الناس في فايمار يدركون قِصرَ الوقت أمام نابليون؟ فبعد ضربات النصر الساحقة التي أحرزها نابليون ضد الجيش النمساوي في بافاريا، واحتلال فيينا، استطاع الهرتسوغ كارل أن يلحق في أسبرن الهزيمة القاسية الأولى بالجيش الفرنسي التي كادت تعادل النصر الذي أحرزه نابليون في فاغرام. ولم تكن وسائل الإعلام والصحف ذات النبرة العالية ضرورية مثلما كانت في تلك اللحظات غير المستقرّة. ولم تفعل روسيا أيّ شيء على الإطلاق من أجل التخفيف على نابليون: باستثناء ما قامت به من مناورات ظاهرية على الحدود الغاليزية. وهذا يعني أنّ فشل مؤتمر الأمراء في إيرفورت لم يتبين إلا بعد مرور ستة أشهر على نهايته.

ولم تكن حرب عام 1809 تعني بالنسبة لغوته أكثر من مجرّد خبر من بين أمور أخرى كالحرائق الكبيرة وعمليات النهب الفظيعة التي وقعت في ريغنسبورغ. لهذا رأى غوته أنّ من الضروري أن يتنازل عن الذهاب إلى الحمامات المعدنية في بوهيميا؛ لأنه كان يعاني المغص الكلوي، ولم يجد أن ثمة خسارة في تنازله عن ذلك الذهاب. وقد كتب غوته في «دفاتر الأيام والسنوات» في ما بعد تحت عنوان: عام 1809 إنّ زحف مقاتلينا في الرابع عشر من آذار إلى تيرول كان محزناً وخطيراً»[1].

يختبئ خلف هذه الجملة الساكنة، الكارثة الفظيعة التي عانتها فايمار جرّاء الحرب الروسية. ففي شهر آب على وجه التحديد اتجهت القوة

(1) MA 14. S. 207.

العسكرية التي خصصتها فايمار لتواجه أعمال الشغب التي قام بها أندرياس هوفر، وهناك عند مضيق بالقرب من شتير تسينج بالقرب مما يُعرف بـ «ممّر زاكسن» جرت إبادة تلك القوة تقريباً. وقد وصف يوهان بيتر هيبل وهو أحد المقربّين من نابليون، أندرياس هوفر بالوحشية في مقالة له فقال:

«من أعالي الجبال هبط الحراس ومعهم أسلحتهم النارية، الشباب والشيوخ الرجال والنساء وبأيديهم الأسلحة. كان البافاريون والفرنسيون -كما كان أهل فايمار وزاكسن- في وضع حرج خاصة عندما كانت الصخور الكبيرة التي تصل إلى حجم المنازل تتدحرج صوبهم في الممرات الضيّقة». وكانت الخسائر من القتلى: 40 ضابطاً، 496 جندياً وضابط صف. وبالمجمل فإنّ الخسائر أصابت قرابة ألف عائلة، بمعنى أنّ ما مجموعه عشرين ألف رجل معافى إذا اتبعنا المعايير الحديثة قد دفعوا ضريبة الدم. وعندما عاد في عام 1811 الأحياء الذين كان يبلغ عددهم 328 رجلاً من مجموع ألف رجل، وهي الحصّة المفروضة على فايمار للقتال في إسبانيا، استقبلوا في منطقة شيس هاوس وقدمت هناك كميات ضخمة من الطعام، وكان من المؤلم أنّ رجال الاحتياط الذين ظلوا في البلاد هم من تولى خدمة أولئك العائدين إلى الوطن. لكنّ مقتل ستين رجلاً، كانوا قد لقوا حتفهم في حادثة انفجار ملح البارود في بداية أيلول عام 1811 في آيزناخ كان هامشيّ التأثير، حيث فجّرتْ عربة مملوءة بالذخيرة شارعاً بأكمله وكان أحد الجنود الفرنسيين الذي كان يدخن الغليون مسؤولاً عن ذلك: لكن هذه الأعداد تبيّن أهميّة فايمار الصغيرة في التاريخ الكبير. إنّ حروب نابليون لم تعد منذ عام 1808 حروباً يقودها فرنسيون فحسب، فقد غَدَتْ مرتبطة بجنود الكوتات من الأمم الأخرى -الذين كان معظمهم من الألمان-. ولم يعد

يذهب إلى ساحة المعركة جنود محترفون لديهم الدوافع للقتال، بل صار يذهب إلى ساحة القتلى جنود كانوا بمثابة العَلَف للمدافع. ومن هنا بدأت تتجلّى الميول الحربية لنابليون في حروبه الأخيرة في اعتمادها على الكثرة العددية، وهي التي أطلق عليها فاغرام أولى الحروب المعتمدة على الأسلحة والمواد الحربية في التاريخ.

وقد وجدت هذه الوحشية العامة صداها في يوميات غوته، التي سجّلت كارثة تيرلوز في الحادي والعشرين والثلاثين من آب عام 1809 وأبدت اهتمامها، على سبيل المثال، في الثاني من أيلول بـ «نشر الرذيلة الجنسية من خلال موجات الحرب». إضافة إلى الأمراض الوبائية التي تشكل الأعراض الجانبية لتلك الحملات العسكرية. ومن المثير أنّ غوته بدأ منذ منتصف الصيف يتتبع مفاوضات السلام، فتمكّن في السادس من تشرين الثاني 1809 من عَقْد مقارنة بين «وسيلة السلام والخرائط» بمعنى أنه كان يضع نصب عينيه، جهاراً نهاراً، الخسائر التي شملت المناطق المحتلة والتراجع عن ساحل البحر الإدرياتيكي. وقد عاش غوته شيئاً من نتائج الحرب بعد ذلك، وهي ما سميت بالإفلاس الحكومي لدولة أستراليا. وقد عاين غوته بعد ستة أشهر ذلك عندما ذهب إلى كارلس باد وواجه أزمة الأوراق النقدية التي يحملها والتي صارت بلا أدنى قيمة. وهذا الأمر ذكّره بالتحويلات عام 1792 وهو ما جعله يجد طريقه إلى الجزء الثاني من فاوست.

إن النتائج السياسية المثيرة للسلام مع النمسا، تبدّت من بداية عام 1810، فقد تزوج نابليون، إمبراطور الفرنسيين من ماري لويس، ابنة قيصر النمسا. وهذه الصلة أسهمت في علاج المشكلة التي كانت تثقل على مستقبل الإمبراطورية منذ إنشاء المملكة الجديدة: وهي مسألة عدم وجود وريث لنابليون.



إمبراطورة فرنسا ماري-لويز

إنّ هذه الصلة تعد بأن تمنح الوضع العالمي، على وجه التحديد، الأسس الشرعية التي يحتاجها والتي تمنح الوضع الأوروبي المضطرب ما يحتاجه من السلام والاستقرار. وقد كان على نابليون أن يشعر بالسعادة؛ لأن القيصر ترك التحريات الخاصة بالزواج تنتهي إلى غير نتيجة، فلم يكن ثمة زواج أفضل بالنسبة لمحدث النعمة هذا أفضل من الزواج بفتاة من آل هابسبورغ، فمن خلال هذه المصاهرة صارت عائلة نابليون قريبة، قرابة غير مباشرة، من أسرة البوربون، لتجيء إلى باريس، بعد ماري أنطوانيت هرتسوغة من بلاد الراين، لتكون زوجة الإمبراطور. لقد بدا أنّ ثمة دائرة ستنغلق، إذا ما نظر المرء بتفاؤل: إنها دائرة الثورة.

وقد علق غوته على هذا الزواج وهو يكتب لصديقه راينهارد المقرب من نابليون بقوله:

«إنه حلّ لمضاعفات اللحظة الحاضرة، ويسعى إلى حساب تأثير ذلك على المستقبل»[1].

(1) Reinhard an Goethe am 16. 2. 1808.

لم يرغب غوته في أن يُفكّر في أمر آخر:

«فهو لم يكن يرى أنّ مصاهرة نابليون لآل هابسبورغ تعني الوقوف ضد الثورة، وسيأتي المحافظون من أجل تلبية موقفهم المدروس من السلام». لكنّ «إمبراطوره» قد تبنى في تلك السياقات الأوروبية القديمة، أبرز الالتزامات الأساسية، عبر ذلك الزواج.

لقد صارت المتناقضات تترابط في شعر غوته، فاوست وهيلينا، بروميثيوس وإيبيميثوس، لهذا صارت تسمية نابليون ابنه بملك روما تبدو وكأنها إحدى أفكار غوته المثيرة. وقد أتيح لغوته، على نحو رائع، في الصيف التالي مباشرة عام 1810 أن يقيم علاقات شخصية جديدة أثناء ذلك الزواج الأسطوري، حيث صارت علاقة صداقة تربطه بالإمبراطورة المتحدّرة من آل هابسبورغ وكذلك بشقيق نابليون.

كانت ماريا لودوفيغا البالغة من العمر ثلاثة وعشرين عاماً، هي الزوجة الثالثة للقيصر فرانتس الأول، قيصر النمسا، وهي حفيدة ماريا تيريزا التي ترتبط بصلة قرابة بالشاعر الايطالي تاسو والبيت الأميري في إيستي. وكانت لودوفيغا امرأة حساسة معتلّة الصحّة، ذات عينين ذكيتين جميلتين، إضافة إلى عداوتها لنابليون لدرجة أنّ «شيطان فرنسا» كان يدعوها «الغلام» و«المارقة».

جاءت ماريا لودفيغا في السادس من حزيران عام 1810 إلى كارلسباد وأقامت من أجل العلاج هناك مدة أربعة عشر يوماً، وقد طَلَبَتْ الجمعية التشريعية أنْ يُدبّج غوته قصيدة لتكون بمثابة تحية للإمبراطورة ينشدها طلاب المدارس. وقد استجاب غوته وكتب في الأسابيع التالية ثلاث قصائد أخرى رافقت الإمبراطورة في حلّها وترحالها: أثنت القصيدة الأولى على كرمها، واحتفلت الثانية بإطلاق اسمها على أحد الأمكنة، أما الثالثة –وهو ما أقرت به جلالتها– فقد تحدثت عن مشاعرها عند الوداع.



ماريا لودفيغا النمسا 1810

كانت تلك قصائد غير سياسية تتحدث عن الحب المتعلق بسلالة حاكمة، كما تتحدّث عن جمال العطلة الصيفية، لكن تلك القصائد استطاعت أن تلفت الأنظار نحو غوته، فسرعان ما قام البلاط بإعلام الإمبراطورة عن الشاعر الكبير، الذي أخذت تدعوه بين الفينة والأخرى للحوار معه في المناسبات العامة.

قام غوته بطباعة القصائد الخاصة بتلك المناسبة على نفقته الشخصية طباعة أنيقة وتمّ إيصالها إلى الإمبراطورة، التي قامت بعد ستة أشهر برد الجميل فأرسلت علبة فاخرة مكتوب عليها اسم «لويز» كما أكّد ألبرشت شون وهو الوحيد الذي نقل رسالة الإمبراطورة التي لا تُقدّر بثمن والذي تعود من قبل على أن يتواصل مع مستويات العاملين لخدمة العرش، كنساء البلاط أو الماريشالات[1].

(1) أشكر من أعماق قلبي ألبرشت شونه الذي أطلعني على محاضرة غير منشورة بخصوص الرسالة المبعوثة إلى ماريشال البلاط ألتان التي يشكر فيها غوته للأميرة هديتها.

وقد أخبر كارل أوغست، بعد ذلك بقليل، أحد أصدقائه في تبلتس، حيث كانت الإمبراطورة قد ذهبت إلى هناك قادمة من كارلسباد، واتصلت عرى الصداقة بينها وبين الهرتسوغ بأنها « روت لي الكثير من الأشياء الجميلة لصالحك»[1]. وسنعرف الكثير عن تقدّم الاتصالات بعد ذلك.

ذهب غوته، هو الآخر، صيف عام 1810 إلى تبلتس حيث كان لويس بونابرت، شقيق نابليون الذي يصغره بعشر سنوات يقيم، وكان غوته في غرفة إلى جوار غرفته.

كان لويس قد استقال من عرش هولندا قبل عدة أشهر، حيث جعله أخوه هناك بمثابة «الحاكم على العرش»، وأرسله من ثمّ إلى منطقة أكثر خطورة واستراتيجية وهي إنجلترا. ولم يكن لويس يومها على استعداد لكي يكون ضد مصالح شعبه الذي كان سيتأثر جراء ذلك الحصار الاقتصادي. لهذا اختلف مع أخيه وتخلّى عن المهمّة. وقد أظهر لويس بوصفه نبيلاً يتحدر من سانت لوي ميلاً للعزلة، وحباً للأدب، وزهداً واضحاً يفوق الكثيرين من أولئك الذين عاشوا التحولات والانكسارات التي شهدها عام 1800.

أما غوته الذي استثمر الصيف بأكمله في عام 1810 في حوارات حيوية عن السياسة والحرب –فلم تكتف يومياته بتدوين حواراته مع رفقائه البروسيين أمثال فيخته ومارفيتس –فإنه لم يلتق بشخصية أخرى هناك قدر التقائه بشقيق نابليون التي وصلت إلى ستة لقاءات على أقل تقدير. وإذا كنا لا ندري، لسوء الحظ، شيئاً عن مضمون الحوار الذي دار بين الرجلين، فإن ما وصل إلينا لا يتّعدى تفهم غوته لما يمتلكه الملك السابق من وعي ولما يتحلى به من معرفة وإنسانية، فضلاً عن كونه يخفي

(1) Carl August an Goethe, 13. Juli 1808.

شخصية أخرى تماماً، على الرغم من ذلك التشابه الجسدي الظاهر بين لويس وشقيقه الإمبراطور لودفيج نابليون.

لقد ذكر فالك في العاشر من تشرين الثاني عام 1810 تصريحاً مفصلاً لغوته، يبدو أنه على درجة من الموثوقية، يتمثل في كون غوته لا يكترث لمثل هذا التناقض بين الشقيقين، فعلى الرغم من تعاطفه الذي يبديه نحو لويس، فإنه ينطوي على تعاطف مماثل نحو شقيقه لودفيج «فإذا كان لويس ابن الخير والوّد فإن أخاه لودفيج هو ابن القوة والعنف. وقد امتزجت هذه الصفات وتوزّعت بين الشقيقين على نحو غريب، مع أنهما توأمان لعائلة واحدة. فلوسيان، على سبيل المثال، يحتقر المملكة ويشغل نفسه في روما بالفنون، أمّا في ما يخص لودفيج الناعم فيبدو التخلّي عن المملكة في أوقات عاصفة تماماً مثل وقتنا، أمراً عادياً.

لكنّ الحنان وطيبة القلب ظلّا يميّزان كلّ خطوة من خطوات نابليون، لذا فليس من المفيد أبداً أن يقال إنّ الذي دفعه إلى مثل هذه التصرفات هو رغبته أن يكون على النقيض من شقيقه، فالأمر هنا مختلف تماماً. فإنّ لودفيج نابليون هو من أكثر الشخصيات الذين عرفتهم على مدار سنوات عمري وداعة ومحبة للسلام، لكنّ ما يتولّد عن ذلك، حقيقة، هو أن كلّ أمر غير عادل يجرح روحه بعمق على نحو استثنائي وهو يقاوم ذلك بضراوة».

يُعد لويس نابليون واحداً من معارف غوته الذين لم يصنع لهم في الظاهر شيئاً على المستوى السياسي، وإن كان لويس قد أفاد من معرفة غوته الواسعة. وقد نشأت في تلك الأجواء صداقة بين الرجلين أتيح لها أن تتحدّد عام 1823 في مارين باد وقد عبر غوته من خلال لوحة فنية عام 1828 عن ملامح شخصية لويس بونابرت الرئيسة.

وهكذا بقي غوته في تلك السنوات يحلّق في الفضاءات العليا

للسياسة! وصارت العلاقة مقتصرة على المصافحة بينه وبين الحكام الذين يستطيعون تحريك مئات الآلاف من البشر وملء ساحات المعارك.

وكان غوته في الوقت نفسه خصب الإنتاج في تلك الحقبة. فقد أنهى عام 1810 كتابه عن نظرية الألوان الذي يُعّد في نظر غوته الإنجاز الرئيس على المستوى العلمي. وبعد صدور «باندورا» عام 1809 صدر كتابه «الأنساب المختارة»، الذي يمثّل الخطوة التالية للعمل الأخير الذي صيغ على غير مثال من الجرأة والخصب. فقد ظهرت الأجزاء الأولى من «سنوات التجوال» وظهرت في أثناء ذلك رائعته «الرجل الخمسيني» وفي الشخصيات الخاصة بالضباط في هذه الأعمال القصصية –خاصة الرجل القويّ ابن الخمسين والشخصية المُسّرحة من الخدمة في «الأنساب المختارة» التي يُراد إخراسها– تتجلّى الآفات الحربية للعصر عن بعد، مثلما تتجلى السماء الرمادية فوق مشاهد طبيعية.

إنّ تخمينات أرمين التي يحكيها لزوجته بتيّنا في «الأنساب المختارة»، تظهر على شكل نوايا لصالح نابليون[1]، وستبدو في التصريحات الواضحة لغوته في مواجهة ريمر، فالرواية تبيّن أنّ «الألمان كانوا يمتلكون منذ ظهور نابليون حرية أن يتولى كل فرد منهم بناء ذاته كيف يشاء»[2]. إنّ أحد الشروط التاريخية المهمة للرواية التي تتجلى في مرونة قوانين الطلاق، ليست كما يمكن للمرء أن يظن أنها توجد في «شيفرة نابليون» المتمثّلة في الزواج المدني وإمكانية الطلاق التوافقي التي جاءت إلى ألمانيا، بل إنها تتجلى في ما حصل في بروسيا من قبل وتحديداً عام 1794 في القانون العام للأراضي.

تعرّف الرواية الزواج بوصفه عقداً ينظّم العلاقة ويحتاج فكّه بين

---

(1) Bode II, S.463.

(2) 21. November 1809.

الأشخاص من ذوي الحيثيات إلى الموافقة الاعتيادية المسبقة عبر إسقاطه ضمناً من خلال الحاكم. وعلى هذه الشاكلة تبدو الحرب التي تتجلّى في نهاية الرواية. أما بالنسبة لإدوارد الذي يريد أن يغامر بحياته في الفصل الأخير من الجزء الأول من «الأنساب المختارة» فإنّ الأمر يبدو جميلاً وهو يتنقل مع قادة الحرب، الذين يستطيع أن يقول لهم، إن الموت تحت إمرتهم محتمل وأما النصر فمؤكد». أما في الفصل الثاني عشر من الجزء الثاني، فيظهر «أنّ الهدف الرئيس من الحملة العسكرية قد تحقّق، وقد تحلى إدوارد بأوسمة الشرف، تاركاً المجد وراءه». وهكذا فلم تكد تمرّ ستة أشهر؛ لأنّ السرعة كانت من أكثر العلامات البارزة في حروب نابليون.

وهناك ملاحظات كثيرة بهذا الخصوص. فقد شعر غوته بخيبة الأمل نتيجة للتلقي الذي حظيت به «الأنساب المختارة»، وقد وصف في رسالة بعثها إلى راينهارد الجمهور، خاصة الألماني، بأنه «كاريكاتور أحمق، إنه يبني لنفسه حقاً لوناً من السلطة، ويشكل مجلساً للشيوخ، وفي القراءة والحياة يقوم بالتصويت على هذا العمل أو ذاك من تلك الأعمال التي تحظى بإعجابه».

ولم تكن ثمة وسيلة أخرى سوى التحمّل بصمت. وعلى العموم فإنّ المرء سيبدو مثل طفل المعجزة الخائف أو كما «يجري في التاريخ عندما يتم بعد بضع سنوات، شنق الملك العجوز وتنصيب إمبراطور جديد بدلاً منه. إنّ الشعريّ يزعم أنه على صواب، كهذا الذي يجري في الواقع»[1].

وإذا كان المرء يريد أن يظفر بمصطلح البونابرتية عند غوته، فعليه أن يفتشّ عنه في مثل هذا الموضع، ففي ذلك المصطلح تجري بعض

(1) Goethe-Reinhard. S. 108 (31. 12. 1809).

ملامح القوة والاعتراف بواقع أخلاقي مرئي وغير فاعل، إضافة إلى شعور بالأخوّة في ظلال ذلك التأثير الواسع. إنّ أعيان الشعب يعادون المجرمين والمبدعين، والتاريخ والقصائد، وهنا يرى المرء مستويين يقف غوته ونابليون في الذروة منهما، أي أن الشاعر والإمبراطور يقفان إلى جوار بعضهما بعضاً.

لقد بين غوته في الحادي والثلاثين من آذار عام 1810 في حديث لريمر أن رجال الثورة الأوائل مثل لا فاييتي «كانوا مغرورين ويريدون أن تتمسك الجماهير بهم، لكن نابليون ما لبث أن أوضح أن شيئاً من ذلك غير صحيح». وهذا ينطوي على لون من الازدراء الصريح للأمة التي ينتسب لها. وقد سجل ريمر في الحادي عشر من حزيران عام 1809 بخصوص العرض الخاص بكورتيس وغزو المكسيك:

«إن علاقة كوريتس بالمتوحشين، شبيهة بعلاقة نابليون بنا»، إضافة إلى الالتفات المبكرّ للقول المأثور (الرائع) «لا أحد يمكنه أن يسأل الله سوى الله نفسه»، وهو قول سيصير له في تفكير غوته بعد ذلك أهمية كبيرة وسيغدو نقطة التقاء بين الإمبراطور وغوته، كما تبين الحوارات مع ريمر في الثالث من تموز عام 1810. صحيح أنّه ليس ثمة سبب لاحترام الضخام؛ لأن هؤلاء الضخام عندما يسقطون في الماء ويعجزون عن السباحة يقوم إنسان بإنقاذهم وإخراجهم من الماء. أمّا نابليون الذي «فتح قارة بأكملها، فلم يجد في تلك القارة أحداً يتحدث معه عن الشعر وفنون التراجيديا غير إنسان ألماني».

يظهر نابليون في هذا الترتيب العالمي بوصفه مبدأ من مبادئ الحقيقة التي يصعب عدم التصويت لها وإن كانت لا تتفق مع الشعرية أو الأخلاق. كان في وسع غوته أن يقول وهو يتأمل نابليون إن العدالة الشعرية هي لون من العبث. «وحدها المأساة هي الظلم والأمر الذي

يجيء قبل أوانه. وقد كان نابليون يرى ذلك؛ لذلك كان يلعب دور القدر»[1].

إن الواقع القادر على استيعاب ذلك كله، الضخامة والإنقاذ من الغرق والفاتح العالمي والشاعر، يحولهم جميعاً إلى زوائد أخلاقية متذمّرة جرت الألمان إلى الكوارث.

كان غوته يفقد الصبر عندما يتحدث عن ذلك أو يكتب عنه. ففي رسالة كتبها إلى تسلتر في الثلاثين من تشرين الأول 1809 قال: «إنّ مهّرجي ألمانيا لا يزالون يصرخون ضد الأنانية وقد أراد الله أن يظهر الأمور على غير ذلك، فكان عليهم أن يكونوا منذ وقت طويل، مخلصين مع أنفسهم ومع من يخصّونهم وأن يكونوا حريصين على هذا الإخلاص مع الأقرب فالأقرب».

لقد شكّلت أمثالُ هذه المواقف الخلفيّة لموقف غوته السياسي في الحقبة النابليونية، فقد كان الإمبراطور، دون أدنى شك، مهتّما بغوته ومعجباً به، ولو أراد أحدهم أن يصف موقف غوته بعد عام 1806 بوصفه واحداً من المخلصين لاتحاد الراين الألماني، فلن يكون اهتمامه واقعاً في مكانة متقدمة ؛ لأنه كان معجباً بالعبقري. فقد كان غوته، في البداية والنهاية، يتقبل الواقع الذي ثمنه خداع الذات وهو تحد طفولي وصراعات عقيمة ترك أمر مقاومتها. ويمكن أن نأتي هنا بمثل وهو الوهم القومي الذي أفضى آنذاك إلى اضطراب الروح الألمانية وكاد يدمرها، ولهذا اختتم غوته رسالته إلى تسلتر بقوله: «إنّ علينا، في هذه اللحظات، أن لا نقع في الضلال وأن نبقى على عنادنا القديم».

وهنا تبرز وجهة نظر ماديّة تتعلق بغوته بوصفه مؤلفاً وتمنحه الكثير من الاحترام وهي: حقوق الطبع والنشر النابليونية. فقد سرت هذه

(1) Zu Riemer am 11. März 1809.

الحقوق ابتداءً من الخامس من شباط عام 1811 وربطت إعادة طبع الكتاب بموافقة المؤلف أو ورثته لمدة عشرين عاماً بعد وفاته، على خلاف ما كان يقع في الولايات الألمانية ذات العلاقة الممزقة، حيث كانت الطبعات المجهولة للكتاب تنتشر بقوة فيها، فتمت بذلك حماية الملكية الفكرية للمؤلف للمرة الأولى. وكان هذا يسري على المناطق الناطقة بـ«الألمانية» على الجانب الأيسر من نهر الراين. لهذا وصل إلى غوته من باريس في التاسع من تشرين الثاني عام 1810 رسالة رسمية ذات شعار ورقم رسميين تتضمن رغبة مدير المطبعة الإمبراطورية غراف فون بورتاليز أن يعرف إن كان غوته يريد أن يعيد طباعة «الأنساب المختارة»؛ لأن إحدى مطابع مدينة كولونيا تريد القيام بذلك. أحال غوته الرسالة إلى ناشر كتبه كوّتا، ثم تولى غوته في الخامس والعشرين من تشرين الثاني بنفسه الإجابة عن الرسالة ليعبّر عن احترامه وامتنانه للإمبراطور.

«لقد تابعت، كوني أديباً، باهتمام وإعجاب التنظيمات الحكيمة التي استطاع من خلالها البطل الذي يصنع سعادة فرنسا، أن يهتم بمصالح الكتاب المحليين والأجانب على حدّ سواء». وقد وجد غوته أن هذا الحدث من الأهمية بحيث إنه ذكره في «دفاتر الأيام والسنوات».. «إلى هذا المستوى من الرفعة بلغ الفرنسيون في ما يخصّ الملكية الفكرية والحقوق المتعلّقة بها، كبرت أم صغرت، مع أنّ فضلاء الألمان لم يحركوّا ساكناً».

تستدعي هذه الإضافة العامة المتعلّقة بالكبر والصغر اهتماماً خاصاً، ففي الثامن والعشرين من آذار عام 1809 قام الملك جيردم في كاسل بتحريض من راينهارد على ما يبدو بإصدار مرسوم خاص يستدعي الدكتور كوّتا إلى توبنغن من أجل شراء الأعمال الأخيرة التي صدرت

لكلّ من غوته وشيللر في السنوات الخمس عشرة الأخيرة عن مملكة فست فالن[1]. وكان غوته شرح قبل ذلك بستّة أشهر في التفكير بـ «الضرر المترتّب على إعادة الطباعة» بمساعدة دالبيرغ، ليجعلها موضوعاً للتفاوض في مؤتمر إيرفورت[2]، لكنّ الطابع السياسي لمؤتمر الأمراء حال بينه وبين ذلك. وفي كل الأحوال فإنّ علينا أن نعي أنّ كلاسيكيات فايمار تعود إلى المكاسب البرجوازية لنظام نابليون. إنّ حالة التذمر الألمانية المستمرة في هذا الحقل تبين حالة التسّول غير الكريمة التي كان على غوته أن يناضل عام 1820 ضدها من أجل الحصول على امتيازات «الطبعة الأخيرة» في خمس وثلاثين ولاية ألمانية[3].

لقد صارت قراءات غوته بعد عام 1808، أي عند تراجع الصحافة بعد التنظيم البروسي، وثبات صورة نابليون لديه، تتسم بشيء من القلّة، خاصة بعد أن صارت الإصدارات قليلة بعد الرقابة المفروضة. وصار غوته بالمقابل منشغلاً بالتاريخ العالمي، وصار يقرأ آراء يوهانّس فون موللر عن التاريخ العالمي ومحاضرات فريدريش شليغل عن التاريخ الحديث التي تعالج التاريخ ابتداءً من ميلاد المسيح حتى القرن الثامن عشر. وقد أرسل له جورج سارتوريوس من مدينة غوتنغن الكتاب الفائز بالمسابقة التي نظمها المعهد الفرنسي في باريس. فقد طرحت الأكاديمية العلمية الفرنسية سؤالاً تاريخياً ذا خلفية تاريخية معاصرة من أجل التوسّع في الكتابة حوله وهذا السؤال هو:

«ما هو الوضع القانوني العام والخاص لشعب إيطاليا أثناء حكم

---

(1) Goecke-Ilgen. Das Königreich Westphalen. 5. 147 f.,

(2) Vgl. Goethe-Cotta. Band 1.S. 200 (Nr. 258) mit Kommentar in Band 3. 1..

(3) الوثائق الخاصة بهذا الأمر في: Goethe-Cotta. Band 1. S. 217-219. مع التعليق في الجزء 3.1 S. 295 f.

القوط الشرقيين؟ وما هي الأسس القانونية الرئيسة لتشريعات ثيودور وخلفائه؟ وما الفروقات الكبرى بين المنتصرين والمهزومين؟»[1]. وقد استطاع غوته على الفور، أن يدرك المطلوب في تلك الآونة «إن السؤال الخاص بالعلاقة بين المنتصر والمهزوم هو واضح في هذه اللحظة بما فيه الكفاية»[2].

إنّ الكتاب الذي ألّفه سارتوريوس والذي حاز الجائزة وأجاب عن الأسئلة السابقة، يصف حالة من الكراهية فاقدة المعنى للحكم الأجنبي؛ لأن هؤلاء القوط وحاكمهم ثيودوريش (كان سارتوريوس يكتب الاسم على هذا النحو) يعدّون مُحتّلين ناعمين، فقد تركوا لسكان روما كل حقوقهم وكامل قوانينهم، وتولّوا عنهم أعباء الدفاع عن البلاد. لكنهم لم يكونوا من أهل روما ولا مؤمنين حقّاً. كان ذلك يكفي لكي يكون بين سكان روما من يرفض هذا النظام الناعم، إما اعتماداً على فخر قديم متوارث وإما انطلاقاً من كراهية سوقية تُغذّي ذلك الرفض.

«إنّ الكبرياء الغبيّة والتعصّب الشعبي» كانا يقفان في وجه القوطيين الذين كانوا يريدون حماية شعب، عجوز، فاسد من الخطر الخارجي. ويستطيع المرء أن يتفهم بعضاً من تلك المشاعر؛ لأن «سعادة الناس المتعلّمين لا تعتمد على الثراء المادي وحده»؛ ولأنّ الأباطرة البيزنطيين كانوا «أباطرة عادلين»، فقد تمكنوا في النهاية من إعادة احتلال بؤرة البلاد الرومانية ودحر القوط الغزاة. لكنّ النتيجة هي أنّ إيطاليا التي كانت تحكم حكماً رشيداً أُهملت وصارت تعامل بغير عدل من الحُكْم البعيد المتدهور في القسطنطينية. فكبرياء أهل روما، على الرغم من المهزومين لم يَقُدْ إلى الخير وبالمقابل فقد كان أولئك البرابرة المحتقرين

(1) Sartotius, Ostgothen, S. 1.
(2) Goethe-Sartorius, S. 1.

الحكام الأفضل والحماة لإيطاليا»[1].

لقد كانت هذه السردية الجديدة لوقائع تاريخية قديمة -التي نقلها جورج سارتوريوس إلى «الفرنسية»- موضع الإعجاب في باريس، واستطاعت أن تحرز الجائزة الأولى هناك على الرغم بعض الخلافات مع الرقابة، واستطاعت في صياغتها الألمانية الضليعة أن تنال موافقة غوته.

«إنّ كراهية أهل روما للغزاة الرؤوفين والوهم اتكاءً على مزايا انقرضت والرغبة في وضع مغاير دون أن ترى شيئاً أفضل رؤية العين، والنشاط العشوائي والاتصالات التي لا طائل من ورائها والنتائج المؤسفة لتلك الأزمان، كل ذلك جرى وصفه على نحو دقيق وتم توثيقه على النحو الذي كان يجري حقاً في تلك الأوقات».

إنّ التلخيص الباهر الذي قدمه غوته للكتاب في رسالة المديح التي بعث بها إلى سارتوريوس في الرابع من شباط عام 1810، كانت تبدو وكأنها وصف للمزاج الألماني السائد، الذي بدأت فيه الأصوات تعلو على نحو واضح، وأخذت الفروقات تتلاشى لدرجة أن سارتوريوس وجد نفسه مضطراً للإشارة إلى الصعوبات التي لا يمكن تجنّبها عند الحديث عن كل احتلال أجنبي. ولعل هذا يفسر الأسباب التي جعلت تبادل الرسائل بينه وبين غوته يكاد يتوقف لمدة ثلاث سنوات.

وفي كل الأحوال كان الأستاذ سارتوريوس الذي ينتمي إلى مدينة غوتنغن ويعمل موظفاً في مملكة فست فالن موضع ثقة على الرغم مما سبّبه من أضرار. وقد شكلّت معالجته بالنسبة لغوته باعثاً لبلورة فكرة من أفكاره الأثيرة لديه:

جورج سارتوريوس

---

(1) Sartorius. Ostgothen. v.a. S. 214 ff.



«لقد قيل على نحو ما: إن التاريخ العالمي تجري إعادة كتابته من وقت لآخر وأين هي الحقبة التي تحتاج إلى إعادة كتابة مثل الزمن الحاضر؟»[1].

كان غوته عندما كتب هذه الجملة مشغولاً منذ وقت طويل بإعادة الكتابة هذه، فقد كان يعمل على أكثر أعماله تاريخية وهي سيرته الذاتية «شعر وحقيقة» التي من الغريب أنها لم تفهم إلا نادراً على أنها تنتمي إلى مساهمات غوته في الحقبة النابليونية. وبهذا فإنّ الجملة المهمة في الرسالة التي بعثها غوته إلى سارتوريوس تجيء بمثابة الدعوة إلى قراءة السيرة الذاتية التي تصوغ الماضي بعين الحاضر.

بدأ غوته كتابه الجزء الأول من «شعر وحقيقة» في التاسع والعشرين من كانون الثاني عام 1811 أي قبل أسبوع من رسالته إلى جورج سارتوريوس. وكان غوته قد أعد العدّة ليكون في عمله بمثابة مؤرخ محترف، وعلى غرار ما فعله سارتوريوس حين قام باختصار القوانين القوطية والمؤرخين البيزنطيين، قام غوته باستخدام الكثير من المصادر والأدبيات من أجل الحديث عن تاريخ شبابه، مثل تاريخ مدينة فرانكفورت ووثائق عائلية ومعالجات قانونية وعروض تاريخية خاصة بالقرن الثامن عشر وفي النهاية خلاصات تاريخية أدبية. وفضلاً عن ذلك

(1) Goethe-Sartorius, S. 117.

فقد كان في وسع غوته أن يسأل الشهود الأحياء وأن يعود بخصوص –بتّينا برينتانور إلى ذكريات والدته الشفوية التي كانت قد توفيت. فلم يكن «شعر وحقيقة» منذ البداية عملاً يحوي ذكريات ذاتية، بقدر ما كان كتابة تاريخية للذات بشروط علمية.

إنّ كون السيرة عند غوته هي السرد الطبيعي للكتابة التاريخية، يتبيّن في القسم التاريخي في «نظرية الألوان» الذي انتهى بـ(اعتراف المؤلف) على نحو قاطع. كما أنّ البعد التاريخي يظهر بوضوح في مقدمة «شعر وحقيقة»: «إنّ الحركات الضخمة لمجريات السياسة العامة التي أثّرت فيّ، مثلما أثّرت بقوة في جموع الناس، ينبغي أن يتم تقديرها على نحو واضح»[1].

ويبدو أنّ القرّاء المبكّرين للكتاب قد تعاملوا مع وجهة النظر تلك بلون من الجدّية. وليس ثمة ما يفوق ما كتبه ياكوب غريم جمالاً في الأول من تشرين الثاني عام 1811 إلى آرنيم:

«إنّ الملحمي والجذري والتاريخي هو ما يجري تدوينه هنا، أما عن الألوان فلون السماء الزرقاء، الذي يمرّ بالقرب منا، وكلما ابتعد المرء عنه، ازدادت رائحته الجميلة انتشاراً (...) لقد تم سرد وقائع احتفال التتويج على نحو استثنائي، ومن هذا المنطلق جرى رسم صورة لحرب السنوات السبع على نحو تاريخي خالص»[2].

وقد عثر مؤرخ مثل كارل لودفيج فون فولتمان في عرض مطول لكتاب «شعر وحقيقة» في كانون الثاني 1815 على التعبير الدقيق للحديث عن الكتاب، وهو «غوته وقرنه» وكان بذلك يلّمح إلى ما كتبه فينكلمان عن سيرة غوته[3].

(1) Dichtung und Wahrheit (hrsg. von Klans–Detlev Müller). S. 13.

(2) Bode II. 537.

(3) Fambach. Goethe und seine Kritiket. S. 203.

في الجزء الأول الذي سبق هذا الكلام، كانت ثمة فكرة ترى أنّ إعادة غوته كتابة المادة التاريخية تتم في ضوء التجارب الحيّة وبالذات ما يمكن رؤيتها بوضوح:

يجري هنا سرد الحكاية الخاصة عن إقامة الملازم الفرنسي ثورناك في منزل والديه في هيرشن غرابن. فأن يقوم فرنسي بالإقامة هناك كان ذلك يشكل لوناً من ألوان القدر الجماعي الألماني في تلك السنوات، وهو ما سمعناه مراراً في ثنايا الحكاية. لذلك فإنّ من الضروري أن نقوم بالبرهنة على ذلك بعدد من الاقتباسات. فعندما يكتب غوته في الجزء الثاني:

«إنّ غير المتوقع، منذ سنوات عديدة لم نسمع عنها في الماضي، تلقي بثقلها على المواطن القانع، بقوّة»، فإنّ كل قارئ في عام 1811 يعي المقصود، كما أنّ هؤلاء القراء يفهمون دلالة بقية الجملة:

«إنه ليس ثمة أحد يمكن أن يعاني أكثر من ذلك الأب الذي يحوي منزله غير المكتمل نزلاء عسكريين أجانب، عليه أن يعتني بهم، وأن يهتم بنظافتهم، وعليه أن يمنحهم الحرية في غرفهم المغلقة، وأنّ ينظم كلّ ما يتوجب عليه أن يقوموا بتنظيمه، وما تعود على أن يرتبّه، ينبغي أن يظل تحت رحمة قوة غريبة متعسفة»[1].

لقد استطاع سرد غوته أن يطوّر نمطاً لإمكانية التصرّف في تلك الأحداث: فمن جهة تبدو مواقف الأم والأطفال الجيّدة والودود والمنفتحة، التي تشكل الأساس لذلك كله، فهم يتعلمون «الفرنسية» ويتلذّذون بالهدايا والحلويات المثلّجة التي يحضرها الملازم، ويلجون عالم المسرح الفرنسي ويتعلّمون طريقة جديدة في الحياة وثقافة مغايرة. أما الأب، فيبقى عنيداً مصراً على المرض والألم وهو يرى الظلم، ويظل

(1) Dichtung und Wahrheit. S.94.

محافظاً على وجهة نظره السياسية ويحرص على أن يجعل الحياة مؤلمة للآخرين. وعلى غير ما ضرورة يسلك الضابط الفرنسي سلوكاً مثالياً وتسعد الأسرة لأنها حظيت برجل مثالي في المنزل. أما أهمية الأخلاق السياسية بالنسبة لغوته، والتي أعلنت في هذا الصدد، فيدلّل عليه ببيت الشعر الذي قاله حوالي 1820م:

«امنح قيادة البرجوازية معياراً!

هاهنا/ في السلام/

ولَيعُدْ كل أحد من بابه الذي قدم منه

مقاتلاً/ مهزوماً/ وعلى الناس أن يتسامحوا

مع الذين يقيمون في منازلهم»[1].

إنّ حكاية تورناك في شفافيتها المثالية تمثل في «شعر وحقيقة» منذ البداية نموذجاً لانغلاق السياقات المعاصرة في الأجزاء التالية من هذه الأعمال المرجعية؛ لذا فعندما صدر الجزء الثالث في السادس من آيار عام 1814 –أي بعد شهر من احتلال الحلفاء لباريس– قام غوته في وقت مذهل في قصره، بعرض خاص للمسألة إضافة إلى شرح مفصل لكل مراحل التطور الزمني للقصة. وقد توصل غوته في الخاتمة، وإن كان ذلك قد تم على نحو متأخر جداً، إلى القول إن الزمن الفرنسي وكلّ ما يتصل بهذا الزمن من مشكلات تاريخية قد تحوّل إلى تاريخ. أما بخصوص ما يتحلّى به غوته من بصيرة ثاقبة، تمكنه من الظهور المتجدّد، فأمر قد يحتاج إلى ملاحظة نقدية بخصوص مسألة الوطنية وهو ما يرتسم في الكتاب الثاني عشر.

إنّ هذه المسألة هيَ على وجه التحديد الحاجة إلى الاستقلال: «التي تقفز في أوقات السلام، على الدوام، وفي اللحظات التي لا يكون المرء

(1) Goethe. Gedichte in zeitlicher Folge. S. 952.

فيها تابعاً على وجه التجديد. أما أثناء الحرب، فإنّ المرء يحتمل القوّة الغاشمة قدر ما يستطيع ويشعر بأنه جريح نفسياً واقتصادياً لا أخلاقياً. فالإجبار لا يعيب أحداً إضافة إلى أن الأمر ليست خدمة معيبة، فهو وقت الخدمة، وفيه يتعود المرء على أن يحتمل العدو والصديق، حيث تكون للإنسان رغبات لا مشاعر». كما أنّ ذلك يُفضي إلى صياغة خبرة يومية لزمن الحرب في عصر نابليون، وفي الوقت ذاته فإن غوته يعرض للأمر في كثير من الأحيان على نحو مملوء بالشكوك في مقابل المشاعر القومية التي يعدّها تجريدية وتفتقد إلى قابلية التصديق.

أما أنّ غوته كان يخطط، في وقت متأخر، ليكتب جزءاً رابعاً من «شعر وحقيقة» وأنّ النهاية المفاجئة لنابليون استطاعت أن تسلب منه نقاط الارتكاز الحيوية، فهذا يقع في باب الممكن؛ لأن مثل هذا الجزء لا بُدّ أن يمس الأحياء لاسيما كارل أوغست، مما يشكّل باعثاً له كي يتراجع عن ذلك.

لقد قدّم غوته، في الأغلب، في أثناء عرضه للطبيعة المتفجرة للتاريخ المعاصر، تلك الطبيعة على نحو سطحي؛ لذا فهي لا ترتقي لتكون فاعلة. فالعرض الفيلولوجي المُفَصل الذي كان ينبغي أن يحدث في هذا المقام ليس بذي فائدة للسرد التاريخي الذي نريد. وقد كان يتوجب الاكتفاء بإشارات موجزة تكفي لإثارة القارئ ليواصل اكتشافاته بنفسه. وقد سبق لنا أن أشرنا إلى واحدة من أجمل المشاركات التي قام غوته بها وهو في الحادية عشرة من عمره في عرض «بريتا نيكوس»[1]. ولكن ما الموضوع الذي يعالجه «شعر وحقيقة» إذا كنا نعد هذا الكتاب عملاً خاصاً بالكتابة التاريخية وليس مجرد رواية تكوّن ذاتي متصلّة بالأدب الألماني؟ إنه يصف الطريق من الرايخ الثالث الألماني إلى الأدب الألماني.

(1) Dichtug und Wahrheit, S. 121 und S. 174.

فقد انهار الرايخ القديم وتبيّن أنه مُفرّغ من محتواه وغير قادر على التصرّف، لهذا نشأ في داخله، على الفور، جيل الأدب الألماني الجديد الكبير، وقد كانت الشخصيتان اللتان أنجزتا هذا الفعل الضخم هما: فريدريش الكبير وغوته، وهذا يتمثل في ما يُعرف بالأنا الساردة. فهما الشخصيتان الاستثنائيتان لهذا التاريخ. فقد تصدى فريدريش على نحو نهائي للهوّة، التي أصابت الرايخ القديم بالشلل، ووصل هذا الصراع إلى داخل الحياة الأسرية في مدينة ثرّية مثل فرانكفورت، حيث انقسم الناس داخل تلك الأسر بين متعصبين لـ «فريدريش» أو للإمبراطور. وقد تعلم غوته، وهو طفل للمرّة الأولى، السياقات الإنسانية الابتدائية الأولى للروح الحزبية المتعصّبة التي أسهمت، في ما بعد، في بلبلة أفكاره تجاه الثورة الفرنسية. ففي السلوك المتحدّي الذي سلكه بلوثو، المبعوث البروسي أثناء الاحتفالات بتتويج الملك في عام 1764 التي عايشها غوته الفتى، بلغ العداء لفريدريش حدّ الظهور فوق مسرح فرانكفورت على رؤوس الأشهاد. وعلى الرغم من ذلك كلّه يبقى الملك الكبير مؤسس الأدب الألماني: «إنّ محتوى الحياة الأول والحقيقي والرفيع، جاء من خلال فريدريش الكبير وإنجازات الحرب التي استمرت سبع سنوات، تجلّت في الشعر الألماني[1]. لكنّ هذا ممّا لا يستطيع المرء أن يقوله على نحو احتفالي».

إنّ الخطبة التي ألقاها يوهانّس فون موللر في أكاديمية برلين في كانون الثاني عام 1087 تبيّن أنّ شخصية الملك البروسي لم تكن مهمّة لغوته فحسب، بل للمعاصرين الآخرين بوصفها وسيلة لفهم ما يدور حول نابليون. كانت المقارنة بين الشخصيتين في ذلك الوقت، منتشرة في كل مكان، وقد اكتسبت في تلك الآونة لوناً من ألوان التمرد على

(1) Dichtung und Wahrheit, S. 306.

نابليون وكان لها في بروسيا، خصوصاً، شخصيّة محلّية الطابع. فعندما يقوم غوته في «شعر وحقيقة» برسم صورة من صور تأثير فريدريش (دون أن نخلط هنا بينها وبين رسم الصورة الخاصة بالإنسان)، فإنّ هذا يسمح لنا بإدراك الخطاب الخاص بالعظمة التاريخية الذي يسمح بتحوّلات جديدة. وهنا يتجلّى حياد غوته ونزاهته، فلم يتبق شيء من عداوته السابقة لفريدريش منذ حديثه عن الأدب الألماني ولا عن كارل أوغست وسياسة اتحاد الأمراء التي نشأت حوالي عام 1780. فقد شكّلت عظمة فريدريش التاريخية أمراً لا يرقى إليه الشك عند غوته وإن كانت تأثيراتها متضاربة. فإلى جانب البعد الثقافي المثمر، كما يتجلّى، على سبيل المثال، في العمل الذي كتبه ليسنج «ميّنافون بارن هيلم» —وهو عمل خاصّ بالسلام، فإن كتابته لم تكن ممكنة من غير الحرب التي خاضها الملك— كان غوته قد شاهد وهو طالب في مدينة لايبتسج أثناء زيارته لدريسدن التغيرات الجذرية للقوة المدمرة. وكانت الأشياء التي تعرّضت إلى سوء المعاملة، لم تستطع بعد مرور ثلاث سنوات على انتهاء حرب السبع سنوات أنّ تتخلص من الأضرار المادية التي أصابتها بما في ذلك الإصابات التي نتجت من خلال «الفخر البروسي» المبالغ فيه. فقد تعلّم الشباب الذي نشأ على التعصب لِـ «فريدريش»، أنماطاً مغايرة من الرؤى خاصة به. وقد أسهمت الموضوعية في التعامل مع فريدريش الكبير في جعل موقف غوته من نابليون ينطوي على تفهّم أفضل. لهذا نظر إلى العنف النابليوني بوصفه لوناً من الرصانة الصادرة عن معرفة، وبوصفه جزءاً من عبقريته. ومن خلال إشارة أخرى متناقضة إلى الأبطال القوميين للبروتستانتية الألمانية، كان ذلك عام 1812، على وجه التقريب، درساً معاصراً مهمّاً.

وفي الوقت نفسه، فإن «شعر وحقيقة» يكتب نعياً للرايخ القديم

الذي ألغاه نابليون، وإن لم يقم بتدميره، فقد تم ذلك في وقت مبكر تماماً، ولم يكن بالضرورة على يد فريدريش الكبير وما قام به من حروب. أما وجود وصف رائع في السرديات لحفل التتويج الذي حدث في فرانكفورت، وتلاشي الأبعاد الواقعية للاحتفالات وانعدامها في عين شاعر ناشئ محب آنذاك -عند بلوغ الأنا الساردة سنّ الخامسة عشرة، فإنّ ذلك يحدد الخطوط العريضة للانتقال من الرايخ الألماني إلى الأدب الألماني الذي يقع في البنية العميقة لكتاب «شعر وحقيقة». فبلوتو، ذلك المبعوث البروسي، المتعالي وغير المبالي والذي كان قد وصل سن البلوغ، فكان بمثابة الفتى في حفل تنكري سياسي، كان شقيق غوته في هذا المشهد الذي يتجّه نحو المستقبل.

أما الماضي، ذلك الجهاز الخاص بالتتويج، القديم الطرز، الملّون، ونوادر ماريا تيرزا والإمبراطور فرانتس، اللذين كانت عربتاهما الرسميتان أوسع من أزمة فرانكفورت، واللذين وضعا فوق رأس الفتى الروماني تاجاً رائعاً يعود إلى العصر الوسيط، أظهره كما سبق أن أظهر أباه من قبل وكأنّه «شبح كارل الكبير»، حيث تم وصف البوفيه الفارغ الذي كان يقع إلى جانب الرصيف الذي جرى عليه التتويج ووسائل الترفيه القديمة التي كانت بمثابة تبذير كرنفالي لمفارقة تاريخية تحدث في غير عصرها -كل ذلك وصف بمهارة فنية فائقة لدرجة يستطيع معها المرء أن يقول دون أي مبالغة:

إنّ «شعر وحقيقة» يسعى إلى تمثيل تحولات المشهد ،أمام أعين القارئ على نحو مباشر، من رايخ يموت إلى أدب الألمان في لحظات صيرورته.

ولكن ما الذي جرى للجمهور بعد عام 1812؟ كانت ألمانيا خسرت رايخها سنوات طويلة قبل نابليون ولم يقع ضدها ما هو أسوأ. أما أنّ

مصير الرايخ القديم قد تحدّد قبل ذلك بزمن طويل، فهو ما يتجلى في تفصيلات مشوّومة إضافة إلى أنها قدرية الطابع. ففي سلسلة من الصور الإمبراطورية في مبنى بلدية رومر بقي بعد التتويج الخاص بعام 1764 مكان فارغ واحد. ترى ألم يصبح لمصطلح «الإمبراطور» من خلال ظهور نابليون مدلول جديد واستحقاق مختلف؟ لقد كان إمبراطور غوته إمبراطوراً بكل ما في الكلمة من معنى، و لم يكن شبحاً، فهذه الكلمة على وجه التحديد تشير على نحو متناقض إلى الواقع في عام 1810 مجسّداً بواقعه السياسي عبر زعيم عالمي.

إنّ ما يقابل الرايخ الألماني والأدب الألماني يظهر في مقاطع حول فيتسلار ثم يبرز ثانية على نحو متصاعد: «لقد سبق للإمبراطورية الرومانية المقدّسة أن تجمّعت هنا غير مرّة، ليس من أجل الصلابة الظاهرية، بل من أجل تعاون تجاري متبادل على نحو عميق. وهنا كان عليّ أن أشاهد صالات الطعام نصف الفارغة أثناء أيام التتويج، حيث كان الضيوف يبقون خارجها؛ لأنهم كانوا من النبلاء»[1].

إنّ الركود البيروقراطي الغريب الذي يوجد ها هنا، كان يصنع الخلفيّة لقصة حب «فيرتر» التي تُعدّ بمثابة النجاح العالمي الأوّل للأدب الألماني الجديد، تلك الرواية التي شرع إمبراطور الفرنسيين الجديد، يتحدث عنها مع مؤلفها على نحو تفصيلي.

إنّ الشرط السياسي كي يتبوأ غوته منزلة الشاعر الرئيس عند الألمان لم يصدر عن الرايخ تحديداً. بل عن تلك الدول الصغيرة التي عادة ما تلام لأنها أضعفت المملكة، وهو ما يقوله الكتاب الخامس عشر صراحة، الذي يتمّ الاشتباك فيه، للمرة الأولى في فايمار، مع أفكار كارل أوغست وبلاطه. فعندما كان غوته في فرانكفورت بانتظار اللقاء مع

(1) Dichtung und Wahrheit. S. 586.

حاكم المستقبل، كان ثمة لدى يوستوس موسرز «أوهام وطنية» لم تُشرّح على طاولة البحث بعد. وكان غوته قادراً على تقديم نفسه، على نحو لافت؛ لأنه سبق أن قرأ الكتاب ويستطيع أن يشرح أفكار صاحبه:

«عندما يتّهم أحد الرايخ الألماني بالتشظّي والعدميّة والضعف فإنّ أطروحة موسرز التي بنى كتابه عليها تبين أن مجموعة الدول الصغيرة هي التي تشكل غاية المنى لنشر الثقافة، كل دولة بمفردها»[1]. كان ذلك هو الشرط البنيوي لتفتّح الروح الألمانية التي بقيت مستمرة حتى في أثناء العصر النابوليوني.

في مثل هذه الظروف وحدها استطاعت فكرة مركزية أخرى في «شعر وحقيقة» أن تكتسب أهميتها الحيوية، وهي العلاقة مع الثقافة الفرنسية. ولم يقتصر ذلك على الفقرات المتعلقة بستراسبورغ، بكل ما تنطوي عليه من رؤى مسبقة تقوم على دوافع متصّلة بأنماط الحب الرومانسي في العصور الوسطى، بل إنه يتبدّى في الفصول الخاصة بشخصية الملازم وفي تلك الفصول المخصّصة لتاريخ الأدب في الكتاب السابع على وجه الخصوص. ففي هذا الفصل يصف غوته مقدار الرقي الذي يتحلى به الأدب والثقافة في فرنسا. مما يجعل منهما قوة جاذبة فـ«الألمان يعيشون مهملين منذ قرابة قرنين من الزمان في وضع بائس، مضطرب، وهم يحتاجون إلى الذهاب لأن يتعلموا في مدارس الفرنسيين كي تعود إليهم الحياة»[2].

لكنّ أكثر ما يلفت النظر هو النتيجة:

إنّ غوته وأبناء جيله لم يعلنوا انحيازهم إلى فرنسا، تحت تأثير شكسبير. فإن فرنسا قد احتلت دورها العالمي من خلال شخصية فوليتر

(1) Dichtung und Wahrheit S. 700.

(2) Dichtung und Wahrheit. S. 284.

الذي شكل نموذجاً لها، والذي جسده غوته وكأنه يحكي عن نفسه. لكنّ هذا الأمر لا يُغيّر في مسألة المسافة القائمة مع الفرنسيين «إننا نجد طريقتهم في الحياة محدّدة تماماً ومميَّزة جداً، ونرى أن شعرهم بارد، ونقدهم مُدمّر وفلسفتهم عبث وهي في الوقت ذاته، يتعذّر فهمها»[1]. لهذا جاء النمط العاطفي الخاص بحكاية سيسن هايم من إنجلترا وبالذات من «كاهن فاكي فيلد» لأوليفر غولد سميث[2] ولم تكن متأثرة بالأدب الفرنسي المعاصر.

من مشكلة السكن وما تنطوي عليه من أبعاد عمليّة وأخرى متصّلة بالتقاليد، ومن العلاقات بين الألمان والثقافة الفرنسية وصولاً إلى نهايات الرايخ وإلى السؤال المتعلّق بالضخامة التاريخية للتأثيرات الفرنسية المدمّرة من جهة والتي أدت إلى صناعة ثقافة من جهة أخرى، يتوقف «شعر وحقيقة» ليناقش من خلال وصف الكتابة التاريخية، الأسئلة المهمة في الحقبة النابوليونية المتأخّرة، من خلال الطريقة الرائعة التي تتجّلى فيها موهبة غوته في التلميحات المتكررة التي لا تؤدي، على الرغم من ذلك، إلى إلحاق أيّ تشويهات في أبعاد العمل التعليمية، ليتشكّل في خاتمة المطاف لون من التمجيد للمهن الفعلية الألمانية: الأدب والفن. وليبرزا على النحو الذي تشكّلا فيه ونميا في ضوء الخلفية لتلك الأزمة التاريخية، ولكن ما الذي ترتب عمليّا على هذا الأمر؟

إن كتاب «شعر وحقيقة» يتضمن، إذا ما نظر إليه من زاوية سياسية، تحذيراً للألمان بأن لا يضيعوا طاقتهم في البحث عن أهداف خاطئة -وطنّية مجردة- بل إنّ عليهم أن يذعنوا للاحتلال والهيمنة الأجنبية وأن يتذكرّوا قوتهم الذاتية المتمثّلة في «الثقافة الفردية».

---

(1) (1728-1774) كاتب وطبيب إيرلندي، وقد ظهرت روايته عام 1766: (المترجم).

(2) Dichtung und Wahrheit, S. 536.

لكنّ «شعر وحقيقة» بوصفه عملاً أدبياً يُعَد عملاً لعوباً ومبهماً، فلم يكن غوته عالي الصوت، مدنياً كما في هذا العمل، من أجل الحدّ من وجهات النظر الحيوية آنذاك. فالكتاب يفضي إلى تعدد دلالي ولكنّه يبدو وكأنّه يُبَشر برسالة ما. فـ «شعر وحقيقة» يتحرك على نحو وكأنه ينبثق من عالم السيرة الذاتية، وهو يروي للشباب المملوءين بالحيوية تجارب عن زمن مضى، تروى بشيء من طيبة القلب تارة وبقدر عال من المسرحة تارة أخرى، وهذه التجارب تتحدث عن حبّ للجماعة وللذات، يجيء خالياً من الكراهية ويدرك ما ينطوي عليه من كرامة. كما أن الكتاب يتحدث عن الغالب والمغلوب ولكن هل يمكن أن نَعُدّ السارد في «شعر وحقيقة» مهزوماً؟ إنه يتسامى فوق اللحظة، لكنه مع ذلك يستحضرها من أجل رؤيتها وتأملها. إن الكتابة التاريخية لا تظهر على هذا النحو الدقيق والغنّى كما تتجلى على نحو واضح ونادر في هذا الكتاب.

إنّ معظم ما في «شعر وحقيقة» من حركة ذات دلالات بعينها متصّلة باللحظة الحاضرة، جاء في وقت متأخر تماماً. فالحقبة النابليونية كانت قد وصلت إلى نهايتها، بعدما كانت قد قضت على حياة الكثيرين من البشر في السنوات السابقة التي انقضت.

وقد وصلت في السابع والعشرين من كانون الثاني عام 1812 إلى أمراء اتحاد الراين رسالة إخبارية من الإمبراطور الحامي، يطلب فيها تجهيز حصصهم من الجيوش من أجل الحرب المقبلة مع روسيا.

إنّ وصول الأجواء في ألمانيا إلى الحضيض مسألة لم يكن للمراقب أن يخطئها، ولا يحتاجُ المرء إلى أن يقتبس في هذا السياق أحد المحرضيّن القوميين، فقد استطاعت رسالة جيرومي شقيق نابليون الذي كان ملكاً لفست فالن في الخامس من كانون الأول عام 1811 أن تصف الحالة

الميئوس منها للنظام الفرنسي الذي كانت مسألة التعاطف معه في ألمانيا ذات أهمية واسعة. ففي كل مكان ثمة هيجان، وعلى المرء أن يتوقع الثورات أثناء الحروب وأن يضع حرب العصابات بالحسبان في ضوء النموذج الإسباني.

إنّ جيرومي -الذي تبيّن في ضوء بعض تصريحاته أنه لا يحب الألمان- ذكر عدداً من الأسباب المنطقيّة التي تدعو إلى الشعور بالاستياء:

«إنّ السبب الرئيس لهذه الحركات الخطيرة ليس مجرد كراهية الفرنسيين، والشعور بنفاد الصبر من النير الأجنبي، لكنه يكمن في تعاسة هذه الأزمان التي شهدت المزيد من الضرائب والأتاوات الحربية من أجل تمويل الفرق الحربية وفي ذهاب الجنود إلى الحرب وعودتهم المنتظمة وهم يعانون شتى أنواع الإجهاد والضنّك. إنّ يأس هذه الشعوب التي لم يعد لديها شيء كي تخسره؛ لأن كل شيء قد صودر منها، هو الذي يجب أن نخشاه»[1]. وقد انتهى هذا العرض بمئات الآلاف من الألمان الذين استطاعت القوات الروسيّة أن تأسرهم!

لقد استطاعت الحرب المقبلة أن تُغيّر الأوضاع في فايمار، فقد وصل إلى هناك مبعوث مختص من فرنسا للوقوف على الهرتسوغات في منطقة ساكسونيا. وقد كان البارون نيكولاوس أوغست دي سانت أيغنان (1770-1858) رجلاً مختصاً بالفنون ومتعلماً وعلى قدر من الذكاء، وكان عليه من خلال ارتباطه ببيت القيصر أن يقوم بمراقبة الأشخاص موضع الاتّهام في بلاط فايمار، وأن يمنح الأدب الألماني بعض اهتمامه، وأن يقوم بكتابة تقارير عن الظواهر الألمانية الجديدة، وهو ما رغبت «الخارجية» الفرنسية فيه بصراحة. وقد استطاعت الرقابة المحكمة

(1) Kircheisen. Fürstenbriefe an Napoleon. Band 2. S 283-285.

والسريعة التي قام بها سانت أيغنان أن تتبيّن الحالة الشخصية في فايمار على الفور:

فقد بدا له كارل أوغست شخصاً غامضاًو مشبوهاً ومعادياً، فقد كان يحيط نفسه بشخصيات مشبوهة مثل موفلينج؛ لذا كان الهرتسوغ يتوقع أن يطاح به آجلاً أم عاجلاً، وبالمقابل بدا فويغت شخصاً موالياً، وقد ظهرت براءته التامة مقابل ما كان الجواسيس الفرنسيون يقومون به من وشايات في السابق. «أما غوته الذي ابتعد عن الشؤون السياسية بناء على رغبته، ويخشى أن تجره علاقته الوثيقة بالهرتسوغ إلى رحابها، خلافاً لإرادته» في ضوء تقديرات سانت أيغنان، «فإنّه عاد مجدّداً إلى أعماله الأدبيّة وإلى إدارة المسرح التي تشغله بقوّة»[1].

ودون أي تردّد استطاع غوته أن يستثمر صداقة القائمة برجل الأعمال الإمبراطوري بوصفها لوناً من الحماية له في الأوقات المضطربة. فقد كان البارون ممثّلاً لـ «إمبراطوره» وجاراً طيّباً في فايمار. وليست ثمّة أمنية يمكن أن تفوق ذلك. فقد قام سانت أيغنان بزيارة منزل غوته في فراوين بلاتس، قبيل مثوله في بلاط فايمار، وعلى امتداد بقاء غوته في فايمار أقام معه علاقات قوية ولقاءات لا تُحصى. وكان يُفضّل اللقاء فترة ما قبل الظهر من أيّام الآحاد الهادئة، حيث يقوم غوته بعرض ما لديه من نقوش نحاسية، من ضمن ما كان يقتنيه من مجموعات وميداليات للديبلوماسي الفرنسي وللبارون موللر. وقد ذكرت إحدى الجمل من رسالة لغوته بعث بها إلى المبعوث الفرنسي في الثاني والعشرين من آب عام 1812 روح هذه اللقاءات:

«إن هذه العلوم والفنون يمكن تقسيمها تبعاً لاعتبارات أخرى».

وهنا يبرز تحفظ غوته الخالد على المناقشات ذات الطابع السياسي، بكل

---

(1) PB3. Nr. 108 (19. März 1812.

ما تنطوي عليه من إزعاج للإلفة الإنسانية. ولم يكن أثناء تلك المناقشات تعاطف إنساني على المستوى السياسي فحسب، فإن كرم غوته البالغ استطاع أن يجعل من فايمار الرابحة. وقد وصف غوته في الرسالة التي كتبها في الثالث عشر من شباط 1812 وبعثها إلى راينهارد. مَقْدَم سانت أيغنان وتحدث عنه بوصفه إنساناً «مريحاً وهادئاً وجاداً وقويّ الملاحظة» وقد أضاف إلى ذلك أنه رجل أمين ويبحث عن النصيحة السياسية. ويعتقد، بحسب غوته، أنّ كل شيء يعتمد على الفرق العسكرية، وأنّ الناس يظهرون لها الطاعة والنشاط ويرغبون أن تسير الأمور الأخرى على ما يرام. وإذا ما أرادوا أن يمنحوني بعض الإشارات بين الفينة والأخرى، فإنني سأستثمرها على خير وجه. لقد تخلّيت عن بعض المهمّات، لكنّ قليلاً من المعرفة والإرادة الطيبة، يكفي لتحريك بعض الناس، وللتحكم بهم وتوجيههم».

إن المرء يتساءل هنا عن الفوائد التي يمكن لنا أن نجنيها عندما يتم نقل المادة الإنسانية وتسليمها على هذه الشاكلة.

في ضوء ذلك تجيء إجابة راينهارد في السادس عشر من أيار حاملة الاستقالة:

«وعلى كل حال، فإنّ كلّ ما قلتموه هو ما ينبغي أن نفعله، فإنّ علينا أن ندع الوقت المتبقي للإمبراطور أو لله. فلم تعد ثمة سياسة بعد هذا، خاصة لأولئك الذين تعودوا على أن يقودوا كلّ شيء، فإنّ أقصى ما نتوقع أن تقودهم الظروف باستمرار». وهذا يصف ديناميكية الكارثة المقبلة في روسيا.

ولعله يمكن تأكيد وجود استثناء ثان بخصوص سياسة التنازل في ذلك التبادل المتحضّر بين غوته والمبعوث. فقد قام سانت أيغنان، عشية عيد الفصح في لايبتسج عام 1812 بإرسال تقريره الأول –اليتيم عن

الأدب الألماني وفيه ركز سانت أيغنان على أدباء الحركة الرومانسية وتحديداً على: آدم موللر وفريدريش شليجل، فهذان الأديبان، بحسب أيغنان، يتعاطفان مع الكاثوليكية، كما تمت الإشارة بوضوح إلى تحوّل شليجل المذهبي. فهذان الأديبان. يقيمان في فيينا أي خارج قوانين الرقابة في اتحاد دول الراين، وهما من أتباع نظم إقطاعية، أما تأثير غينتس في موللر، في المقام الأول، فجلّي تماماً. لقد استطاعا أن يتحررا في كتابتهما الشعرية من القواعد الكلاسيكية، وهما يعتمدان على الإثارات القوية وعلى الروائع. أما مرجعياتهما الشعرية فتتمثل في شكسبير وكالدرون ودانتي، أي الأدباء غير الكلاسيكيين. وبالإضافة إلى ذلك فإنهما يهتمان بشعر العصور الوسطى الألمانية وأغانيها الشعبية؛ لأنّ ذلك يخدم عملية النضال من أجل إيقاف التدهور الظاهر للأمة الألمانية، لهذا تتدنى قيمة الأدب الفرنسي لديهما. ويجري ذلك، على وجه التحديد، في محاضرات شليجل، الخاصة بالتاريخ الجديد، التي يقدرّها غوته، حيث يتم الزعم بأن حركة لوثر الإصلاحية هي السبب الرئيس وراء ضعف قوة القيصر في ألمانيا.

إنّ هذه الملخّصات الجمالية-السياسية تسهم، على نحو لائق، في إكمال نظرة دبلوماسي، يتساءل عن التداخل بين الشعر والفلسفة وتظهر الكثير من التوازنات مع معلومات غوته ووجهات نظره، لدرجة يصعب فيها على المرء أن لا يتخيّل أن غوته لم يكن من الذين صاغوا تلك الكلمات المفتاحية، إنّ ما يفضح ذلك، في المقام الأول، هو التفصيلات: فهؤلاء الكتاب الألمان الجدد، بحسب سانت إيغنان، أشاروا إلى «القَدَر بوصفه المحرك الرئيس للأحداث والتحولات الإنسانية».

وقد كان هذا واحداً من الأفكار المهمّة التي عرفتها فايمار، ليس من خلال النجاح الذي حقّقه تسراخيا فيرنر، وهو واحد من ممثلي تيار

المسرح القدري الرومانسي فحسب، والذي كان غوته قد سمح بعرض أعماله المسرحية، وكان يلقاه بانتظام. لهذا يبدو حديث مبعوث نابليون النقدي عن مسرح القدر، مفارقة كبرى لعل غوته أراد أن يختبئ خلفها. ولعل غوته قد وجد في تلك الذروة يومها وضعاً غير رومانسي، –لقد نظم غوته في هذه الأسابيع قصيدته المناهضة للكاثوليكية والصعبة «ديانا الأفسيسّية»– فوجد ذلك طريقه مباشرة من فراوين بلان إلى طاولة وزير الخارجية الفرنسي[1].

في أيار عام 1812 وقع إشكال آخر، لم يستطع غوته أن يبتعد عن نتائجه. فأثناء رحلته إلى كارلسباد التي كان غوته قد بدأها في الثلاثين من نيسان، قابلته جميع المستويات من قافلة الجيش الضخم الذي كان نابليون يفكرّ في إرساله إلى روسيا. ففي الأول من آيّار كانت جميع الفرقّ الايطالية في بلاط القصر وهي ترتدي زيّاً رسمياً يجمع بين الأزرق الغامق والأصفر، التي كانت تَعرِضُ، صورةٌ ملونة في الأفق الواسع الذي يصل إلى الحقول المزروعة حديثاًوكانت مصحوبة بقافلة نقل ضخمة. وقد وصفها غوته في رسالة بعث بها إلى كريستيانه في الثاني من آيار «150 عربة، كل عربة يجرّها ثوران تمرّ بي، كانت العربات شبيهة بتلك التي يراها المرء في إيطاليا، حيث تكون العجلات والإطارات ثقيلة وقديمة الطرز. في الأعلى كانت الصناديق الكبيرة المربعة مُمّددة. أما الثيران فكانت رمادية ومرقشة وصفراء ممزوجة بالبنيّ (...) كان في القافلة حدّادون وكان ذلك كله مصحوباً بالجنود السمر». في الوقت نفسه، كان كارل أوغست متجهاً نحو دريزدن، حيث سيقوم إمبراطور فرنسا بحشد أنصاره حوله، بمن فيهم قيصر النمسا. في دريزدن جرى حوار

---

(1) Text der Relation bei Fischer, Goethe und Napoleon, S. 193-195.. ليس لهذا النص وجود في الرسائل السياسية، لكارل أوغست، ولا في تقارير أيغنان.

طويل في العشرين من آيار بين الهرتسوغ ونابليون، الذي كان يرغب في أن يحيط أقارب القيصر بقدر كبير من المجاملة والرعاية أكثر من ذي قبل. وقد سوغ الإمبراطور مواقفه بعدم استعداد روسيا، وحصار القارة والاختلاف حول بولندا. ولم تجد محاولة كارل أوغست المتمثّلة في إرسال ماريا باولوفنا، إلى روسيا، أذناً صاغية لتكون المحاولة الأخيرة من أجل السلام، فقد فشلت فشلاً ذريعاً السياسة التي سبقت للقاء في إيرفورت أن أقرها. وكانت تهديدات نابليون قاسية: «إذا ما تمّ توجيه ضربة لي، فستكون الحرب طويلة ومرعبة»[1]. بعد ذلك بأربعة أسابيع اقتحم الجيش العظيم نهر نيمان وبدأت روسيا التعبئة العسكرية.

لقد شكّلت الحرب العالمية بين أوروبا نابليون من جهة، وإنجلترا المتحالفة مع روسيا، الخلفية التاريخية للقصيدة السياسية الوحيدة التي كتبها غوته في الحقبة النابوليونية وقام بنشرها على الفور. تدور القصيدة حول مقاطع من كارلسباد، فتتحدّث عن الإمبراطورة الفرنسية ماري لويز، ابنه القيصر النمساوي، التي كان نابليون قد تزوجها عام 1810. والقصيدة جزء من ثلاثية، كان قد كتبها بناء على تكليف بلدية كارلسباد قبل وصول القيصر النمساوي وزوجته ماريا لودوفيغا وابنتهما لويزا في الأسبوع الثاني من حزيران عام 1812 –التي كانت ثمرة لزواج رائع، وكانت مع زوجة أبيها، الجديدة في سن واحدة تقريباً. وقد ألفّها غوته لتكون تحية لأصحاب الجلالة الإمبراطورية، فالقصيدة إذن تنتمي إلى قصائد المناسبات المتصلة بالبلاطات، والمتصّفة بالفخامة. تكمل هذه القصيدة الدائرة التي سبق لغوته أن بدأها قبل عامين عندما قام بتمجيد ماريا لودوفيغا، لكنّ الصوت والأسلوب تغيّرا. فلم يعد المخاطب شخصية واحدة، بل جرت مخاطبة ثلاث شخصيات. لهذا كان الوزن

(1) PB 3, Nr. 112 (S. 153).

الشعري في هذه المرة موحّداً، وقد اختار غوته المقطع الشعري المكون من ثماني فقرات و التي تعرف في الشعر الملحمي الإيطالي باسم أوتافا ريما Ottava Rima. وقد تعود غوته على استخدام هذا اللون من المقاطع الشعرية في المناسبات الاحتفالية كما في «الكلمات البدائية وأورخيوس» مثلاً، وكان للوزن الذي يجري على بحر الإيامبك (وهو يتكون من مقطع قصير يتبعه آخر طويل) وللقوافي المتزاوجة في خواتيم الأبيات الشعرية دور في إضفاء نبرة ملكيّة مناسبة.

تحتفي القصيدة الخاصة بالإمبراطور بمملكته الكبرى الخصبة، التي تتفتح تحت عيني قيادته، ثم تتحدث عن كرم الضيافة في مدينة كارلسباد، حيث الطبيعة والفن يشكلان معاً علاجاً ناجعاً:

أيّ هبة منحها الله للمواطنين
عندما يُعين الأميرَ ويرعاه
عندئذ ستبقى الحياة خصبة إلى الأبد
حيث سيقوم الابن باتباع أبيه
وستتفتح وتنمو إلى آخر الدهر.

أما المقطوعة الأخيرة فتقول:

من عينيه تنطلق نظرات رقيقة
فتتوّلد نار مقدسة لا نستطيع الهروب منها
ومثلما يعي المرء طاقات الصيف للمرة الأولى
عندما تتجلى قطوف العنب مكتملة في الخريف
فإنّه (القيصر) يتجلّى على تلك الشاكلة، عندما يبتعد عنا
حيث تظهر بَرَكَتُه العظيمةُ التي كان قد أسبغها علينا
وفي الحدث السعيد تماماً مثل هذا الحدث
تتساوى المدينة الصغرى بالمملكة الكبرى

أما الإيقاع الثلاثي للكلمات:

خصوبة الأرض، الشمس الرحيمة الرائعة، وصالح الناس، فإنه يتسع في القصيدة الخاصة بماريا لودوفيغا من خلال العنصر الساحر لموضوعة عشق الوطن التي تنسجم عناصر الطبيعة معها:

إنّ الصخور الصّماء تبدو على استعداد للانحناء
أمام عظمتها وأمام جلالتها
كما أنّ سيقان الشجر تميل مع الأغصان
ومن رقّتها تتحرك بهدوء ونعومة
أما الزهور التي تحني رأسها في الخضرة اليانعة
فترتعش حيثما اتجهت الإمبراطورة
ومن خلال باقات الزهور التي تتوزع فوق نوارها
فإنها تنافس كلّ القلوب المخلصة

كانت أمثال هذه الصور الشعرية التي تُتوج السلام السياسي والطبيعي معاً عبر هذا التوافق العائلي بين الأب والأم والابنة الذين كانوا معاً في هذه المرحلة الجميلة، تمهّد المسرح لاكتمال الدائرة بالقصيدة الثالثة وهي الأقصر والأكثر أهمية والتي كان غوته قد خاطب بها إمبراطورة فرنسا، وإن كانت تخاطب نابليون في واقع الأمر. وقد سبق لهانز ماغنوس اتسن بيرغر، أن سمّى المقطع «شعر البلاط الرسمي» بما ينطوي عليه من «مقاطع متذلّلة وباردة وناعمة»[1].

إن من الحقّ أن يقال إنّ تلك اللغة سلسة النغمات تتصف بالبرود، كما يمكن أن توصف بالبرود الصورة البصرية المتعالية للعالم ذات الطابع الكنائي لكنّ من لا يعرف الحدود بين المشاعر القلبية العجلة في التعبير، فإنه سيعثر هاهنا على مثال ناصع للإمبراطورية الأدبية، بل لعله يكون

(1) Zitiert bei Segebrecht, Das Gelegenheitsgedicht, 5. 312.

المكافئ الوحيد لفن الرسم الخاص ببلاط نابليون في الأدب الناطق بـ«الألمانية»، إنها السياسة الكبرى في الشعر.

تبدأ القصيدة بعيداً عن الأرض، وتحت النجوم، حيث يبدو زواج نابليون من أميرة من آل الهابسبورغ بمثابة حدث كوني:

عندما يرى المرء النجوم الجميلات يضئن الليل
فإنّ العين، شأنها شأن القلب، تُصاب بالاهتزاز
أما في الحالات النادرة التي يطول شوق المرء إليها
فإنّ النجوم الرائعة تتراجع لتصطف معاً
فالأشعة الحميمة الصادرة عنها تتآلف
ثمّ تغمُر كل شيء يتأملها بسحرها للحظات
لذا فإنّ أنظارنا عندما تتجه إلى الأعلى
لا تكاد تبصر من هيبة الجلالة.

في المقطع الثاني، تعود القصيدة إلى الأرض أي إلى تاريخيّة هذا العالم. لهذا تجيء طريق ماري لويز إلى فرنسا لتذكر برحلة ماري أنطوانيت وهي تقطع الراين وصولاً إلى ملك المستقبل لودفيج السادس عشر، التي وردت في الكتاب التاسع من «شعر وحقيقة» والتي سبق لغوته أنّ اشتغل عليها بتركيز في الأسابيع الخاصة بقصائد كارلسباد وصوّرها من خلال تجربة ذاتية في ستراسبورغ. وتكتمل بشائر السعادة برحلة الابنة ماريا تيريزا، وبهذا سيتشكل قوس قزح من الماس المتلألئ ليكون بمثابة إشارة سلام إنجيلية تربط الأرض بالسماء والعالم الواقعي بالكون:

ما زلنا نفكر كيف ارتحلتْ
فقدانُ الأبوين لعروس السلام الجميلة
ولكن سرعان ما انحنت أمواج الراين النبيلة
وابتسم الشاطئان بوّد

وهكذا فرحت الأرض بقوس السماء
التي رُصّعت جنباتها بالجواهر الملّونة
فإذا اختفى ذلك عن ناظريّنا،
فسيختفي السلام، الذي كان قد بشّر به

أما المقطوعة الثالثة، فإنها تتحدث عن فرنسا وتاريخها الحديث، فقد استطاع نابليون «الفرد» أن ينهي ليلة الثورة ومن ارتباطه بالهرتسوغة استطاع أن يبسط الأمان، ويجيء ذلك من خلال نبرة مسيحية ترى أنّ «كلّ شيء قد تم إنجازه».

في المملكة الجديدة استقبلتُ (ماري لويز) تلك السعادة.
من الملايين، القادمين من ليالٍ مجدبةً
وهم يتطلعون من جديد إلى الأيام المملوءة بالعافية
وقد استيقظوا ثانية باحثين عن حياة صُلْبة
وكلّ واحد منهم يُحّس بنبضات قلبه
ويشعر بالدهشة لأنه تم إنجاز كلّ شيء
والعروس الجميلة في طلّتها المملوءة بالحيوية
فما فقدته الآلاف، استطاع أن يظفر به فرد

لقد سبق أن شرحنا في الفصل الثاني من هذا الكتاب، الخلفية الخاصة بالنظام العالمي للقارة بوصفها مملكة الأرض القوية في صراعها مع البحر.

وسنعود هنا لتبيان التأثير الممكن لذلك:
إنّ ما أصاب القرون من عتمة
يراه في أضواء الروح الساطعة
وقد تم إبعاد الأشياء الصغيرة
ولم يبق ثمة وزن هنا لغير الأرض والبحر

حيث ظفر الشاطئ بالسعادة أولاً
أما أنني كسرتُ الموجة المملوءة بالفخر،
فإنه تظهر من خلال نقطة النهاية ومن خلال المعارك
البلاد القوية بكل ما لديها من حقوق.

إنّ هذا البناء التاريخي العالمي لا يتأكد إلا من خلال التوارث والاستمرارية. ففي الأسس التي تقوم عليها الإمبراطوريات تكمن السعادة العائلية –وهذا يفوق في الأهميّة النجاحات الحربية الوهمية– وهو ما تتحدث عنه قصيدة كارلسباد الدائرية:

وعندما يغدو كل شيء متاحاً للبطل
فيصطفي الأمورَ الذكيّةَ وتكونُ مفضّلة لديه
وتُفرض عليه الأشياء كلها
التي سبق للتاريخ أن أحصاها عدداً،
لقد غنى طويلاً بوصفه شاعراً!
لا يزال يفتقد إلى الذروة
لكنّ المملكة تبدو آمنة مثل دائرة
وهو يشعر بالسعادة بابنه الذي وضع أساسها

لقد صار ابن نابليون ملكاً لروما، بحيث غدت المدينة تشكل مملكة السلام الأولى في التاريخ العالمي وجُعلت حارسة للسلام الجديد المعاصر. ومثلما فعل أغسطس أغلق الأب وابنه بعد مدّة حروب معبد يانو:

أما بالنسبة له فيكفيه ما بلغه من علّو
فقد تحوّلت روما ذاتها إلى حارسة
حيث تهبط الآلهة لتنزل إلى جوار مهد الملك
وهي تفكر مجدداً بمصير العالم
فما قيمة جوائز الانتصارات كلها

عندما يشتاق الأب لابنه

معاً سيتذوقان طعم السعادة

وسيغلقان معبد يانو بيد حانية

لقد تجلت ماري لويز آلهة أمومية للسلام، بل ظهرت كمادونا. أما البيت الشعري الأخير المتّوج للنهاية، فإنّه يجعل من الإمبراطور مؤسّساً للسلام بقوة ليس لها حدود.

إنّ الإشارات لمرات ثلاث لابن نابليون في المقاطع الأخيرة تمثل، لهذا النص الباذخ، أمراً مبهماً لا يخلو من دلالات وثنية أو مسيحية من الإيمان بالعالم الآخر، الذي يشير مجدداً إلى عالم أغسطس؛ لأنه من الصعوبة بمكان استبعاد التفكير بالفتى في هذا المقام، وهو الذي يجلب السلام في النشيد الرابع في فيرجيل، الذي تمكّن من إنهاء عصر الحروب الحديدية وتقديم عصر ذهبي للسلام والخصب. فهو كما عند فيرجيل «سيدعى الحاكم للكرة الأرضية، بعيداً عن القوة الخاصة بوالده» إنّ صورة العالم الكونية للقصيدة تصّب في اللاهوت السياسي، لكنّ بيت الشعر الأخير يمثّل في الواقع، تحذيراً عاجلاً، يمثل في اللحظة التي ظهرت فيها القصيدة إلى العلن –في الثاني من تموز 1812– أنّ ذلك لم يكن عبثاً، فقد استمر الزحف في روسيا مدة أسبوع، بادئ ذي بدا، وكان نابليون قد وصل إلى مدينة فلينا في بولندا:

أنتم، الذين فزتم لحسن الطالع، بالعروس

التي يمكن أن تُعَد بمثابة وسيطة سماوية

وهي أمّ يتألّق الطفل بين ذراعيها

وقد ارتقت إلى ناد، جديد، دائم

وعندما يغدو العالم مملوءاً بالظلام

فإنها تضيء السماء بأنوار شمس خالدة

–وحتى لو كان حظكمّ في المرة الأخيرة متواضعاً
فإنّ كلّ شيء يبذل ما في وسعه للوصول إلى السلام[1].

أبيات ضخمة ومهمّة وهي الأولى التي يوجهها غوته علناً وعلى نحو مباشر إلى نابليون أثناء حكمه؛ لأنّ الأشياء الأخرى، التي كان غوته يفكرّ فيها ويقولها، ظلت محصورة في دائرة ضيقة من محاوريه ومتلقّي رسائله وقد وجدت تلك طريقها إلى العلن بعد زمن طويل من وفاة غوته. أما بخصوص المقاطع هذه المنسوبة إلى كارلسباد، فقد قام غوته بإعدادها بحماسة، وطبعها أولاً في طبعة خاصة بها، ثمّ من خلال مطبوعات صحفية مثلما فعل، على سبيل المثال، في «الصحيفة الصباحية للمتعلّمين» التي كانت تصدر في كوتّا، بعد أربع سنوات من كتابة القصيدة، أي أنّ غوته نشر القصيدة بعد الإطاحة بنابليون في الطبعة الجديدة الموسّعة وظهرت في تلك الطبعة مهداة إلى ماريّا لودوفيغا عام 1810 وكان بعنوان بـ«اسم بلدية كارلسباد». أما عن صدى القصيدة عند معاصريها، فكان سلبياً في الغالب، فقد ظل تسلتر بعد أربع سنوات كثير اللوم والتوبيخ للقصائد لدرجة أنه كان سعيداً لأن تتاح له فرصة قراءتها في هذه الطبعة (كي يبالغ في الثناء عليها)، أما أرنيم، الذي كان آنذاك على خلاف شخصي مع غوته، فقد سمّى غوته بعد رؤية الأرض والبحر في القصيدة «مُغنّي النظام القّاري»، أما دوردتيا شلّيجل فوجهت اللوم للشاعر وللشعر معاً وتساءلت «هل يا ترى أُجبِرَ غوته، دون أن يقوم أحد بتعذيبه، على استخدام هذه المقاطع؟ عندها أتمنى من الله أن يسامحه»[2]. أما عندما يقرأ المرء القصيدة بالتزامن مع «شعر وحقيقة» العمل التاريخي الذي كان يتشكل آنذاك، فإنّه لا يستطيع أن

(1) Texte nach MA9, S. 60-66.

(2) Bode II, S. 566 und 570.

ينكر أنّ الرؤية السياسية التي تصدر عنها، تتسم بقدر عالٍ من التماسك والاتساق. إنّ مقطوعات غوته تدع نظام أغسطس يظهر للعيان أمام أوروبا، هذا النظام الذي لا يضمن الاستقرار والسلام فحسب، بل يمنح الثقافة الألمانية ما تستحقه من إطار واسع. إنّ ما يلي ذلك لا يتعلق بماضي سكسونيا وفريدريش، فغوته يركز على نحو كلاسيكي على الزوجين في اللحظة الحاضرة، وهما: غوته ونابليون أو أغسطس والشاعر؟ وقد كان ذلك هو المعنى الأكثر جرأة والأكثر اتساعاً لحديثه عن «إمبراطوره» التي كرّرها غوته على لسانه. أما التقدم والحداثة والانجازات التي أراد نابليون للألمان، على سبيل المثال، أن يظفروا في مملكة فست فالنبه بها، فلا تكاد تلعب دوراً ها هنا. إن الأمر يدور حول السلام والثقافة لا عن شيفرة نابليون ولا عن المساواة أمام القانون.

لقد اعتذر غوته في رسالة بعث بها في الرابع عشر من آب 1812 إلى السيدة فون شتاين، أي قبيل صدور الطبعة التي تحمل فيها مسؤولية قصائد الإمبراطور، ولم يستطع المراوغة في ذلك الأمر على الإطلاق. لقد كان الأمر «محرجاً وصعباً»؛ لأن الإنسان «عندما يقوم بإنتاج أمر، يتطلب الدرجة القصوى من الحرّية، فإنّ عليه أن يأخذ الأمور الدبلوماسية، بعين الاعتبار».

أما هايكل، فقد رأى أنّ مديح نابليون أمام ناظري القيصر النمساوي وزوجته اللذين كانا يتعاملان مع الديكتاتور الفرنسي من باب سياسته التي لا تغلب، مع استياء داخلي قد أدى إلى الربط بينهما. وكان ينبغي في القصيدة الخاصة بماريا لودوفيغا أن تكون كل الإشارات السياسية بمثابة تلميحات لمشاعرها المعادية للسياسة النابوليونية، وبمثابة أن تكون أمراً بدهياً. وعلى أي حال لم تجيء الإمبراطورة الناعمة، الجسورة إلى كارلسباد، لهذا لم ينضف إلى القصائد الثلاث سوى قصيدتين. لكنّ

غوته استدعي من كارلسباد ليذهب إلى تبلتس، واستطاع أن ينشد قصائده أمام الإمبراطورة.

في هذه المرة دعي غوته من الإمبراطورة ليغدو ضمن دائرتها الشخصية، وقد تمت دعوته إحدى عشرة مرة إلى مائدة الإمبراطورة أثناء الأسابيع الثلاثة التي أقام فيها هناك. واشترك مع كارل أوغست، الذي كان يرتبط منذ عام مضى بصداقة مع ماريا لودفيغا، في المتع البريئة لدائرتها الصيفية. وقد سمح بعرض مسرحية «عشيق الإمبراطورة» التي كان غوته قد أعاد العمل فيها، وقد استطاع غوته في تلك الأيام أن يدخل في أجواء تشكل حالة هي مزيج من التمجيد الغريب الذي يجمع بين التبجيل الملوكي والفتنة الإيروتيكية. ففي رسالة بعث بها غوته إلى راينهارد في الثالث عشر من آب 1812 تحدث فيها «عن مكسب لحياته كلّها، فأنا أسمح لنفسي بالحديث عنه؛ لأنني لا أستطيع أن أتوقّف، كما أنّ المرء في مثل هذه الأحوال ليس بشيء، عندما لا يتمكن من أن يقول كلّ شيء، وليس أصعب على الفرد أن يصوّر الأفضال التي يكنّها في داخله والتي تعود إلى الآخرين. إنّ الفرصة الممثلة في أن يحيا المرء مثل هذه الظواهر في أواخر أيامه، تمنح مشاعر مريحة تماماً، مثلما لو أن المرء يفضّل أن يموت عند شروق الشمس، وأنه مقتنع بكل ما فيه من حواس داخلية وخارجية، أن الطبيعة منتجة إلى الأبد وصولاً إلى أعماق حيّة مقدّسة، هي أمنية تتشاكل وأنماطهم ولا تحتفل بالعمر».

وهذا ما يترجم الجماليات–الإمبراطورية الفنيّة لقصائد كارلسباد إلى مشاعر شخصية. وقد كان لدى راينهارد ما يكفي من الطيش، لنشر أمثال هذه الاعترافات، لدرجة أن بلاط فايمار قد أخبر غوته بوساطة إحدى سيّدات القصر، أنهم لا يرغبون أن يتم ذكر الإمبراطور في قصائده على الإطلاق، حتى لو تم ذلك من خلال تلميحات بعيدة.

وبينما كان كارل أوغست وغوته في بوهيميا يمضيان أسابيع الصيف، توّغل الجيش العظيم بعمق في روسيا. ووصل في الأيام الأخيرة من شهر تمّوز، إلى فيتيبسك وقطع نهر داوغاف. وصل هذا الخبر إلى غوته بعد أسبوعين، وفي السابع والعشرين من تموز استطاع غوته أن يتدبّر أمر الحصول على خريطة لروسيا، وبدأ مُجدّداً، بحوارات سياسية في محيط الضيوف القادمين للعلاج في كارلسباد، كما شرع في قراءة الصحف ثانية. وقد دونت يومياته في الرابع من آب عنواناً يقول: «أخبار عن تقدم نابليون». وقد سقطت سمول إنسك في السابع عشر من آب، وقرأ غوته عن ذلك في الثالث عشر من أيلول في صحف يبدو أنها لم تكن تتابع الأحداث أولاً بأول.

في فايمار كان فويغت يحاول السخرية باستخدام الكوميديا السوداء الشفّافة فكان يزعم «أنّ الفرقة العسكرية القادمة من زاكسن تتغطى بالعظمة؛ لأنها كانت مجبرة على أن تموت»[1]. وكلمّا طالت مدة الحرب ازداد غموضها بالنسبة له «لا أحد قادر على أن يستوعب الخطّة، فلعّلهم يريدون أن يجرّوا الفرق نحوهم أو يريدوا أن يفعلوا، كما فعل بيوس ماكسيموس؛ لأن من المستحيل أن يريد أحد الاستسلام لعاصمة بلاده». غير أنه اتضّح أنه بالإمكان حدوث ذلك، ففي الرابع عشر من أيلول، استطاع نابليون دخول موسكو، واحترقت المدينة بين الخامس عشر والتاسع عشر من الشهر نفسه، ووصلت الأخبار إلى فايمار بهذا الخصوص في السابع والعشرين من أيلول، غير أنّ معالم الكارثة لم تتضح إلا في منتصف تشرين الثاني. وقد أضاف فويغت: «الحديث عن تدمير تسعة أعشار المدينة الكبيرة صحيح وسينضاف نصف الجزء العاشر في

(1) Geiger, Alt-Weimar, S. 193 ff. (11. Juli 1812). Dort auch die folgenden Zitate.

الثالث والعشرين من تشرين الأول إلى تلك الأجزاء فما أكثر ما تم تدميره من البيزنطي والتتري والصيني، كما أنّ المباني والوقفيات والأكاديميات كانت لا تقدر بثمن. وسيكون لدى مؤرخ المستقبل الكثير من المواد الجميلة التي عليه أن يتأملها».

لقد كانت هذه المسائل تشكّل، على الدوام، موضوعاً جميلاً للفلاسفة أو الشعراء، وقد لاحظت السيدة فون شتاين في التاسع عشر من أيلول، أنّ مرح غوته الغريب المقرون بالسخرية لم يكن للأسف، لصالح الأميرة الكبرى المسكينة»[1]. وقد دوّن غوته في التاسع والعشرين من يومياته لحظة الاستيلاء على موسكو، ثم أضاف باقتضاب «لم تحضر سموها اليوم إلى المائدة لتناول طعام الغداء»، حيث «تعيش ماريا باولوفنا، الأميرة الروسية الكبرى، زوجة ولي العهد في فايمار، أياماً عصيبة. فقد دُمّر وطنها تماماً بوساطة جيش عرمرم، يقاتل فيه 180 ألف مقاتل ألماني. ولم يعد من الجنود التورنغيين الألفين غير 550 جندياً، عاد منهم 120 إلى فايمار، وكان بينَهم بعضُ الضباط. وقد علّقت الهرتسوغة لويزا في رسالة بعثت بها إلى شقيقها بأنّ «أحداً لا يعرف عن المتبقين شيئاً» ثم أضافت: «يا لها من حرب مرعبة! فمنذ بدء الخليقة لم يعرف الناس حرباً مثلها. فإذا أجبتني بأن الجيوش الصليبية قد عانت هي الأخرى معاناة قاسية، فإنني سأرد عليك بالقول: إن تلك الجيوش لم تمت جرّاء البرد ولا من تبعات هذا البرد القارس، الذي أسهم في تشويههم قبل أن يموتوا فضلاً عنّ أنّ ذاك الزمان كان زمناً همجياً، أما نحن اليوم فإننا مستنيرون على نحو فظيع»[2].

وقد روى فريدريش فون موللر في ما بعد، أنّ سانت أيغنان، حرص

---

(1) Bode II. S. 571.

(2) Bode. Goethe 1813 .S. 19 f.

على الاعتزال «لأنّ حضور مبعوث فرنسي يسبب ألماً قوياً للأميرة الروسية»[1]. أما غوته صديق المبعوث الفرنسي، فقد حرص على زيارة صاحب العظمة في هذه الأسابيع لتناول الشاي وللمشاركة في الاحتفالات المنزلية.

يمكن للمرء أن يصف ردة فعل غوته إزاء ما وقع في موسكو من دمار بأنها تنطوي على قدر من الذهول: «إنّ المرء لا يدري، حقيقة، من أين تجيء كلّ هذه الدهشة، حتى صرنا ننتزع الحوادث الكبرى انتزاعاً. ولم يعد خيالنا قادراً على استيعابها، كما أن عقولنا ليست على خطأ إذا طرحتها جانباً. لقد جمع التاريخ العالمي الكثير من الكنوز على حسابنا».

هذا ما سطره غوته في الرسالة التي بعثها إلى راينهارد في الرابع عشر من تشرين الثاني ذات مساء شتائي طويل في يينا. لكنّه سرعان ما رفض الفقرة وكتب بدلاً منها:

«إنّ احتراق موسكو أمر لا يؤلمني، وسيكون أمام التاريخ العالمي مستقبلاً ما يرويه بهذا الصدد. وقد سبق لدهلي أن دمرت تماماً بعد احتلالها، لكن ذلك تم من خلال (†††††) الغازين، وموسكو تدمّر الآن، ولكن من خلال (†††††) المغزيين هذه المرّة». إنّ اللعب على أمثال هذه المتناقضات سيدخل السرور إلى نفسي، لو أنني كنتُ خطيباً».

يعود غوته بعد هذه البداية بسرعة إلى لفتة تكاد تكون عنيفة، وينكر من خلالها تفرّد الحادث، عندما يشير إلى نادرة في تاريخ المغول تعود إلى تيمورلنك الذي أحرق دهلي عام 1398. ولم يكن غوته يريد المقارنة بين تيمورلنك ونابليون، بل بين المغول المتوحشين والروس الذين

(1) Müller, Erinnerungen, S. 155 f.

أقدموا على تدمير مدينتهم. أما الكلمة التي تخفيها الصلبان الخمسة التي رسمها غوته نفسه. فإنها لا تفصح عن ذاتها بسهولة والمقترحات المقدمة إلى الآن تدل على شتيمة تُعبّر عن «الغباء» أوعن الكلمة اليونانية «Hybris» بمعنى الغطرسة والمكونة من خمسة حروف، كما يمكن لكلمات مثل «الجنون» و«العنف» ومثيلاتها من الكلمات أن تكون مناسبة في هذا السياق.

ترى هل كان غوته يخاف من رقابة البريد؟ وهل هذا هو السبب في عزوفه عن استخدام مصطلح قاس؟ لعلّه قد تجنّب استخدام كلمة مفتاحية تثير رقابة الرقيب العجول مثل كلمة «جيش» لهذا تراه يضيف: ف«عندما نعود إلى أنفسنا، وتفقد أنت في كارثة عنيفة، غير قابلة للتصوّر شقيقاً وشقيقة أو أفقد أنا أصدقاء، يحتلون القلب مني، عندها نعي حقاً، العصر الذي نعيش فيه، وكيف يتوجب علينا أن نكون جادين وهادئين طبقاً للطرق التقليدية.

لقد استطاع تدمير موسكو أن يمس غوته عميقاً، لدرجة أنه كان عليه أن يشعر بالقلق حتى يؤلف نسخته الذاتية من «الصفاء»، غير أننا لا نكاد نعثر على تعبير قوي عن تلك الصدمة، لهذا تدور رسالة غوته حول مسألة تفرد الحادثة. أما عبارة «الكنوز على حسابنا»، فإنها ينبغي أن تشير إلى تجارب على حاضر متلّقي الرسالة أن يصنعها. أما المقارنة مع تيمور، فهي تبيّن أنّ قضية السؤال عن العصر الذي يحيا فيه تميل مجدداً إلى مسألة التفرّد. أما تساؤل تاسو «ألم يسعفه مثال آخر من التاريخ؟»، فإنه يطرح مسألة استمرارية العالم. وقد بقي جواب غوته في الرابع عشر من تشرين الثاني عام 1812 يتسم باليأس: «إنّ ما أجابهه في أعماقي من أشياء شبيهة هو لون من الكوميديا بالمقابل». ثم يجيء بعد ذلك تأمل قصير لكتاب «جولة في فرنسا» الذي قام غوته بعد عشر سنوات بعرضه

على نحو مفصّل. ثم اختتم غوته حديثه بقوله:

«أرجو أن تغفر لي هذه الذكريات وأن تضع اللوم على أمسيات يينا الطويلة؛ لأنني أروي لكم شيئاً كهذا، لأنه لم يبق لكم شيء من تلك الأوقات لتعترضوا». وفي هذا تلميح لمصير راينهارد في السنوات الأولى للثورة الفرنسية.

إنّ الهزة التي أصابت غوته بخصوص حريق موسكو، يكاد يصعب فهمها في إطار سياسي–ديبلوماسي، بل يمكن فهمها بالنظر إلى مستقبل هرتسوغية فايمار. فهل وضع غوته هزيمة نابليون بالمطلق نصب عينيه؟ إن من المستبعد أن يكون غوته قد استمر يشك بهذا في الشهور اللاحقة. كلا، لقد كان عليه أن يركن إلى المقياس الذي يرى أن الكارثة تعود إلى الناس الذين خرجوا عن طورهم.

بعد أربعة أسابيع جاء نابليون ليلاً ماراً بفايمار، وقد وجد نفسه متخفيّاً في رحلة عودة سريعة من بيرسينا إلى باريس، لا يرافقه سوى كارولين كورت مدير الإسطبلات في القصر. ركبا أولاً في إحدى العربات، وبعد ذلك في الخنطور الخاص بملك زاكسن وكان يتقدم إلى الأمام. ونظراً لأنّ عربة زاكسن قد أصابها الكسر، فقد اضطر الإمبراطور للصعود إلى إحدى عربات البريد، كما أمر سانت أيغنان بالذهاب إلى إيرفورت ليحضر سيارة الدولة. تحدّث نابليون أثناء عملية تبديل السيارات عن منح ماريا باولوفنا الأوسمة وسأل عن غوته وفيلاند. ويبدو أن هذه الأخبار قد تناهت إلى مسامع غوته، ودونها في يومياته في أثناء تنظيمه لجارور العملات الخاص به. أما كارل أوغست الذي حمّله صديقه رسالة إلى الإمبراطورة ماريا لودوفيغا، التي كانت تتذكر غوته بقدر من الود، فقد علّق في السادس عشر من كانون الثاني وهو في مزاج رائق تماماً:

«ألا تدري أنّ سانت أيغنان كان مكلّفاً بأن ينقل إليك ليلاً تحيات الإمبراطور الطيّبة؟ فأنت بهذا تغازلك الجنة والجحيم معاً»[1]. وقد قامت أو دونل وهي إحدى سيدات القصر في فيينا بإخبار كارل أوغست دون أن يخلو ذلك من نشوة شماتة الانتصار عن المرحلة الحرجة للشخص «الأكثر تجمّداً» والذي كان يتوجّب عليه أن يركب إحدى عربات البريد الأكثر رثاثة في أويرشتيت كي يمضي قدماً ويصل إلى مدينة باريس[2]. بدأ كارولين كورت أثناء الرحلة ما يعرف بمحادثات العربة الشهيرة التي لم يكن الخادم المخلص والصادق يحمل ورقة أثناءها، وهو يرى الحوار يدور حول المستقبل.

كان نابليون يأمل بتآخي أوروبا في مواجهة العملاق الروسي وقد ردّ عليه كارولين كورت بقوله:

«إنك أنت يا سيّدي الرجل الذي يخشاه الناس! إنك أنت السبب وراء الاضطرابات العامة والسبب الذي صرف أنظار الناس عن الأخطار. إنّ أشد ما تخشاه الحكومة هو المملكة العالمية». بعد ذلك تحدّث عن ألمانيا وكان تشخيصه يتّصل بالملك جيرومي، الذي سبق له أن حذر أخاه الإمبراطور قبل عام:

«إنّ النظام المالي المستخدم من ثلاث سنوات قد أضرّ بمصالح الناس كلّهم في ألمانيا، فمن خلال وكلاء غير أكفياء، جرى تشكيل محاكم تفتيش أضرّت بأصحاب التفكير القومي كلهم، وبكل صاحب تفكير مستقّل، كما أضّرت بالتقاليد القديمة. إن كل هذه الأسباب هي التي جعلت من كراهيتكم مسألة قومية. إن النظام العسكري الذي أقامه دافوت أمير إيلك مول قد استطاع أن يفرض الكثير على الألمان، الأمر

(1) Goethe-Carl August II, S. 96 und 359.

(2) PB, Nr. 122 (29. 12. 1812).

الذي جعلهم يشعرون بمرارة ذلك أكثر مما فعلته الحكومة». وكان نابليون يستمع إلى ما يقال دون تحسّس، بل بقدر من اللطف، وكأنه يقف بعيداً عن هذه الأمور. لكنه كان يقوم بفرك أذن مدير الأسطبل عندما يبالغ في حدّته[1].

عندما وصل نابليون إلى باريس، ترك النشرة التاسعة والعشرين الخاصة بالجيش العظيم، تَنشُرُ، قبلَ خمسة أيام من عيد الميلاد، ما كان نابليون منذ الثالث من كانون الأوّل منشغلاً به. فقد صارت أبعاد الكارثة معروفة للجميع، وانتشر في العاصمة الإمبراطورية، في بادئ الأمر، رعبٌ شلّ المدينة وقد بدا وزير الدولة فويغت متأثراً.

«لا عزاء يكفي لكلّ هذه الأخبار المؤلمة الواردة من الشمال والتي تم الإعلان عنها هذا اليوم. كيف علَقتْ النشرةُ التاسعةُ والعشرون وكيف جرى تعديل تعليق القيصر؟ ما القوة القادرة على تنفيذ الأوامر وكيف سيحصل التوازن؟ كيف سيكون موقف ألمانيا على وجه الخصوص، وكيف سيتمرّد الجميع قريباً، من أجل مجد سلاحهم في مواجهة البرابرة الشماليين؟ أجل إنّ المرء ليتقبل الظلم القادم من الطبيعة بوصفه لوناً من السعادة؛ لأنّ الموهبة الكبرى التي يملكها الإمبراطور العظيم قادرة على تطوير الفرصة المناسبة لها»[2].

لقد استطاعت تلك النشرة أن تؤكد الخرافة التي انتشرت في أرجاء العالم إلى يوم الناس هذا، والتي وسمت حملة نابليون على روسيا واختصرتها بالجملة التالية: كان الثلج هو المسؤول.

لقد كانت أخبار النصر تملأ أرجاء أوروبا وسطاً وغرباً، ولم يتحدث أحد عن وضع الجيش لكن النشرة التاسعة والعشرين سجّلت بداية

---

(1) Kleβmann, Napoleons Ruβlandfeldzug, S. 328.

(2) Geiger, Alt-Weimar, S. 196.

الصعوبات يوم بدأ الشتاء يحلّ بقوته الجبّارة منذ بداية السابع من تشرين الثاني. بعدها تغيرت المعطيات وتغيّرت النتائج في ضوء ذلك، «فقد بدأ الصقيع منذ اليوم السابع، ومنذ ذلك اليوم صرنا نفقد أكثر من مائة حصان يومياً كانت تتساقط في معسكرات الخلاء. وعندما وصلنا إلى سمولنسك، كنّا قد خسرنا عدداً ضخماً من الخيل الضخمة بسلاح الفرسان والمدفعية». «لقد كان الصقيع الذي بدأ يوم السابع، قد أخذ بالتزايد، وفي ليالي 16/15/14 بدأت درجات الحرارة تصل إلى 16–8 درجات تحت الصفر وغمر الجليد الطرقات وأخذت أعداد كبيرة من خيول سلاح الفرسان والمدفعية والتدريب بالتساقط كلّ ليلة، ليس بالمئات بل بالآلاف خاصة الخيول التابعة للألمان والفرنسيين فنفق 3000 حصان في أيام قليلة وصار معظم سلاح الفرسان غير قابل للإنقاذ. أما خيول المدفعية وعربات التنقل، فكانت بلا أغطية، وصار علينا أن نهمل الكثير من مدافعنا وأن ندمّر جزءاً من مؤونتنا». ثم جاءت النتائج بعد ذلك: فمن غير سلاح الفرسان لا يستطيع الجيش أن ينتشر، وصار عليه أن يبقى، وهو يسير فوق الشوارع، إلى جوار بعضه بعضاً كما أنّ غياب المدفعية جعل المعارك غير ممكنة:

«وبكلمة واحدة أجبرنا على أن نبقي نسير، حتى نتحاشى الدخول في معركة، كنا لا نتمنى، بسبب نقص الذخيرة، أن نضطر إليها».

يمكن للمرء أن يُسّمي هذا هروباً. لكنّ النشرة بقيت تحكي مستخدمة اللغة العسكرية المختصّة. فقد أحصت العمليات المفردة وإنجازات قادة الجيوش المختلفين، فقد صوّر اجتياز بيرزينا إنجازاً تكتيكياً متقدّماً، وليس بوصفه كارثة مؤلمة تماماً، من تلك التي نراها في ضوء العصر الحديث وتذكرنا بالحروب القديمة أكثر من تذكيرنا بستالين غراد. إنّ سكونيّة هذا النص تتكئ، حقيقة، على موضوعية مصنوعة لتقارير

الامبراطور العسكرية، التي كان المتعلمون الأوروبيون وهم على مقاعد الدرس يعرفونها، بصرف النظر عن كون المرء عالماً من علماء الجمال أو قانونياً أو عسكرياً. وفي نهاية التقرير، يبدو جيش الإمبراطور غير قابل للضعف:

«وأثناء مسيرة الجيش، كان الإمبراطور يسير قدماً بثبات في وسط حرسه ... وكان جلالته سعيداً بالروح الطيّبة، التي كانت تغمر ذلك الحرس ...» أما بقية سلاح الفرسان فقد تحولوا إلى «كوكبة مقدّسة» لن تغادر عينيْ الإمبراطور على الإطلاق. وبعد ذلك تأتي الخاتمة «ولم تكن صحة الإمبراطور بأفضل مما كانت عليه».

لقد لقي نصف مليون من البشر حتفهم، لكنّ نشرة نابليون لم تذكر رقماً على الإطلاق، وإن كان فناء معظم الجيش صار أمراً لا لبس فيه ولا غموض. أما أكثر القلّة التي نجت وتمكنّت من الرجوع فكانت مشوهة، لا أنوف أو آذان أو أصابع لها. وكانت رائحتها تزكم الأنوف، فكان الناس يهربون من هؤلاء الأحياء غير الموتى. أما الصعوبات السابقة التي أجبرت الحملة على الارتداد والرجوع فقد قام تقرير الإمبراطور بحجبها. أما الخسائر الفادحة قبل غزو موسكو، التي سبّبها المطر والحر الشديد للصيف الروسي، إضافة إلى طول الطرق الخاصة بتزويد الجيش بالمؤونة والعتاد، فقد ربطت بعجز نظام الاستيلاء على الأقوات في بلد فقير ومنبسط وفارغ، كما رُبطت في النهاية بآلاف القتلى والجرحى في حرب الاستنزاف الخاصة ببورودينو، التي خلّفت قتلى أكثر مما خلّفت من الجرحى. كما لم يشر التقرير على الإطلاق، إلى الانهيار المفاجئ لكل النظم في موسكو، مما أجبر الجيش الجائع على أن يقيم أوده عن طريق النهب، وأن يستمتع لعدة أسابيع في الاحتماء بأطلال المدينة المدمرة قبل أن تتجمع البقية الباقية المجهدة وتضطر للعودة والتقهقر، حيث

انفجرت موجة «الصقيع» فجأة. ولكن ما الذي كان في وسع المرء أن يفعله إزاء الخيل التي تموت!

لقد قرأ غوته هو الآخر، على الأرجح، تلك النشرة وإذا لم يكن قد قرأها فقد بلغه صداها. ويبدو هذا الصدى في القصيدة التي كتبت في عام 1814 أي بعد مرور سنتين على تلك النشرة والتي سمّاها غوته «تيمور والشتاء» التي نشرت في «الديوان الشرقي للمؤلف الغربي».

وفي إعلانه عن الديوان في «النشرة الصباحية» الخاصة به، صرّح غوته حرفياً بأنّ «الديوان يعرض لمعطيات عالمية مرعبة، وكأنّها تتبدى في مرآة، حيث نلاحظ الظهور المتجدّد لمصائرنا، من أجل أن نرتاح ونعزّي ذواتنا»[1].

وقد لاحظ سولبيتس بويسيري، بعد أن قرأ «تيمور والشتاء» أنها تشكل نصاً موازياً لحملة نابليون على موسكو: «يبدو أنّ غوته قد اشتغل على هذا النص من خلال أربعة تفصيلات غير مقفّاة» قوية، اعتماداً على نص تاريخي إخباري يعود إلى مصادر عربيّة في القرن الخامس عشر الميلادي، عرفه غوته من خلال ترجمة لاتينية واقتبسه حرفياً على نحو جزئي. أما مقارنته بين وقائع 1812 وغضب تيمورلنك في نهاية القرن الرابع عشر فقد صار معروفة من خلال الرسالة التي بعث بها غوته عن طريق موسكو إلى راينهارد، غير أنّ القصيدة تبرز القوة والصرامة على نحو يتوازى مع الحادثة التاريخية المتعلقة بتيمورلنك وغزوه للمملكة الصينية 1404/1405 ويتمّ من خلالها الحديث عن حالة الغازي، أثناء مجابهته لمملكة كبرى. أما الأمر الحاسم، فيتمثل في الإجماع الموضوعي.

(1) Texte und Parallelstellen nach MA 11, 1, 2, 5, 65 und 591-595 sowie dem Kommentar von Birus in FA. 1.3.2, S. 1159-1167. Das Zitat aus dem Tagebuch von S. Boisserée ist vom 8. August 1815.

فلم يتمكن الخصم الهارب من التغلّب على تيمور، بسبب الحرب وقوى الصقيع والقسوة الوحشية الشّريرة المصحوبة بالحقد القديم، والتي سبق لها أن تجسدت على هيئة شخصية مرعبة ذات لحية بيضاء، كما يصورها وليم بليك:

هكذا أحاط بهم الشتاء
بغضبه المروّع
وبينما أخذ يثير أنفاسه الثلجية بين الجميع
هيجّ عليهم الرماح المختلفة
أطلق عليهم عواصفه الجليدية المسنونة
لتضربهم بكل عنفها وجبروتها
ثم هبط إلى مجلس تيمور
وصرخ فيه متوعداً وهو يقول:
مهلاً وعلى رسلك أيها التعس
أيها الطاغية الظالم
إلى متى تنصهر القلوب
وتحترق بنيرانك؟
إن كنت (تتصّور) أنّك أحد الأرواح اللعينة
فاعلم أنني أنا الروح الآخر
أنت عجوز وأنا أيضاً
وكلانا يجمّد الأرض واليابسة
أنت، أنت المريخ! وأنا زُحل
كلانا كوكب نحس
واتحادنا مقترن بأفظع الكوارث
وإذا كنت تميت النفس وتبرّد الهواء

فإنّ أهويتي أشد برداً مما تقدر عليه أنت

وإذا كانت جيوشك الوحشية تسوم المؤمنين

بألوان التعذيب التي تُعدّ بالآلاف

فتأكد أنه ستحدث في أيامي

بعون الله، مصائب أشّد

وبحقّ الله! لن أترّفق بك

وليسمع، سبحانه، ما سأقدمه لك!

أجل وبحق الله! لن يحميك

من برودة الموت، أيها العجوز

لا اللهيب المستعر في المواقد

ولا النيران المشتعلة في كانون الأول. [الترجمة من النور والفراشة. ترجمة عبد الغفار مكاوي، ص ص241–242].

إنّ «المتجمّد جدّاً» و«إمبراطور الليل» يبدو، في المقابل، أكثر تجمّداً في رسالة كارل أوغست، وفي الوقت ذاته يرفع الشتاء قائد الحملة تيمور إلى مستوى الند للندّ، فيجعله عنصراً من عناصر القوة الطبيعية، بل واحداً من الكواكب، حيث يتغلّب زحل على المرّيخ، ويتغلب الصقيع على نار الحرب.

يظهر تيمور في هذه الأثناء، بوصفه قائد الحملة الذي تحرق نيرانه وتدمّر، فهو الذي يجسّد عنصر النار ويقوم، في الوقت نفسه، بإزهاق الأرواح، أما «الصقيع» فإنه يقوم بتدمير المحيط، لذا يغدو الجوّ ملتهباً وصقيعياً. سبق لغوته أن أبدى لريمر في عام 1807 أنّ الإنسان الاستثنائي مثل نابليون، المنسلخ عن الأخلاق، يفعل ما تفعله العوامل الطبيعية كـ«الماء والنار». وقد قام غوته في قصيدته عن تيمور بصياغة هذا الأمر على نحو أكثر عمقاً ودرامية.

وقد صاغ سولبيتس بويسير في يومياته، إثر حوار مطوّل مع غوته، هذه الفكرة في الثالث من آب 1815 مجدداً فقال:

«إنّ تيمور وجنكيز خان مشابهان لقوى الطبيعة، لكنهما يظهران على هيئة بشرية».

إنّ أحداً لا يستطيع أن يقول إنّ صورة نابليون عند غوته قد تغيّرت على نحو جوهري، فإن هذه الصورة تنطوي منذ البداية على سمات شريّرة ومثيرة للخوف، وقد تبدّت، على نحو مرعب، في مرايا تيمور. لكنّ على المرء أن يضع ذلك بالحسبان، بوصفه خلفية لمواقف غوته من اتحاد الراين، ومن الكوكب الذي كان يزيّن وسام الشرف الذي كان يرتديه. لكن مقدرة تلك النشرة الخاصة بالحملة على روسيا، على التقاط أمثال تلك الأوهام والقدرة على التحليل الذاتي لنابليون، يمكن فهمه بوصفه لوناً من السخرية العميقة لصالح المعرفة. أما مقدار تأثير ذلك في وضع غوته الصحّي بعد النشرة التاسعة والعشرين، فقد صرّح به في رسالة بعث بها في الثالث من أيار 1816 إلى تسلتر في الثالث. وقد أخبره غوته في تلك الرسالة بأن إصابته برزّية الروماتزم، كادت تحول بينه وبين القدوم إلى التجمعات القائمة التي أعلن الهرتسوغ فيها عن التحضير لإعداد دستور جديد: «وهنا حضرتني، لحسن الحظ مقولة نابليون: «إن الإمبراطور لا يعرف مرضاً آخر غير الموت»».

كانت الحقبة النابوليونية في ألمانيا قد انتهت قبل سنة من كتابة غوته لقصيدته عن تيمور. فقد جرى هزيمة نابليون، على نحو حاسم، في المعركة الشعبية في لايتسج التي دارت رحاها بين السادس عشر والتاسع عشر من تشرين الأول 1813م، وهي المعركة التي شكّلت عملاً حربياً كبيراً في التاريخ العالمي، والتي جرى على إثرها دحر نابليون، إلى ما وراء نهر الراين.

تمكن الحلفاء في الثلاثين من آذار عام 1814 من غزو باريس، بعدها تنازل الإمبراطور في الرابع من نيسان. ولم تمس الأراضي الألمانية بعد رجوع نابليون من إلبا وانتصاره في بداية عام 1815 في معركة واترلو. وقد تحدّث غوته عن «سنوات حزينة مملوءة بالرعب» في أثناء توجيهه التحية إلى كارل أوغست في بداية العام الجديد في الأول من كانون الثاني عام 1814.

وإذا كانت الكتابة التاريخية—القومية قد منحت غوته القدر الأقل من المشاركة في حرب التحرير، فإن «الثورة الألمانية» قد استاءت من موقفه، لكنّ التأمّل القريب للمسألة يجعل موقف غوته على صواب، فقد كانت سنة 1813 أسوأ السنوات على الإطلاق بالنسبة لهرتسوغية فايمار. فقد كانت المناطق، التي تقع بين الألب ودريسدن إضافة إلى شمال الزاكسن وثورينغن، بين نيسان وتشرين الثاني مناطق حربية، أما إيرفورت فقد ظلّت قلعة فرنسية تهدّد، على الجانب المقابل، من بروسيا والروّس. وقد كان يتوجب على فايمار أنْ ترعى في الفترة الواقعة بين منتصف نيسان ومنتصف آب 6108 ضابطاً فرنسياً و203617 جندياً فرنسياً. وكان على شارلوتي شيللر أن تؤمّن في غضون تلك الأسابيع وحدها السكن لأكثر من مائة رجل. ولم تكن الأعداد في منزل غوته في فراوين بلان أقلّ من ذلك. وقد لخصّت السيّدة فون شتاين التجارب على نحو مملوء بالمرارة:

«إنّ كوننا نحيا، في الواقع، في ضوء ما سيقوم التاريخ بسرده مستقبلاً، يجعلني أعارض ذلك التاريخ تماماً (...)، فحيث ما ولّى المرء وجهه، يجد مدافع وطبولاً وجنوداً»[1].

كان ثمة شارعان رئيسان من الطرق السريعة يخترقان الهرتسوغية،

---

(1) Bode, Goethe 1813.5.46.

وكانت فيها ثلاث مناطق للاستراحة، مما أدى إلى احتشاد عربات مقطورة وأماكن تقديم الطعام والخدمات، إضافة إلى وجود خطر الوباء من الجيوش المتقدمة. وقد أدى الفزع من العدوى إلى نموّ لون من العُصاب الجماعي وتحولت يينا إلى مدينة علاجية ثانية . كانت الأعباء غير محتملة وثقيلة، وكان انعدام الأمن مسألة ضاغطة على الأعصاب. وكان يمكن أن تتكرر الحوادث الخاصة بعام 1806، مع شيء من الخروج الرحيم.

وقد احتُلت فايمار في الفترة الواقعة بين الحادي عشر والثامن عشر من نيسان من الفرق البروسية، وقد رأى سانت أيغنان نفسه مضطراً للرحيل إلى غوته، حيث قام المتطوعون البروسيون بمهاجمته وسلبه، وفي اليوم ذاته قام وحدة من فايمار طواعية، بجعل وحدة بروسية أقل منها تقوم بنزع سلاحها، وبدا الأمر وكأنه خيانة. وقد شاهدت يينا للمرة الأولى في تاريخها شعوباً آسيوية تخيّم فوق شوارعها. بعدها رجع الفرنسيون، وفي السادس عشر من نيسان غادر غوته فايمار بسرعة وذهب إلى تبلتس عن طريق دريسدن، حيث بقي هناك حتى العاشر من آب. أما كريستيانة وأوغست فقد اضطرا للبقاء في فراوين بلان وكان عليهما أن يتغلّبا على تلك الأيام الشاقة والخطرة.

في تلك الأيام يتبّدى في يوميات غوته التعطش للأخبار، على نحو لم يعرفه غوته في حياته من قبل، وقد سجل غوته ،عن بعد، وصول نابليون، الذي أسرع بالذهاب إلى أماكن القتال الألمانية، في إيرفوت أولاً (في 25 نيسان) وفي فايمار في اليوم الذي يليه.

تبيّن لكارول أوغست أنّ الاحتلال البروسي هو لون من التسرّع بعدم الوفاء بالعهود، فقد كان الفرسان المعادون يتجولون في القصر، وقد تلقى الرجل لعنات الإمبراطور: لأنّه أكثر الأمراء في أوروبا اضطراباً.

لكنّ المزاج العام في الأيام التي تلت غدا أكثر اعتدالاً، فقد علم نابليون، أن عليه أن يظهر في زي المنتصر. ولهذا فقد انبثق داخل نابليون للمرة الأولى، لون من التعاطف تجاه كارل أوغست وبعد أن أمضى مع سانت أيغنان يوماً مشتركاً قال:

«إن روحه غير أوروبية، بل إنّه عبقرية شرقية، إنّه يبدو لي وكأنني أجابه تأثير روح موهوب، وكأنني أتخيّل شخصية النبي محمد»[1]. ومنذ عام 1806 انتشرت هذه المقارنة انتشاراً واسعاً في فايمار.

لقد رأى غوته نفسه أثناء رحلته إلى بوهيميا في حالة مزاجية متبدّلة. ففي العشرين من نيسان التقى غوته في مايسن، بعض المتطوعين الوطنيين وكان من بينهم طالب، راقص غوته زوجته بودّ، وقد رجاه الشباب أن يبارك ما لديهم من أسلحة، أذعن غوته ووضع يده فوق الشجيرات والسيوف المقوّسة وقال: «كونوا مع الله، وعسى الله أن يمنح البركة لشجاعتكم الألمانية الغضّة»[2].

ومثلما توقّع تماماً، جرى ذلك بعد يومين في بيت كرونر في دريسدن. فقد كان على إرنست موريتس أرندت، وهو الآكل الفرنسي الذي يعجب به غوته، أن يعيش مشهداً مرعباً:

«لقد كان الرجل الضخم لا يترك انطباعاً يبعث على الفرح، فقد كان لا يشعر بالاستقرار، ولم يكن لديه ألم ولا يحس بالسعادة للأشياء الجديدة. أما كرونر الشاب فقد كان يعمل صياداً متطوعاً عند لوتس أوفرن. وفي حين تحدث الأب والشاعر عن أن مشاعر الحماسة والأمل تسيطرا عليهم، أجابه غوته غاضباً في اللحظة ذاتها: انفضوا عنكم القيود الخاصة! إنّ الرجل أكبر منكم حجماً! إنكم لن تتمكنوا من

---

(1) PB Nr. 146 (30. April 1813).

(2) Bode, Goethe 1813.5.32.

تحطيمه»[1].

لقد بقي غوته، على الدوام، مؤمناً بتفوق نابليون، وظلّ على موقفه هذا حتى معركة لايبستج. صحيح أنّه رأى أن نابليون غدا كـ«الأيل المطاردة كما أوضح في العاشر من آب، لكنّ «ذلك يدخل المرح إلى نفسه»[2].

آمن غوته بالسلام في المبتدأ والمنتهى، وقد راهن في الخامس عشر من آب صديقاً له في دريسدن، أنّ نابليون سيوّقع اتفاقية السلام، وسيوافق على الشروط المقدّمة له من الحلفاء. سجّلت يوميات غوته في الخامس والعشرين من تموز ذلك تحت عنوان «حوار عسكري سياسي حزين»، وقد روى أحد الضباط الذين زاروا غوته في تبلتس واحداً من تلك الأحاديث، وقد قال له غوته:

«أنتم رجال حرب، بل أنتم الأعلى مقاماً في الدولة، وقد تعود العالم على أن يتشكّل في ضوء نتائج أفعالكم. وعندما استيقظ في كل صباح وأسير مع الشمس المولّدة للبُخار التي تطلع فوق شلوس بيرغ الجميلة، لا أفكّر إلا بأفئدة الأطفال التي تخفق بهدوء في تبالي الهادئة والمباركة أثناء حضارة استمرت قروناً طويلة، أحب أن أقول: إنّ أمن السّكان الآخرين وسلامهم قد جرى تهديدهما والعبث بهما، لهذا اطلب بمودّة من أبطالنا العظام في هذا القرن أنه من أجل أن تنبت أفكار السلام، أن يستلهموا كل الحساسيات التي تسري في بدني لصالح الناس في هذه الجنّة»[3].

أما عن الشكوى من مرور الوقت فقد كثرت في صيف تبلتس. فعندما يشكو غوته في الأول من تموز في رسالة بعثها إلى كريستينه

(1) Bode. Goethe 1813.5.34.

(2) Bode. Goethe 1813.5.59.

(3) . Gespräche (Biedermann) II. S. 806 f., wohl am 27. Mai 1813

من شوقه إلى السلام، فإنه كان مضطراً، كي يضيف، أنه لا يستطيع الجهر بمثل هذه المشاعر. وقد قام غوته بعد ذلك بثلاثة أسابيع –أي في الحادي والعشرين من تموز– بتهنئة صديقه ماير على قراره بالعودة إلى وطنه سويسرا: «إنّ على من يستطيع، أن يفعل ذلك الآن، أنْ يفر من الحاضر؛ لأنه لن يغدو في وسعنا، إلاّ أن نستشعر الألم ونحن بمحاذاة بعض الحوادث. وقد نصاب بالجنون من الهموم والحيرة والمرارة».

أما عن القرب بين غوته ونابليون في تلك الأشهر الحرجة، فإن غوته لا يكشف إلا عن القليل من ملامحه في يومياته الصادرة عن فايمار. أما الطبعة المحققة الصادرة هي الأخرى في فايمار عن الوقفية الكلاسيكية Klassikstiftung، فإنها تصمت عن ذلك. وقد أضاف غوته بين سطور اليوميات الخاصة بالثامن من أيار 1813 خبر وجود «نابليون في دريسدن وكان غوته «حريصاً على تقليد خط نابليون»[1].

وهذا الأمر يُعدّ أمراً ممكناً بالنسبة لشخص مثل غوته متعطشّ لجمع التوقيعات. لقد رأى غوته، البطل الأسطوري للمرة الأخيرة في حياته في الرابع عشر من آب عام 1813في أثناء عودته من تبلتس إلى فايمار في مدينة دريسدن . وقد سجّل غوته في يومياته:

«اللقاء مع الإمبراطور في قصر برول مصحوباً بحاشيته، الذين كانوا يشاهدون الاستحكامات». وقد فعل نابليون ما تعود على أن يفعله: قيادة الحرب. ونظراً لأنّ غوته، كما استطعنا أن نثبت، تعود على أن يقابل نابليون وجهاً لوجه من غير أن يذكر ذلك في يومياته، لدرجة أنّ الحديث الذي دار بينهما عام 1808 لم يتضمن سوى بعض كلمات، فإنّ من الجائز لنا أن نعتقد أن هذا اللقاء الذي وقع في الثالث عشر من آب

(1) WA III, 5, S. 330. يذكر الشارح لهذه الطبعة الجديدة في موضعين آخرين، وتحديداً في 1814/11/29 و1815/4/14، محاولة غوته تقليد طريقة نابليون في الكتابة (Tagebücher V.2, S.724 und S.754). إذن لم يقلد غوته صوت نابليون فحسب، بل خطه!

1813، كان لوناً من المراقبة الصامتة، أو أنه اقتصرعلى تبادل المجالات.

كان غوته يواصل، دون انقطاع، في تلك الشهور العصيبة عمله في كتاب «شعر وحقيقة»، وقد انتهى الجزء الثالث منه عام 1813. وعندما ثار الفرنسيون على الألمان، مثّل شاعرهم القومي ذلك من خلال اختيار ما قام به أيام صباه، عندما ترك أمر تدريبه لأحد الموظفين الفرنسيين. بعد ذلك تأتي المقاطع الخاصة بفتسلار، و«فيرنر» وبدايات مساره الأدبي، بل إنّ الشذرات الأولى من الجزء الرابع، وعلى وجه التحديد نهايته والمناقشة الخاصة بالشيطاني، كانت قد تشكلت في نيسان 1813 في فايمار، ولم يقم غوته بربط تلك الأجزاء ثانية إلّا عام 1831. ففي نهاية آب عام 1813 حاول غوته التملّص من الحرب، فقد سافر لمدة أسبوع من فايمار إلى إلميناو البعيدة، حيث احتفل بعيد ميلاده الرابع والستين وقرأ رواية لويس بونابرت شقيق نابليون.

عاد غوته في الثاني من أيلول إلى بيته، حيث كانت إحدى أخطر مراحل الحرب قد بدأتْ. وقد أقام في منزل غوته للمرة الثانية ضباط فرنسيون وكان من بينهم كولونيل بولندي. كانت الفرق تتقدم في فايمار بثبات، أما في تشرين الثاني فقد وصل الأمر إلى قتال شوارع محدود. وفي ليلة 19/18 تشرين الثاني، وبينما كانت المعركة الشعبية محتدمة، ظهر القوزاق فجأة، وألقوا القبض على سانت أيغنن الذي كان قد رعى غوته بصدق في تلك الأيام. لكنهم أطلقوا سراحه بوصفه دبلوماسياً، وإن كان عليه أن يغادر هرتسوغية فايمار نهائياً.

لم يكن غوته سعيداً بهذه التطورات، كما عبّر عن ذلك شعراً

أخيراً رأينا القوزاق يظهرون ثانية

وقد قاموا بتحريرنا من الطاغية

لكنهم حرّرونا، حقيقة، من الحرية

وأياً كان الأمر، فقد حصل غوته على حارس يقف أمام منزله، فعبّر غوته عن شكره ببعض الأبيات الشعرية للكولونيل الروسي:

من بين كلّ الأشياء التي وقعت
والتي ينبغي عليّ أن أعبّر عنها:
كانت رؤيتي للقوزاق هنا
أمراً لا أرغب فيه
ولكن عند وقوع الطوفان المقدّس العظيم
تمزّق السّد الذي كان يضّيق الخناق علينا
وصارت موجة إثر موجة تغمرني
عندها صار القوزاق بالنسبة لي طيبين وودودين[1].

كان غوته فخوراً بأنه، بقي محتفظاً برباطة جأشه في تشرين الثاني المملوء بالتهديدات، فقد كانت نتيجة المعركة الكبرى في لايبتسج غير محسومة، وكان من السهولة، كما وقع في عام 1806، أن تتجّه وضراوة القتال إلى فايمار». وقد كتب غوته في ما بعد في «دفاتر الأيام والسنوات» يقول: «مثلما يبرز في عالم السياسة شيء خطير مرعب، فإنني قمت برمي نفسي بعناد في المناطق الأبعد». ومن هنا كان من المتوقع أن أتفرغ بعد عودتي من كارلسباد (والصواب: تبلتس) كي أقوم بدراسة جادّة للمملكة الصينية»[2].

وكان ذلك هو بداية «الهجرة» Hegire إلى البعيد، فقد غادر غوته الفضاء القومي وهي الحركة التي أفضت إلى «الديوان الشرقي للمؤلف الغربي»، وهو الكتاب الذي يؤرخ لما بعد حقبة نابليون وقد نظم غوته أثناء أيام لايبتسج خاتمة فخمة لتمثيلية حزينة متوسطة المستوى، تتحدث

(1) MA 9, S. 88.
(2) MA 14, S. 235.

عن حبّ إليزابيث الأولى لغرافن إيسّكن. عدّ غوته هذه الأبيات التي لا يعرفها الكثير من الناس، والتي كتبت من أجل إحدى الممّثلات، شهادة على الزمن الأصلي لحياته على امتدادها ووصولها إلى ذروة الشرف. إنها قطعة بارعة ذات رزانة عاطفية:

يعلم الإنسان، أنه سيكون ما يريد

ذات لحظة سعيدة، وذات يوم أخير

... وبعد ذلك.

ها هنا هي الخاتمة! لقد تم فعل كلّ شيء

وليس ثمة ما يمكن أن يحدث! فالأرض والبحر

والرايخ والكنيسة والمحكمة والجيش،

كل هذا قد تلاشى ولم يَعُد ثمة شيء موجود!

وأنت أيتها الحاكمة فوق اللاشيء!

يتبّدى، في النهاية، إحساسك القوّي

فاحكمي؛ لأنّ الحاجة تتطلب ذلك!

احكمي؛ لأن ذلك لم يعد يدخل السرور إلى نفسك!

أما رؤيتك. فقد تعود العالم عليها

لهذا عليك أن تظهري في النور غير مضطربة

حتى عندما تتحطم عظام صدرك[1].

لكنّ عمليّة السكن جاءت من الجانب الآخر، فقد انتقل جنرال التموين النمساوي رايش غراف هيرونيموس الثاني كلوللوريدو في الثالث والعشرين من تشرين الأول كي يسكن في الغرف الأمامية في منزل غوته. وكان جنرال التموين يدعو يومياً أربعة وعشرين شخصاً كي

(1) MA 9, S. 263-265.

يتناولوا الطعام على نفقة صاحب المنزل. وقد أدّت عمليات الدخول والخروج للضيوف والخدم إلى جعل الأرض في غاية القذارة لدرجة أنّ الخدم لم يتمكنوا من قراءة المكتوب على عتبة المنزل «الجنرال خارج المنزل. يرجى تنظيف المكان»، وهو ما لاحظه غوته في يومياته في السادس والعشرين من تشرين الأوّل، الذي رأى نفسه منبوذاً في إحدى غرف المنزل الخلفية، حيث التقى به فريدريش دي لا موتي فوكو. وقد حاول الشاعر موتي فوكو والجنود أن يقنعوا غوته بأن نابليون قد هزم وأنه انسحب إلى ما وراء الراين. «وقد شوهد غوته مطرقاً منكراً لمدة من الزمن وقد تحدث بعدها بنظرات عميقة: هذا ما كان ينبغي أن يحدث من قبل، أهي الضربة الحاسمة؟ هذا أفضل»[1].

خلّفت الحقبة النابليونية على الصعيد السياسي في منزل غوته صدى يجمع بين شيء من الكوميديا والتراجيديا معاً. وهذا الأمر يتعلق بالدرجة الأولى بترتيب وسام الشرف الذي حصل عليه، كما يتعلّق ثانياً بابن غوته أوغست، فعندما تقدم غراف كوليريدو كي يقيم في منزل غوته، رحّب به غوته على طريقته وهو يرتدي «الملابس الرسمية» وعليها وسامان كان غوته قد حصل عليهما عام 1808: نجمة سانت آن الروسية، وصليب الشرف. وقد صاح كوليريدو، ذو المزاج العسكري، لأنه رأى ذلك أمراً غير مناسب على الإطلاق.

«يا للشيطان، كيف يمكن للمرء أن يرتدي مثل هذا؟».

وهو ما رواه فيلهلم فون هومبولدت الذي خلف كوليريدو في السكن في منزل غوته. وطبقاً لهومبولدت، فإنّ تحرير ألمانيا لم يهز أعماق غوته. «صحيح أنه يؤمن بذلك، لكنّه تحدث بعبارات وإشارات غامضة وغير مباشرة، تبيّن أنه قد تعود على الوضع السابق وأنّ كلّ

(1) Bode. Goethe 1813. S.69.

شيء كان يسير في مساره الصحيح، وأنّ الجديد سيكون ذا وقع قاس. أما تمجيد القوزاق الذي كان أمراً رديئاً حقاً، فقد حمله أصدقاؤه على محمل الهزل».

وقد استشار غوته صديقه العالمي هومبولدت بخصوص مسألة الوسام تحديداً فأجابه بأنّ «المرء لا يستطيع أن يضع الوسام جانباً؛ لأن صاحبه الذي منحه له قد خسر المعركة. إنّني أظن أنه من الرديء حقاً أن لا يمتلك المرء أسباباً وجيهة وهو يخلع الوسام»[1]. وهذا يبيّن بوضوح، على أقل تقدير، أن روح العصر قد تغيّرت، لدرجة أنّ المواطن العالمي فون هومبولدت قد دان خلع الوسام. كان نابليون عدّواً ولم يبق عضو واحد في الممالك الشرعية أو بين ممثّلي تلك الممالك، في المجتمعات الأوروبية يدين له بالاحترام. وكان تعامل غوته الحميم على المستوى الاجتماعي مع سانت أيغنان قبل وصول النمساويين بأيام قليلة، يدل على أنه كان يتحرك على نحو غير متحيّز بين الفرقاء المتحاربين كما حصل في عام 1806 تماماً. فكيف يمكن لغوته في ظلال هذه العلاقة الإنسانية الحميمة أن يتحول فجأة إلى علاقات الكراهية الموجودة بين الأعداء؟

لكنّ كولليريدو، الميّال نحو العزلة، كان يتعامل مع متطلبات منزل غوته على نحو يختلف عن تعامل الضابط الفرنسي عام 1759 الذي قام غوته في «شعر وحقيقة» بتخليد ذكراه. وقد وصل النقاش بخصوص سلوك غوته هذا إلى برلين. وقد وقف الناس الأرستقراطيون مع غوته، مثلما بيّن راحيل فارن هاغن، وبيّنوا أنهم سيجدون في سلوك غوته لوناً من النفاق لو أنه أقدم على اطرّاح الوسام جانباً. وقد سعى فون

---

(1) II. S. 592-597. Dazu Bode, Goethe 1813. S. 71 ff، الشاهدان الأكثر أهمية على مسألة الوسام عند بودي.

هومبولدت كي يقنع مترنيخ بمنح غوته وساماً نمساوياً، كي يبقى غوته حاملا لوسام، بعد هزيمة نابليون، وقد تم هذا الأمر، لكن غوته ظلّ يُرى بعد ذلك وهو يرتدي نجمة نابليون.

أمّا الأصداء المأساوية الأخرى فيدركها كلّ من قرأ رواية توماس مان «لوّتي في فايمار». فقد حال غوته بين ابنه أوغست والتطوع في الفيلق الخاص بفايمار. وكان كارل أوغست قد أطلق في الثاني والعشرين من تشرين الثاني 1813 نداءً مشابهاً للنموذج البروسي. وقد تطوّع أوغست في ذلك الفيلق، شأنه شأن معظم زملائه من أبناء عِلْية القوم، وهو ما جعل غوته في غاية الاضطراب، فقد كان غوته لا يحب العمل التطوعي في الجوهر؛ لأنه كان يرى فيه عملاً يقوم على التخبط والذاتيّة ولونا من اللعبة العسكرية الديمقراطية، وقد قال غوته باختصار عام 1813 في «دفاتر الأيام والسنوات»:

«يتسّم المتطوعون بعدم الطاعة، وعدم القدرة على اتخاذ القرار»[1]. وعلى النقيض تماماً، كان غوته يرى أنّ المتعلّمين الذين يُحتاج إليهم في مكان آخر -كالأطباء مثلاً- يضعون أرواحهم على أكفّهم، ويتحملّون مشقّة لم يتعودوا عليها.

يكمن وراء رفض غوته لتطّوع ولده أوغست، تجربة مثيرة أخرى، وهي تشكل، في أغلب الظن، واحدة من أسوأ القصص في أسوأ الأزمان. فقد فَقَدَ زميله المستشار فويغت ولَدَه الوحيد في بداية العام. وقد وقع في الأيام الأولى للاحتلال البروسي لفايمار في بدايات نيسان 1813، أنّ فويغت الابن وحاجب الملك فون شبيغل شرعا يتبادلان الرسائل المشفرة مع فريدريش موللر، الذي كان آنذاك في يينا، ويحمل الجنسية الفرنسية.

---

(1) MA 14, S. 236.

كان تبادل الرسائل على الحد الفاصل أمراً يثير القلق، لكنّ هذين الشابين وقعا في حادث قاتل، فقد اختارا شيفرة شفافة يسهل فك رموزها: فقد كنّوا عن الفرنسيين بـ «المرض» وعن البروسيين بـ«الأطبّاء». وعندما تمكنت العيون الفرنسية التي ترقب البريد من اكتشاف الأمر، وجهت تهمة التخريب إلى المرسل الذي اجترح الكتابة وهكذا جرى سجن فويغت الفتى وشبيغل في حصن إيرفورت. تطلب الأمر وقتاً طويلاً لتهدئة خاطر نابليون الذي كان يشتاط غضباً، والذي وصل إلى فايمار بعد عدة أسابيع، وأنقذ السجناء غير المؤذيين من عقوبة إطلاق النار وأطلق سراحهما. لكنّ الفتى فويغت لم يعش طويلاً بعد ذلك، فقد أصيبت بـ«التيفوس» وتوفي في التاسع عشر من أيار. وقد شكل ذلك بالنسبة لفويغت رقيق القلب والخائف، والذي لم يكن له ابن سواه، ضربة قاسية، لم يستطع أن يبرأ من آثارها.

كان قدر هذين الأبوين اللذين أثقلت المصيبة كاهلهما أن يظلّا مع ابنتهما المصابة بالاكتئاب –كانت البنت تضع عصفوراً في حجرها وتضع ساعة إلى جواره، وكانت تتابع عقارب الدقائق في الساعة بعينها، وتجلس في الزاوية دون أن تشارك في شيء، وظل منظرها يثير الشفقة عند الجميع.

لم يجد غوته نفسه، قادراً على أن يُعزّي زميله الأقدم والأكثر وفاء. فلا تزال الرسالة التي سطرها غوته في هذه المناسبة، تقرأ على نحو يبعث الوجع: «لم أكن على حق، على الإطلاق، عندما قررّت أن لا أبدو بما أعانيه من آلام أمام صاحب السعادة، فلعل بعض الكلمات تخفف عنه، إذا كان لا يستطيع في هذه الحياة أن يتعافى. لكنني أردت أن أوفّر عليك بعض الساعات الحزينة، وأن لا أزعجك بشكواي.

وفي الرسالة الجوابية التي بعث بها فويغت في الرابع والعشرين من

تموز عام 1813 من تبلتس إلى غوته، أي بعد يومين من رسالته، لم يتقبل الأعذار الواهية، وقال: «هكذا يتبيّن مجدداً صدق الجملة القائمة على المفارقة والتي تقول: إن العزاء الحقيقي يأتي من المتألمين، ورباطة الجأش تجيء من المتضررين»[1].

وقد يكون غوته قد شعر بالغضب جرّاء الحماقة التي أفضت إلى مثل هذه النهاية المأسوية؛ لأنه جرى اللعب بالنار، وتم الدخول، دون داعٍ، إلى مناطق الخطر. وكان لغوته مثل فويغت -الذي كان غوته يطلب معونته- ولد وحيد ولا يريد أن يفقده على الإطلاق. لهذا بقي أوغست في قائمة المتطوعين، يرتدي زيّهم، لكنه تلقى تكليفاً من الهرتسوغ بالعمل كاتباً وليصبح، في ما بعد، معاوناً لولي العهد. وقد استثمر كارل أوغست هذا الأمر كي يخبر صديقه غوته بأن القانون الأول للثورة الحالية ينصّ على أن يترك للشباب التعبير عن إرادتهم». وقد كتبت شارلوتي فون شيللر أنّ فايمار بأسرها تأسف أو تزدري البطولة المحبطة التي كان عليها أن تحول بينها وبين أبنائها «فقد كان جوهر تلك البطولة محطّماً».

كان الفيلق المتطوع قد وصل في تلك الأثناء إلى فايمار، وهو الفيلق الذي انتدب للذهاب إلى هولندا، لكنّه لم يستطع أن يفعل شيئاً لأن الحرب انتهت بأسرع مما كان يُتصوّر. غير أنّ هذا لم يغيّر شيئاً، في حقيقة الأمر، فقد قوبل أوغست من أحد العائدين الذين ذهب للسلام عليهم وهو يرتدي زيّه الرسمي بطلب مبارزة التحدي، التي لم تورّث العالم إلا المعاناة، بحسب غوته. شعر أوغست بإهانة بالغة وعاد عامداً إلى عبادة نابليون التي كان في السابق قد كون مجموعة خاصة بها.على المستوى الاجتماعي لم يكن أُوغست، يتقبّل نظراً لموقف أمّه، أن يبقى منطوياً،

(1) Goethe-Voigt. S. 66-69.

لكنّ والده العملاق ظلّ يقيّده. وهكذا تركتْ الحقبة النابوليونية في بيت غوته واحداً من الخاسرين الكثيرين[1].

ترى هل كان غوته واحداً من أولئك؟

في كلّ الأحوال ظلّت معركة لايبتسج، على الدوام، تمثّل لغوته، نظراً لقتلاها الذين تجاوزا المائة ألف، يوماً تعيساً. ولم يكن غوته ليصّدق أنّ مرحلة الحرب قد شارفت على النهاية، وقد كانت محادثات غوته، مع مترنيخ عندما زار غوته كوللوريدو في منزله يوم رحيله، غير كافية لتبث شعور الراحة في نفسه بخصوص المستقبل، فقد كان رجل الدولة النمساوي يأمل طويلاً في تحقيق التوازن مع نابليون، وقد أطلع غوته على غياب الاستعداد للسلام لدى الإمبراطور الفرنسي. انضمّ فويغت إلى المحور المعادي لنابليون، فقد كتب لغوته في الخامس عشر من كانون الثاني 1814 يقول:

«ليت الفرنسيين لم يقوموا بتعظيم مملكتهم العالّمية، وليتهم لم يبعثوا اليأس في نفوس أتباعهم، ولو فعلوا لما استطاعت المنشورات والبيانات كلها أن تفعل شيئاً»[2].

لهذا لم يكن مفاجئاً أن يقوم غوته، في تلك الأسابيع، بمحاولة ثني المؤرّخ القومي المتحمّس لودن عن إصدار مجلّة بعنوان «النمساويون» فقد حذره، وقد جرى التحذير في ضوء روح ميتارنيخية، بخصوص التهديدات القادمة من الشرق.

«إنّ من الحق أن يقال إنّني لم أعد أرى فرنسيين ولا طليانا بل صرت أرى القوزاق والبشكير والكراوت والهنغار والكاشوبيين والساميين والهوسار. لقد تعوّدنا منذ زمن طويل على أن تتجه عيوننا صوب

(1) Bode, Goethes Sohn, S. 167-174.

(2) Goethe-Voigt, S. 78.

الغرب، وأن نتوقع الخطر من هناك، لكنّ الأرض دارت دورتها، متّجهة صوب الشرق»[1]. وقد تحوّل ذلك العالم الشابّ والحديث صوب غوته بكل ثقة، لكنّه أصيب بخيبة أمل كبرى جرّاء الحوار. وهذا يوضّح ضآلة تأثير مشهد مباركة السلاح الذي جرى في نيسان، وضآلة تأثير تحفظ غوته تجاه المقاومة الوطنية في الرأي العام.

وعندما جرى النقاش حول الوسام، لاحظ أوغست فارن هاغن في رسالة لا تخلو من الذكاء بعث بها إلى راحيل، أنّه على الرغم من مشاعر غوته غير الوطنية تجاه الحرب، فقد شارك في التحضير لها على نحو لم يفعل سواه:

«فلولاه ولولا تأثيرات روحه العميقة لما كان الكثير من شبابنا متحمسين على هذه الشاكلة لحمل السلاح، ولم يكن لعقولنا أن تسمو إلى الأفضل»[2].

إنّ الأهمية الأدبية بوصفها مصدراً للفخر الوطني تمثّل لغوته، الذي لم يكن سعيداً بتلّقي أعماله الأخيرة، مسألة غير مقبولة ظاهرياً، لذا ظلّ موقفه في شتاء 1814/1813 يتسم بالازدواجية. وقد تساءل كارل أوغست في رسالة بعث بها إلى زوجته الهرتسوغة لويزي من الميدان في فرنسا «ترى.بماذا يوصي إله غوته؟» فقد كان يشعر بالانزعاج؛ لأنه لم يتلق رسائل من صديقه، وعندما جرى الحديث معه بخصوص عبادة نابليون سيئة الصيّت، التي قام بها غوته، ردّ دون مرارة:

«ليس هذا صحيحاً على الإطلاق. فأنتم لا تعرفون غوته»[3]. فقد صارت صيحة غوته معروفة أينما ذهبت: «دعوا إمبراطوري في هدوء!».

---

(1) Goethes Gespräche (Biedermann-Herwig). Band 2. S. 868.

(2) Bode II. S. 596.

(3) PB. Nr. 223. nut Fuβnote S. 240.

وفي حين كان الجميع سعداء بلحظات التحرّر، لم يكن غوته سعيداً بالانهيارات الفردية والروح المتعصبّة وغياب الوحدة الألمانية في الأدب الألماني، وفوق ذلك الصراع المتكرّر بين الأجيال، الذي يظهر بين الفينة والأخرى. وهذه لحظة تفجّع من معلم كبير بقي يشعر أنه متّعلق بالشباب. لهذا عدّ غوته «ما يكتبه جرّاء هذا الخلل بمثابة خدمة كبرى يستطيع أن يقدمها لوطنه من خلال مواصلة كتابته لسيرته الذاتية على نحو تاريخي لـ «يبيّن كيف يقوم الزمن اللاحق دائماً بقمع الماضي وإلغائه بدلاً من أن يقّدم له الشكر لما ينطوي عليه من تحفيز وأخبار وروايات»[1].

وقد كتب غوته في السابع من آيار إلى ماير وهو صديق له مهتم بعلم الجمال، في سويسرا، على نحو يفيض سخرية عن «جوانب من الفن تهدّدنا هنا على نحو مرعب. فقد رسم كوغلغن (...) غير مرّة فكرة الخير والشر، ولم يفصل بينهما، كما كان يجري في السابق، بل رسمهما معاً وهما يتصارعان، وكلّ من أراد أن يرى شبيه الشر، يستطيع أن يخمنّه بسهولة، وكذا الحال بالنسبة للخير، وأنا أراهن على شَعْر الأخوين كوغلغن».

كان الشر يبدو شبيهاً بالإمبراطور الفرنسي، أما الخير فيبدو مثل رسام ألماني جريء. وقد سجل غوته في التاسع من نيسان، أي بعد أسبوع من وصوله إلى باريس، في يومياته، أنّ المرء يتخيّل نظراً لمشاعر متضاربة أنه «يمضي نهاره في إطلاق النار على الأصدقاء».

وعلى الرغم من عدم الواقعية الواضحة تماماً في الطلب، إلا أن غوته اقترح على ناشر كتبه كوتا أن يقوم بعد عشرة أيام من معركة لايبتسج بتقديم طبعة غير مكلفة من طبعات الجيب، من كتابة «هيرمان

(1) An F.B. von Bucholtz am 14. 2. 1814.

ودوروتيا»، لصالح تلك اللحظة الوطنية. بل إنّه فكر في مواصلة الكتاب:

«لقد طلب مني أن أكتب جزءاً ثانياً، لكنني لا أدري تماماً إن كان في وسعي أن أخرجه إلى حيز الوجود. وفي كل الأحوال، فإنّ ذلك الكُتيّب سيكون له تأثير حسن»[1]. ولعل هذا «الطلب» يعود إلى مترنيخ وهومبولدت، اللذيْن كان غوته قد زارهما في تلك الأيام. وقد توصلت إلى تلك الفكرة صديقة غوته ماريا لودوفيغا التي كانت معادية لنابليون، فقد كتبت تلك السيدة في العشرين من تشرين الثاني 1813 إلى الهرتسوغ كارل أوغست ورأت أنه بعد رحيل الكثير من الفرق العسكرية، فإن الهدوء قادر على أن يُلهب خيال غوته مجدّداً «وسيغني لمجد منقذي ألمانيا»، وسيكون الهرتسوغ واحداً من بينهم[2]. ولم يتأخر الهرتسوغ في إبلاغ غوته بذلك، وقد تلقف كوتا وهو أحد المحبين لنابليون هذا الاقتراح بحماسة، دون أن يخلو ذلك من الأمل بأزمان أفضل تكون في فاعلية قوة نابليون، دون دماء أو أحزان في سبيل تحقيق النصر! وتلك هي التهمة الكبرى الموجهة له، فقد بقي العالم متعلّقاً به لعله يكون أحد منقذيه». كان هذا هو موقف الكثيرين من أنصار الإمبراطور الذين خاب أملهم، فلماذا لا يكون غوته كذلك؟

لقيت الطبعة الشعبية من «هيرمان ودورديتا» قبولاً لافتاً، من «صحيفة يينا للأدب العام»، حيث قام رئيس تحريرها أبراهام أيخ شتات الذي يرتبط معه غوته بعلاقة حميمة بنشر مراجعة للمؤرخ كارل لودفيج فون فولتمان في الرابع عشر من آذار تحت عنوان: «كتابات عن التاريخ اليومي لألمانيا» أكد فولتمان حيوية الشخصيات الروائية في هيرمان،

---

(1) Goethe-Cotta, Band 1, S. 255 (29. Oktober 1813).

(2) Goethe und Österreich, Band 1, S. LVIII.

التي تريد الدفاع عن الراين لصد هجمات الثوار الفرنسيين، ولاحظ بذكاء أنّ صورة الأمة المقاتلة التي يرسمها غوته، هي نتاج النموذج الفرنسي، لينتهي إلى أنّ غوته كان يريد بناء ملحمة وطنية ألمانية؛ لأنه قام بتكريم الإمبراطور المهزوم. وقد كتب فولتمان:

«إنّ المادة الخاصة بملحمة وطنيّة ألمانية كبرى موجودة هنا، وعلينا أن ننظر كيف تولّت يد الله الإعداد لذلك في روسيا. فأي مقدمة لتلك الملحمة التي تكون مهمتها الحديث عن انتصار الأمة الألمانية على الطاغية، وهي لا تكف عن الإعجاب الدائم بشخصية واحدة هي التي ينبغي أن تكون محطّ الإعجاب، والتي ظل جيش تلك الأمة يقف على النقيض مما تريده أمته؟ ومن الذي يمكنه أن يثق بهذه الملحمة التي تريد استدعاء الأمة الألمانية وهي تثني في الوقت ذاته دون خجل أو رياء، على القوة العظمى التي لا تكاد الأرض والبحر توازيها»[1].

تم النظر إلى المقاطع الشعرية التي قالها غوته عن الإمبراطورة ماري لويز، والتي تشكل الاعتراف العلني لغوته بالنظام النابليوني، بوصفها قادرة على تأهيل غوته ليكون واحداً من صناع الملاحم القومية! لهذا كان غوته يخشى أن يصل انفعال إمبراطورة فيينا إلى الرأي العام وأن يقوم الرأي العام بالتوفيق بينه وبين ماضيه النابليوني.

إنّ توافق القصيدة الصادرة عام 1812 مع الإمبراطورين النمساوي والفرنسي، قد وجد صداه البعيد في هذه الأجزاء المنشورة. وقد كتب غوته وهو يشعر بالارتياح، في الثاني عشر من آذار بعد ظهور مراجعة آيخشتيت مباشرة:

«السيد المحترم؛ لقد فاجأتموني مفاجأة سارة من خلال إرسالكم الصحيفة لي (...)، أرجو أن تشكر لي المؤلف شكراً جزيلاً، وأعد

(1) JALZ. März 1814. Nr. 45. Spalte 353 ff.

بأنني لن أدع كلمة من الكلمات التي قالها اليوم أو مستقبلاً دون أن آخذها بعين الاعتبار».

كان كنيبل، وهو أحد أصدقاء غوته، قد أسهم في النقاش السياسي على صفحات الملحق الأدبي، وأثنى في رسالة بعث بها إلى غوته في الخامس والعشرين من آذار على البعد الحيوي في مقالة فولتمان وقال إنها المرة الأولى «التي يعطي فيها مؤلف ألماني دوراً لقصيدة ألمانية في الشأن السياسي». كان الجزء الثاني من «هيرمان ودوروتيا» يحوي مفاجأة أقل. فقد تشكلت، من خلال رسائل غوته في تلك الأسابيع تأملات جديدة، جعلت غوته ينأى، بسببها، عن النتاج الأدبي السائد المملوء بالإثارة، فقد كتب على سبيل المثال، في الثاني والعشرين من شباط 1814 إلى أرنيم يقول: «إنّ كلّ ما يجري في هذه اللحظة وما يؤدّي إلى إثارة الأمزجة، هو ما حرصتُ على أن أتجنبه على الدوام، لا لأنّني أعدّه أمراً غير مشروع، بل لأنّني وجدت أنّ الحماسة، في الواقع، تتزيّن بثوب الغالبية العظمى من الناس». وفي كل الأحوال، فإن أمثال هذه التصريحات تبين أنّ هذا السؤال كان يشغله. فإنّ إجابات غوته الشعرية «بخصوص العصر بدأت بالتشكل منذ منتصف عام 1814، في مهرجان (إبيمنديس) ثم بعد ذلك في المرايا التاريخية لقصائد تيمور،

كان كارل أوغست الرابح المؤكد القادم من الزمن النابوليوني، صحيح أنّ جميع الخطط الكبرى بخصوص توسعة فايمار أو الآمال المتعلّقة بالعرش لم تتحقّق نظراً للوجود الممتّد لملك زاكسن الموالي لنابليون في المناطق المتنازع عليها، ومع ذلك فإنّ مجهود اللوبي الصابر الذي عرضه الهرتسوغ في مؤتمر فيينا كان قيّماً:

فقد نمت ساكسن -فايمار- آيزناخ من 36 إلى 66 ميلاً مربعاً، ومن 112000 إلى 190000 نسمة. إنّ مناطق السيادة الذاتية التي ظلّت تقاتل

سنوات طويلة من أجل بقائها السياسي، وبقيت تشكل عند الإمبراطور الفرنسي مجرد كانتونات غير مؤكدة البقاء، استطاعت أن تنجح على نحو يغاير ما فعله العاملون لخدمتها من أمثال: فويغت وموللر وغوته الذين اتخذوا المسار النابليوني وساروا فيه بقوة، فقد تحول كارل أوغست إلى الهرتسوغ الكبير. وقد هنّأ غوته كارل أوغست للمرة الأولى، مستخدماً «صاحب السمو الهرتسوغ الكبير» وبعد ذلك «صاحب السمّو الملكي». وقد أدى ذلك الى تلاشي التوتر السياسي الذي ظل يقود الشاعر إلى حافة عدم الولاء والذي استطاع الهرتسوغ أن يتحمله بالكثير من الشهامة.

ولم يكن في وسع غوته، على أيّ حال، أن ينكر الإنجازات الثقافية لكارل أوغست بوصفها أساساً لبلوغ الكثير: «قد يحدث أن تجيء من الخارج، نتيجة للجهود المخلصة الكبرى في الداخل، ألقاب مناسبة، لهذا نقوم نحن والأصدقاء، طالما ظلّ البلاط واللغة الرسمية يسمحان باستخدامهما، لكنّ ذلك كلّه يظّل لوناً من المجاملة في ضوء الواقع»[1].

وإذا كان غوته لا يزال يشعر بأنه صاحب امتياز في نهاية الحقبة النابليونية ،نأت به عن مشاعر قسم كبير من الأمة ومعاناتها السياسية، فإن الفضل في الكلمة التصالحية التي بعث بها غوته إلى الرأي العام الألماني يعود إلى جهود أوغست فيلهلم إيفلاند، مدير عام المسرح الملكي، الذي طلب من شاعر الألمان الكبير، القدوم لحضور مهرجان آيار 1814، المخّصص لعبور الملك والقيصر إلى عاصمة بروسيا. كانت عودة الملك من باريس مناسبة لاحتفال نصر مؤزّر، يبدأ بعبوره بوّابة براندبيرغ وينتهي بعرض احتفالي في دارة المسرح. وكان حرص إيفلاند على أن

(1) Goethe-Carl August 11. S. 117 f. (22. April 1815).

يُقدّم غوته في الاحتفال تمثيلية من تأليفه، لا يدّل على طموح منظمٌ ذلك الاحتفال للظفر بشاعر كبير في مناسبة كهذه فحسب، بل يدل على بصيرة سياسية. وقد اشترط غوته من خلال تدخل فولتمان رئيس التحرير المعروف بوطنيته، على إيفلاند أن لا يقوم غوته بالحديث في ذلك الاحتفال المتصف بالمبالغة في إظهار الكراهية الرخيصة لنابليون المهزوم في تلك اللحظة. وكان الجميع ينتظرون من غوته كلمة تتّسم باتساع الأفق والمصالحة. وكان قرار برلين هذا يوازي في نظر غوته الشروط التي قامت باريس في معاهدة السلام الأولى بقبولها، وهو أنّ في وسعها الاحتفاظ بالكنوز الفنيّة التي سرقتها من أوروبا، وهو شرط جرى إلغاؤه في معاهدة السلام الثانية بعد واترلو. وقد كانت أوروبا، وهو ما بيّنه مؤتمر فيينا، تمتلك آنذاك القوة على صنع السلام وكان غوته يؤيدها في ذلك.

وقد أطلق إيفلاند عند راحيل ليفن، وهي من اللواتي يضفين على غوته طابع القداسة. فكرة الحماسة السعيدة التي تسعى لتبيان حميمية العلاقة في تلك اللحظة بين الوطنية وعبادة -غوته وتتمثل في كون الشاعر موّحداً للأمة. وقد سمعت راحيل، أنّ عملاً مسرحياً سيجري عرضه في ألمانيا كلها في الثامن عشر من تشرين الأول، وهو يوم معركة لايبتسج، فكتبت إلى صديقتها سارا فون غروت هاوس في الرابع والعشرين من حزيران تقول: «ارتجف فكّاي على الفور وانحبست دموعي في عينيّ. إنّني أرجوك يا عزيزتي غروتا أن تحاولي إقناعه ليفعل ذلك حتى لا يقدم على الرفض. (...) أرجو أن تفكرّي، صديقتي العزيزة.. عندما تفكرّ ألمانيا كلّها، بأنّ ألمانيا بقضّها وقضيضها تستمع إلى ذلك العمل، فهي سترتعد وتهتز وتصغي وتحتفل وتبكي معنا! عندها

سأسقط أرضاً وأبكي»[1].

كان غوته لحظتها في زحمة العمل، وعلى الرغم من ضغط الوقت القاتل، فإنه انتظر مدة ليعلن موافقته، وقد كتب في الخامس عشر من حزيران عام 1814 إلى إيفلاند يقول:

«ينبغي أن أتوّجه إليك، أيّها السيد المبجّل بخالص شكري، لأنّك أتحت لي هذه الفرصة الثمينة لأخاطب الأمة التي اعتدتُ أن أشاركها المشاعر في السّراء والضّراء».

واستطاع غوته في مدة زمنية لا تتجاوز الأسابيع الأولى أن يكتب ألف بيت من الشعر تتميّز بالقوّة وبارتفاع نبرة الصوت لصناعة عمل مسرحي أليجوري متميّز. كان على المهرجان أن يكون وسطاً بين الأوبرا والخطابية والدراما الدعائية، لهذا استخدم كل الوسائل المسرحية من موسيقى وأضواء مترجرجة وأزياء ثمينة وديكورات متغيّرة، رائعة وألحان ومونولوغات ومشاهد جماعية، كما أن الخيول ركضت فوق الخشبة، وشارك جنود حقيقيون بوصفهم كومبارس. وقبيل النهاية، على وجه التحديد، لم تقتصر المسرحية في التأثير الجمعي، فقد تم إعطاء التوجيهات للموسيقيين بالاعتماد في ألحانهم على ألحان النصر العسكرية وعلى الأغاني البرلينية الواسعة الانتشار. أمّا على مستوى الديكور فقد وضع الصليب الحديدي والكوادريجا الموجودة على بوابة برندن بيرغ في برلين (وهي عربة تجرها أربعة خيول) في الأماكن المهمّة، وهي التي كان نابليون قد أخذها معه إلى باريس، لكنها كانت الأثر الفني الذي أمر الملك البروسي بإعادته على الفور، إلى برلين في أثناء رجوعه إليها. وقد كانت شخصية الملكة الراحلة لويز هي إحدى الشخصيات التي قام غوته بتجسيدها على المسرح والتي يمكن أن تكون كناية عن الأمل.

---

(1) Bode II. S. 609.

وعلى الرغم من الضريبة التي دفعها غوته للجمهور البرليني، فقد استطاع أن يبني في «صحوة إيمينيدس» لعبة مسرحية حاذقة ذات خبرة معاصرة، تجعل كل شيء مثيراً في نهاية المطاف وقد تم النظر إلى المسرحية بوصفها عملاً مركباً، لهذا كان يتوجب الاستعانة بالأستاذ البرليني ليفي تسون من أجل فك ما تنطوي عليه المسرحية من كنايات وإيضاح طبيعتها قبل عرضها. وقد استطاعت اللهجة البرلينية أن تؤدي مهمتها على وجه السرعة فأعادت تسمية المسرحية في ضوء تلك العاميّة، كما روى تسلتر.

إنّ من الصعب، على كل حال، تجاهل أنّ وراء الشخصيات المتّشحة بوشاح رمزي، يمكن كلّ من غوته ونابليون.إنّ البطل الذي تحمل المسؤولية هو راع كريتي حكيم، تجري منذ البداية عملية إرساله إلى السرير، وتمنحه الآلهة البصر بقوانين الطبيعة، لكنّ العالم التاريخي يحضر في الاستراحة الجديدة ويكون على إيبمندس أن يعي «الأزمان الغربية» بعد أن يصحو كما يكون النوم والصحو بمثابة الإطار الذي يحكم التصرّفات في ذلك العمل الاحتفالي. من الواضح أنّ إيبمندس يتجلّى في أثناء الوسن الجميل، وبوصفه رجلاً حكيماً فإنّه يقوم بإخضاع الحرب والدمار والاضطهاد والتحرر للنوم، أي أنه يبعث إلى النوم كلّ عناصر التخريب التاريخي للنظام الكوني، ويعتذر، بعد الصحو، لكونه بعيداً.

حقّاً إنني أخجل من ساعات الراحة
فالمعاناة معكم كانت مكسباً
فما تعانونه من آلام
هو أكبر مني على وجه الخصوص

بعدها يقوم أحد الرهبان بالرد على هذه الانحناءة أمام الجمهور:

لا تلم إرادة الآلهة

إذا ما ظفرت أثناء بعض السنوات

فقد حفظتك تلك الآلهة في الهدوء

كي تظلّ تستطيع الشعور بالنقاء

وهذا يعني أنّ انفصال الرائي وابتعاده عن الآلام والكفاح هي إرادة الآلهة وهي تخدم معرفة عليا، هي في المقام الأول، مشاعر صافية لا تستطيع المعاناة اليومية تمزيقها. ولم يكن ذلك موقف غوته نحو دوره، لكنه يخص نضالات عصره.

إنّ هذا الإدراك للفجوة الواضحة هو الذي يجعله يعي العالم التاريخي من حوله من خلال مفاهيم شخصيات رئيسة كبرى، وتجعله يدرك أليجورات الحبكة المسرحية التي تبدأ، على الفور، بعد أن ينام إبيمندس، مع هزيم الرعد واشتعال النار. أما «شيطان الحرب» فإنّه يتزيّى بزيّ إمبراطور روماني ويجيء مصحوباً بمساعدين متوحشين، أما الحرب فإنها تتحدث كما يفعل نابليون، ومثلما كانت علاقة بروميثيوس مع «باندورا» فإن الحرب تتصرف في مسرحية «إبيمندس» نحو نابليون كما هي العلاقة بين المصطلح العام والحالة الخاصة، وخلافاً لبروميثيوس فإنّ «الحرب» تقترب من الإمبراطور المهزوم من خلال الحديث ومن خلال الإشارات بل إن النص يقتبسه:

«إنني أعي أنّني الأعلى/ وإنني أهب نفسي للأروع عن طيب خاطر لأن من يخاف الأخطار والحروب/ يكون سيد الأرض وسيّد الأرواح ومن يقف ضد الجماعات ويهددها/ يظلّ السيّد وحده حتى النهاية وليس ثمة أيّ اعتراض! أيّ اعتراض!/ فأنا لا أعرف المصاعب وعندما تتزلزل البلاد من حولي/ تكون هي أوقات سعادتي».

تعود هذه الأبيات، على نحو مباشر، إلى خبر كانت الهرتسوغة لويزا

قد أوصلته إلى غوته أثناء انشغاله بالعمل في التاسع من حزيران، فقد قال نابليون لأحد الجنرالات النمساويين: «لقد كنت أفتشّ، على الدوام، عن الأشياء الرائعة، وكانت لديّ الحماسة كي أتخطّى جميع الصعاب، وكانت كلّ عقبة تثير لديّ العناد كي أتخطاها»[1].

وقد وجد غوته ذلك مهّماً للغاية، لدرجة أنه شكر الهرتسوغة على الفور: «إن كلمات نابليون غريبة بما فيه الكفاية. فقد كان ينسب الصفات المتناقضة لنفسه. فإن حبّ الأشياء الرائعة هي من خصائص الشعراء في واقع الأمر، أما الرغبة في تخطّي العقبات فهي من سمات المشتغلين بالرياضيات». وفي نهاية المونولوغ الافتتاحي يقوم بتلخيص «الحرب» ويصفها بأنها سياسية النظام القاريّ:

على الشاطئ يحبسني عَسَفُ القوس/ ومثلما قام البحر بلف حزامه حولكم/ قامت الموجات العنيفة بلّف حزامها حولي».

إنّ رغبة غوته في عرض حوادث معاصرة، توضّحه المشاهد اللاحقة والأزياء القيمة الخاصة بها .. فالحرب تستطيع تدمير العالم، لأن شياطين «الخداع» قد سبق لها أن قامت بتقويضه. وبهذا يكون غوته قد وقع على الكلمة المفتاحية الخاصة بالثورة الفرنسية[2]، فهؤلاء الشياطين والدبلوماسيون والقسيسون والقانونيون ينتمون إلى القرن السادس عشر، عصر «فاوست» و«غوتس». وقد استطاعت حيلهم أن تدمر السياقات الاجتماعية إلى درجة استطاعت فيها الحرب من خلال قليل من النزاعات الوصول به إلى الدمار. بعد ذلك ينتصر الشيطان الثالث

(1) MA9, S. 1181 (zu den Versen 157 ff.). Vgl. WAIV 24, S. 390.

(2) اعتمد هنا وفي ما يتلو من مواضع على المقالة غير المنشورة للوثار موللر الخاصة بهذه المسرحية. لهذا أتوجه بالشكر للمؤلف على السماح لي باقتباس ذلك M Aa، S .1162. وفي المقالة تظهر على نحو كامل تعليقات الطبعة التي صدرت في هامبورغ (.Band, S 696 ff).

الذي يجري تقديمه مجدداً بوصفه إشارة إلى «الاستبداد الشرقي» الذي لا ينتمي إلى عصر محدد، وكان ذلك يتضمن إشارة إلى نابليون. فقد درج كثيرون في تلك الحقبة من أمثال غوته وريمر وكارل أوغست على المقارنة بين نابليون وبين شخصية الرسول محمد من حيث كونه فاتحاً عالمياً.

كانت الألوان على خشبة المسرح تجمع بين الزرقة والبنفسجية. أما أرضية المعبد التي اختارها إبيمندس لتكون مكاناً للنوم، فقد صارت مكاناً كبيراً أخضر وخرباً وسامّاً.

أما «الحب» فقد تبدى على هيئة فتاة شابة جميلة، تتنفّس الصعداء وهي تدخل المسرح مصحوبة بامرأة شابة هي «الإيمان». بعد ذلك يجيء المشهد الأكثر رعباً:

حيث يتمكن الطاغية، بقليل من الإقناع وببعض الهدايا الثمينة من أن يضع القيود في أيدي «الحب» و«الإيمان» ويقوم باستبعادهما حيث يبدو العالم كله مستسلماً تماماً، فالحرب والخداع والعبودية تتغلب على الحب والإيمان.

ويجيء «الأمل» ليكون بمثابة المنقذ، وهو يأتي على شاكلة امرأة مخلصة تأخذ شكل منيرفا وإن كان لها –على ما يبدو– ملامح الملكة لويزا. ويكون الأمل هو الشخصية الوحيدة التي تستطيع مواجهة الطغيان وتحرير الجيش من التعبئة. في هذه اللحظة الحرجة يصحو إبيمندس ويقدم اعتذاره الرسمي عن غفوته الطويلة ويعدّد الأسباب التي أفضت إلى ذلك. وهنا يتغيّر الديكور ليغدو معاصراً يمثّل شعوباً شرقية من البشكير والقوزاق. كما أن السويديين والبروسيين والكروات والنمساويين، أو الأعضاء في تحالف عام 1813 (والبولنديين الذين سبق لغوته أن اقترحهم وتم رفضهم بقوة) يتدفقون على خشبة المسرح، فتعلو

أناشيد النصر، وتقوم إحدى الجوقات بإلقاء أناشيد وطنيّة كان غوته قد نظمها، ويكاد المرء يسميها أشعاراً من الباروديا:

لقد عدنا لنكون ألماناً من جديد

متحررين من القيود الأجنبيّة

وها نحن قد كبرنا ثانية

العرق الأكثر رقيا

العقل الحسّاس والأنفاس النقيّة

والأعمال القويمة.

وعلى شاكلة غوته الذي كان ينظر إلى التحرر نظرة مزدوجة، أقدم «إبيمنيدس» على إنكاره إنكاراً مطلقاً، لأن التحرر يعني الحرب أيضاً، التي ينبغي الإعداد لها سرّاً، أي عن طريق الدسائس، ففي رابطة الفضائل البروسية، ثمة جمعية وطنيّة سرّية وكان النصّ الاحتفالي يشير إليها:

وهكذا استطاعت الفضائل أن تؤسس بهدوء مملكة

كما استطاعت أن تتحالف سرّاً في ما بينها من أجل الحماية والدفاع

وقد تمكنت من حفر التراب وصولاً إلى الأعماق

لتتمكن من صدّ القوات الرهيبة

والآن يبدو أنك تمتلك طبيعة برّية ....

إنّ القوات الرهيبة لا يمكن أن تُهزم إلا من خلال مثيلاتها وهذا يعني أن الحرية ستغرق في ضوء دموي ملتهب. وقد تحدث «الإيمان» تحديداً فقال:

لقد تمتّ مناداتي من أجل مواجهة الجبّار

ويخدمني التدمير الذاتي والدم والموت

وقد اشتعلت تلك عند درجات عرشي

فالحرية فجر دام رهيب

أما العدالة الذاتية فتبدو مختلفة تماماً، لدرجة أنّ الإشارة بأقل درجاتها إلى العدو الفرنسي المهزوم تختفي أما نابليون فيبرز وحده مرعباً في شعر واضح لا تخطئه الأذن المعاصرة:

إنّ ما برز بوضوح من الهاوية
يمكن أن يحدث من خلال مكر مختلف
فأنْ يتحقّق الانتصار على نصف العالم
يعني أنّ عليك أن تعود إلى الهاوية

لكن الحديث هنا لا يدور حول شخصيات بل عن قوى دمّرت السياق الكوني. أمّا الحريّة، وهي الشعار الثوري، الذي كان جزءاً من الهزّة الشيطانية والكلمة النهائية بل «الوحدة» والشخصية الأخيرة في الأليجورات، فإنّها لا تسلك مثل هذا السلوك. إنّ حكمتها تتمثّل في «الامتثال للإرادة القوية» ومن خلالها تنطلق دائرة الثورة التي كان نابليون جزءاً منها، مثل أي انتفاضة استطاعت أن تتجاوزه، لهذا بقي غوته على موقفه المتشكك من الثورة حتى نهاية المرحلة الدرامية الحالية التي بدأت عام 1789 التي استطاعت أن تجبر إبيمنديس/غوته كي يتحوّل من مراقب للطبيعة إلى متأمل للتاريخ.

إنّ هذه التساؤلات الذاتية لهذه الشخصية المدمنة على التفكير، لم يتحقق لها النجاح فوق خشبة مسرح عام في مهرجان منظور، لهذا فإنّ رؤية راحيل بخصوص ليالي غوته الوطنية على مستوى ألمانيا كلّها، لم تتحقّق، فكان يجري تأجيلها في بادئ الأمر تحت ذرائع مختلفة. فتارة لم ينته الموسيقيّ من اللحن. وتارة أخرى لم يأت القيصر من برلين، أو لا يريد الملك الذهاب إلى المسرح، أو وفاة إيفلاند. بعد ذلك جرى العرض الأول في الثلاثين من آذار 1815 في توقيت غير مناسب على الإطلاق:

ففي الوقت الذي كان يجري الاحتفال فيه بالذكرى السنوية الأولى للاستيلاء على باريس، كان نابليون قبل ذلك بعشرة أيام قد تمكّن من الفرار من جزيرة إلباو وابتعد عنها! وتدغدت النسبية التاريخية عند غوته في مواجهة خطر حرب جديدة، أو جريمة بدأت تتفاقم في واقع الأمر. وقد استشعر الجمهور الفتور السياسي، ولم ينفع بذخ الوسائط المتعددة في نفخ الحماسة فيه. وقد كان يتوجب على تسلتر أن يخبر بما يحدث في وراء الكواليس من عدم المهارة على المستوى الحرفي. ويشار إلى أنّ عرض فايمار بمناسبة عيد ميلاد الهرتسوغة في الثلاثين من كانون الثاني 1816، قد اقتصر على التصفيق.

غير أنّ غوته تعلّق بهذه الفكرة الحيوية التي منحته الفرصة كي يقوم بتنظيم علاقته مع نابليون على نحو مباشر، بعد أن ذهب معافى، وعلى نحو نهائي إلى سانت هيلين. فقد نشر غوته «إبيمينيدس» عام 1816 في الجزء الثاني من أعماله الصادرة عن كوتا ووضعها مباشرة بعد نهاية المقاطع الشعرية التي تعود إلى كارلسباد، والخاصة بالإمبراطورة لويزا. فلم يتبرّأ غوته من تلك المقاطع، وكان على تلك الأشعار أن تتجاوز المناسبة التي قيلت فيها، وقد انتهت بالكلمات التالية:

«إنّ من في وسعه أن يريد كل شيء، يتوجب عليه أن يريد السلام، وكان ذلك نموذجاً .. يُحتذى به. إن نابليون لم يكن يريد السلام حتى في عام 1813 عندما كان مملوءاً بالإثارة كأنه أيّل». لهذا كتب غوته في الخامس عشر من شباط 1816 مقطعين جديدين ليكونا بمثابة الجسر الواصل بين قصيدة ماري لويز ومسرحية «إبيمنديس». وقد جاء المقطع الأول بعد نهاية المقطع الشعري الذي نظم عام 1812 على النحو التالي:

إنّ السلام لا يستطيع أن يُعدّ الإرادة

فعلى من يريد كل شيء، أن يكون قادراً على كل شيء

فعندما ينتصر، يعلّم الآخرين الخلاف
ويجعل عدوّه مستغرقاً في التفكير وهادئاً
وعلى هذه الشاكلة تنمو القوة والخديعة في كل مكان
فأزمة العالم تصبح ثقيلة جرّاء الغاشمين
أما الأضرار الكثيرة التي لا حصر لها
فإنها تهدّدنا كلّ يوم وكأنّنا في يوم القيامة[1].

إن هذه هي آلية الثورة التي لا تتوقّف، لأن الثورة المضادة هي ثورة في نهاية المطاف. ترى ما الأشياء التي رآها نابليون في نهاية المطاف وعن بعد ثم رفضها؟ لو كان يعلم أنه سيغدو أسيراً لشطط إرادته لم ينه الثورة ولم يصنع السلام. وهذه هي تهمة سياسية. وقد توّصل غوته إلى ما توّصل إليه فريدريش فون غنتس في بداية عام 1816 إلى قيامه بخمس حروب تمخضت عن مليون قتيل. لقد كان ذلك الديكتاتور المغتصب من أعداء السلام على نحو فطري بل بنيوي. وقد حددت المقطوعة الثانية دور الشاعر، وهي مهمة غوته الأساسية:

يفتش الشاعر عن القدر كي يطلق سراحه
ذلك، الجيّاش والمرعب والذي لا شكل له
ولا قياس ولا هدف ولا يستطيع الوصول إلى الصواب
وهو ينسج بقسوة ويدّمر ويسيطر علينا تماماً
وهنا يجمع الفنّ في شعلة محبّبة
الوعي الجمعي، الذي أخذ لحظتها بالتفتّح
فَعبر المساهمة في الإثارة المشتركة
فإنّ الأغاني والخطب تصنع الحركة العاقلة.

لقد كان ذلك، كما يظهر في المقطوعة التالية، لا يمثّل الحقيقة كلّها.

---

(1) Texte nach MA 9, S. 195.

فإنّ «المساهمة في الإثارة المشتركة» أمر أخذه غوته على عاتقه على نحو أقلّ من المعدل المتوسط، في موازاة مسألة الكتابة التاريخية كما تظهر في «شعر وحقيقة» وبوصفه شاعراً للإمبراطور.

كما أن الحكم سياسياً على نابليون لا يعني، بالضرورة، انتهاء الافتنان الشخصي لغوته بنابليون. لهذا ظل غوته وفياً للإمبراطور في السنوات الأخيرة من عمره، ففي صيف عام 1815 بدأ غوته بكتابة حوار مع أكثر شخصيتين أهمية على مستوى الحكّام في حياته وهما الهرتسوغ كارل أوغست ونابليون، وقد نشره غوته تحت عنوان: «قرار»، ففي الحوار الذي دوّنه سولبيتس بويسير في الخامس من تشرين الأول عام 1815، طوّر غوته فكرة بوسعنا أن نقرر أنها صياغة للتصور الرائع عن «الشيطانيات» حيث يأتي كلّ من الهرتسوغ والإمبراطور في نهاية حقبة الاندفاع والعاصفة الحرجة، بوصفهما شخصيتين إيجابيتين. «لقد ترك نفسه تقرر بهدوء، وكان سعيداً بالهرتسوغ، لأنه مرتبط على الدوام بالخير والسعادة، لكنّ ثمة أشخاصاً كان لهم تأثير ضار عليه. وقد مر زمن دون أن يلحظ ذلك، فعندما كانوا يظهرون أمامه حتى لو كان مستقلاً عنهم تماماً، فإنه كان يلاقي الحزن وسوء الحظ. إنّ كل أصحاب الطبيعة القوية قد جلبوا له السعادة، بما في ذلك نابليون». ولكنّ ما الذي يجعل غوته، في حقيقة الأمر، يميّز بين القرار الذي يجلب له السعادة الشخصية وبين الإرادة التي لا حدود لها، وهو ما قاد نابليون إلى الهاوية في نهاية المطاف؟

خلاصة وافية للعالم

رؤية متنامية: ذكرى نابليون عند غوته العجوز

تمكّن نابليون في الأول من آذار عام 1815 أنّ يتفلّت من الإمبراطورية

المصغّرة التي أعدّها الحلف المُعادي له في جزيرة إلبا. وعندما وصل هذا الخبر بعد أسبوعين إلى فايمار، ظنّ غوته، كما اخبر آيخ شتيت، أنّ «وقوع ثورة جديدة في باريس هو أمر جدّ محتمل»[1]. أما البيان المناهض لبونابارت الصادر عن مؤتمر القوى الذي انعقد في فيينا والذي صاغه فويغت، فيبدو أنه لم يؤثر كثيراً في غوته، على الرغم من أنّ البيان كان ضد «بونابرته الذي يقف على النقيض من العلاقات المجتمعية والمدنّية والذي غدا عدواً للعالم وسبباً من أسباب الاضطراب فيه ويتطلب عقوبات عامة». لذا رأى غوته «أنّ بعض الجمل الديبلوماسية لا تقدم ولا تؤخر وأن كارثة لا تخطئها العين في طريقها إلى البروز»[2].

وقد بقيت حكاية الأيام المائة تطارد غوته بقدر من التوتر الغاضب بل اليائس، وغدا متعباً، يوماً بعد يوم، جرّاء هذه الإثارة وعدم اليقين الدائمين، وهو يقرأ الصحف ويدرس الخرائط ويعيش التحولات. وقد كتب غوته وهو يشعر بالإرهاق يوم الثاني والعشرين من نيسان، إلى كنيبل» لعل المرء، في الغالب، لا يدري ما الذي يُفضّل أن يقوم به، فهل يقوم بإنارة الأوضاع الحالية أو يجعلها مظلمة». لدرجة أنّ إبيمندس لا يستطيع أن يبقى نائماً بهدوء! ففي السابع عشر من آذار، أي في اليوم الذي وصل فيه خبر هروب نابليون إلى فايمار، تشكلّت قصيدة في «الديوان الشرقي للمؤلف الغربي» تبدو فيها نبرة مريرة غير مألوفة، عندما يقول حافظ لمعشوقته زليخا:

ولكن لِمَ لا تسألين الإمبراطور؟
إذا كانَ يمكن أن يهبك مُدَنا
فهو رائع وحكيم

(1) Napoleonische Jahre II. Nr. 858 (14. oder 15.3. 1815).

(2) An Voigt am 22. 3. 1815 Napoleonische Jahre II. Nr. 860 mit Kommentar).

لكنّه لا يدري، حقاً، كيف يعشق الإنسان

أما الحكاية التي كان غوته قد ائتمنها سولبيتس بويسيري، «فهي حكاية خاتم غوته مع رأس سيرابيس -تحت الحروف الأبجدية INI- لقد وضع الخاتم طويلاً في مكان بعيد؛ لأنه لا يستطيع الاحتفاظ طويلاً به، وفي شهر آذار يشعر بعدم الارتياح، يأتي صديق «أتستطيع أن تحزر ما هو المرعب؟» - يوم القيامة - «كلا» - لقد هرب نابليون- «أجل». في اليوم التالي يأتي الخاتم: بِشارةٍ تدل على أنّ «نابليون يعود».

إنّ توالي الحروف الهجائية على نحو تقع فيه النون بين حرفي الهجاء I يشير إلى المرغوب فيه وهو الخاتم المطلوب في الوقت المناسب الذي ينبئ بأفول شمس نابليون[1].

لقد عايش غوته، شأنه شأن أوروبا المنتعشة لحظتها، عودة إمبراطوره إلى واجهة الأحداث، بوصفها لوناً من الإزعاج لسلام آخذ بالتحقّق ولا يزال الاستقرار الناشئ عنه هشّاً. وقد عرف غوته أثناء رحلته الثانية إلى الراين وماين في فيسبادن عن الأنباء المتضاربة عن واترلو وخط سير المعركة في بادئ الأمر، حيث كان المواطن الذي يصل إلى هنا، يكاد لا يستطيع أن يتنفسّ، «لأنّ قواهم الجسدية لم تكن قد نمت بما فيه الكفاية ولم يكن لديهم إجماع على المستوى الأخلاقي». كما سيكون الأمر بعد بضع سنوات، طبقاً لما لخّصه غوته في «دفاتر الأيام والسنوات»[2].

كان غوته في ذلك الصيف ضيفاً على فراي هِرنْ فون شتاين في ناساو، الذي اصطحب غوته معه إلى كاتدرائية كولونيا التي تحولت آنذاك بفضل تأثير أصدقاء غوته الجدد الكاثوليك كالأخوين بويسيري إلى مبنى وطني على المستوى الألماني. وفي ذلك المكان،

---

(1) 3. August 1815 (Napoleonische Jahre II. S. 480 f).

(2) MA 14. S. 245 f.

فوق الراين، استشعر غوته للمرة الأولى منذ سنوات طويلة تعود إلى بداية الثورة، شيئاً يشبه الغضب على الفرنسيين: «إنّ المرء لا يأسى لما يواجهه الفرنسيون من شرور، عندما يرى المصائب التي عذبوا بها هذه المنطقة وأفسدوها بها، بل إنهم مسخوها إلى الأبد ودمرّوها».
ظل هذا الاقتباس النص المفضل لفيلولوجيا غوته القومية، لكنّ البداية كانت انتقامية تماماً. إنّ كلمات غوته عن الحالة المابعد نابليونية الجديدة توجد في عرضه للاحتفال الخاص بـ «روخوس» في بنغن: ففي ذلك العرض رأى غوته أن الإيمان الشعبي الكاثوليكي، سينتصر على المدى البعيد على التاريخ الثوري القريب. لهذا لم يحظ المصطلح الحديث الخاص بالأمّة بتعاطف غوته «بقدر ما كانت أشكال الحياة المحليّة التي تقرّ الجيولوجيا عبر المشاهد الثقافية «تحظى بذلك التعاطف. وقد أراد غوته في صيف عام 1815 بعيداً عن كل «النقاشات السياسية الألمانية» أن يطرد لعنة إرنولفوس في «فضيحة تريستام» للورنس شتيرن[1].

وقد كان غوته على موعد مع التاريخ العالمي عندما رأى القوزاق وهم يطاردون مجموعة من الأرانب المذعورة في أحد الحقول الواسعة: كان نابليون في سانت هيلين، وصارت أوروبا تنعم بالسلام. وقد سعى غوته بعد مرور عام لينظم أبياتاً كتبت على النصب التذكاري للأمير بلوشر «من مدينة فال»:

في الانتظار وفي الحرب
في الهزيمة وفي الانتصار
كنت واعياً وكبيراً
وقد انتَزَعتنا

(1) So zu Boisserée am 20. September 1815 (Napoleonische Jahre II. S. 516).

إنّ كلّ ذلك –اللعنات الخاصة جرّاء عودة نابليون، والتوق إلى الحرية والاستقرار والسلم الاستاطيقي مع الكاثوليك، المكروهين منذ زمن طويل، والإثارة المطلوبة لتحرير المحاربين، وأخيراً وليس آخر رحيل غوته الشعري إلى الشرق، الذي حققّته القوة يومها –لم يُغيّر في واقع الأمر، من افتتان غوته الشخصي بنابليون، على الرغم مما تعرّض له الرجل من مصير من قبل ومن بعد. وفي صيف 1815 ذاته، حيث كان غوته يستفيض في حديثه أمام فون شتاين وبويسيري، ويصنع تصوّره الذاتي عن أضرار الحرب وهو يقف على الراين، ويضع إشارة الصليب ثلاث مرات على الضربة العنيفة، كان يفكر، بقدر كبير من الاحترام بحواراته مع سولبتس بويسيري عن الإمبراطور المهزوم. وقد قام غوته في الثامن من آب 1815 بإعلام صديقه الشاب عن حواره مع نابليون، الذي جرى اقتباسه كاملاً ها هنا؛ لأنّ هذا يوضح أنّ الذكريات كانت ثابتة قبل سنوات من تدوينها وأنها كانت تنتظر الصياغة لا أكثر: «لقد أعجبه نابليون بوصفه العقل الأكبر الذي رآه العالم كّله. لذا قابله في الصالة الخاصة بمقر الدولة في إيرفورت التي أمضى فيها شبابه مع شيللر والهرتسوغ والأسقف دالبيرغ ... إلخ، الذين عاش معهم الكثير من لحظات السعادة والمرح. وقد كان في الصالة بيرتهير وسولت وآخرون، الذين مثُلوا بين يديه لمدة ساعة أو ساعتين، وكان يقوم بتغيير تلك الشخصيات في كل مرّة، ثم يعود ليتحدث معه».

وقد سمح بويسيري، وهو كاتب اليوميات، أن يضيف تعليقاً ذاتياً: «يبدو أنه من غير الملاحظ، أنّ غوته لا يريد أن يلحظ، أن كل ذلك كان مُعدّاً سلفاً حتى يعجب بنابليون. (كما سأبين ذلك). لهذا تولّيت أنا تقديمه مع ملاحظة تقول: بأنه (أي غوته) كان قد ترجم (الرسول

محمد). وهنا تفوّه نابليون بكلام قاس، فقام غوته بتطوير الحديث على النحو المطلوب وبدا مدافعاً عن الرسول محمد. أمّا ما حدث بعد ذلك، فيمثل ذروة الكشف، فقد كان غوته يطمح أثناء الحوار الثنائي بينه وبين الإمبراطور إلى بناء علاقة خاصة معه تختلف عن إعجاب يوهانس فون موللر الذي أسقطه. «لقد تحدثت عن المباهاة، وكيف أنها قد أفقدت المسكين موللر صوابه. لكنّ غوته نحّى المباهاة جانباً، مع موللر»، وقال إن العلاقة كانت مختلفة؛ لأنه كان موللر المسكين! لقد تحدث نابليون معه بإعجاب عن التراجيديا، حيث كانت الجوقة حاضرة على الدوام. «ماذا قال السيد غوت؟». لقد قال له نابليون ما ينبغي أن يقوله -فأضحكه، لدرجة أنه ظنّ أنّ عليه أنْ يعتذر، «لكنه لم يدر ما ينبغي أن يقال، وما هو الكلام المناسب حقيقة». إذن عدنا مجدّداً إلى الحميميّة الغامضة بين الكبار!

بعد رجوع نابليون إلى جزيرة إلبا ... بمدة طويلة، شرع غوته يفصل بين الإعجاب الشخصي والاتفاق في الموقف السياسي. وبدأ غوته بقراءة الأدب الذي أخذ يظهر فور نفي نابليون إلى جزيرة سانت هيلانة. وكان من بين تلك الكتب «مخطوطة من سانت هيلانة» بوصفها عملاً للإمبراطور المخلوع، وهي التي ذكرها غوته في «دفاتر الأيام والسنوات» 1817 بوصفها تمثل تدهور الشعور بالغموض الأدبي:

«إنّ المرء قد استمع إلى العديد من الأبطال، فهم يظلّون يتحدّثون بوضوح لا لبس فيه»[1]. لكنّ هذا لا يُغيّر من رفض غوته لخيارات نابليون التي يبشر العمل بها. وتنطوي كتابة غوته إلى تسلتر في التاسع عشر من آذار 1818 على مقارنة مضحكة:

«لا أريد أن أعرف من البحور السداسية التفاعيل المائة، أكثر من

(1) MA 14., S. 263.

رغبتي في معرفة الأيام المائة في أواخر حكم نابليون. وأرجو الله أن يقيني من الإيقاع الألماني، كما وقاني من تغير الأسر المالكة الفرنسية!».

لهذا كانت تتّجلى في دولة فايمار التناقضات الوراثية للحقبة النابوليونية بوضوح، ففي عام 1816 صار للهرتسوغية الكبرى دستور مكتوب هو الأول في الاتّحاد الألماني، إن لم يكن الأول على الأرض الألمانية (فقد كانت سلّمته لمملكة فست فالن الألمانية النابوليونية عام 1807) وتمّ الاعتراف في هذه المنطقة بحرية وسائل الإعلام، الذي أصاب فرحة غوته بشيء من الشك.

وقد جرى عام 1817 الاحتفال في يوم الإصلاح في فارتبورغ بالمعركة الشعبية في لايبتسج معاً، إضافة إلى احتفال الطلاب الشباب القوميين الذين لم يغب دعم غوته لهم.

اشتعال الحرائق: لم يصل إلى هنا الضفائر وأقطاب النظام المطلق الذين جرت عملية استعادتهم فحسب، بل وصلت النماذج اللوثرية، والكتب المسمّاة بالرجعية. وقد وجد غوته أنّ المهانة لخصم أدبي موهوب أمر يبعث على الضحك. «إنّ القدّيس بطرس يفرح بهذه الحرائق». وعندما صار قلق ممثّلي الاتّحاد في فيينا وبرلين بخصوص هذه الأفعال الغوغائية واضحاً، لم يتحدث غوته إلّا عن «رائحة النار المقرفة في فارتبورغ»[1]. أما حرية الصحافة حديثة النشأة، فقد تراجعت تحت ضغوط القوى الكبرى.وقد وصلت إلى النيران في فارتبورغ كتب تطالب بتحرير اليهود، ونحن نعرف اليوم في مهرجان فارتبورغ أحد المعالم المهّمة لأحدث الحركات مناهضةً للحداثة في التاريخ الألماني التي أسهم نابليون بوضوح فيها. ففي عام 1819، أقدم طالب جامعي على طعن كوتسيبو، وبذلك صار المناخ رجعياً بحق. وقد كان نابليون

(1) An Zelter 16. 12. 1817. أمّا القصيدة الموجهة ضد كوتسيبو فهي تبدأ بـ:
لقد مارست الأمر منذ زمن طويل وقد كتب من الأعالي على نحو حقير.

عدّواً لفريقين من الألمان: الطلبة القوميون وقامعوهم الذين قرروا عام 1819 في كارلسباد الموافقة على مراسيم سيئة الصيت لمكافحة الإرهاب ومطاردة الغوغائيين.

أثناء تلك السنوات صار «الديوان الشرقي للمؤلف الغربي» وعاءً لتأملات بعيدة عن معاناة الناس في تلك الحقبة. ففي قصيدة «هجرة» ذات النبرة الشعرية العالية يقول غوته:

الشمال والغرب والجنوب تتناثر

العروش تتصدع والممالك ترتجف

فهاجر أنت إلى الشرق الطاهر

لنستروح نسيم الآباء (ترجمة عبد الغفار مكاوي: 137)

إنّ الهجرة لا تعني الهرب بالضرورة، فالهارب يستدير كي ينظر إلى الوراء، وبذلك صار من الممكن أن تتشكل للقارئ آنذاك مرآة زمنية توجد على مسافة بعيدة كافية وتسمح بتأمل صورة العالم الذي يعيش فيه. لكنّ ثمّة خيطاً نابليونياً يشق هذا العمل الجريء الذي صدر متأخراً. ففي الجزء الخاص بـ «الديوان القادم» الذي يحوي «شروح وهوامش» تعين على فهم الديوان، ولتكون بالتالي بمثابة دليل للقراءة، لم يكن من قبيل المصادفة أن يتكئ ذلك على شخصية تيمورلنك ولعله من المؤكد، كما قال غوته، إنّ علينا أن ندع بعض السنوات تمر، حتى يأتي زمن يكون فيه التفسير القريب منا لا يسيء إلى الرؤية المفخّمة لأحداث كبرى عالمية فاعلة»[1].

أما عن الكيفية التي تمكّن غوته عبرها، بعد صدمة حريق موسكو، أن يجد في شخصية الأمير المغولي نموذجاً لـ«العصر الذي نحياه، وكيف يتوجب علينا أن نكون في غاية الرزانة، كي نكون قادرين في ضوء

(1) MA 11, 1.2, S..209.

الطريقة القديمة على البهجة»، فيبدو أنّ في إعادة الصياغة في الرسالة التي بعث بها غوته إلى راينهارد عام 1812 ما يشير إلى التطور الحاصل.

إنّ ما يُميّز الديوان هو هذه الصلة بين الرزانة والبهجة عموماً، ففي أكثر القصائد جرأة في «كتاب تيمور»، حيث يقوم زيت الورد بالغناء من أجل زليخا وهذا يتطلب الموت لآلاف من براعم الورد أن تغني:

أكان من الضروري أن يعذّبنا ذلك العذاب
في الوقت الذي ضاعف فيه نشوتنا
ألم يلتهم طغيان تيمور
ألوف الألوف من أرواح الناس (عبد الغفار مكاوي: 243)

نشرت هذه القصيدة بعد مرورثلاث سنوات على الحرب الكونية وهي مستفزة بعض الشيء، ولكن كيف تكلّم تيمور؟:

ماذا؟ أتنكرون عليّ أيها الفقهاء المراؤون
فورة الانطلاق العاتية كالإعصار الشديد
لو أنّ الله قدر لي أن أكون دودة
لكان خلقني على هيئة الدود (عبد الغفار مكاوي: 221)

غيّر أنّ حافظ (الشيرازي) الذي يحثّ تابعه الألماني على «محاكاة» جديدة يشبه الشرارة «القادرة على أن تحرق مدينة الإمبراطور، إذا ما سار اللهيب وأنتج بنفسه الريح» –أي أنه تجري المقارنة بين النار الشعرية المتميّزة وحريق موسكو! وتلك مجازفات ممكنة لأنّ «الديوان». يقوم بتعويض المسافة المعاصرة غير القابلة للوصول والخاصة بعصرنا الحاضر من خلال ابتعاد مكاني وتاريخي، ومثل هذه «النظرة العالمية» لا تعكس الحقبة النابوليونية على مستوى التمثيل، بقدر ما تعكس الطوبوغرافيا العامّة خاصة في «تعليقات وأبحاث».

لهذا يرى غوته في الجزء الخاص بـ «الحكومة» أنّ كل أنواع الحكم

قد اشتقت من «حق إعلان الحرب»، التي تأتي من «الاستعداد لقيادة الحرب». وهذا هو الذي يشكّل قاعدة الحكم في الشرق، لكن غوته يلحظ في الوقت ذاته المبادئ الخاصة بالطبقة والشعوب والقانون الدولي في العلاقات الإنسانية ويربطها ببعضها بعضاً[1]. ويبدو فهم غوته مُجسّداً على نحو معاصر آنذاك من خلال الحوار الذي دار بينه وبين إيكرمان في الخامس والعشرين من شباط 1824، الذي يثني فيه على أسرة البوربون في إسبانيا لما قامت به من حملات مكتملة: «لقد استطاعوا أولاً أن يظفروا بعرشهم، من خلال قدرتهم على الفوز بالجيش (...) أما الجيش فقد طالب بالمجد القديم، وفي اليوم الذي صار بوسعه، أن يتقدم إلى الأمام وأن يبدي شجاعته، فإنه صار يريد تحقيق الانتصار من غير مساعدة نابليون».

إن عامل القوة هذا لا بُدّ أن يظهر حتماً بعد اكتمال الثورة، حيث تبدأ مسألة العلاقات القانونية بالظهور بكل وضوح، وبهذا المعنى، فقد كان على الإمبراطور الفرنسي أن يؤسس حكمه، في بادئ الأمر، على النجاحات الحربية، بدلاً من تأسيسها على المشروعية. فلم يكن من الممكن لنابليون، من غير جنوده، أن يصل إلى ذروة القوّة التي استطاع الوصول إليها». وهو ما كرّره غوته ثانية لايكرمان في الثاني من نيسان عام 1829 ثانية أي بعد مرور خمس سنوات.

لكنّ الأمر لا يتوقف في «الديوان» عند السياسة والحرب، بل يذهب بعيداً ليصل إلى: النبّوة والاستبداد والشعر. فقد كان اسم الرسول محمد يتكرر مراراً في سياق الحديث عن نابليون، ولم يكن ذلك من أجل إثارة حساسية القارئ المُعاصر يومها، وقد بدأ غوته حديثه عن الرسول محمد من خلال تمييز أولي، فالنبي ليس شاعراً، والقرآن الذي جاء به ليس كتاباً

(1) Ebda. S. 143.

بشرياً للتعلم والمتعة، لكنّه قانون إلهي، يسعى إلى خدمة هدف وحيد ومحدد من خلال أبسط الطرق: لقد كان النبي يريد أن يضع معياراً، كي تتجمع الشعوب حوله[1]. كما أن نابليون كان واضعاً كتاباً من هذا القبيل وإن لم يكن نبيّاً بطبيعة الحال. ثم يضيف غوته بعد ذلك، إنّ الاستبداد يصنع «شخصية عظيمة وذكية وهادئة وذات بصيرة، ونشاط متوقد، وصلابة وإرادة وتصميم، أي كل الخصائص التي يحتاج إليها المرء لخدمة الاستبداد، وهذه الصفات تتطور في نفوس قادرة، تصنع لتلك النفوس المراكز الأولى في الدولة، حيث يتمكنون من بناء أنفسهم كقادة وحكام. ومثل هؤلاء نموا في ظلال الإسكندر المقدوني الكبير، الذي ظهر جنرالاته، بعد وفاته في سن مبكرة، بوصفهم ملوكاً»[2].

إن من الصعب أن لا يفكر غوته بالماريشالات الذين كان يتوجب عليه أن يستضيفهم في منزله، وبالجنود الكثيرين مع هرتسوغاتهم وملوكهم الذين كانوا يقفون أمام المهزومين من الحكام أو الخلفاء. فعندما سمع غوته عام 1824 بخبر وفاة أويغينيس، ابن نابليون بالتبنّي الذي كان منصبه الأخير هرتسوغ بافاريا في لويشتن بيرغ الواقعة على القنال الخاص بنهري الدانوب والراين –وهي تكاد تكون مهمة فاوستية– قال غوته لايكرمان في التاسع عشر من شباط: «إنها مهمة ضخمة عندما يفكر المرء في المناطق المتضاربة، لكن من خدم مع نابليون واستطاع معه أن يرّج العالم، لا تبدو المهمة بالنسبة له غير ممكنة».

إن المناقشات المطوّلة للاستبداد تُسمّي بعض الشخصيات الشرقية والعامة، وتتحدث أولاً عن قطبية (حتى لا نقول جدلية) بين الحرية والعبودية. «فعندما تكون القوة بيد شخص، تكون الجماعة خاضعة،

(1) S. 147 f.

(2) S. 152.

وعندما تكون القوة بيد الجماعة، فإن حال الفرد عندئذ تسوء» ويقول: «إن المرء لا يتحدث عن الحرية أبداً مثلما يفعل عندما يريد حزب ما أن يستعبد الآخرين، وعندما لا يريد أن تظهر، على الإطلاق، كيف تنتقل القوة والتأثير والثروة من يد إلى أخرى». أجل! فالتوصل إلى معرفة كلمة السر الخاصة بالاستعداد، يعني أن تبدأ الحرية بالتّفتح لا سيما «عندما توجّه الجماعة نيرها الجماعي ضد الأعداء، وتعد بالخلاص من الضغط الخارجي على الدوام»[1].

وقد كان حديث غوته لوناً من الكلام غير المكشوف عن موضوع من موضوعات الساعة، يثير عواطف من يقرأه. لهذا كان الكلام يدور في البداية، أنه في النهاية لا بُدّ أن «حرية وشخصية الفرد توازي جبروت الفرد المتسلط».

لقد استطاع أحدهم أن يقف بكل وقاحة في مواجهة إمبراطور الفرس، في إحدى الولائم لكنّ تلك المواجهة كانت تنطوي على مخاطرة، يمكن أن يتم على إثرها سجنه أو ضربه بعنف، كما يمكن أن يتم العفو عنه فـ«الملك كالقدر، عنيد، لكنّ في وسع المرء أن يعانده. فلهذا تقع الطبيعة القاسية بنوع من الجنون، حيث يمكن أن يستعرض المرء الأمثلة الأكثر روعة في هذا المجال».

حياد مدهش: قدر لا يرحم هنا وجنون هناك. لكنّ ثمة أمراً ثالثاً وهو أن القارئ لن يُترك في الظلمة، حيث يقوم المؤلف بتقديم نفسه: «إنّ القوة العليا التي يتحدر كلّ شي منها، المنفعة والألم تخضع لطبيعة معتدلة وقوّية ومتسقة، كي تحيا وتتفاعل على طريقتها. أما الشاعر فهو يهدي موهبته لمن يقدّرها بالدرجة الأولى. ففي البلاط وهو يتعامل مع الكبار، يفتح لنفسه أفقاً عالمياً يحتاج إليه كي يثري كل الموضوعات

---

(1) انظر صفحة 181، والمقاطع التالية الخاصة بالتأثيرات.

التي تتاح له. وهنا لا توجد اعتذارات بل توافقات ينبغي التعامل معها بكياسة»[1].

إنّ شعر المديح هو جنس أدبي ضخم لا يوجد في الشرق فحسب، كما يعرف القراء خاصّة أولئك الذين لا تزال المقاطع التي قيلت في كارلسباد ترّن في آذانهم: «لعلّكم تلاحظون أنّ كلمة التعاظم تلّخص كتاب الضيق في (الديوان)»، حيث يضيف غوته:

لعلكم تلاحظون أن التعاظم
لا يمكن نفيه من العالم
(لهذا) يلذ لي تبادل الكلام
مع النجباء والحكام المستبدين» (ترجمة مكاوي- (بتصرف): 220-221)

في موضع متأخر تتحدث «شروح وهوامش»، عن الجوانب القاسية والمفرطة للطغيان، على نحو يذكر بصياغات الكتب الناقدة لنابليون التي كتبها شلابرن دورف وغينتس، التي كان غوته قد قرأها قبل معركة يينا. «نظراً لأن السلطة المطلقة ترفض كلّ التأثيرات، وتقوم بحماية شخصية الحاكم من خلال إجراءآت أمنية كبيرة، فإن من الطبيعي أن يشك المستبد بوجود الخيانة على الدوام وأن يخشى العنف من جميع الاتجاهات، لأنه لم يتمكن من الاستيلاء على منصبه إلا من خلال العنف».. «إنّ إرادة لا حدود لها تتصاعد وهي لا تخشى الخارج؛ لأن عليها أن تطمح إلى التخطي الكامل للحدود»[2].

كانت تلك القوة خلاصات باردة، موضوعية ولعوبة في بعض الأحيان، غير أنّ وجهات نظرها المتشدّدة وأساليبها القائمة على

---

(1) S.183 f.

(2) S. 244 und 246.

التعميم قوّضت، بقصد، ما تنطوي عليه من حرارة عاطفية للتجربة التي مرّت عن قريب. فلم يعد هنا مكان للغطرسة الأخلاقية ومعاداة الشعوب. أما اسم الإمبراطور المهزوم فلم يسقط، ولم يكن ثمة أحد مضطراً، إذا لم يرد أن يذهب بعيداً، أن يأخذ على محمل الجد الخطوط العريضة للملاحظات المتعلقة بما تضمنّه الديوان من مناقشات للتاريخ العالمي. وقد كان من اللافت أن غوته لم يذكر نابليون، على الإطلاق في السنوات الأولى من نفيه، لكن الأمر تغير بعد وفاة الإمبراطور في الخامس من أيار عام 1821.

احتل خبر وفاة نابليون في بداية شهر حزيران في سانت هيلين صفحات الجرائد الأوروبية. وقد كتب الشاعر الإيطالي إليساندرو مانزوني الذي كان في السادسة والثلاثين من عمره فور وفاة نابليون قصيدة غنائية تتكوّن من 18 مقطعاً، يحتوي كل مقطع منها على ستة سطور. تعد القصيدة من جواهر التاج في الشعر الغنائي الايطالي، وتنتمي، جرّاء صياغتها العبقرية المختصرة وإيقاعاتها اللفظية الباذخة إلى نفائس الذاكرة اللغوية الإيطالية حتى اليوم.

تقدم قصيدة مانزوني بموسيقية حركية النصر التي تحبس الأنفاس من خلال أقسام أوروبا، لدرجة لا يحتاج المرء فيها إلى معرفة «الإيطالية» كي يستوعب كلمات القصيدة التي تتنامى عبر الموسيقى:

من جبال الألب إلى الأهرامات

ومن نهر مانزانار إلى نهر الراين

ومن البروق الواضحة لعاصفة البرد

ومن السحب الرعدية المضيئة

لقد وصل من سيسللا إلى تانايس

من بحر إلى بحر آخر.

وصلت القصيدة الغنائية بكامل مقطوعاتها التي تبلغ مائة وثماني مقطوعات من خلال الهرتسوغ كارل أوغست إلى غوته في كانون الثاني عام 1822. وكانت قد ربطت فايمار بمايلاند، حيث كان مانزوني يقيم، صلات حميمة، بدأت منذ عدة سنوات، في مجال الفنون. وكان غوته قد شرع في الاهتمام بكبار كتاب القرن التاسع عشر من الطليان، مع أنه لم يكن قد عرف لمانزوني حتى ذلك الوقت سوى مجموعة من القصائد الذهنية، إضافة إلى تراجيديا هي «الكونت كارمانولا» وهي مسرحية ثانوية لمانزوني غير معروفة في هذه الأيام، لكنّ ما مانزوني نال من خلال ترحيب غوته الحماسي بروايته «المخطوبون» شهرة عالمية. لهذا يُعدّ أليساندرو مانزوني اكتشافاً من اكتشافات غوته.

كان غوته على ما يبدو معجباً بالقصيدة الغنائية التي تحمل عنوان «الخامس من أيار»، وهو يوم وفاة نابليون، لدرجة أنه بدأ على الفور بترجمتها. ويبدو أنّ في هذا الهجوم الإبداعي المزدوج –ما قام به مانزوني بعد سماعه خبر وفاة نابليون، وما قام به غوته بعد لقائه بالقصيدة شيئاً من طاقة نابليون. ويبدو أن الموضوع وحده لم يسهم في إثارة غوته، بقدر ما أثاره ما في الأمر من تحد لعبقريته الشعرية. وقد نقل غوته الحملات الفاعلة لنابليون في أقطار عديدة كإسبانيا وروسيا والألب ومصر، إلى لغته الأم.

إنّ علم الأدب يتحدث بحق عن محاولة جريئة ومتفرّدة لـ«نقل قصيدة مانزوني الغنائية» بكل ما تنطوي عليه من تعبيرات اصطلاحية إلى «الألمانية»[1].

كان غوته لا يكادُ يقدّم، في بعض الأحيان، أكثر من ترجمة حرفية، لكن تلك الترجمة تنطوي على اتساق إبداعي لغوي. وقد تشكّل

(1) Karl Maurer, zitiert bei Blank, Goethe und Manzoni, S. 241.

مطلع قصيدة مانزوني على نحو يعيد إلى الذاكرة (سيمفونية بيتهوفن) «بطولة» وما فيها من توافق في النغم:

لقد كان مثل شخص عاجز عن الحراك
يتنفس الصعداء بعد الرمق الأخير
كانت الجحيم تبدو غير مذكورة
ومعزولة عن تلك الروح
لكنها أصيبت عميقاً ودهشت بقوة
فقد صارت الأرض محور الرسالة.

«لقد كان» تدع هذه القصيدة الغنائية الزمن الذي يتوقف بعد قدوم خبر الوفاة وتشرع في تأمل حياة الجبابرة المختلفين من منظور عام: «يتأملون في اللحظات الأخيرة/ ساعة الرجل الرهيب».

إن ترجمة غوته لـ Uorm Fatale بـ «رجل القدر» التي تجعل الترجمة قريبة من الإرهاب الثوري، كانت مسألة عرضية، لكنها تحمل في الواقع إشارة ذات دلالة عالية الأهمية، حيث يتم تتبع ضخامة المتوفى ببرود وصولاً إلى مناطق أخلاقية غير مقبولة «لا نفاق/ فالاعتداءات الوحشية مدانة». وإذا أرادت ربات الإلهام تحقيق التوازن في هذه الحياة الضخمة، فالله هو الذي خلق العالم على هذا النحو من الضخامة.

«إننا ننحني/ نخفض الجباه للأقوى/ للخالق الذي يطيب له/ أن يترك آثاراً لا حدود لها من الطاقة الروحية الضخمة/ وهكذا تبدو الضخامة البشرية التي خلقها الله، ويجيء إيقاعها كما يلي:

إنّ العاصفة ترتجف
سعيدة بالخطط الكبرى
خوف القلب الجامح
شهوة خدمة المملكة

وبلوغ الجائزة العليا

حيث كان من الجنون أن تأمل بهذا

كان هذا بالنسبة له يعني كل شيء: شرف المجد

الذي نما وازداد بعد الأخطار

فقد اضطر للهرب ثم جاء النصر من جديد

قصر الإمبراطور، المنفى

وقد أجبر على السقوط مرّتين فوق التراب

ومرتين فوق المذبح.

إنّ العظمة هنا تعني النوعية التي تكمن وراء النجاح والنصر؛ لأنّ هزائم نابليون وسقوطه الذي تكررّ مرتّين هي المعيار الاستثنائي الذي تسعى الأشعار لرسمه. التي تتمثل في «السعادة المرتجفة، في الخطط الكبرى. وهو أمر تسعى الخطط لتحقيقه، لكنه لا يتحقّق، بالتأكيد، من خلال الشهوة للمملكة والحكم.

كان نابليون يتغلب على خصومه دون جهد يذكر تقريباً: «صمت الطغاة والحكّام/ وهو موجود في المنتصف» -وهذا ما رآه غوته بنفسه في إيرفورت وفايمار. وقد كان نابليون عظيماً في عدم نشاطه الذي أجبر عليه وفي وحدته في منفاه في الجزيرة التي كان فيها:

آه، ما أكثر ما كان يسود الصمت

وموت النهار والفراغ

وقد غضّ عينيه اللتين تومضان

الأسلحة طَويت

وقد وقف من أيام خلت

تهاجمه الذكريات.

لقد فعل غوته كلّ ما في وسعه كي لا يضعف النغمة العالية للنموذج، لهذا فإنّ الترجمة تتنامى من خلال التباعد اللغوي ومن خلال التأخيرات نادرة الحدوث في الإيطالية، مقارنة بـ«الألمانية» ومن خلال التنازل عن الوزن. وليست ثمة برنامج سياسي يجري تصميمه هنا، بل شخصية كوميدية يجري رسمها. فقد أحب غوته قصيدة مانزوني، كما أحب ترجمته لها إلى حد ما، لهذا ظلّ يلقي القصيدة على نحو درامي، وهو ما قام صديقه يوسف سبيستيان غرونر عالم المعادن الذي ينتمي إلى مدينة كارلسباد بوصفه في الثامن من أيار عام 1822:

«كان (غوته) يبدو وكأنّه في حالة تجلّ واستغراق كلّي وكانت عيناه تقدحان بالشرر». وعندما ينتهي من القراءة كان يسأل مستمعيه: «أليس مانزوني شاعراً عظيماً؟». وقد صرّح غوته لايكرمان في الخامس عشر من تموز 1827 قائلاً: «إن القصيدة ممتازة ولكن: هل تظن أنّ أحداً في ألمانيا يمكن أن يتحدث عنها؟ إنّها جيدة إلى درجة تبدو فيها وكأنها غير موجود، وهي في الوقت ذاته القصيدة الفضلى التي قيلت بهذا الشأن».

ويمكن للمرء أن يفهم هذه القصيدة حسنة الصياغة وكأنها من أقوال غوته، على وجه التقريب، فقد استطاع على المستوى اللفظي أن يجعلها له على نحو يشبه القالب اللاتيني لقصيدة غوته عن تيمورلنك. إن هذا الحكم الذي صرّح به غوته عن هذه القصيدة، فضلاً عن انطباع فيكتور هوغو الرائع عنها في «الجزيرتين» غير قابل للنسبية، لكنّ أحداً لم يبلغ مبلغ ستاندال، الذي منح عام 1830 الخلود لصاحب هذه القصيدة وبيّن أن أحداً لم يكتب بمستواها الجمالي في هذا النوع الأدبي: «الجولة جدية

ويمكن لنا أن نقول إن قصيدة مانزوني سماوية»[1].

في كانون الثاني عام 1823 ظهرت الترجمة في الجزء الأول من القسم الرابع لمجلة غوته القديمة الخاصة بالفن والعلم والله وعنوانها عن «الفنون والعصور القديمة». وقد كانت الطبعة الأوروبية الأولى لقصيدة مانزوني في غاية الأهمية؛ لأن الطبقة الإيطالية الحاكمة في النمسا كانت تتحدث علناً حول نابليون، بصرف النظر عن الطريقة التي كان يتم بها التعبير عن أقوالهم فيها. ولعلّ تلك الأقوال تكشف وعياً في التفكير السياسي اضطر غوته إلى أن يضع إلى جوار عنوان المجلة صورة لـ «حذاء طويل الساق» وهي شارة هزيمة نابليون. وفي كل الأحوال، فإن الفن الفايماري كان يتسم بموقف ودود يثبت عدم تحيّزه.

لقد بقي الإمبراطور بعد وفاته قريباً من غوته على المستوى الشخصي، وهو ما تكشف عنه تصريحات غوته الكثيرة، فضلاً عما ذكره غوته في يومياته في الخامس عشر من آب في ذكرى ميلاد نابليون عامي 1822 و1828. وقد ظل غوته يرفض الرسوم الكاريكاتورية وكل ما من شأنه أن يسيء إلى نابليون، ولم يكن يرغب في الاطلاع على أشياء كهذه.

وقد ترك غوته بخصوص ادعاءات الموتى قصيدة مملوءة بالتجديف، لدرجة أنّ المرء يستطيع بعد مرور ربع قرن على وفاة غوته رفع شكوى بخصوص ما تضمنته القصيدة من تعبيرات عارية وما تنطوي عليه من تجديف بالذات الإلهية:

«في يوم القيامة وأمام عرش الله
يقف البطل نابليون في نهاية المطاف
كان الشيطان يحمل ملفاً ضخماً
ضدّ نابليون وأشقائه

(1) Blank, Goethe und Manzoni, S. 228.

الذي كان مخلوقاً شريراً على نحو استثنائي

وهنا شرع الشيطان بالقراءة

من فوق العرش تفوّه

الإله الأب أو الإله الابن

إن لم يكن الروح القدس

مستخدماً الكلمة الأكثر أهمية:

«لا تكرّر ما يقال أمام آذان الآلهة

فأنت تتحدث كما يتحدث الأساتذة الألمان

نحن نعرف كل شيء، اختصر!

ففي يوم القيامة ليست ثمة إلا ...

فإذا تجرّأت على الهجوم عليه

فإنك ستجّره إلى الجحيم»[1].

إذا كان مانزوني المتديّن هو الذي أدخل فكرة خالق العالم في الذكرى الخاصة بنابليون، فإنّ هذا يعني أن اقتباس غوته العرضي للإله الأب والإله الابن لا يكاد يشّكل تصعيداً. وقد قام الفيلولوجي ريمر في الثامن عشر من آذار عام 1826 بإجراء مقارنة أسطورية عامة، وهي مقارنة لا تخلو من الإشارة إلى النشيد المبكر لغوته:

«لقد تحدثنا عن نابليون، الذي بدأ لي وهو على صخور هيلين شبيهاً ببروميثيوس، كما أنه قد عومل من المملكة الحاضرة كما عومل بروميثيوس من قبل زيوس».لقد قام نابليون بإيضاح طبيعة العلاقات السياسية لبني البشر، وبيّن للشعب ماذا يستطيع أن يفعل، لهذا فإنه عليه اليوم أن يكفّر عن ذنبه.

لقد بقي الإمبراطور حاضراً في يوميات غوته. فعندما لا يقوم حوذي

---

(1) MA 181, S. 77 f. mit Kommentar S. 509.. ولعل تاريخها يعود إلى 1828.

بالابتعاد عن الحفرة الموجودة في الشارع، بل يمشي فوقها بذكاء فإن غوته يقوم بالثناء عليه. لقد حوّله نابليون إلى حوذي خاص به. وعندما كان غوته يمرض، كان يطلب من الطبيب الذهاب إلى «طاولة نابليون» أيْ أن يقرّر ما ينبغي فعله بحزم. وإذا صادف أن وجد نفسه في حالة رديئة، فإنه يقول لنفسه إن وضعه «ليس رديئاً كما هو وضع نابليون في جزيرته»[1]. وإذا كان نابليون يرد على الطلبات المالية للموردين صفيقي الوجه الذين يحضرون الأشياء الخاصة بزوجته، بنظرات تهديدية صامتة، فإن غوته كان يناقش السيدات براحة تامة في فراوين بلاتس، حيث كان يقيم.

إن أجواء الأخّوة الغريبة ظلت تلمع مجدداً. كلّما فكر غوته بالإمبراطور العظيم أو أجرى مقارنة بين الإمبراطور وبينه. وقد استطاعت أغنية عاطفية رقيقة أن توصل غوته إلى نتيجة مؤداها أنّ الديكتاتور كان يعشق الموسيقى العاطفية الناعمة على ما يظهر فـ«المرء يشتاق على الدوام، إلى ما يخالف جوهره»[2]. أما اضطرار الإمبراطور المهزوم في سانت هيلين إلى التخلّي عن زيّه الرسمي، فقد أثار حنق غوته، فقد كان على نابليون أن يتخلى عن ردائه الأيقوني نظراً لعدم وجود القماشة الخضراء التي كان يرتديها وهو ما قاد غوته إلى غضب حقيقي، لهذا سأل إيكرمان في العاشر من شباط عام 1830: «ما قولك في هذا الصدد؟ ألا ترى أن هذه حملة مأساوية تماماً؟ أليس محزناً، أن ترى سيد الملوك وقد انتقصت قيمته على هذا النحو، لدرجة أنه يتوجب عليه أن يرتدي زيّاً عادياً؟ لكن عندما يفكرّ الإنسان بالمصير الذي انتهى إليه هذا الرجل الذي داس على حياة الملايين من البشر وسعادتهم بقدميه،

(1) Gespräche 26. August 1822 (mit Grüner). Februar 1823 (während Goethes Krankheit). 7. Dezember 1823 (mit Soret).

(2) Gespräch mit Müller. 24. juni 1826.

فإنّ القدر الذي لقيه يبدو رحيماً تماماً».

ولم يسبق لغوته أن تحدث من قبل عن نتائج سياسة نابليون بمثل هذه المنطقية والجدية، فإن صورة الرجل المرعب قد تلونت كثيراً من خلال القراءات التاريخية. وقد توصل إيكرمان إلى خلاصة ترى، أن نابليون يشكّل مثلاً، على خطورة التعالي في المطلق والتضحية بكل شيء من أجل تنفيذ فكرة ما. لكنّ هذه الخلاصة لم تكن جديرة بالثقة على نحو مطلق. ففي كتابه «ثوابت وتأملات» صرّح غوته على نحو جريء قائلاً:

«إن نابليون الذي يعيش في عالم الفكرة، لا يستطيع أن يستوعبها في الوعي. فقد كان ينكر كلّ المثاليات ويتنكّر لكل شكل من أشكال الواقع، وهو يسعى إلى تفعيل هذا الواقع بجدّية»[1].

وهذا يشبه ما يراه هيغل، ففي السادس والعشرين من شباط 1826 أصدر غوته كتاباً سماه «خلاصة وافية للعالم». ففي هذا العام تحول غوته ذاته إلى «تاريخي» في ضوء طبيعة المصطلح[2]. ففي بداية عام 1822 أنهى «ثانية في الحملة» و«حصار ماينز» والكتابات السيرية لحروب الثورة 1792 و1793 التي بدأت معها حقبة العشرين عاماً التي فهمها غوته بوصفها وحدة متكاملة. ويقع في السياق ذاته مخطوطته الخاصة بمقاطع عن «الحوار مع نابليون» التي سبق أن تحدثنا عنها. وبعد ذلك بوقت قصير بدأت حوارات غوته مع إيكرمان. بوصف غوته أحد الرجالات المهّمين في مجتمع نابليون: «تحتاج كي تتمكن من صناعة حقبة بعينها في العالم إلى أمرين معروفين:

الأول أن يمتلك المرء رأساً قادراً على التفكير السليم، والثاني أن يكون

---

(1) Maximen mid Reftexionen, Nr. 134 (HA 12, S. 382).

(2) Briefe vom 7. 10. 1829 (an Hecker) und 1. 12. 1831 (an Humboldt).

للمرء إرث حسن. وقد ورث نابليون الثورة الفرنسية، وكارل الكبير وحروبه في سيليزيا ولوثر الذي يمثل الكسوف الكلّي للكهنوت، وأنا الذي صرت أمثّل الخطأ في تعاليم نيوتن إلى حد ما»[1].

إننا نجد هنا للمرة الثانية تأمّلات حول اللقاء بين الفردي والجمعي الذي يمكن أن يذكّر بتاريخ الفلسفة؛ لأن بعض آراء غوته ليست بعيدة عن هذا الأمر.

إنّ تحوّل الذات إلى تاريخية، أدى إلى أن يغدو كتاب «شعر وحقيقة» كتاباً تاريخياً وترك لغوته، بالمقابل، أن يقوم بتحويل تاريخ عصره إلى مجال للتجربة الشخصية. فقد كان منزله في فراوين بلاتس مملوءاً بقطع الذكريات حتى في ما يخص الإمبراطور العظيم. وقد لاحظ كارل غوستاف كاروس عام 1821 وجود قطعة ذهبية لنابليون في الخزانة الخاص بالعملات التي يمتلكها غوته. ويبين الكاتالوغ لميداليات غوته وجود خمسين قطعة لنابليون وعائلته ومحيطه[2]. وتوجد في غرفة العمل الخاصة بغوته ميداليات نحاسية معلّقة على الجدران، تعود إلى عام 1815. أما في غرفة الحديقة، فوجدت قطع من النصب التذكاري البرليني الخاص ببلوشر الذي نحته راوخ مع مشاهد من حروب التحرير. أما عن وجود صورة لنابليون رسمها ناغل في منزل غوته، سقطت في اليوم التالي لمعركة لايتسج عام 1813، فهو ما حكاه غوته لصديقه البوهيمي الأصل صيف عام 1821. وقد بحث غوته عن صور الإمبراطور وتوقيعاته، وكذا توقيعات بعض الماريشالات في الجيش الفرنسي بإلحاح ليجمعها في الأوتوغراف الخاص به، لدرجة أن وصول مثل هذه الأشياء له عن طريق السيدة الجنرال راب في الثامن والعشرين

(1) Zu Eckermann am 1. Mai 1824.

(2) Jochen Klaulß. Die Medaillensammlung Goethes. Band 1. Bestandskatalog. Berlin 2000. Nr. 1690-1740.

من كانون الثاني 1828 كان يستدعي إخبار راينهارد على الفور بأنه قد حصل أخيراً على «توقيع واضح وصاف لنابليون»! وفي السابع من آذار 1830 احتفل في منزل غوته، كما يروي إيكرمان، احتفالاً خاصاً لقيام ديفيد بإرسال قبعة نابليون في أوضاع شتى. وعقّب غوته على ذلك «إنها لولدي» وأرسلها إلى الطابق العلوي. ولم يقلل من فرحتة قدوم ابنه الصغير إلى الطابع السفلي على الفور وهو مملوء بالفرح «لأن هذه القبّعة الخاصة لبطله ستظل جزءاً من مجموعته».

لم يعد أحد يرتعب من هذا الرجل الخطير بعد نهايته المحزنة أو المخزية، وهو الذي كان من قبل يبث الخوف والرعب لمدة طويلة في أرجاء المعمورة كما جاء في إحدى الكتابات المحذوفة[1]. وبهذا صارت مجموعات الصور وسيلة لتجديد الذكرى بالعصر. وقد كتب غوته مرتين عن ذلك خاصة عن «المجموعات التي طبعت طبعة حجرية» في «عن الفنون والعصور القديمة». كانت المرة الأولى بمجاورة على نحو مباشر لما دونّه غوته عن «حوارات مع نابليون»، حيث تحدّث غوته عن سلسلة من القطع الحجرية، بعد أن تمت تنحية الضوء والظلال عن القصر الملكي في ميلانو، الذي كان فنان البلاط النابوليوني أندريا بياني، الإيطالي الأصل قد رسم انتصارات نابليون في أعالي إيطاليا. وقد وصف المُراجع الكبير ذلك بقوله: «تم الرسم عن طريق فن مكتمل ومن خلال الروح الكلّية والتي استمدت قوتها وطاقتها من روح بطلها»[2]. كما أنّ توصيفات الطبعة الحجرية لرسومات فنان آخر من فنّاني البلاط النابليوني، ويُدعى فرانسوا غيرار، كانت مثيرة هي الأخرى، وقد سبق لها أن نشرت في باريس عام 1826 تحت عنوان «مجموعة اللوحات

(1) MA 13.2, S.698.

(2) Ebda. S. 180-183 (erschienen erst 1832).

التاريخية»[1].

كان غوته يُقدّر فن غيرار عالياً، لكنّ ما كان يهمه هو تصوير الشخصيات المعاصرة التي عرف معظمها وعايشها والتي تسهم صورها في إعادة تقريبه من الأحداث. إن المرء يرى فعلياً كيف ينحنى رجل عجوز أمام ذكرياته الخاصة وهو يتفحص الأوراق، ورقة تلو الأخرى ويترجمها إلى كلمات، حيث يجري وصف الصور المرسومة لتظهر كلها مجدداً: «الذوات الملكية»، الإكسندر الأول، لويس بونابرت «بوجوههم التاريخية والمعبّرة والطيّبة» وبالماريشال لانسّ الذي يفكر في غوته بوصفه صديقاً، والذي استضافه في منزله عام 1806 و«الاعتدال الكبير يسم شخصيات الأبطال» ويقع في أول القائمة لوحة «كارل مورتيس فون تاليران، أمير فون بنيفيت الخ، التي رسمت عام 1808» أي في السنة التي عرفه غوته فيها.

لقد عثر غوته على الكلمة الحاسمة للشخصية الرئيسة في عصره، فقد بدا الرجل له «منعدم العاطفة تماماً». فنحن لا نكاد نتخلص من ذكرى الآلهة الأبيقورية التي تقيم هنا «حيث لا مطر، ليس ثمة ثلج ولا عاصفة، حيث يجلس الرجل هنا وحيداً بلا منازع، لا تهزّه الريح التي تهب عليه من كل الجهات. وقد كان من المفهوم أن يبدو على هذه الشاكلة، لكن من غير المفهوم أن يظلّ صامداً. إنّ نظرته هي الأكثر غموضاً، فهو ينظر أمامه لكنّ من المشكوك فيه أن يرى ما أمامه. إنّ نظرته لا تصل إلى الداخل كالتفكير ولا تتقدّم إلى الأمام كالمتأمّل، فالعين تتمحور حول ذاتها، كالشكل كلّه، الذي لا يمكن للمرء أن يصفه بالاكتفاء الذاتي، بل بوجود نقص يُعبّر عن نفسه نحو الخارج على وجه من الوجوه. وهذا يكفي» ثم يختتم غوته كلامه بقوله:

(1) Bbda. 5.115-227.

«وهكذا فنحن نحتاج إلى علم الفراسة لنفسر الأمر كيف يشاء، لنجد أن وجهات نظرنا مختصرة تماماً، وخبرتنا فقيرة تماماً و خيالنا محدود، وكأننا نستطيع أن نجد المصطلح الوافي الخاص بهذا الكائن الحي».

هنا يجلس باسترخاء رجل واحد بل «الكائن الحي» الذي نما ليصبح إمبراطوره.

إنّ ما سُمّي أنّه قد تحوّل شخصياً إلى كائن تاريخي، يظهر في الخامس والعشرين من شباط عام 1824 في حوار بين غوته وإيكرمان، حيث قال غوته: «لقد كانت لدّي ميزة كبرى تتمثّل في كوني ولدت في زمن وقعت فيه المعطيات العالمية الكبرى بخصوص الأجندات، ثم استمرت هذه المعطيات عبر حياتي الطويلة، فقد عايشتُ، بوصفي شاهداً حياً، حرب السنوات السبع، وانفصال أمريكا عن إنجلترا ثم أحداث الثورة الفرنسية في ما بعد، وصولاً إلى الحقبة النابليونية، ثم أفول نجم البطل وما تبع ذلك من أحداث، وقد وصلت من خلال هذا كلّه إلى نتائج أخرى ووجهات نظر جديدة بخصوص حدوثها، تفوق قدرة أولئك الذين ولدوا اليوم والذين يتوجب عليهم أن يقتربوا من هذه الأحداث من خلال الكتب، ومع ذلك فلن يفهموها». وهذه هي الحجة الخالدة لشهود العصر: فكل من لم يشهد الوقائع، لن يكون قادراً على فهم الماضي! إنّ غوته ينظر إلى التاريخ المعاصر بوصفه جزءاً من حياته الشخصية. وهو عندما يقرأ الأدب –وقد ظل يفعل ذلك في السنوات العشرين الأخيرة على نحو ثابت– فمن أجل أن يتتبع آثار ذكرياته الذاتية.

إنّ الدافع الأهم لما كتبه غوته من سيرة ذاتية تاريخية معاصرة في السنوات الأخيرة يكمن في عمل الروائي الإنجليزي الكبير والتر سكوت (1771–1832) «حياة نابليون بونابرت». وسكوت واحد من

أكثر الروائيين نجاحاً في تلك الحقبة، ويعود إليه الفضل بحق في تأسيس الرواية التاريخية في القرن التاسع عشر .وقد قدر غوته قدرة الروائي على رسم مشاهد الماضي بتفصيل ودقة لا تزال تجد قرّاء إلى اليوم، لكنّ غوته كان أكثر فضولاً تجاه آلاف الصفحات التي تصف الحقبة النابليونية، والتي تعد مقدمة مفصّلة لتاريخ الثورة الفرنسية.

وقد قام سكوت، وهو من المعجبين بغوته، بإرسال الرواية في صيف عام 1827، إلى غوته عندما أوضح أنه بانتظارها. وقد قام سكوت بحث الناشر، عبر رسالة خاصة ليبعثها، وأخبره بأن غوته ينتظرها على أحرّ من الجمر، وهو ما لم يتعود غوته على أن يفعله مع الأدب المعاصر.

في التاسع عشر من تشرين الثاني كانت الطبعة الإنجليزية الأصلية للرواية على طاولة غوته، وبعد يومين وضع غوته برنامجاً يتضمن مراجعة تفصيلية للآراء التي ستتحدث عنها الرواية[1]. إن لدينا الآن حالة فريدة، تتمثل في منهج غوته في القراءة وتوقعاته، في المقام الأول، التي أوضحها هو نفسه.

كان غوته يأمل أن لا يركّز المخطّط على القدرة الكبيرة للكاتب و«إمكاناته الحالية» و«الاعتراف بالمضمون بل على الإنجازات الشعرية التي تسمح للكاتب عبر توظيف حوافز خالية أن يقوم بالتقريب بين الوقائع التاريخية وأن يوحدّها على نحو مفهوم؛ لأنها تقع في التاريخ على نحو متباعد، ولا تكاد تمثل الروح إلا في القليل وإن كانت تمتلك المشاركة».

الحقيقة عبر الخيال! وهي وجهة نظر أعيد الاعتبار لها مجدداً، لكنها كانت منزوعة الشرعية عند المحترفين من علماء التاريخ يومها. فالرواية والتاريخ ينبغي أن ينفصلا، لكنّ شعرية غوته تنادي بدلاً من جبرية المنهج بالكشف عن موقع السارد.

---

(1) MA 128.. S. 92-94: "Walter Scot [!] Leben Napoleons".

«ولد والتر سكوت عام 1771، بمعنى أن طفولته تفتحت في الاندلاع القوي لحروب أمريكا الشمالية. وكان في السابعة عشرة أو في الثامنة عشرة عند اشتعال الثورة الفرنسية. فما الذي لم يعشه من تجارب في وقت مثل ذلك الوقت؟ والآن وهو يعيش سن الخمسين، ويقترب من التاريخ العالمي بالقدر الكافي، يظهر لنا بصفات محددة، كي يتحدث معنا علناً عن الماضي المهم».

وقد فكّر غوته في استكمال هذا الحديث علناً، بمعنى أنّه يسجل موقفه الذاتي:

«إنّ أية توقّعات كان ينبغي أن تثور لدي، يمكن أن ينحيها جانباً، من يتخيل أنني كنت أكبره بعشرين عاماً، فقد كنت في سن العشرين تماماً عندما قابلت باولي[1]، وكنت في الستين وأنا أقف أمام نابليون»، إن هذا يعني أن غوته يلزم سكوت، مثلما ألزم نفسه بطريقة السير الذاتية لرؤية التاريخ، وهي التي كان قد سبق له أن طورّها في حواراته مع إيكرمان: «إنّ إدراك التاريخ العالمي بالنسبة لي، يتم من خلال المشاركة الحياتية الفعلية، فأنا لم أفوت فرصة عبر هذه السنوات الطوال، قريبة كانت أم بعيدة، لكي أبقى على تماس مع الأحداث العالمية وأن أفكر في مجرياتها وأن أقوم بتنظيمها في ضوء رؤية فردية وأن أصنع لها سياقها الخاص». وقيام سكوت بسلوك هذه الطريقة التي لا يتنكّر فيها لوجهة النظر البريطانية، هو أمر يشترطه غوته مسبقاً، كما يتضح في أماليه لإيكرمان. فبعد أن تحدث الفرنسيون والألمان عن الثورة بتنوع واختلاف ينبغي أن يكون «من الممتع تماماً أن نستمع إلى رجل-إنجليزي ذي شهرة يتحدث عنها». وبهذا يختتم غوته حديثه ليقول لنا بوضوح «من المتحدث ولِمَ

(1) Goethe hate den korsischeu Befreiungskämpfer 1769 in Frankfurt erlebt.

يتحدث؟»).

بقي غوته ما بين تشرين الثاني 1827 وكانون الثاني 1828، يقرأ ما قدّمه سكوت من عرض وتتضمن يوميات غوته عرضاً تفصيلياً لتطور قراءته لهذه الرواية. وقد أسهم تسلتر، وهو أحد أصدقاء غوته، في تطوير رؤى غوته، الذي أرسل عبر كارلايل تحيات طيبات إلى سكوت. لهذا لم تعد الأمسيات الشتوية الخاصة بغوته مليئة بمناسبات اجتماعية مملّة أو باحتفالات البلاط، بل صارت تحفل بتمثل غوته لحياته في الحقبة التاريخية التي عاشها. وقد انطوت الخلاصة الأخيرة التي بعث بها غوته إلى تسلتر في العشرين من شباط 1828 على أهمية خالصة: «إنه لتكفيني المسافة الزمنية الطويلة المهمة والثقيلة الوطأة التي عشتها منذ عام 1789 حيث بدأ الثائر الإيطالي ألب بالضغط عليَّ فور وصولي من إيطاليا. وقد أخذت اليوم تتبدى لي هذه المرحلة بوضوح تام وبترابط سياقي. وأنا أرغب في استعادة تلك المرحلة وتفصيلاتها كي أعيش معاناتها؛ لأنني أراها اليوم عبر تسلسل مختلف».

كلمات كبيرة، لكنّ الذي أسهم في إبعاد قراءات غوته لسكوت وتنحيتها جانباً هي مجموعة من الكتب التي صاحبته في السنوات الأخيرة وهي لكل من: بوريني ونورفين وكونستانت التي أخبر عنها في تعليقاته أثناء حواراته مع إيكرمان.

لكنّ اللافت أنّ غوته لم يتمكن من الوصول إلى رأي قاطع، وهو يشتغل على كتابة انطباعاته فقد صرّح في رسالة بعث بها إلى راينهارد صديقه السياسي العجوز وخادم نابليون في الثامن والعشرين من كانون الثاني 1828 بقوله: «إنّ سكوت يعزف السيمفونية الأكثر روعة لحياة الأبطال بقدر من الإحباط وخيبة الأمل. لذا فإن المرء إذا لم يكن مطّلعاً، فإنه لا يدري كيف يتم النظر بشأن القضايا الكبرى الخاصة بالقناة،

أو كيف ينبغي أن ينظر إليها». وعلى كل حال: يضيف غوته: «لقد تعاملت مع ذلك العمل بوصفه شبكة محكمة، حيث قمت بإبعاد السمك الخاص بي عن مياه الأمواج، لأجد تلك السمكات ثانية على الشاطئ. ولأجد متعة أكثر للاتصال بها مجدداً ولأظفر بمعطيات عالمية متطورة».

إذن لقد أزعجت غوته أحادية النظرة التي كان يتوقعها منذ البداية! فتصوير حياة نابليون من خلال الشعور بالإحباط وخيبة الأمل، تؤثر سلباً على الأشياء، ولا يبقى منها إلا الموقف المنحاز. لذا سيبدو للأجيال اللاحقة، في هذه الفرصة المتفردة أن مناقشة غوته للإمبراطور وتاريخه مخادعة. ولعل من يبذل مجهوداً ليتأمل عمل ذلك الروائي الاسكتلندي، سيفهم أنه لم يصل إلى مستوى المراجعة التي تم الإعلان عنها.

يقدِّم سكوت رؤية لنابليون، عن قرب، تتميَّز بالتفصيل وبقليل من الرومانسية وشيء من الجِّدية. وهي تفضي، على نحو منظمّ، إلى تفتيت عبقرية نابليون. فالسرعة والحظ في حروب نابليون يعدان من ميزاته أما العسف في الحكم، العاجز عن الاستمرارية، فيعود إلى غياب العدالة. وقد برزت وجهة النظر البريطانية في التساؤل البارد: بأيِّ وسيلة تحافظ الإمبراطوريات على ذاتها وعلى استمراريتها؟ وكان جواب سكوت إنها لا تفعل ذلك عن طريق العنف والظلم الظاهر للعيان.

لقد ظهرت حركة التحرر في إسبانيا وفي ألمانيا، أولاً، بوصفهما ردة فعل مكتملة لشعبين وديعين. وبحسب القسم الثامن عشر من الفصل الثالث من رواية سكوت، فإنّ اختفاء الدول الصغيرة المتعددة التي وضعت القوة الفرنسية الغاشمة حداً لها واغتصبت سلطتها، ونظام الاضطهاد العام الذي عانى البلد منه كثيراً أو قليلاً، هدم الحاجز القائم للأصول المتنوعة لهذه الشعوب»، وقد ظهر كبار الكتاب الألمان

أمثال شيللر وغوته، أضحوكة أمام الشباب الألماني الأكاديمي ذي المنزع الوطني. ويبدو أنه لو قام غوته بمناقشة تفصيلية لرواية سكوت، لما كاد يستطيع أن يتوصل إلى ذلك المشهد الليلي العجيب الذي وصفه سكوت على نحو وصل فيه إلى ذرى المقدرة السردية، وهو يتعلق بإطلاق النار على هرتسوغ إنغهني وكيف تم تعليق قنديل في عنق هذا الأمير البوربوني المسكين وهو يقف أمام قبره المفتوح، حتى يتمكنوا من وضع عصبة الإعدام عليه. وقد أمضى غوته حياته كلها على هذه الشاكلة وكأنه هرتسوغ إنغهين الذي قام نابليون باختطافه من إقليم بادن وأطلق عليه النار على عجل بوصفه مفجراً للثورة المضادة. لهذا ترى غوته يتحدث مع إيكرمان مطولاً في الخامس من تموز عام 1827 عن «هرتسوغ إنغهين ومساهماته الثورية المتهورة». أما عند سكوت فلا تقرأ، حيث لا مجال للحديث عن الأمر، إلّا أن نابليون ببساطة، قد أخطأ عند اختياره الضحية لتكون عبرة بعد إيقاع العقوبة عليها. إنّ سكوت هنا يعرض جريمة تُعدّ في ضوء القول المأثور لتاليران خطأ أضّر بسمعة نابليون، على نحو مؤسف في أرجاء العالم كلّه. إنّ عمل سكوت يشكل حجر الزاوية للمعرفة التاريخية، لأن العمل يمضي إلى آفاق بعيدة، ويأخذ بعين الاعتبار التطورات الاجتماعية والثقافية والقوانين والمال وجوهر النظام التعليمي، فضلاً عن علاقات داخلية أخرى في الإمبراطورية، إلى جانب تصرفات الإمبراطور.

إنّ العرض يتصّف بالهدوء المطلق والاتسّاع والتفصيل. وقد شكا هايني في عرض قاس نشره في «رايزي بيلدر» عن الوصف الممل كما هو معروف -لأن وجهة النظر البريطانية تكاد تكون غير ذات قيمة، لكنّ الرجل العظيم هو الذي يهلك. فهل كان عمل سكوت بمثابة الخطيئة التي جعلت غوته يقوم بإحضار الشيطان يوم القيامة ويضعه

أمام العرش الإلهي، ليبدو الثالوث الإلهي أمامه بلا أدنى قيمة؟ هذا أمر ممكن من الناحية الزمنية، لأن قصيدة غوته الساخرة تشكّلت قبل عام 1828م.

وبالنظر إلى طبيعة العلاقة الشخصية التي كانت تربط غوته بنابليون، فلم يكن ثمة موضع لهذا الحديث. لهذا كان التصريح المعروف والأكثر تفصيلاً لغوته عن ذلك الرجل العظيم، هو حواره مع إيكرمان في الحادي عشر من آذار 1828، وقد جاء بعد مطالعة لرواية سكوت بعدة أسابيع، ويبدو أنه تمّ تحت الانطباع المتولد حديثاً والخاص بالإمبراطورية الممتدة[1]. يتم العثور هنا على جمل شهيرة، يجري اقتباسها كثيراً تركز على القدرات العبقرية للإمبراطور، ولا تكاد تلقي إلا أضواء قليلة على السياقات التاريخية:

«لقد كان نابليون فتى! –فهو دائم الاستنارة، دائم الوضوح والقدرة على الحزم. وهو يملك الطاقة الكافية في كل وقت لينجز على الفور كلّ ما يراه نافعاً وضرورياً. لقد كانت حياته مثل خطوات نصف إله تسير به من معركة إلى معركة ومن نصر إلى نصر، ويمكن للمرء أن يقول وهو يشعر بالارتياح إنه وجد ذاته في وضع تنويري دائم لهذا كان قدره لامعاً على نحو لم ير العالم مثيلاً له من قبل، ولعّله لن يرى بعده مثيلاً أيضاً».

كان يجري الرّد على اعتراضات إيكرمان بـ «أجل، أجل يا إلهي». أما غوته الذي صرّح أثناء مجريات الحوار بأن الأمور المتشابهة تصدر عن المتشابهين، فإنه كان يتحدث عن نفسه بطبيعة الحال: «ماذا تريدون! إنني لم أقم بكتابة أغنياتي المفضلة و(فيرتر) مرة ثانية! إنّ كل نظام إلهام إلهي لا بد أن يتشكل على نحو استثنائي. إننا نكثر الربط دائماً بين

(1) MA 19. S. 604 ff.

الشباب والإنتاج، فكيف كان نابليون الإنسان الأكثر إنتاجية بين من عرفنا؟ أجل أجل يا إلهي، إن المرء لا يحتاج إلى كتابة قصائد ومسرحيات كي يكون منتجاً، فهناك ما يعرف بإنتاجية الفعل».

إنّ السمة الحقيقية للعبقرية تتمثّل في الطاقة الإنتاجية بعيداً عن التخصص والصنعة، وبمنأى عما يخّص كمية الإنتاج. وقد جرى توسيع النقاش حول ظاهرة العبقرية بحيث صار «الجسم المناسب» جزءاً منها «فعندما يقال إن نابليون إنسان من غرانيت، فهذا يسري على جسده بالضرورة فما هو الشيء الذي لم يتوّقعه أو يستطيع أن يتوقعه!».

يكمل غوته الحدث باندفاع كبير:

«من رمال الصحراء السورية اللاهبة إلى حقول الثلج في موسكو، ترى أيّ كمّ من الأساطير والمعارك والمعسكرات لا توجد في هذا الخضمّ؟ وأيّ حرمان وإرهاق جسدي لم يكن يستطيع أن يتجنبه؟ قليل من النوم وقليل من الطعام ومع ذلك بقي في ذروة النشاط العقلي!».

وهكذا فقد جعل غوته العديد من الأشياء تقع أثناء عرضه حياة نابليون، فقد سعى كي يضمّ إليه شباب نابليون ومواهبه وقدراته وأن يشق طريقاً حرة للموهبة. ولو حاولنا أن نفتش عن عمل مواز يشابه هذه الرؤية، لوجدنا، بسهولة ويسر، رواية ستنادال «الأحمر والأسود» التي تتحدث عن تأثير الرجل العظيم في المجتمع بأكمله بالطريقة ذاتها.

في السادس من نيسان عام 1829 قام غوته بالمقارنة بين موهبة قيادة البشر وقدرات المخرج الجيد أو مدير المسرح –وهي مقارنة نعرفها منذ تشرين الأول 1808– الذي يجعل الناس على يقين أن هدفهم قريب ويمكنهم أن يصلوا إليه. وقد عاد غوته للحديث عن مثل هذا التأثير في غير مناسبة. فعندما كان يتحدث في الحادي والعشرين من آذار 1831 لايكرمان عن «الأنانية» التي أثارها نابليون بين الشباب في فرنسا،

الذين رفضوا العودة إلى الهدوء «إلا عندما ينهض من بينهم مستبد كبير ثانية، يرونه في أعلى المراتب، على النحو الذي يرغبون أن يكونوا فيه»، استطاع إيكرمان في حواره مع غوته في الحادي عشر من آذار عام 1828 أن يمس النار بعمق:

«إنّ نبل معدنه يبدو متألقاً فيه، وقد كان إيقاع صوته والنار التي تنبعث من عينيه ينبئان عن طاقة وكأنها قادمة من نيران متأججّة ترجع إلى أيام الشباب». فتخيّلُ نابليون على أنه شاب، كان يُعيد غوته ذاته إلى أيام الشباب، لهذا يقول: «إن هؤلاء الرجال وأمثالهم هم ذوو طبيعة عبقرية، لها سماتها، إنهم يعيشون مراهقة ثانية، بينما لا يعيش الآخرون مرحلة الشباب سوى مرة واحدة».

وسيتبّين لاحقاً أنّ غوته لا يتحدّث في هذا الحوار عمّا سيدعى في حقبة لاحقة بـ «العظمة التاريخية» التي كان نابليون، في نظر غوته، يتمتع بها، لكونه وريثاً للثورة ورائداً للموهبة ومحرضّاً للخروج على «أنانية» المجتمع. لكنّه كان أكثر من ذلك: كان مستنيراً ومنتجاً، قُدّ من الغرانيت ومن الجّن معاً.

هكذا كان يوضع إطار هذا الخطاب العجيب. فعندما اشتكى إيكرمان من التوعّك، ردّ عليه غوته قائلاً:

«إنّ الكدر والتنوير هما اللذان يصنعان قدر المرء. فإنّه لا يؤذينا أن ننقاد للجن وأن يقول لنا ويحاول أن يفعل ما اعتاد أن يفعله، لكنّ الروح الطيّبة تغادرنا وسننام في الظلام ونحن نتخبط، على غير هدى». «هنا يصل غوته إلى الصيحة التي يقول فيها: «لقد كان نابليون فتى!». بعدها يعود غوته ليختتم حديثه ثانية عن الجن:

«إن على الإنسان أن يهلك ثانية! ففي داخل كلّ إنسان استثنائي هناك إحساس بالرسالة تدعوه كي ينهض لأدائها، فإن فعل فإنه لا يعود

يعاني من الضرورة، كما أن العناية الإلهية تحوله إلى شيء آخر. ونظراً لأن كل شيء يحدث هنا على نحو اعتيادي، فإنّ الجن تمسك بساقيه، ساقاً تلو الأخرى حتى يقع أرضاً وهو ما جرى لنابليون وآخرين، فقد مات موتسارت في السادسة والثلاثين وكذلك روفائيل أما بايرون فقد عاش أكثر من ذلك بقليل».

وقد أوضح غوته بجلاء، بعد ذلك، أن الأرواح الكبرى، والهرتسوغ كارل أوغست واحد منها، لا تقوم بإخضاع الجن، فهي ذات طبيعة جنّية أي أنها «من خلال الفطرة تمثل الطبيعة الفطرية الكبرى»[1].

الجنّي والطبيعة الفطرية الكبرى! إنهما مصطلح يتصلان برؤية غوته للعالم التي تمكن وراء رؤيته لتاريخية العالم. إنّ المؤرّخ يقع في هذه اللحظة على الحدّ الذي يحق له أن يومئ إليه دون أن يتوجب عليه أن يتخطاه. غير أنه لا يحق له أن يمتنع عن اقتباس فقرات طويلة، يجري اقتباسها من الجزء العشرين من كتاب «شعر وحقيقة»، في العادة، وهي تقوم على التناقضات. «لم يكن إلهياً، لأنه بدا غير عاقل، ولم يكن بشرياً، لأنه لم يكن ذا عقل، ولم يكن شيطانياً، لأنه كان خيّراً ولم يكن إنجليزياً، لأنه لم يظهر الشماتة»[2]. وهذا ليس تعريفاً، فهو مزيج من التصّوف والحديث المبهم ذي الطبيعة الدينية. فنابليون ينتمي إلى الشخصيات التي لا يحتاج المرء لمعايير فوق عقلانية لإدراك «الحسم» الذي ظل غوته يعدّه، في أحايين كثيرة علاجاً شافياً، ومدمراً أحياناً إذا اتصل الأمر بحياته الشخصية. أما القوة الطبيعية المتفوقة لهذه الشخصيات فإنها توجد في عالم مترابط يبدأ من العالم الروحي مروراً بوحدة الوجود المتصلة بالطبيعة الإلهية وصولاً إلى الاعتقاد بالنجوم. وتتبدى حرفية

---

(1) Zu Eckermann am 6. Dezember 1829. vgl. auch 2. März 1831.

(2) Dichtung und Wahrheit. S. 839 F.

الاعتقاد بالأرواح. بمعنى الاعتقاد بالجن في الفقرات المقتبسة من «شعر وحقيقة» وهي ذات صلة بنابليون:

فعندما كان نابليون يخسر معركة معينة، كانت إحدى اللوحات المعلّقة على حائط مكتب غوته تقع أرضاً، أما عندما كان الإمبراطور يغادر مكانه في إلبا، فإن الحروف الأولى المكتوبة على خاتم تنطلق عند سقوطه وكأنها قطعة من شعر زكريا فيرنر. وهذا كلام قريب إلى الدراما التراجيديا لا إلى السياسة.

إنّ الصوت الداخلي وجوهر الشخصية والشكل ذا الطابع المحدّد الذي يتطوّر على نحو حيوي ويكون قادراً على تحديد المصير عند العرافين والأنبياء والمؤمنين بقوّة النجوم هي أشياء تقع في صميم هذه الطاقة الحيوية، وهي تبلغ ذروتها عبر الطبيعة الشخصية الناعمة القادرة على التقبّل. وإلى هذا النوع ينتمي غوته ذاته، الذي رفض في حوار له مع إيكرمان أن يكون ذا طبيعة جنيّة، وجادل إيكرمان قائلاً: «إنّ هذا ليس من طبيعتي، لكنّني أخضع للطبيعة الجنّية»[1]. وبوسع الدارس أن يصل عبر هذه الآراء التي تم تدوين بعضها، ولم يدوّن بعضها الآخر إلى حقل من القرارات يصعب التحقق من صحة افتراضاتها، كما أنّ علم الأدب يقرر حذفها»[2]. لكنّ المهم بالنسبة لنا أنّ غوته وجد الصنيعة الأكثر عموماً وجرأة للعلاقة التي ربطت بينه وبين نابليون.

إنّ هذا ليس سياسياً، بصرف النظر عن المدة التي تبع فيه غوته نابليون، لكنّ هذا يتعلّق بالتقبّل الخلّاق للقوى الجنيّة الواقعة خارج الطبيعة البشرية العادية. وبذا يبدو لقاء غوته في خاتمة المطاف، ليس

(1) 2. Mar. 1831.

(2) يبدو لي أن ما قدمه فالتر موشغ بخصوص اعتقاد غوته بالجن هو الأكثر فائدة في:
(W. M., Studien zur tragischen Literaturgeschichte, S. 31-58).

مجرد لقاء تاريخي –سياسي– اقتصادي بل مصادفة قدرية أو على الأدق منحة سماوية.

غير أنّ في وسع المؤرّخ أن يضيف ملاحظة يتيمة في هذا السياق، وهي أنّ مصطلح غوته الخاص بالعظمة الشخصية الذي ينهض على مسألة الجنّية ويبني علاقته مع نابليون في ضوئها، يختلف، على الرغم من بعض التماسات الرئيسة، عن تصور هيغل لـ «الأفراد التاريخيين العالميين»، فهؤلاء تتمثّل إنجازاتهم في قدرتهم على متابعة أهدافهم الذاتية التي يحددها عصرهم، وبذلك فإنهم يصبحون «قادة الروح العالمية». صحيح أنّ لديهم الإدراك والميل للصلات غير العقلانية؛ فهيغل يتحدث عن «القوة التي لا تقاوم للروح الذاتية الداخلية» وعن «المرشد الروحي» وعن المصائب في حياتهم، لكنّ الحاسم في هذا الأمر يتمثّل في المرجعية التاريخية:

«إنهم رجال عظام، لأنّهم عظام وليس لأنهم مغرورون أو واهمون، إنهم أرادوا المناسب واللازم واستطاعوا إنجازه». يتضمن هذا المدخل، بحسب هيغل، فضلاً عن وجهة النظر النفسية، رؤية الخادم للشخصية الإمبراطورية[1]. فمهمة نابليون التاريخية العالمية تمثّلت في إصلاح الإرادة الذاتية لرأس الدولة الفرنسية ونشر التوجهات الليبرالية في أوروبا التي حاربتها الثورة الفرنسية. صحيح أنّ انتصاراته أضحت كسيحة في نهاية المطاف، لكن ذلك يعود لأن نابليون أراد إجبار الأمم على الحرية. على هذه الشاكلة تحديداً انخرط غوته في أخريات حياته في مناقشات تدور حول ما أراده غوته على الصعيد السياسي وهو النظام والسلام من خلال السيطرة، إضافة إلى مسألة فرعية أخرى تتمثّل في حقوق التأليف

---

(1) Hegel, Philosophie der Geschichte (Stuttgart, Reclam 1982 u. Ö), S. 74-77.

والنشر، وهذا كله بعيد عن مسار الإنسانية. فقد ظلت الفكرة الرئيسة لغوته هي التأثير المتناقض للعقل في الشخصية الإنسانية.

ومع ذلك، فقد استطاع مفكر ثالث هو يعقوب بور كهارت أن يذيب التباعد بين رؤية كل من غوته وهيغل بخصوص العظمة التاريخية. ففي القسم الخاص بالفرد والمجموع في محاضراته المخصصة لدراسة التاريخ والتي أطلق عليها، فيما بعد، اسم «تأملات عالمية»، يوظف الهيغلية في ما يسميه «الحركات العالمية التي تركز على الفردية»، لكن سرعان ما يعود إلى العوامل غير العقلانية للخبرات المتعلقة بالعظمة. وهذه الخبرات «غامضة» يصعب الإحساس بها إلا عبر المشاعر المظلمة ومن خلال إجماع الكثرة، وليس من خلال الحكم على الأفعال، إنها «مجموع الشخصية» التي تبدو لنا عظيمة وتظل مؤثّرة في الشعوب والقرون على نحو سحري».

يقوم بوركهارت، كما فعل غوته، بضم الفنانين إلى هذه التأملات ولا يقصرها على مرتكبي الجرائم التاريخية، لذا تراه يتحدث عن التفرد واستحالة التعويض وعن القوى الروحية وعن الإحساس الواقعي الذي لا يكذب وعن قوة الإرادة «الذي ينشر حوله قوة سحرية ويجعل كلّ عناصر القوة والسيادة تنجذب إليه وتخضع له».

إنّ بوركهات الذي لم يكن يُحبّ نابليون ويصفه بـ «غياب المواثيق في الشخصية» لم يجد بُدّاً من مصطلح العظمة في ضوء قسمات الإمبراطور كي يقوم بتعقبّ الإعجاب المضاد عند كلّ من هيغل وغوته[1].

لقد خلّف غوته في أعماق الشخصية التي قدمها له إيكرمان مساهمات مهمّة تماماً، بخصوص الأبعاد التاريخية والجمالية وبخصوص

---

(1) Burckhardt, Über das Studium der Geschichte. Kritische Gesamtausgabe, Band 10 (Basel und München 2000), S. ff.

الثورة الفردية على الأعراف الفنية والاجتماعية Titanismus التي بدأت تسود في ألمانيا منذ منتصف القرن التاسع عشر والتي شكلت واحداً من العلاجات لـ «المرض التاريخي» العليم بكل شيء والمقابل لكل شيء، كما شخصه نيتشه.

إنّ السؤال الذي يلّح في خاتمة المطاف هو: كم من نابليون موجود في فاوست؟ لقد تحسس غوته بعض هذه الآثار صيف 1815 قبل مدة طويلة من استئناف العمل في الجزء الثاني، لهذا قال لبوسيير وكأنّه ينطق نبوءة:

«لقد أجبرني فاوست على أن أكتب كما أفكّر بنابليون وكما سبق لي أن فكرّت به»[1]. لكنّ الجملة اللاحقة التي قالها غوته: «إن الإنسان هو الذي يمارس العنف نحو نفسه ثم يزعم أنه ينوء بالأثقل والأصعب»، يمكن تعميمها، لدرجة أن غوته عدّ مقطوعته الشعرية «إبيمينيدس» التي كتبها عام 1816 سبباً من أسباب سقوط نابليون.

تقوم الحبكة في خاتمة فاوست على مسألة استصلاح الأراضي مقابل البحر المجدب والمدمّر، وهو أمر يتصل في حقل المصطلحات المقابلة للتاريخ العالمي الخاص بالعلاقة بين البحر واليابسة والذي سبق غوته في بوخ هولتس عام 1807 أن أعجب به وشكل المقطوعة الأكثر أهميّة في القصيدة التي وجهها إلى الإمبراطورة ماري لويز عام 1812:

«ليس ثمة وزن هنا لغير الأرض والسماء».

وقد تحولت هذه العبارة في الجزء الخاص برؤية نابليون للعالم لتصبح:

هل أدخل الشاطئ السرور إلى نفسه/ لأنّ أمواجه الفخورة قد انكسرت/ هكذا دخل من الدائرة الواسعة/ من خلال المعارك الحامية

(1) 3. August 1815 (Napoleonische Jahre II. S.484).

الوطيس، فالبلاد الحصينة هي ملك يمينه».

وقد صاغ فاوست مشروعه النهائي في الفصل الرابع من الجزء الثاني:

إبعاد البحر الهائج عن الشاطئ/ وضع حد لحدوده الواسعة الرطبة/ إجباره على أن يعود إلى ذاته»[1]. (V. 10229ff)

وإذا كان الحديث في المقاطع الشعرية الخاص بماري لويز عام 1812 يدور حول «عدالة» الأرض الصلبة، فإن هذا الحديث يبدو مناظراً لكلام فيلمون في الفصل الخامس من الجزء الثاني من فاوست: (V.11091ff)

أيها السادة النجباء/ أيها الخدم الجسورون

احفروا الأنفاق/ودافعوا عنها/ وانتقصوا من حقوق البحر/ وكونوا سادة بدلاً منه».

وقد زعم مفيستو، في ما بعد، أن الشاطئ قد سامح البحر بخصوص استعماره السابق. (11222). لقد جعلت القوة المفرطة وطموحات الاحتلال وجود اللحن الرعوي لكل من فيلمون بوكيس على الشاطئ الضيق يبدو غير محتمل عند فاوست:

ف«الأشجار القليلة/ وهي ليست لي/ أفسدت عليّ امتلاك العالم» (11241ff).

إنّ الصياغة التي اختارها فاوست، على نحو يصعب أن تقتصر القوة المشار إليها عليه وحده، تُشير، على نحو لا يكاد يخطئ، إلى نابليون:

إنّ إيقاف صاحب السلطة والنفوذ

قد تم في ساندي هنا (11255ff)

وما قام به إيكرمان في طريقة الطباعة عام 1833 التي جرى فيها

---

(1) Zitate aus Faust II nach MA 18.1.

إبراز عبارة «صاحب القوة والنفوذ» ينمّ بوضوح عن هذا الأمر[1]. فقد كانت جملة «صاحب القوة والنفوذ» من التسميات القائمة لنابليون في ولاية فايمار وفي الرسائل الشخصية حتى عام 1814. لذا يعتقد الإمبراطور المتخاذّل في الفصل الرابع أنّ الحكم واللذة يقترنان معاً، لكنّ فاوست يعي ذلك على نحو أفضل. وهنا يصعب عليه أن لا يفكر بنابليون ثانية. (10252ff)

خطأ عظيم! إنّ من يأمر
عليه أن يستشعر السعادة في ما أمر
وأن يمتلئ صدره بالإرادة العالية
ولا يجوز لأحد أن يعرف أعماق ما يريد
فما يهمس به في أذن أكثر إخلاصاً
سيتم تنفيذه والعالم كله يشعر بالدهشة
وسيكون عندئذ الأعلى والأرفع مكانة
والأجدر بالاحترام، أما المتعة فتجعل منه شخصاً مبتذلاً.

وإذا كان الشيطان يريد في القصيدة التي كتبها عام 1828 أن يجّر نابليون إلى الجحيم، فيحول الثالوث المقدّس بينه وبين تحقيق هذا الأمر، فإنّ هذا ما يمكن لقارئ الطبعة الأكثر اختصاراً لـ «فاوست» أن يجده في خاتمتها.

إنّ اضطراب فاوست وطموحاته المتطرفة التي لا حدود لها، تشكّل الخطوات نصف الإلهية التي تسير من الحرب إلى النصر والتي قالها غوته لايكرمان عن الإمبراطور الغرانيتي والمستنير والذي ظلّ أبداً يحافظ على المستوى العظيم من القوة والعبقرية: «إنّه يجد في المضيّ قدماً العذاب والسعادة/ فهو لا يرضى عن أية

(1) هذا ما أشار إليه فريدريش ديكمان .. Geglückte Balance. S. 152

لحظة!»(1991)

لقد كان نابليون، بالتأكيد، هو الذي لا يرضى عن أي لحظة، وهذا القلق، وهو ما صاغه على نحو يتسم بالتعميم، السبب في عدم قدرته على الحفاظ على استقرار الإمبراطورية.



قارورة فيها التمثال النصفي لنابليون

وعلى الرغم من ذلك كله فإنّ الجزء الثاني من فاوست يظل جزءاً خاصاً بنابليون شأنه شان «باندورا». فمحاولة الحصول على أرض جديدة لم تثقلها حقوق التعويض، الذي كان يمثّل حقوق المِلْكيّة في الحقبة البوربونية الجديدة بعد عام 1815، أسهم في تقليل العرض التاريخي لنهاية المسرحية لتغدو النهاية بمثابة تعليق سياسي يومي، خاصة

إذا ما قام المرء بالتقليل من قيمة رؤية شعب حر فوق أرض حرّة، وهي لا تتيح تفسيراً جديداً للبعد الكولونيالي في فاوست[1].

أما الإشارات الواضحة إلى نابليون فهي:

هناك ما يشير إلى أنماط إنسانية وعلمية بوصفها التعبير الأقوى عن العالم التاريخي والاتجاه الأنثروبولوجي الذي لا يقتصر على السياسي أو العسكري ولا على الصراع بين اليابسة والبحر. فجنّي نابليون أصغر من الشرّ، لكنّه جبار كشخص وضيع يبحث عن الخلاص، كما يظهر في الفصل الأخير من «فاوست» أمام أعين الناس في العالم الأخروي. وبوسع المرء أن يقول في خاتمة المطاف:

إن نابليون لم يبد شرّيراً عند غوته على الإطلاق. كما بدا في الضوء المترجرج في نهاية «فاوست» الذي تنازل عن الأخلاقيات التافهة كلها.

قبل سنة ونصف السنة من وفاة غوته، يوم كان مستغرقاً في «فاوست»، تمكن نابليون من الحصول على مكان شرفي فوق الطاولة التي يعمل عليها غوته في مكتبه، ولا يزال يحظى بهذا المكان إلى يوم الناس هذا. كان إيكرمان بعد عودته من إيطاليا في خريف عام1830 يقف على نافذة دكان أحد مصففي الشعر في ستراسبورغ، عندما لاحظ وجود قارورة من الأوبال»، يكشف غطاؤها عن تمثال نصفي لنابليون. ويعود ذلك إلى ثورة تموز التي اندلعت قبل نصف عام من ذلك التاريخ حيث جرى منع صور نابليون في تلك الحقبة وكان على جوليان سوريل، بطل رواية ستاندال «أحمر وأسود» المولع بالبطل المهزوم أن يخفي تمثاله المصغّر داخل الفراش فعندما سمح لمصففي الشعر، بعرض صور نابليون أسرع

(1) Dieckmann, Geglückte Balance, S. 147 ff. Siehe dagegen z. B. Michael Jaeger, Fausts Kolonie, v.a. S. 388 ff.

إيكرمان في التقاط واحدة منها.

كانت القارورة بين يدي غوته في الثالث عشر من تشرين الأول 1830، قبيل حلول الذكرى الخاصة بمعركة لايتسج. وقد وضعها غوته فوق مكتبه أمام مرآة، بحيث يكون في وسع المرء أن يراها من باب المكتب. «كان زجاج الأوبال الغائم اللون يعطي من خلال اللون الأبيض المنعكس لوناً أصفر، يتحوّل من خلال تنامي الشحوب إلى أصفر محمر ثم إلى أحمر. أما من الخلفية السوداء فيظهر اللون الأزرق البنفسجي الذي يتطور إلى لون أزرق»[1]. وهو ما صوره مدير منزل غوته الرسمي. كان غوته في غاية البهجة وقد أخبر تسلتر في الثالث من شباط 1831 عن هذا الكنز الجديد: «إن إيكرمان وهو عليّ صادق استطاع أن يمزج الألوان بين الضوء والعتمة، وأحضر لي تمثالاً نصفياً لنابليون يستحق وحده رحلة حول العالم. يواجه التمثال الشمس المشرقة. وعند سقوط أول شعاع منها تهتز أحجاره الكريمة من جميع الجوانب (ولا مزيد) على ألوانه اللامعة والفاخرة. ولو أنني وضعته مقابل الشمس لبقي على حاله السابق طيلة اليوم». ألوان فاخرة رنّانة: هذا أجمل من تلك الظاهرة التي سبق وصفها.

ولكن إذا كان إيكرمان هو عليّ، الصحابي الوفي للرسول محمد، فإنّ غوته هو نبي.

---

(1) Gisela Maul mid Margarete Oppel. Goethes Wobuhaus in Weimar. Stiftung Weimarer Kiassik. München 1999. S. 125 f.

تعقيب

إنّ الشعب والخادم والمنتصر
يتوجب عليهم أن يعترفوا في أيّ وقت:
بأن أعلى مراتب السعادة عند الإنسان
هي أن تكون له شخصية

- إلى كارل-

كتب نيتشه في نهاية القرن التاسع عشر في كتابه «أفول الأصنام»:
«كان غوته مقتنعاً بالواقعية في ثنايا عصر غير واقعي. فقد قال نعم لكلّ من تقارب معه. ولم تكن لديه تجربة كبيرة كهذا الذي كان أساس الواقعية، أعني نابليون».

وقد سار على هذه الخطى كثير من المفكرين والروائيين الذين التفتوا إلى اللقاء الذي وقع بين الشاعر وإمبراطور الفرنسيين. أما باول فاليري فإنّه ذكر في الكلمة الرئيسة في الاحتفال الذي أقيم في السوربون عام 1932 بمناسبة مرور مائة عام على وفاة غوته، أنّ لقاء إيرفورت تحول إلى لحظة سحرية «فاوستية» في أرجاء العالم على ما يظهر.

مهلاً: لكنّ الجريمة لا تتعلق إلا برجل واحد فقط «وهذا يشير إلى أنه مقياس كلّ شيء».

«إنّ من الأهمية أن تكون عينا الشاعر الرائعتان الواسعتان قد استقبلتا نظرات الإمبراطور وأن يكون الرجل الذي كان مسيطراً على حياة كثير من الناس قد تعرف بالرجل الذي كان مسيطراً على عقول كثير من الناس أو على الأصح أن يتعارفا مجدّداً».

وبصرف النظر عن اللقاء الذي تم هنا والذي أطلق عليه، طبقاً

للتسميات الأكثر شيوعاً، لقاء «الثورة» و«العقل» فإنّ القوى العظمي هي التي تنتشي بالظروف المادية زماناً ومكاناً. وقد رأى باول هان ماكر عام 1947 أن «نابليون كان الشخصية الأولى التي بدت لغوته أسطورية على نحو مباشر، والتي لم يرغب أن يراها على غير هذه الصورة».

يسري هذا أيضاً على استكشاف هانز بلومن بيرغ المتقن لعلاقة غوته بالأسطورة التي لم تعرف إلّا مرحلة ما قبل نابليون ومرحلة ما بعده. وهنا يتحقّق الانقلاب الخاص بعام 1806 من خلال اختراق نابليون، التي أدت إلى ظهور «الواقع» على مستوى جمالي في فايمار: ويرى بلومن بيرغ أنّه بموجب التصور الذاتي لغوته انتقل دور بروميثيوس إلى إمبراطور الفرنسيين. ففي ضوء الأفكار القائمة على تعدد الآلهة لتحقيق توازن بين قوى العالم، استطاع غوته أن يتجاوز الإفراط الذاتي البروميثي، ليظفر بيقين جديد من خلال «الوقوف» أمام نظرات الإمبراطور.

وهكذا فإنّ كبرى الهيئات الإدارية، لم تتوّل تنفيذ هذا الأمر. وإذا كانت تمشي وراء إشارة بعينها، فإنّها سارت وراء السؤال الذي طرحه غوستاف سترسمان عام 1924 فيما إذا كان غوته وهو يلقي نظرة على الخارطة الأوروبية –المقصود هنا إنجلترا وروسيا– قد تولّدت لديه قناعة كافية ليتبع إمبراطور الأرض، وفيما إذا كانت النابوليونية كما فهمها غوته تتطلب، بالضرورة، الانفصال عن الفرنسيين، مثلما سبق لغوته أن فعل في علاقته مع ملك بروسيا. هنا تتبدي وجاهة ملاحظة بيتر هاكس عندما يقول:

«إنّ قوّة القوى تتبدّى في عجزه المطلق عن الشعور بالاستياء». وهو ما يصف سلوك غوته بعد عام 1806. كما «أن نابليون كان يجسد في شخصيته بمستوياتها المتعددة شقاء العالم». وهو بهذا يشبه غوته بوصفه

فرداً يقف في مواجهة الجميع، بمعنى أن لديه جانباً يوتوبيّاً. بعد ذلك أشار هاكس إلى الانسجام بين البطلين فقال:

«لم يوجد، بكل تأكيد، على ظهر الأرض منذ نابليون سوى شخص واحد كان غوته لا يعدّه أقل منه، لذا فقد صار عدد الجبابرة اثنين».

وبهذا صار الزعم الذي يرى أنّ بروميثيوس الخاص بـ «باندورا» هو نابليون وأنّ إبيميثوس هو غوته بالمقابل، قريب المتناول، لكنه يصعب البرهنة على صحة هذا الزعم. فالمؤرخ يحتاج إلى أن يكون أكثر من شاعر ومن عالم بالأدب حتى يتمكن من معرفة ما الذي كان يدور برأس غوته آنذاك.

كان دافعي الذي قادني إلى هذا العمل عابراً في الواقع، فقد قرأت عام 2006، بقدر من الإثارة، مذكرات تاليران التي أعدتها كريستيينه تسايلي، وعثرت في تلك المذكرات على عرض للحوار الذي دار في إيرفورت. بدا لي ذلك الحوار أكثر حيوية وطرافة من التقرير الذي يحوي الخطوط العريضة والذي سبق لغوته أن أعدّه، وقد قادني الدافع الطبيعي إلى الرغبة في معرفة ماذا حدث، وهو أمر قام بعرضه كلّ من بيرنهارد سوفان وأوتوكار لورينتس ولودفينج غايغر ... منذ ما يقرب على القرن، ولم يصلوا إلى شيء. وقد كنت مقتنعاً أشد الاقتناع في ضوء المادة التاريخية أنّ الظروف المادية المشخّصة لهذا اللقاء لم تعرض حتى الآن إلّا على نحو سطحي، مع أنّ كثيراً من الوقائع المهمة صارت معروفة منذ وقت طويل. وعلى الرغم من المقالات المثيرة لكل من أندرياس فيشر (1898) وإدفين ريديس لوب (1944) وبيتر بيرغلار (1968) وما لا يحصى من أبحاث المختصين بالدراسات الألمانية ما يزال الاعتقاد إلى اليوم بأنّ المعالجة الجدية لهذا الموضوع توجد في كتاب لودفيج غايغر «فايمار القديمة» الصادر عام 1897 وفي رواية توماس مان «لوتي في

فايمار» الصادرة عام 1939. ولعّل هذا يعود إلى أنّ رسائل كارل أوغست السياسية المتبادلة لم تنشر إلّا في خمسينيات القرن الماضي، وأن مصادر التاريخ الدبلوماسي لم تكن متاحة، في حدّها الأدنى. وكل ذلك جعل الاقتراح الذي تقدّم به ديتلف فيلكن مدير دار نشر س. هـ. بيك C. H. Beck في بداية عام 2007 لكتابة دراسة بمناسبة مرور قرنين على لقاء إيرفورت في الثاني من تشرين الأول 1808 أمراً يتسم بقدر من الإثارة والجاذبية.

الكتاب الذي نشأ عن ذلك الاقتراح يجمع بين سرد ما حدث وتفسيره. صحيح أنّ الفصل بين الأمرين غير ممكن، لكن ثمة فرقاً جوهرياً واضحاً بينهما في مركز الثقل وعندما كنت في ثنايا العمل أتحدث عن الفكرة بلغة غوته المشحونة بالمشاعر، كان سرعان ما يتفتح أفق عقلاني واسع لا حدّ له، إضافة إلى ولادة سياقات خصبة ولحظات موازية، ولو أنني استسلمت لذلك كله. لكان يتوجب أن أؤلف كتاباً يفوق هذا الكتاب ثلاث مرات في الحجم إضافة إلى أنّه سيكون قبيحاً تماماً. وقد توصلت إلى فكرة مفادها أن أدع أقوال غوته التي جرى اقتباسها كثيراً أو قليلاً مع مرور الوقت في مكانها. أما الاستثناءات القليلة الأخرى فقد تم الاستشهاد بها بعناية، وتم إحداث التوازن بالتالي من خلال تكرار الاقتباس ما أمكن لكنني لم ألتزم هذا المبدأ في ما يتعلق بنصوص «الحوار». وقد آثار اهتمامي، بالمستوى نفسه، إضافة إلى أفكار غوته، مواقفه العلمية وتجاربه الذاتية والظروف الخارجية والسلب والنهب والغرامات الحربية والعروض المسرحية، وكلها أمور على المؤرخ أن يوليها العناية مثل بروميثيوس أو مسألة الجنّ. ومن الطبيعي أن لا يدخل البحث الأدبي الواعي والمتميز في منافسة وهذا أمر يسري على سعة الحيلة التي يتصف بها أصدقاء غوته المتحمسون. وقد

كنت أرى أن أهدافي تحققّت عندما كنت أتمكن من أضع الشاعر غوته في سياق غير معتاد، بوصفه مشاركاً في لقاءآت معاصريه، من أمثال: غينتس وتاليران ومترنيخ أو عندما يبدو صديقاً للإمبراطورة النمساوية أو لشقيق نابليون.

وينبغي عليّ في الختام أن أتوجه بالشكر إلى الكثير من المساعدين والداعمين والأصدقاء بكل تقدير. فقد تابع ديتلف فيلكين العمل بالحماسة بالممزوجة بالثقة وبالصبر المطمئن.

ولولا الدعم الذي يقوم على نكران الذات والإشارات التي زودني بها كلّ من: يينس بيسكي ولوثر موللر ويوهانس سالتس فيدل وغيرهارد شوستر وميخائيل ستول أيس ويوهانس فيلمز، لما كنت استطعت أن أجيب على كثير من الأسئلة صغيرة كانت أم كبيرة.

وكان لحصولي على مكتبة غيرهارد شوستر المخطوطة الخاصة في فايمار، فعل السحر الذي أضاء مكتبتي، كما أشكر بصدق روبرت تسيف الذي كان ملاك الرحمة في جحيم مكتبة الدولة في برلين، وكانت تجربتي معه تجربة خلاص. ويطيب لي أن أشكر الكسندر غولر (توبنغن) لمساعدته التي لا تقدّر في إعداد البيليوغرافيا.

وقد عمل كلّ من لوقا غويلاني وفولف ليبينس بجديّة على دعوتي لأكون ضيفاً في الزمالة العلمية البرلينينة، كما أنّ هيئة تحرير جريدة «زود دويتشه تسايتنج» وعلى وجه الدقة كورت كيستر وتوماس شتاين فيلد، تعاملوا معي بقدر من التسامح بل الصداقة. كما أنّني أتوجه بخالص الشكر للزمالة العلمية نظراً للخبرات البرلينية الجديدة واللطف والكفاءة والعشرة الطيّبة، وخَرية الضجيج والمطبخ الرائع.

إنني مدين هنا لكفاءة ودّ المساعدين، ويمثلّهم في هذا السياق غيسيني بوتوملي ورانيهارد ماير كالكوتن، ولكنّ الشكر الذي يليق

بهم لا يجوز أن يكون في التعقيب، وبصرف النظر عن التقييم الصارم الذي سيقومون به للكتاب فإنني أقول: لقد أمضيت ستة أشهر رائعة. ومثل كل الأوضاع الفردوسية كان للإقامة في الزمالة العلمية ظل يتيم على كل حال:

إذ يتوجب على المرء أن يدون بنفسه كلّ أوجه القصور.

غوستاف سايت برلين في الخامس عشر من أيار 2008

Alt, Carl; Studien zur Entstehungsgeschichte von Goethes Dichtung und Wahrheit, Hildesheim 1976 (zuerst 1898).

Andrea, Willy: Carl August von Weimar und Napoleon, Leipzig 1942

Andrea, Willy: Goethe und St. Aignan. In: Deutsche Vierteljahrsschrifr für Literaturwissenschaft und Geistesgeschichte 37 (163), S. 249-253

Andrea, Willy: Das Zeitalter Napoleons und die Erhebung der Völker, Heidelberg 1955

Andreris, Willy und Tümmler, Hans (Hrsg.): Politischer Briefwechsel des Herzogs und Großherzogs Carl August von Weimar, 3 Bände, Gottingen 1954-1973.

Aretin, Karl Otmar von: Das Alt Reich 1648-1806. Band 3: Das Reich und der österreichisch-preußische Dualismus 1745-1806, Stuttgart 1992.

Arnold, Ignaz Ferdinand: Erfurt in seinem höchsten Glanze während der Monate September mid Oktober 1808, 2 Bände, Erfurt 1808. ND Erftirt 2008.

Arndt, Ernst Moritz: Erinnerungen 1769-1815. Hrsg. von Roll Weber, Berlin 1985.

Baillen, Paul: Fürstenbriefe an Napoleon I. In: Historische Zeitschrift 8 (1887), S. 435-464.

Bauer, Joachim/Müllr; Gerhard: . "Des Maurers Wandeln, es gleicht dem Leben". Tetnpelmaurerei, Aufklärung und Politik im klassischen Weimar, Rudolstadt 2000.

Beetz, Manfred: Überlebtes Welttheater. Goethes autobiographische Darstellung der Wahl und Krönung Josephs II. in Frankfurt/H. 1764. In: JörgJochen Berns und Thomas Rahn (Hrsg.): Zeremoniell als höfische Ästhetik in Spätmittelalter und Früher Neuzeit, Tübingen 1995, S. 572-599.

Berding, Helmut: Napoleonische Herrschafts- und Gesellschaftspolitik im Königreich Westfalen ,1807-1813, Göttingen 1973.

Berglar; Peter: Goethe und Napoleon. Die Faszination des Geistes durch die Macht, Darmstadt 1968.

Beranys, Michael: Zur neueren und nenesten Literaturgeschichte, 4 Bände, Leipzig 1895-1903.

Beschreibung der Feierlichkeiten, welche bei Anwesenheit von Ihro Majestäten der Kaiser Alexander and Napoleon und mehrerer gekroenten Häupter in Weimar und Jena am 6ten und 7ten October 1808 von Sr. Durchlaucht dem Herzoge Carl August von Sachsen-Weimar veranstaltet wurden. Nebst einem Überblicke ihrer merkwürdigen Zusammenkunft in Erfurt. Weimar 1809.

Bessenrodt, Otto: Die äußere Politik der thüringischen Staaten von 1806-1815. Mühlhusen 2 1925.

Beutler; Ernst: Essays um Goethe. Bremen 1957.

Biedermann, Flodoard von und Herwig, Wolfgang (Hrsg.): Goethes Gespräche. 4 in 6 Bänden. München 1998.

Biedrzynski, Effi: Goethes Weimar. Das Lexikon der Personen und Schauplätze. Münchei 1992.

Blank, Hugo: Goethe und Manzoni. Weimar und Mailand. Heidelberg 1988.

Blank, Hugo (Hrsg.): Weimar und Mailand. Briefe und Dokumente. Heidelberg 1992.

Blumenberg, Hans: Arbeit am Mythos. Frankfurt am Main 1986.

Blumenthal, Lieselotte: Zur Textgestaltung von Goethes "Unterredung mit Napoleon". In: Goethe. Neue Folge des Jahrbuchs der Goethe-Gesellschaft 20(1958), S. 264-276.

Bode, Wilbelm: Wieland vor Napoleon. In: Stunden mit Goethe. Berlin 1908. S. 241-252.

Bode, Wilbelm: Goethe 1813. Berlin 1914.

Bode, Wilbelm: Goethes Sohn. ND Berlin 2002 (znerst 1918).

Bode, Wilbelm (Hrsg.): Goethe in vertraulichen Briefen seiner Zeitgenossen. Band II, 1794-1816. Berlin und Weimar 1979.

Bonaparte, Napoleon I: Clisson und Eugénic, zweisprachige Ausgabe, übersetzt und mit einem Nachwort versehen von Herbert Koch. München 1969.

Bonaparte, Napoléon I.: Correspondance de Napoléon. Six cents lettres de travail (1806-1810) présentées et annotées par Maximilien Vox. Paris o. J.

Bonaparte, Napoléon I: Correspondance générale, bisher 4 Bände. Paris 2004 ff.

Bonaparte, Napoléon I: Die Memoiren seines Lebens, hrsg. von Friedrich Wencker-Wildenberg, Bd. 11, Wien 1930.

Bojanowski, Eleonore von: Louise, Großherzogin von Sachsen-Weimar und ihre Beziehungen zu den Zeitgenossen. Nach größtenteils unveröffentlichten Briefen und Niederschriften, Stuttgart 1903.

Borchmeyer, Dieter: Goethe, der Zeitbürger, München 1999.

Bourrienne, Louis Antoine Fauvelet de: Memoiren des Staatsministers von Bourrienne über Napoleon, das Directorium, das Consulat, das Kaiserreich und die Restauration, 10 Bände, Leipzig 1829/1830.

Boyle, Nicholas: Geschichtsschreibung und Autobiographik bei Goethe 1810-1817), In: Goethe-Jahrbuch 110 (1993), S. 163-172.

Braun, Paul: Die Franzosen in Weimar. In: Thüringisch-Sächsische Zeitsdinift für Geschichte und Kunst 10(1920), S. 1-42.

[Bnchholz, Paul Ferdinand Friedrich:] Rom und London oder über die Beschaffenheit der nächsten Universal-Monarchic, Tübingen 1807.

[Buchholz, Paul Ferdinand Friedrich/Massenbach, Christian Karl August Ludwing:] Gallerie Preussischer Charaktere. Aus der französischen Handschrift übersetzt, Berlin 1808.

[Biilow, Adam Heinrich Dietrich von:] Der Feldzug von 1805 militärisch-politisch betrachtet, 2 Bände, Leipzig 1806.

Bulliug, Karl: Die Rezensenten derJenaischen Allgemeinen Literaturzeitung im ersten/zweiten/dritten Jahrzehnt ihres Bestehens, 3 Bände, Weimar 1962-1965.

Burgdorf Wolfgang: Bin Weltbild verliert seine Welt. Der Untergang des Alien Reiches und die Generation von 1806. München 2006.

Cartellieri, Alexander: Weimar und Jena in der Zeit der deutschen Not und Erhebung 1806-1813, Jena 1913.

Cassirer; Ernst: Goethe und die geschichtliche Welt, Berlin 1932.

Caulaincourt, Aromnd Augustin Louis Marquis de: Unter vier Augen mit Napoleon. Denkwürdigkeiten des Generals Caulaincourt, Herzogs von Vicenza, Großstallmeisters des Kaisers, Bielefeld 1937.

Clausewitz, Carl von: Der russische Feldzug von 1812,Wiesbaden 1953.

Crämer', Ulrich: Der politische Charakter des weimarischen Kanzlers Friedrich von Müller und die Glaubwürdigkeit seiner "Erinnerungen" 1806-1813, Jena 1934.

Crämer; Ulrich: Napoleon in Weimar am 23. Juli 1807. In: Jahrbuch der Goethe Gesellschaft 20(1934). S. 84-113.

Crämer; Ulrich: Unbekanntes aus Goethes politischer Tätigkeit. In: Euphorion 33 (1932). S. 300-311.

Craig. Gordon A.: Johannes von Miller. The Historian in Search of a Hero. In: American Historical Review 74 (1969). S. 1487-1502.

Conrady. Karl Otto: Goethe. Leben und Werk. München/ Zürich 1994.

Damm. Sigrid: Christiane und Goethe. Frankfurt am Main 1998.

Delbrück. Hans: Geschichte der Kriegskunst. Band 4. Die Neuzeit. ND Berlin 2000 (zuerst 1920).

Dieckmann. Friedrich: Geglückte Balance. Auf Goethe blickend. Frankfurt am Main 2008.

Dotzler; Bernhard J. (Hrsg.): Grundlagen der Literaturwissenschaft. Exemplarische Texte. Köln 1999.

Egloffitein. Hermann Freiberr von: Carl August im niederländischen Feldzug 1814. Weimar 1927.

Egloffstein. Herman. Fretherr von: Carl August während des Krieges von 1813. Berlin 1913.

Engelhardt. Wolf von: Goethes Weltansichten. Auch eine Biographie. Weimar 2007.

Erbe. Michael: Revolutionäre. Erschütterung und erneuertes Gleichgewicht. Internationale Beziehungen 1785-1830. Paderborn 2004.

Ereignis Weimar. Katalog zur Ausstellung im Schlossmuseum Weimar. Klassikstiftung. Weimar 2007.

Esdaile. Cha; f.: Napoeleon's Wars. An International History 1803-1815. London 2007.

Facius. Friedrich: Napoleon und die Hasenjagd bei Apolda am 7. Oktober 1808. In: Zeitschrift des Vereins für Thuringische Geschichte und Altertumshmde (1943). S 326-351.

Facius. Friedrech: Zwischen Souveränität und Mediatisierung. Das Existenzproblem der thüringischen Kleinstaaten von 1806 bis 1813. In: Staat und Gesellschaft im Zeitalter Goethes. Festschrift für Hans Tümmler zu seinem 70. Geburtstag. Köln 1977. S. 163-205.

Falk. Jobaunes: Kriegsbüchlein. Darstellung der Kriegsdrangsale Weimars in dem Zeitraum von 1806-1813 nach den Schlachten von Jena. Lützen

und Leipzig. Leipzig 1911.

Fambach, Oscar (Hrsg.): Goethe und seine Kritiker. Berlin 1955.

Fehrenbach, Elisabeth: Vom Ancien Régime zum Wiener Kongress. München 3 1993.

Feisser; Gerd/Jonscher; Reinbard (Hrsg.): Umbruch im Schatten Napolcons. Die Scblachten von Jena und Auerstedt und ihre Folgen. Jena 1998.

Feisser; Gerd: 1806. Die Doppelschlacht bei Jena und Auerstedt. Jena 2006.

Fichte, Johann Gottlieb: Reden an die deutsche Nation. Mit einer Einleitung von Reinhard Lauth. Hamburg 1978.

Fink, Gonthier-Lonis: Goethe und Napoleon. In: Goethe-Jahrbuch 107 (1990). S. 81-101.

Fischer; Andreas: Goethe und Napoleon. Eine Studie. Frauenfeld 2 1900.

Fischer-Dieskau, Dietrich: Goethe ala Intendant. Theaterleidensehaften im klassischen Weimar. München 2006.

Flach, Willy: Betrachtungen Goethes über Wissenschaften und Künste in den weimarischen Landen. In: Archivalische Zeitschrift 50/51 (1955). S. 463-484.

Flesche, Horse (Hrsg.): Napoleon oder das Welttheater kommt nach Thüringen. Rudolstadt 2002.

Flock, Wilfried (Hrsg.): Formen innerliterarischer Rezeption. Wiesbaden 1987.

Fournier; August: Goethe und Napoleon. Vortrag gehalten im Wiener Goethe-Verem am 21. März 1896. In: Chronik des Wiener Goethe Vereins 6/7 (1896).

Fournier, August: Historische Studien und Skizzen. Zweite Reihe. Wien und Leipzig 1908.

Fournier; August: Napoleon I. 3 Bande. Wien 1922.

Freund Michael: Napoleon und die Deutschen. Despot oder Field der Freiheit? München 1969.

Friilwald, Wolfgang: Goethes Hochzeit. Frankfurt am Main 2007.

Geerdts, Hans; Jürgen: Zu Goethes Festspiel "Pandora". In: Goethe. Neue Folge des Jahrbuchs der Goethe-Gesellschaft 24 (1962). S 44-57.

Geiger, Ludwig: Aus Alt-Weimar. Mittheilungen von Zeitgenossen nebst Skizzen und Ausführungen. Berlin 1897.

Geiger, Ludwig: Zu Goethe und Napoleon. In: Goethe-Jahrbuch 27 (1906), S. 254-257.

[Gentz, Friedrich von:] Fragmente aus der neusten Geschichte des Politischen Gleichgewichts in Europa. St. Petersburg [Leipzig] 1806.

Gentz, Friedrjch, von: Staatsschriften und Briefe. 2 Bände, hrsg. von Hans von Eckardt, München 1921.

Gentz, Friedirch von: Schriften. Ein Denkmal, hrsg. von Gustav Schlesier, 5 Bände, Manuheim 1838-1840.

Germar, Bruno Von: Napoleon I. und Karl August von Weimar. Ruhla 1909.

Goecken, Rudolf/Ilgen, Theodor: Das Königreich Westphalen: Sieben Jahre französischer Fremdherrschaft im Herzen Deutslands 1807-1813, Düsseldorf 1888.

Goethe, Johann Wolfgang von: Amtliche Schriften. 4 Bände, hrsg. von Willy Flach, Weimar 1950-1987.

Goethe, Johann Wolfgang von: Briefe. Hamburger Ausgabe. Hrsg. von Karl Robert Mandelkow, 6 Bände, München 1988.

Goethe, Johann Wolfgang von: Gedichte 1800-1832, hrsg. von Karl Eibl, Frankfurt am Main 1998.

Goethe, Johann Wolfgang von: Goethes Briefwechsel mit Georg und Caroline Sartoius (von 1801-1825), hrsg. von Else von Monroy, Weimar 1931.

Goethe, Johann Wolfgang von: Goethes Briefwechsel mit seinem Sohn August, hrsg. von Gerlinde Ulm Sanford, 2 Bände, Weimar 2005.

Goethe, Johann Wolfgang von: Briefwechsel mit Christian Gottlob Voigt, Hrsg. von Hans Tüminler und Wolfgang Huschke. 4 Bände, Weimar 1949-1962.

Goethe, Johann Wolfgang von: Briefwechsel mit Herzog-Großherzog Carl August. 3 Bände, hrsg. von Hans Wahl 1911-1910.

Goethe, Johann Wolfgang von: Briefwechsel mit Cotta. Hrsg. von Dorothea Kuhn, 4 Bände, Stuttgart 1980 -1983.

Goethe und Reinhard. Briefwechsel in den Jahren 1807-1832, Frankfurt am Maul 1957.

Goethes Ehe in Briefen, hrsg. von Hans Gerhard Gräf, Frankfurt am Main 1956.

Goethe-Willemer. Briefwechsel, hrsg. von Hans-J. Weitz, Frankfurt am Main 1986.

Goethe, Johann Wolfgang von: Goethe's Werke. Dichtung und Wahrheit. hrsg. von Gustav von Loeper. 3 Bünde., Berlin 1882-1884.

Goethe, Johann Wolfgang von: Dichtung und Wahrheit. Hrsg. von Klaus-Detlev Müller. Frankfurt am Main 1986.

Goethes Werke. Weimarer Ausgahe. 147 Bände. ND München 1987.

Goethes Werke. Hamburger Ausgabe. Hrsg. von Erich Trunz. 14 Bände, München 1987 u. ö.

Goethe, Johann Wolfgang von: Sämtliche Werke. Briefe. Tagebücher und Gespräche. 40 Bände. Frankfurt am Main 1985 ff. (Frankfurter Ausgabe).

Goethe, Johann Wolfgang von: Sämtliche Werke nach Epochen seines Schaffens. Hrsg. von Karl Richter mit Herbert G. Göpfert, Norbert Miller und Gerhard Sauder. München 2985 ff. (Münchner Ausgabe).

Goethe, Johann Wolfgang von: Tagebücher. Historisch-kritische Ausgabe. 801-808 und 1813-16. Je 2 Bände. 'Weimar 2004 und 2007.

Goethe, Johann Wolfgang von: Napoleonische Jahre 1805-1811 und 18121816, 2 Bände, Briefe, Tagebücher, Gespräche. Hrsg. und kommentiert von Rose Unterberger (Frankfurter Ausgabe II, 6 und 7), Frankfurt am Main 1993 und 1994.

Goethe. Johann Wolfgang von: Auch ich in der Champagne! Hrsg. von Gustav Seibt. München 2007.

Goethes Gedichte in zeidicher Folge. Hrsg. von Heinz Nicola., Frankfurt am Main 1982.

Goethe. Johann Wolfgang von: West-östlicher Divan, hrsg. von Hendrik Birus. 2 Bände (FA I. .3.1-2, Frankfurt am Main 1994.

Frau Rat Goethe. Gesammelte Briefe. Hrsg. von Ludwig Geiger. Leipzig o. J. Goethe-Gesellschaft (Hrsg.): Goethe-Jahrbuch 107 (1990).

Grappin, Pierre: Goethe und Napoleon. In: Goethe-Jahrbuch 107 (1990), S. 71-80.

Grimm, Herman: Das Leben Goethes. Hrsg. von Reinhard Buchwald. Stuttgart 1939 (zuerst 1876).

Griewank, Karl: Goethe, die französische Revolution und Napoleon, in:

Dem Tüchtigen ist diese Welt nicht stumm. Beiträge zmu Goethebild, hrsg. vom Rat der Universitätsstadt Jena und der Friedrich-Schiller-Universität, Jena 1948, S. 35-47.

Griewank, Karl: Goethes Unterredung mit Napoleon 1808. In: Dent Tüchtigen ist diese Welt nicht stumm. Beiträge zum Goethebild, hrsg. vom Rat der Universitätsstad Jena und der Friedrich-Schiller-Universität, Jena 1948, S. 48-60.

Grooste, Wolfgang von: Napoleon I. und die Staatenwelt seiner Zeit, Freiburg i.Br. 1969.

Gross, Else R. (Hrsg.): Karl Friedrich Reinhard 1761-1837, Stuttgart 1961.

Grumach, Ernst und Grumach, Renate (Hrsg.): Goethe. Begegnungen und Gespräche. Bänd VI, 1806—1808, herausgegeben von Renate Grumach, Berlin New York 1999.

Gaglia, Eugen: Goethe und Gentz. In: Chronik des Wiener Goethe-Vereins, (1899), S. 10-11.

Gundolf, Friedrich: Goethe, Leipzig 1916.

Gundolf, Friedrich: Caesar. Geschichte seines Ruhms, Berlin 1924.

Hacks, Peter, Die Maßgaben der Kunst, Hamburg 1996.

Hagemaa, Karen: "Männlicher Muth und Teutsche Ehre". Nation, Militär und Geschlecht zur Zeit der Antinapoleonischen Kriege Preußens, Paderborn 2002.

Hager, Gertrud: Grundform und Eigenart von Goethes Tagebüchern. In: Deutsche Vierteljahrsschrift für Literaturwissenschaft und Geistesgeschichte 25 (1951), S.351-371.

Hankamer; Paul: Spiel der Mächte, Tübingen und Stuttgart 1947.

Hansen, Volkmar: Alexander I., Franz I., Napoleon — drei Kaiser und Goethe. in: Literatur als Erinnerung. Winfried Woesler zum 65. Geburtstag, hrsg. von Bodo Plachta, Tübingen 2004, S. 153-163.

Hansen, Volkmar (Hrsg.): Der Tonkünstler Johann Friedrich Reichardt und Goethe: "... von der musikalischen Selte unset Freund, von der politischen unser Widersacher...", Düsseldorf 2002.

Hartung, Fritz: Das Großherzogtum Sachsen unter der Regierung Carl Aaigusts 1775-1828, Weimar 1923.

Hausherr; Hans: Der Minister Goethe und die Äussere Politik Carl Augusts. In: Historische Zeitschrift 169 (1949), S. 299-336.

Hautshers; Hans: Goethes Anteil am politischen Geschehen seiner Zeit. In: Goethe. Viermonatsschrift der Goethe-Gesellschaft 11(1949). S. 16-186.

Heilemann. Hubert Gottfried Patient Goethe. Marburg/Lahn 1999.

Henke. Arthur: <Warum habt ihr das gethan?> In: Goethe-Erfahrungen. Stuttgart 1982. S. 181-189.

Henkel. Arthur: Wile Napoleon den ."Werthen" las. In: Heidelberger Jahrbücher 34 (1990). S. 1-17.

Hermand. Jost: Pro und contra Goethe: dichterische und germanistische Stellungnahmen zu seinen Werken. Oxford 2005.

Herre. Paul: Goethe und Friedrich der Große. In: Jahrbuch der Goethe-Gesellschaft 21 (1935) S. 26-62.

Houben. Heinrich Hubert: Damals In Weimar. Erinnerungen und Briefe von und an Johanna. Berlin 2 1929.

Humboldt. Wilhelm von: Über die gegenwärtige französische tragische Bühne. In: Wilhelm von Humboldts Werke. hrsg. von Albert Leitzmann. Band 2: 1796-1799. Berlin .1904. S. 377-400.

Jaeger. Michael: Fausts Kolonie. Goethes kritische Phänomenologie dec Moderne. Würzburg 2005.

Jaufβ. Hanr Robert: Eine doppelte Konjunktur: Goethe und Napoleon. Valéry und Blumenberg. In: Akzente 37 (1990). S. 216-219.

Jenisch. Erich: "Das Klassische nenne ich das Gesunde. und das Romantische das Kranke". In: Goethe. Neue Folge des Jahrbuchs der Goethe-Gesellschaft 19 (1959). S. 50-79.

Jericke. Alfred: Goethe und sein Haus am Franenplan. Weimar 1959.

Jerömchen [Sadrisches Gedicht]. o. O. 1813.

Kaiser; Klaus-Dieter: Erfurt. Napoleon und Preußen 1802. bis 1816. Erfurt 2002.

Kebbel Harald: Weimar in der Zeit der Befreiungskriege 1806-1814. Weimar 1955.

Keil Riebard/Keil. Robert: Goethe. Weimar und Jena im Jahre 1806. Nach Goethes Privatacten. Leipzig 1882.

Kerz. Friedrich von: Was hat Europa zu fürchten und zu hoffen? Oder Europens politischer Zustand vor und nach dem Frieden von Presburg. Nebst ether prüfenden Uebersicht der letzten gegen Frankreich erzeugten Co-

alition. Düsseldorf 1806.
Keudell. Elise und Bulling. Karl: Goethe als Benutzer der Weimarer Bibliothek. Leipzig 1982.
Kircheisen. Friedrich Max: König Lustig. Napoleons jüngster Bruder; Berlin 1928.
Kircheisen. Friedrich Max: Fürstenbriele an Napoleon 1. 2 Bände. Stuttgart und Berlin 1929.
Kricheisen. Friedrich Max: Napoléon Ier et les poètes Allemands. In: Revue d'Histoire Diploinatique 46(1932). S. 487-501.
Kirchner. Werner: Napoleons Unterredung mit Johannes von Müller. In: Jahrbuch der Goethe-Gesellschaft 16 (1930). S. 109-120.
Klauβ. Jochen: Goethe als Medaillensammler. Weimar 1994.
Klauβ. Jochen (Heath.): Die Medaillensanimlung Goethes. 2 Bände. Berlin 2000.
Kleinscbmidt. Arthur: Geschichte des Königreichs Westfalen. Gotha 1893.
Kleβinann. Etharde (Hrsg.): Deutschland unter Napoleon in Augenzeugenberichten. Düsseldorf 1965.
Kieβmann. Eckart (Hrsg.): Napoleons Russlandfeldzug in Augenzeugenberichten. Berlin 1966.
Koch. Herbert: 1807 oder 1808? In: Jahrbuch Goethe 25 (1963). S. 362-367.
Kommerell. Max Jugend ohne Goethe. Frankfurt am Main 1931.
Kosehwitz. Hansjürgen: Vider das "Journal- und Tageblattsverzeddeln". Goethes Pressesicht und Pressenutzung. Münster 2002.
Koselleek. Reinhart: Goethes unzeitgemäβe Geschichte. Heidelberg 1997.
Krippendorff Ekkebart: Goethe. Politik gegen den Zeitgeist. Frankfurt am Main 1999.
Kronenbiiter. Günther: Wort und Macht. Friedrich Gentz politisher Schriftsteller. Berlin 1994.
Küntzel Ulrich: Die Finanzen groβer Männer. Wien 1966.
Lacour-Gayet. Georges: L'authenticité des Mémoires de Talleyrand d'après d'un document inédit. In: Revue de Paris 4 (1934). S. 921-933.
Lacour-Gayet. Georges: Talleyrand. Préface de F Furet. Paris 1990.
Lefebvre. Georges: Napoleon. hrsg. von Peter Schöttler. Stuttgart 2003.
Lettow-Vorbeck. Oscar von: Der Krieg von 1806 und 1807. Berlin 1899.

List, Irma (Hrsg.): Napoleon I. und Erfurt. Aus deutschen und französischen Quellen. Erfurt 1969.

Lorenz, Ottokar: Goalies politische Lehrjahre. Berlin 1893.

[Lullin de Châteauvieux, Frâédéric] Handschrift auf unbekannte Art von St. Helena gekommen. Leipzig 1817.

Madelin, Louis: Histoire du Consulat et de l'Empire. 16 Bände. Paris 1937-1954. Darin: Band VII: L'affaire d'Espagne 1807-1809.

Mandelkow, Karl Robert (Hrsg.): Goethe in. Urteil seiner Kritiker. Doktmente zur Wirkungsgeschichte Goethes in Deutschland. 4 Bände, München 1975-1984.

Manger, Klaus (Hrsg.): Goethe und die Weltkultur. Heidelberg 2003.

Mann, Golo: Friedrich von Gentz. Geschichte eines europäischen Staatsmanns. Zürich 1947.

Martini, Fritz: Wieland, Napoleon und die Illuminaten. In: Un dialogue des nations. Albert Fuchs zum 70. Geburtstag. München-Paris o. J. S. 65-95.

Marwitz, Friedrich August Ludwig von der: Nachrichten aus meinem Leben. Hrsg. von Günter de Bruyn. Berlin 1989.

Metternich, Friedrich: Die Entstehung des Historismus. 2 Bände, München 1936.

Metternieh, Klemens Wenzel Nepomuk Lothar von: Aus Metternich's nachgelassenen Papieren, hrsg. von Richard Clemens von Metternich und Alfons von Klinkowström. Band. 1. Wien ,1880.

Meyer Heinrich: Goethe. Das Leben im Werk. Zürich 1994.

Memmsen, Wilhelm: Die politischen Anschauungen Goethes. Stuttgart 1948.

Montgelas, Maximilian Joseph Graf von: Denkwürdigkeiten des bayerischen Staatsministers Maximilian Grafen von Montgelas, hrsg. von Ludwig Graf von Montgelas, Stuttgart 1887.

Moritz, Horse: Die französische Herrschaft über Erfurt 1806-1814. In: Mitteilungen des Vereins für die Geschichte und Altertumskunde von Erfurt 67, Neue Folge 14 (2006), S. 161-199.

Müchler Günter: "Wie ein treuer Spiegel". Die Geschichte der Cotta'schen Allgemeinen Zeitung. Darmstadt 1998.

Müffling, Friedrich Carl Ferdinmand Freibeir von: Aus meinem Leben. Ber-

lin 1851.

Müffling, Friedrich Carl Ferdinand Freiberr von: Offizier-Kartograph-Politiker: 1775-1851. Lebenserinnerungen .und kleinere Schriften, Köln 2003.

Müllensiefen, Paul: Die Französische Revolution und Napoleon in Goethes Weltanschauung. In: Jahrbuch der Goethe-Gesellschaft 16(1930), S. 73-108.

Müller, Friedrich von: Unterhaltungen mit Goethe, hrsg. von Renate Fischer-Lamberg und Ernst Grumach, Weimar 1959.

Müller, Friedrich von: Erinnerungen aus den Kriegsieiten 1806-1813, Hamburg 1911.

Müller, Gerhard: Das Alte Reich aus der Sicht Johann Wolfgang von Goethes. In: Das Heilige Römische Reich und sein Ende 1806. Zäsur in der deutschen und europäischen Geschichte, hrsg. von Peter C. Hartmann und Florian Schuller, Regensburg 2006, S. 51-65.

Mü1ler; Gerbard Vision einer Zeitenwende. Die erste Jubiläumsfeier der Schlacht bei Jena 'am 7. Oktober 1808. In: Jubiläen in Jena, hrsg. von Birgitt Hellmann, Weimar 2005, S. 39-66.

Müllwe, Gerhard: Vom Regieren zum Gestalten. Goethe and die Universität Jena, Heidelberg 2006.

Mü1ler, Jobannes von: Sämmliche Werke, 40 Bände, hrsg. Von Johann Georg Müller, Stuttgart 1831 ff.

Müller, Johannes von: Briefe in Auswahl, Hrsg. von Edgar Bonjour, Easel 1954.

Müller, Klaus-Detletf, Autobiographie und Roman. Studien zur literarischen Autobiographic der Goethezeit, Tübingen 1976.

Müller; Lothar: Abgründige Spiegelungen. Johann Wolfgang und August von Goethe. In: Viäter und Söhne. Zwölf literarische Porträts, Reinbek bei Hamburg 1998, S. 40-88.

Münchow-Pohl Bernd von: Zwischen Reform und Krieg. Untersuchungen zur Bewußtseinslage in Preußen 1809-1812, Göttingen 1987.

Muchg, Walter: Studien zur tragischen Literaturgeschichte, Bern 1965.

Napoléon 1er, Correspondance, Paris r858ff.

Naumann, Manfred: Denon 1806 chez Goethe á Weimar. In: Claudon, Francis und Bailly, Bernard, Vivant Denon, Châlon sur Saône 1998, S. 59-71.

Nowak, Holger/Hellmann. Birgit/Queisseii Gäünther/Fesser; Gerd: Lexikon zur Schlacht bei Jena und Auerstedt 1806. Personen. Ereignisse. Begriffe. Jena 1996.

Orieux. Jean: Talleyrand. Frankfurt am Main. 1972.

Overmann. Alfred: Das Regierungsgebäude von Erfurt. Der Bau. seine Bewohner. seine Geschichte. Erfurt 1912.

Overmann. Alfred: Erfurt in zwölf Jahrhunderten. Eine Stadtgeschichte in Bildern. Erfurt 1929.

Pape. Mattbias: Johannes von Müller. Seine geistige und politische Umwelt in Wien und Berlin 1793-1806. Bern 1989.

Patze. Hans/Schlesinget; Walter (Hrsg.): Geschichte Thuringens. Bd. 5/2. Teilbd. 2. Köln 1984.

Peters. Ilce: Das Napoleonbild Goethes in seiner Spätzeit (1815-1832). In: Goethe. Viermonatsschrift der Goethe-Gesellschaft. 1944. S. 140-171.

Planert. Ute: Der Mythos vom Befreiungskrieg 1792-1841. Paderborn 2007.

Pressert. Jacques: Napoleon. Das Leben and die Legende. Zürich 1990 (zuerst 1946).

Propper; Maximilian von: Zur Deutung eines Kryptogramms Goethes. Jahrbuch der Goethe-Gesellscbaft 92 (1975): S. 220-232.

Prüringe August: Der "Fehler" in Goethes . "Werther". Zur Erledigung einer 12 Ojährigen litteraturgeschichtlichen Rätselfrage. In: Bayreuther Blätter (1931). S. 25-47

Püpa. Marinus: Goethes ."Des Epimenides Erwachen" politisch betrachtet. In: Goethe-Jahrbuch 113 (1996). S. 287-290.

Raabe. August: Das Erlebnis des Dämonischen in Goethes Denken und Schaffen. Berlin 1942.

Racine. Jean: Dramatische Dichtungen und geistliche Gesänge. Französisch und deutsch. 2 Bände hrsg. und übersetzt von Wilhelm Willige. Darmstadt 1956.

Redslob. Edwin: Goethes Begegnung mit Napoleon. Weimar 1944.

Reichardt. Johann Friedrich: Vertraute Briefe aus Paris. 2 Bände. Berlin 1802/1803.

Reiss. Hans: Formgestaltung mid Politik. Goethe-Studien. Würzburg 1993.

Reuter. Hans-Heinrich: Goethe im Spiegel seiner Tagebücher. In: Goethe.

Neue Folge des Jahrbuchs der Goethe-Gesellschaft 23 (1961), S. 99-140.

Ricker, Joachim: Ossian, Napoleon und der "Fehler" in Goethes "Werther". In: Wirkendes Wort 50 (2000), S. 347-357.

Riemer, Friedrich Wilhelm: Mitteilungen über Goethe. Hrsg. von Arthur Pollmer, Leipzig 1921.

Ritter,; Joachim: Hegel und die Französische Revolution, Frankfurt am Main 21972.

Roethe, Gustav: Goethe. Gesammelte Vortrage und Aufsätze, Berlin 1932.

Rotbe, Wolfrang: Der politische Goethe: Dichter und Staatsdiener im deutschen Spätabsolutismus, Göttingen 1998.

Rothe, Wolfgang: Goethe, der Pazifist. Zwischen Kriegsfurcht und Friedenshoffnung, Göttingen 1998.

Sander Egmont: Erhirter Geschichte in 100 Bildern. Em hemsatgeschichtliches Lesebuch, Erfurt 2 1928.

Sartorius, Georg: Versuch über die Regierung der Ostgothen während ihrer Herrschaft in Italien and über die Verhältnisse der Sieger zu den Besiegten im Lande, Hamburg 1811.

Sauder; Gerhard (Hrsg.): Goethe-Gedichte: Zweiunddreißig Interpretationen. Karl Richter zum 6o. Geburtstag, München 1996.

Sauer, August (Hrsg.): Goethe und Österreich. Briefe nut Erläuterungen, 2 Bände, 1902/1904.

Schäfer, Rutger: Friedrich Buchholz - ein vergessener Vorläufer der Soziologie, Göppingen 1972.

Schaeffet, Emil: Goethes äußere Erscheinung, Leipzig 1914.

Scheibe, Siegfried: "Nemo contra deum nisi deus ipse". Goethes Motto zum vierten Teil von Dichtung und Wahrheit? In: Goethe. Neue Folge des Jahrbuchs der Goethe-Gesellschaft 26 (1964), S. 320-324.

Scheibe, Siegfried/Seiffin, Haiti Werner (Bearb.): Wielands Briefwechsel, hrsg. von der Berlin-Brandenburgischen Akademie der Wissenschaften, Berlin 1963 ff.

Schib, Karl: Johannes von Müller 1752-1809, Thayngen-Schaffliausen 1967.

Schiedei; Theodor: Der junge Goethe mi Alten Reich. In: Staat und Gesellschaft im Zeitalter Goethes. Festschrift für Hans Tümmler, hrsg. von

Peter Berglar. Köln-Wien 1977. S. 131-145.

[Seblabrendorf Gustav von:] Napoleon Bonaparte und das französische yolk unter seinem Consulate. Hamburg 1804. Nachdruck unter dem Titel: Anti-Napoleon. Frankfurt am Main 1991.

Schlege. Friedrich: Über die neuere Geschichte. Vorlesungen gehalten zu Men im Jahre 1810. Wien 1811.

Schlcif Wilter: Goethes Diener. Berlin und Weimar 1965.

Schmidt. Alexander: Prestige. Kultur und Außendarstellung. Überlegungen zur Politik Sachsen-Weimar-Eisenachs im Rheinbund (18061813). Zeitschrift des Vereins für Thüringische Geschichte 59/60 (259/60). S. 153-192.

Schmidt. Georg: Goethe: politisches Denken und regional orientierte Praxis im Alten Reich. In: Goetbe-Jahrbuch 112 (1995). S. 197-212.

Schnur. Harald: Identität und autobiographische Darstellung in Goethes "Dichtung und Wahrheit". In: Jahrbuch des Freien Deutschen Hochstifts 1990. S. 28-93.

Schnur. Roman: Revolution und Weltbürgerkrieg. Stuthen zur Ouverture nach 1789. Berlin 1983.

Schopenhauer. Jobanna: Ihr glücklichen Augen. Berlin 1978.

Schreckenbach. Hans-Joacbim: Goethes Autographensammlung. Katalog. Weimar 1961.

Schrimpf Hans Joachim: Das Weltbild des späten Goethe. Stuttgart 1956.

Schuchardt. Christian: Goethes Kunstsammlungen. 3 Bände. Jena 1848/1849.

Schuck. Gerbard: Rheinbundpatriotismus und politische Öffentlichkeit zwischen Aufklärung und Frühliberalismus. Stuttgart 1994.

Schüddekopf Carl/Walzel. Oskar (Hrsg.): Goethe und die Romantik. Bnefe mit Erläiuterungen. 2 Bände. Weimar 1898/1899.

Schulze. Friedrich (Hrsg.): Wemarische Berichte und Briefe aus den Freiheitskriegen 1806-1815. Leipzig 1913.

Scott. Walter: Leben des Napoleon Buonaparte. Kaiser von Frankreich. In: 'Walter Scott's sämmtliche Werke. Bände. 11. 13. 17 und .18. Zwickau 1828.

Seemann. Hellmutb Tb. (Hrsg): Anna Amalia. Carl August und das Ereignis Weimal; Gottingen 2007.

Segebrecht. Wulf Das Gelegenheitsgedicht. Em Beitrag zur Geschichte und Poetik der deutschen Lyrik. Stuttgart 1977.

Ségur; Paul Philippe Comte de: Geschichte Napoleons und der Groβen Asmee im Jahrer 1820. Mannheim 1835.

Seibt. Gustav: Sein Kaiser. Goethe im Empire. In: Merkur 710 (Juli 2008). S. 565-577.

Seifert. Rita: Goethe und Napoleon. Begegnungen und Gespräche. Weimar 2007.

Seifert. Siegfred (Hrsg.): Goethe-Bibliographie 1950-1990. 3Bände. München 2007.

Sellin. Volker: Die geraubte Revolution. Der Strurz Napoleons und die Restauration in Europa. Göttingen 2001.

Sengle. Friedrich: Das Genie und sein Fürst. Die Geschichte der Lebensgemeinschaft Goethes mit. dem Herzog Carl August von Sachsen-Weimar-Eisenach.. Stuttgart 1993.

Sengle. Friedrich: Neues zu Goethe. Essays und Vorträge. Stuttgart 1989.

Sengle. Friedrich: Wieland. Stuttgart 1949.

Sieburg. Friedrich (Hrsg.): Gespräche mit Napoleon. München 1962.

Spies. Hans-Bernd (Hrsg.): Die Erhebung gegen Napoleon 1806-1814/15. Darmstadt 1981.

Spittle. Ludwig Timotheus von: Enrwurf der Geschichte der Europäischen Staaten. Berlin 1807.

Srbik. Heinrich Ritter von: Metternich. Band 1. München 1925.

Staiget; Emil: Goethe. Band 2:1786-1814. Zurich 1956.

Stokar; Willy: Johannes von Müller. Sein Leben und Werk 1752-1809. Zurich 1938.

Starnes. Thomas C.: Christoph Martin Wieland. Leben und Werk aus zeitgenössischen Quellen chronologisch dargestellt. Band 3: “Der Dekan des deutschen Parnasses”: ‘1800-1813. Sigmaringen 1987.

Struck. Friedrich (Hrsg): Evolution des Geistes. Jena um 1800. Stuttgart 1994.

Stresemanu. Gustav: Goethe und Napoleon. Berlin 1924.

Supban. Bernhard (Hrsg.): Napoleons Unterhaltungen mit Wieland und Fr. v. Müllers Mémoire darüber für Talleyrand. In: Goethe-Jahrbuch 15 (1894). 5. 20-30.

Talleyrand. Charles Maurice Prince de: Mémoires. Publiés avec une préface et des notes par le due de Broglie. 4 Bände. Paris 1891. ND 1998.

Talleyranl: Memoiren des Fürsten Talleyrand. Deutsche Ausgabe von Adolf Ebeling. Band 1(1754-1808). Köln und Leipzig 1891.

Tümmlei; Hans: Carl August. Herzog von Weimar und Erfurt. In: Mitteilungen des Vereins für die Geschichte und Altertumskunde von Erfurt 35 (1940). S. 175-200.

Tümmler. Hans: Carl August von Weimar. Goethes Freund. Stuttgart 1978.

Tümmler Hans: Christian Gottlob Voigts Nekrolog auf seinen Sohn (1813). In: Goethe. Neue Folge des Jahrbuchs der Goethe-Gesellschaft 29 (1967). S. 267-279.

Tümmler. Hans: Das klassische Weimar und das große Zeitgeschehen. Köln 1975. Darin: Goethes 'Unterredung mit Napoleon' im Rahmen der weimarischen Politik auf dem Erfurter Fürstenkongress von 1808. S. 61-90.

Tümmler. Hans: Goethe als Staatsmann. Göttingen 1976.

Tümmler Hans: Goethe in Staat und Politik. Köln 1964.

Tümmler Hans: Historische Miniaturen. Lauf a. d. Pegnitz 1996.

Tümmler; Hans (Hrsg.): Politischer Briefwechsel des Herzogs und Großherzogs Carl August von Weimar. 3 Bände. Stuttgart 1954-1973.

"Über Napoleon": Auf den Spuren des Kaisers der Franzosen in Gotha. hrsg. von der Stiftung Schloss Friedenstein Gotha. Gotha 2006.

Unseld. Siegfried Goethe und seine Verleger; Frankfurt am Main 1991.

Urzidil. Johannes: Goethe in Böhmen. Zürich 1965.

Valéy. Paul: Rede zu Ehren Goethes.Jena 1947.

Vandal. Albert: Napoléon et Alexandre Ier: L'alliance russe sous le premier empire. 3 Bände. Paris 1891-1893.

[Varnhagen von Ense. Carl Augnst:] Die Versuche und Hindernisse Karls. Eine deutsche Geschichte aus neuerer Zeit. Berlin .1808.

Varnbagen von Ense. Carl August: Werke. Band I: Denkwürdigkeiten des eigenen Lebens (1785-1810). Frankfurt am Main 1987.

Victor. Walther: Dasein und Wirken. Goethe 1809. Weimar 1955.

Vierbaus. Rudof: Goethe und Napoleon. Zum Problem des Verhältnisses von Macht und Geist in der deutschen politischen Kultur. In: Weltpolitik. Europagedanke. Regionalismus. Festschrift für Heinz Gollwitzer.

hrsg. von Heinz Dollinger, Horst Gründer, Alwin Hansch,Münster 1982, S. 157-173.

Villien, Bruno: Talma. L'acteur favori de Napoleon!. Paris 2001.

Völker, Werne,; Der Sohn. August von Goethe. Frankfurt am Main und Leipzig 1992.

Wagenknecht, Christian: Über eine Fuβnote in Goethes "Werthen". Jahrbuch der Goethe-Gesellschaft 123 (2006), S. 206f.

Wahl, Hans: Wieland und Napoleon, Weimar 1933.

Wairy, Constant Louis: Napoléon I. nach den Memoiren seines Kammerdieners Constant hrsg. von Oskar Marschall von Bieberstein, Leipzig 1904.

Waresquiel, Emmanuel de: Talleyrand. Le prince immobile, Paris 2003.

Waltber; Peter (Hrsg.): Goethe und die Mark Brandenburg, Potsdam 2006.

Weichberge; Alexander: Das Goethehaus am Frauenplan. Weimar 1932.

Wendoef, Hermann: Die Ideenwelt des Fürsten Talleyrand, In: Historische Vierteljahrsschrift 28 (1934), S.335-384.

Weniger; Erich: Goethe und die Generale, Leipzig 1943.

Wertheim, Ursula: Von Tasso zu Hafis. Probleme von Lyrik und Prosa des Westöstlichen Divans, Berlin 1965.

Wieland, Christaph Martin: Politische Schriften. 3 Bände, hrsg. von Jan Philipp Reemtsma und Hans und Johanna Radspieler, Nördlingen 1988.

Wieland, Christoph Martin: Wielands Briefwechsel, hrsg. von Siegfried Scheibe und Hans Werner Seiffert, Bände 17-19, Berlin 2001-2007.

Willms, Johannes: Napoleon. Eine Biographie, München 2005.

Wilpert, Gero von: Goethe-Lexikon, Stuttgart 1998.

Wiese, Benno von: Der Mensch in der Dichtung, Düsseldorf 1958.

Witthowski, Wolfgang (Hrsg.): Goethe im Kontext: Kunst und Humanität, Naturwissenschaft und Politik von der Aufklärung his zur Restauration. Ein Symposion, Tübingen 1984.

Wuthenow, Ralph-Rather: Das Bud und der Spiegel. Europäische Literatur im 18. Jahrhundert, München 1984.

فهرست الصور واللوحات

الحوار مع نابليون

ترتيب المائدة الإمبراطورية

قاعة الاحتفالات في قصر فايمار

فيلاند في حوار مع نابليون

الملوك فوق جبل نابليون في يينا 1808

(مع المعبد الصغير الذي صمّمه غوته)

كارولين سارتوريوس

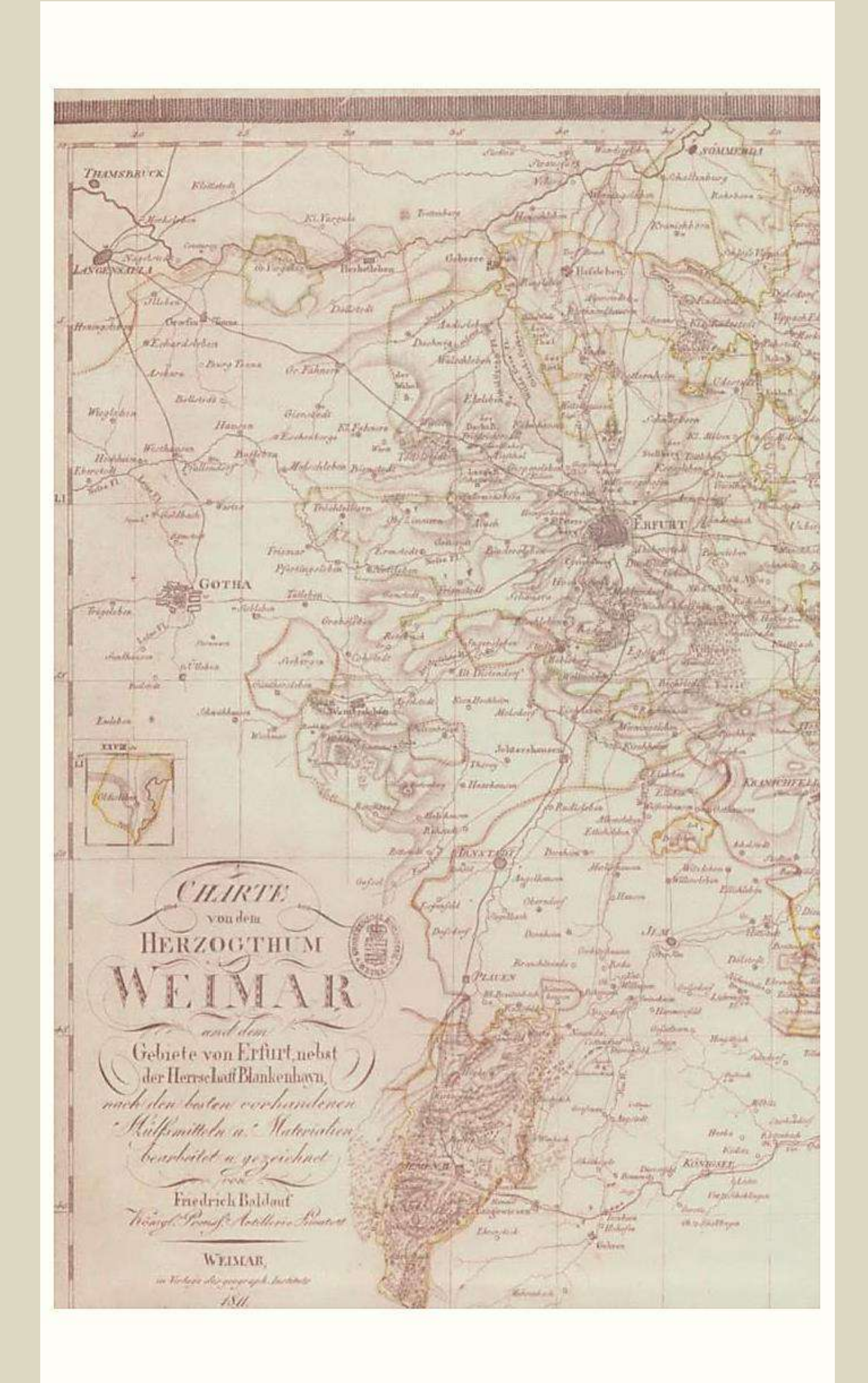
رسالة شكر التي بعث بها غوته إلى لاسي بيده مستشار جوقة الشرف

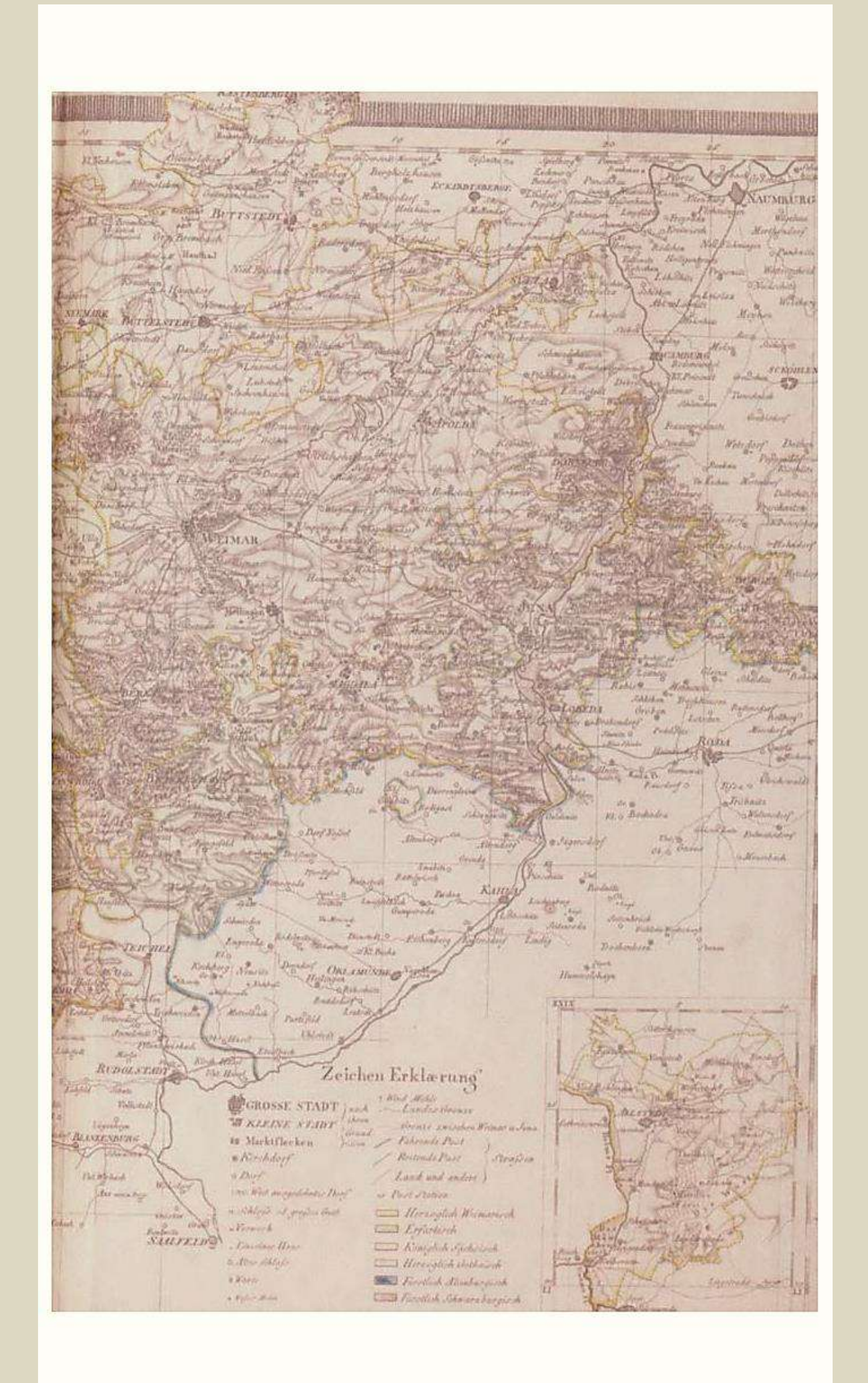
الإمبراطورة ماري لويز—فرنسا

ماريا لودوفيغا، النمسا 1810

جورج سارتوريوس

التمثال النصفي لنابليون


CHARTE
von dem
HERZOGTHUM
WEIMAR
und dem
Gebiete von Erfurt, nebst
der Herrschaft Blankenhayn,
nach den besten vorhandenen
Hülfsmitteln u. Materialien
bearbeitet u. gezeichnet
von
Friedrich Baldauf
WEIMAR,
1811.
THAMSBRÜCK
LANGENSALZA
GOTHA
ERFURT
SÖMMERDA
KRANICHFELD
PLAUEN
ILM
KÖNIGSEE



NAUMBURG
BUTTSTEDT
ECKARDTSBERGA
WEIMAR
JENA
RODA
KAHLA
ORLAMÜNDE
RUDOLSTADT
SAALFELD
Zeichen Erklærung
GROSSE STADT
KLEINE STADT
Marktflecken
Kirchdorf
Dorf
Fahrende Post
Reitende Post
Strassen
Land und andere
Post Station
Herzoglich Weimarisch
Erfurtisch
Fürstlich Schwarzburgisch

نبذة عن المؤلف:

ناقد أدبي ومؤرخ وصحافي ألماني. ولد عام 1959 في مدينة ميونيخ. حصل على الدكتوراه من جامعة كونستانس عام 1987 كما عمل رئيساً لتحرير عدة صحف ألمانية مرموقة. وهو يكتب منذ عام 2001 في جريدة «زود دوي تشه تسايتوغ (صحيفة جنوب ألمانيا). وقد عمل ما بين عامي 1998-1999 أستاذاً زائراً للنقد الأدبي في جامعة غوتينغن. وقد حصل عام 1995 على جائزة فرويد عن نثره العلمي.

نبذة عن المترجم:

حصل على الدكتوراه من ألمانيا عام 1986.

يعمل أستاذاً للدراسات المقارنة في جامعة اليرموك. وقد عمل في جامعات أردنية وعربية.

من أعماله المؤلّفة: «باريس في الأدب العربي الحديث»، و«الانتحار في الأدب العربي»، و«دوائر المقارنة» و«السيرة والمتخيل».

ومن ترجماته عن «الألمانية» إلى «العربية»: «ما بعد اليوتوبيات» و«يوميات كافكا» و«أوروبا والشرق» و«آدم وإيفلين». إضافة إلى ترجمته أعمالاً كثيرة للناشئة والأطفال.

غوتة ونابليون

في عام 1808 التقى في مدينة إيرفورت في ألمانيا رجلان كتبا التاريخ العالمي، كان الأول أكبر شعراء عصره، في حين كان الثاني أقوى رجال أوروبا؛ لقد التقى غوته بنابليون.. وقد تولد حوار غير قابل للفناء بين هذين العبقريين ؛ ولدته عبارة نابليون التي خاطب غوته بها "أنت رجل!". يرسم غوستاف سايبت تاريخ هذه اللقاء بين رجليْ القرن، ويصنع بانوراما الحقبة بأكملها.

إنه كتاب متميّز عن غوته، وهو في الوقت ذاته فضاء نقدي ثقافي تاريخي مملوء بالمتعة

المعارف العامة
الفلسفة وعلم النفس
الديانات
العلوم الاجتماعية
اللغات
العلوم الطبيعية والدقيقة / التطبيقية
الفنون والألعاب الرياضية
الأدب
التاريخ والجغرافيا وكتب السيرة






9 789948 019909